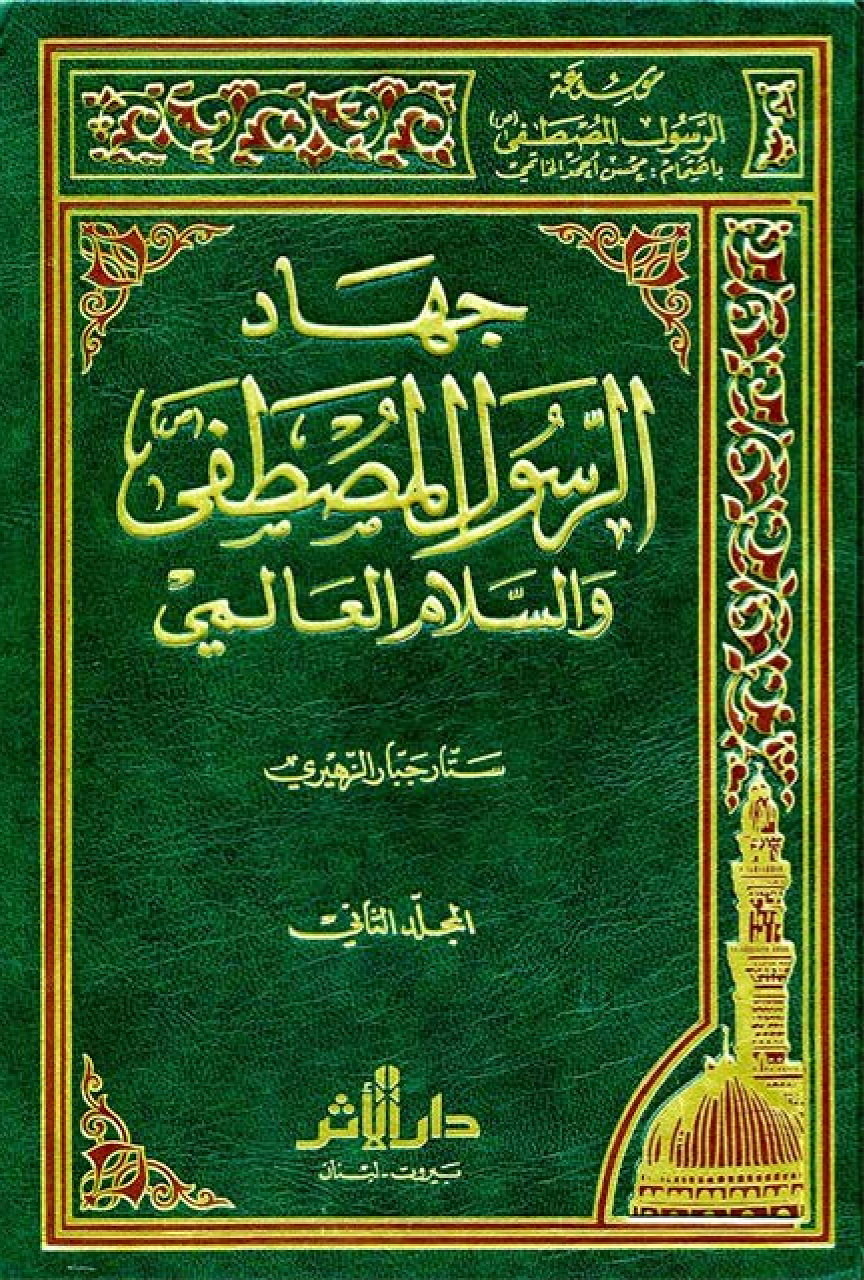


موسوعة
الرسول المصطفى (ص)
باهتمام: محسن الجمال الكاظمي
جهاد
الرسول المصطفى
والسلام العالمي
ستار جبار الزهيري
المجلد الثاني
دار الأثر
بيروت - لبنان


جهاد
الرسول المصطفى
والسلام العالمي



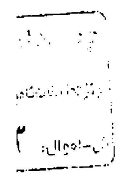
موسوعة

الرسول المصطفى (ص)

باهتمام : محسن أحمد الهاشمي

جهاد الرسول المصطفى والسلام العالمي

ستار جبار الزهيري



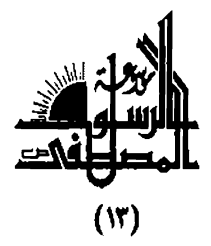
المجلد الثاني



دار الأثر

بيروت - لبنان





(١٣)

العنوان البريدي في لبنان:
بيروت - الغبيري ص.ب. ٢٥/١٣٨

العنوان البريدي في إيران:
مشهد - ص.ب. ٩١٣٧٥/٤٤٣٦

الفاكس: ٢٢٢٢٤٨٣ (٠٠٩٨ - ٥١١)

البريد الإلكتروني: e.mail
almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com

الموقع في الإنترنت:
www.almawsouah.org

مركز التوزيع والنشر في لبنان: دار الأثر

مركز التوزيع والنشر في إيران: انتشارات ژرف

تهران - خيابان انقلاب - خيابان فخر رازى - شماره ١١١. هاتف: ٦٤٠١٧٢٧ (٢١ - ٠٠٩٨) ص.ب: ٥٣٣ - ١٣١٤٥

الطبعة الأولى: ١٤٢٥ - ٢٠٠٤

توزيع ونشر دار الأثر
بيروت - بئر العبد - شارع دكاش - بناية شحرور
هاتف: ٠١/٢٧٠٥٧٤ - ٠١/٢٧٠٥٧٣ - ٠٣/٢٤٩٢٣٧

E-mail: alathar2002@hotmail.com

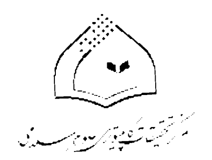
دار الأثر
للطباعة والنشر والتوزيع
Dar Al-Athar, Publisher

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝

صدق الله العلي العظيم

الأحزاب ٤٥ - ٤٦



الركن الثاني

الجانب العسكري

بعد أن فرغنا من بيان وتوضيح الركن الأول (الجانب الاخلاقي) من ملاكات الحرب في الجزء الأول من هذه الدراسة وكانت الدراسة لذلك الركن شاملة لعدة جوانب تمثل بجملتها مجموع النظرية الحربية عند رسول الله ﷺ وبلحاظ نقاط ذلك الركن .

والآن وفي بداية الجزء الثاني من هذه الدراسة التفصيلية لملاكات حروب الرسول ﷺ سوف نتطرق إلى الركن الثاني من تلك الملاكات الا وهو الجانب العسكري ، ومعلوم أن هذا الجانب له محورية راسخة في عالم الحروب نظراً لما يمثله من منطلقات وثوابت وخطط وأهداف واستعداد واستثمار لكل العوامل المساهمة في تحقيق الظفر بالعدو وتحقيق النصر عليه .

وسوف تكون دراستنا لهذا الجانب معتمدة على اسس هامة :

الأساس الأول : الذي نناقش فيه خطط الرسول ﷺ الحربية .

الأساس الثاني : ونناقش فيه اشراك الرسول ﷺ للنساء في الحرب.

الأساس الثالث : نناقش فيه مشاورته ﷺ لأصحابه في شؤون الحرب، لتبرز لنا هذه الاسس الثلاثة في النتيجة لياقة الرسول ﷺ العظيمة والفريدة في قياده الجيوش ومواجهة التحديات ورسم إحداثيات النصر المؤزر على ميدان القتال والخروج بانتصار روحي معنوي اخلاقي،

فضلاً على الانتصار في المواجهة القتالية.

ومن هنا سنناقش هذه الأُسس بالتفصيل مبتدئين بالأساس الأول منها وهو: خطط الرسول المصطفى ﷺ الحربية.

الأساس الأول

خطط الرسول المصطفى ﷺ الحربية

وننقاش خطط الرسول المصطفى التي تعتبر بحق دروساً غنية أثرت المدرسة القتالية بلمع المفاهيم الإنسانية وأرفع القيم الأخلاقية وأحكم الخطط الحربية وانجع الاساليب في معاملة الصنوف المتعددة للبشر وأخلاقهم المتنوعة تبعاً لذلك .

كيف نفسر ذلك جميعاً بميزان المعضلة وعبر الأزمات الشديدة وتخطي العقبات القاهرة ثم كيف نفسر ذلك جميعاً بميزان النظرية الدينية ومعيار المفهوم الحق ، وكيف جعل ﷺ من ذلك جميعاً جسراً عتيداً يعبر عليه وجنده الظافرون الى ضفة السلام المنشود كل هذا نناقشه في جملة من موارد خطط الرسول الحربية وهي موارد خمسة سنتناولها جميعاً بمشيئة الله .

المورد الأول: احتواؤه ﷺ لخطط العدو

ويشمل عدّة اتجاهات:

الاتجاه الأول: احتواؤه ﷺ لمخططات المنافقين

مـن الواضـح أن محمـداً الرسول ﷺ عمل ما بوسعه لاحتواء مخططات أعدائه، والمعـروف أن أعـداء الـنبي الأكـرم ﷺ كـثيرون منهم المشركون واليهود والمنافقون بكافة فئاتهم وأصنافهم ومختلف أدوارهم وأساليبهم وهم جميعاً وبهذا التنوع يتعبون النبي الأكرم ﷺ في إطار المواجهة والصراع وسترى

في هذا المورد كيف تناول الرسول ﷺ تلك المفردات الفاسدة الواحدة تلو الاخرى لكي يصلح منهم من كان أهلاً للإصلاح أو يحطمهم على صخرة الـزوال والاندثار وهـذا المـورد سـوف نناقش فيه اتجاهات عديدة وليكن الاتجاه الأول دراسة حول مخططات المنافقين واحباط تلك المخططات .

وهذا الاتجاه يتطلب منّا أن نقسم الكلام فيه على مباحث:

المبحث الأول

النظر إلى النفاق في إطار الخطة النبوية المشرّفة

لدينا هنا تساؤل: هو أن القرآن الكريم قد مارس مع المنافقين أسلوب التهديد الشديد في الآيات السابقة، وفي غيرها من آيات كتاب الله العزيز، والتدمير النفسي لكيانهم، وتحذيرهم مما سيلقونه، وقد حرّض الرسول ﷺ والمؤمنين عليهم، وخوّفهم وحذّرهم من نتائج هذا التحريض.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

لكن في المقابل نرى رسول الله ﷺ لم يكن بتلك الحدّة معهم، نعم كان في بعض الجهات حاداً صارماً معهم، بيد أنه من جهة أخرى يحاورهم ويقبل منهم العذر، ويتسامح معهم في بعض المواقف.

مما يعني أن افتراقاً ما حصل بين التشريع والتنفيذ، بين طرح المولى وتطبيقات رسول الله ﷺ، وهذا الأمر في الحقيقة يدعونا للتوقف متأملين لعلنا نخرج بما يشفي الغليل في إجابة هذا التساؤل.

---

(١) الأحزاب: ٦٠.

ويمكن أن تكون الأجوبة كما يلي:

الجواب الأول

إن القرآن الكريم طرح تشخيصاته للنفاق والمنافقين ومعالجاته لهم بشكل كلي، ولم يشخص الأفراد أو المصاديق الخارجية، مما يعني صعوبة التطبيق الكلي على أفراده الخارجيين ـ وهم المنافقون ـ وذلك لعدم إعلام الرسول ﷺ بعلمه للمسلمين لمصلحة في ذلك، وإن معرفة الرسول ﷺ لهم، بل معرفة المسلمين لبعضهم وتشخيص أعيانهم بالمجتمع لا يتنافى وحديثنا، إذ معرفة البعض لا تعني معرفة الكل، وعدم معرفة البعض لا تعني بوجه عام عدم معرفة البعض الآخر.

صحيح أنهم كانوا يعرفون بعض المنافقين، كما جاء في الروايات بل عاقبوهم بأمر الرسول ﷺ بالإخراج من المسجد، ولكن لا يمكن أن نجزم أنهم يعرفون كل منافق، أو من ينوي النفاق، أو من له الاستعدادات الأولية لأنْ يكون منافقاً في المستقبل، إن ذلك لم يقُل به أحد، ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يدعيه فضلاً عن أن يبلغه، أو أراد الرسول ﷺ أن يعمل وفق إرادة الله وتوجيهه وإذنه، فبالوقت الذي يهددهم القرآن الكريم، يطالب الرسول ﷺ بأن يكون رفيقاً رحيماً، ولا يجب أن يكون هذا الطلب الإلهي، أو الأمر والنهي مطروحاً بالقرآن الكريم حتى يعترض علينا معترض ويقول: لو كان لَبان.

فليس كل ما يريده الله تبارك وتعالى من رسوله الأكرم ﷺ يجب أن يودعه في القرآن الكريم، إذ هناك نوافذ أخرى غير الوحي القرآني يمكن للرسول ﷺ أن يأخذ الأمر والنهي والتوجيه منها، كما لو رأى الرسول ﷺ رؤيا مثلاً فهذا بالنسبة للأنبياء ونبينا محمد (صلوات الله عليه وآله) كافٍ لمعرفة مراد الله تعالى وتبارك شأنه.

وهل الرسول ﷺ إلاّ منفذٌ أمينٌ لإرادة الله، ومطبقٌ مخلصٌ لأوامره ونواهيه مهما كان مصدرها، وكيف كانت ترجمتها.

الجواب الثاني

وإذا كانت الأمور الشرعية مرتبطة بالمصالح الواقعية، فلتكن المصلحة في عدم قصم المنافقين هي مقتضى كون الله ستّاراً للعيوب، يستر عيوب عباده ويغطيها إلى أن تفضحهم رائحة الذنوب، فهو رحيم بخلقه، رؤوف بهم، وإن كانت عناوين أعمالهم شنيعة بشعة.

وإذا كان القرار أنّ كل من عمل بعنوان سيء يُكشف من قبل الله تعالى، فهذا خلاف كون الله تعالى ساتراً، وخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دابَّةٍ﴾[1]، مما يعني أن جميع الخلق حاشا المعصومين عليهم السلام هم أهل مظالم، و ذممهم مشغولة بحقوق الآخرين.

والمنافقون وإن كانت أعمالهم جسيمة، داخلون في عنوان: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾.

أو لتكن المصلحة احتمالية وهي استفادة المنافقين من لغة التهديد القرآنية الكلية فيعودوا إلى رسول الله ﷺ تائبين، وبدون أن تراق مياه وجوههم أي محفوظي الكرامة، كما حصل للبعض منهم على بعض الروايات.

أو لتكن المصلحة غير ذلك، فلا يهمنا تشخيص حقيقة المصلحة وماهيتها هنا بقدر ما يهمنا الإقرار بوجودها.

---

(١) النحل: ٦١.

الجواب الثالث

ليُبقي سطوة الخوف مهيمنة عليهم جميعاً ولمن يُحتمل في نفسه النفاق، أو أنه داخل معهم على نحو المقتضي فلو صرّح بأسمائهم وشخّص عقابهم، إذن لما كانت تلك السطوة من الرعب الدائم جاثمة على صدورهم وصدور الآخرين، أو ممن ينجم نفاقه في حين من الأحيان.

وهذا الخوف الملازم لهم، كان ثقله عليهم شديداً، أراد القرآن الكريم أن تستمر تلك الشدّة والضغط النفسي عليهم، حتى يكون عملهم مرتبكاً وخططهم خرقاً سفيهاً، وهذا كله أعلنه المنافقون أنفسهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1].

فليعيشوا دائماً في حذر دون استقرار، وفي خوف دون أمان، وباعتقادنا أن شَدّ أهل النفاق وربطهم في كمّاشة الصراع النفسي الدائم، والتخوّف المستمر، أنجح في إبعاد شرهم، وأحسن في إشغالهم وإلهائهم عن المسلمين، وإضعاف همتهم، وزرع الشقاق والاختلاف بينهم.

فعندما يبحثون عن الحلول للمشكلة الفلانية فإنهم سيقعون في واد عميق آخر، إنه الرعب الذي قاتل الله به أعداء رسالته ونصر به نبيه الكريم ﷺ، إنه الرعب من الله والخوف من كشف المخازي.

وإذا كان المقصود شلّ حركتهم النفاقية والاجتماعية، فليَكن ذلك متحققاً بالتوجيه والتحذير القرآني بجنبته الكلية، ما دامت هذه الجنبة تحقق المقصود بقدر كبير جداً، على خلاف ما لو كانوا مشخصين بأشخاصهم ومحددين بوجوداتهم.

ومن هنا تأتي قيمة الخطاب القرآني الكلي دون الجزئي المشخص،

---

(١) التوبة: ٦٤.

والفرد الخارجي المعين.

الجواب الرابع

وقد يشكّل التعامل المفترض معهم خطراً حياً على المدينة وأهلها ودينها الجديد، وهذا يتعارض بشكل محكم مع سعي الرسول ﷺ في توطيد حكمه، ومراده في استتباب الأمن، فإن وجود صلات نفاقية متناثرة وإن كانت فاعلة من جهة التأثير والخطورة، ليس كوجود انتفاضة موحدة ورغبة عارمة لتهديم الدولة ونسف قواعدها من الأساس.

وحينما نقول: إن الرسول ﷺ لم يتعامل معهم بالسيف وإقامة الحروب معهم في المدينة، وذلك لخطورة هذا الموقف، إنما هو قائم على أسس واحتمالات:

الاحتمال الأول: هو احتمال كثرتهم وسعة انتشارهم وتشعبهم الاجتماعي في المدينة، وتنوع العناصر النفاقية من حيث الأصل، ففيهم اليهود الذين أسلموا بأسباب خاصة مختلفة، وفي اليهود أحبار وبعضهم على درجة كبيرة من الخبث والاحتفاظ بالضمائر والضمائم السيئة.

وفيهم من الأنصار من الأوس أو الخزرج، وفيهم من المهاجرين، ويدلنا على كثرتهم، سرعة انقلابهم بعد رسول الله ﷺ، أو انقلابهم عن الوضع الشرعي، وعن وصايا رسول الله ﷺ، بحيث لم يبقَ منهم إلاّ أفراد، وإلى الحد الذي سلبوا الحق من أهله، ونهبوا المواقع، وتقاسموا الأدوار.

كل ذلك خلافاً لمنهج النبي ﷺ، وخروجاً عن دينه، ولو لم يكن النفاق كامناً في نفوسهم، لما كان منهم هذا التحول العجيب بمجرد أن غفت عينا رسول الله ﷺ، وهو نبيهم، وبالأمس القريب كان بين

ظهرانيهم يسمعون كلامه، ويردون سلامه، ويحاربون أعدائه، ويذبون عنه ويدعون له.

واليوم غدت الجاهلية بهم عابثة إلى الحد الذي وصلوا به إلى الاقتتال، وإزواء الحق وأهله عن منصّتهم التي أرادها الله لهم، فإعلان الحرب عليهم من قبل رسول الله ﷺ إعلان الحرب أو المعاقبة للكثرة الكافرة.

وهذا يعني فيما يعنيه تعريض المدينة للهرج والمرج، والمشاكل العضال، التي كان السكوت عليها وهي على حالتها الأُولى أصحّ وأولى، فالنار وهي تحت الرماد أقل كيّاً وأدنى حرارةً منها وهي ملتهبة قد مدّت ألسنتها من بين الوقود.

الاحتمال الثاني: لاحتمال اتصالاتهم الخارجية فهم حتى إن لم يكونوا كُثر، ولم يكونوا بهذا الحجم الأخطبوطي العريض، لكنهم قد يكونون على اتصال خارجي مما يهدد سياسة الرسول ﷺ الداخلية والخارجية إذا أعلن الاستنفار ضدهم.

وذلك قد يهيئ الفرصة لليهود وأحلافهم الآخرين من التدخل، أو الدخول في الدولة النبوية الجديدة، فقد كان عبد الله بن أبيّ حليف يهود بني قينقاع وهو من الخزرج، وقد كان الأوس أحلاف ليهود بني قريظة وبني النضير.

وكان اليهود على اتصال مع قيصر الروم ـ كما مرّ في قصة بنائهم لمسجد ضرار ـ وهذا يعني بشكل واضح وجود نصرة خارجية لهم وقد تكون بشكل حلف ومعاهدة، أو اتفاقية دفاع.

أو تحصيلهم على حماية دولية في حال تعرضهم لخطر معين، بينما العقوبات الجزئية، والعابرة، ودون إراقة الدماء، قد تمر بدون تهييج لما

نصطلح عليه الآن (بالوضع في الرأي العام العالمي) مع كونها تؤدي بعض الغرض المطلوب.

الاحتمال الثالث: وحتى لو وقعت عليهم دائرة الحرب، أو صارم العقوبات من قبل النبي ﷺ والمسلمين، فمن قال: إن هذا سيجتثهم من الجذور، فإن بقيت منهم بقية، فمن القائل إن البقية المتبقية ستكون خائرة وهنة، بل ربما ستكون فيما بعد أشد إصراراً على مواصلة إيذاء الرسول ﷺ، مع قلتهم، وأكثر إقداماً للإخلال بأمن المدينة واستقرار أهلها.

وقد يلجئون إلى حرب العصابات الداخلية، وبها يسلبون المؤمنين نوم العيون، وراحة البال، والاجتهاد في الدعوة إلى الله، وهذا يعني بالوقت الذي أردنا القضاء على فسادهم حوّلناهم إلى مفسدين أكثر براعة من قبل، أو أشد إزعاجاً للرسالة والرساليين.

وهذا يعني أيضاً عدم إفادة العقوبة لهم، فتكون عقوبتهم بمثابة النقض للغرض المستقبح عقلاً.

الجواب الخامس

إن الرسول الأعظم ﷺ جاء بعنوان المهاجر الرسالي، يريد بسط الدعوة، ونشر الرحمة، وتوثيق الصلات الاجتماعية، وصهر المجتمع في دورق الإخاء، وبغض إراقة الدماء، وحفظ الفروج، وإلغاء الطبقية والفوارق العنصرية، واحترام الأديان، والتحرر من الأنانية والذات.

وإن إيقاع الحرب مع أناس هم قد أسلموا بالظاهر فحفظوا بذلك أعراضهم، ودمائهم، وأموالهم، يكون منافياً لتلك الشعارات الإصلاحية المطروحة ولتلك اليافطات الإنسانية المرفوعة.

مما يعني وقوع حرب داخلية، ولفتنة عمياء، تخبط في المدينة وأهلها

خبط عشواء، يفقد بها الرسول ﷺ مصداقيته، وأهدافه، وزمام الأمر، بل ويكون كمن عدا على نفسه فقتلها، وأن الرسول ﷺ يعرف بوضوح قوة وأهمية هذه المديات.

بحيث يعبر عنها في بعض الروايات عندما طلب منه المسلمون أن يُشخّص المنافقين فيقتلونهم، يقول ﷺ مستنكراً ذلك: «**إني أكره أن يقول الناس: إن محمداً لّما انقطعت الحرب بينه وبين المشركين، وضع يده في قتل اصحابه**»[1]

بالإضافة إلى هذا كله فهي غير صحيحة من الناحية الدعائية التاريخية، فالنبي ﷺ يؤسس الدين في الواقع وفي النفوس، ويحاول أن يبني له في قلوب الناس بنياناً سليماً مشرقاً.

لا أن يستلّ سيفه ويمشي في شوارع المدينة يحكّمه في عنق كل من نعق الشيطان بين جنبيه فيكون في ذلك سَفّاحاً دموياً، لا مُصلِحاً إسلامياً.

وتظل هذه النظرة مرافقة للرسول ﷺ والمسلمين عبر التاريخ، إنه يعتدي على أصحابه فيقتلهم، فكيف يُغيِّر من هم ليسوا بأصحاب، ولا لدينه دعاة، مما يجعله حقاً ديناً إرهابياً، وعقيدة يجتمع حولها الدمويون.

والحال أن الدين الإسلامي ونبيه الأكرم ﷺ ليسا كذلك، إذ هما سلكا حتى مع أعدائهم سلوك الرحمة، والستر والهداية لهم إلى الصراط المستقيم، وشتان بين الدعايتين.

ومن هنا نعرف حكمة الرسول ﷺ العظيمة، وجلال قدره الأخلاقي، وتحمله للمشاق المرّة الصعبة القاسية؛ لأجل أن يكون هذا الدين في إطار هذه الدعاية التي هي واقعاً إرادة الله، وثانياً شفافية تأثيرها

---

(١) المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ٥٩٣، سبل الهدى والرشاد ٥: ٤٦٧.

على العاطفة الإنسانية لكل جيل.

وفي الواقع هذه الإجابات يمكن أن ترجع إلى النقطة الأُولى ولكن يمكن كذلك فرضها مستقلة.

وبطبيعة الحال إن عدم وقوع الحرب مع المنافقين عملياً لا يعني أن النفاق لم يكن منشأً لإعلان الحرب مع المنافقين من الناحية العملية، بل بقيَ النفاق وحربه، وضرورة مواجهته، واحداً من أهم الملاكات الداعية للحرب مع هؤلاء وإن لم تقع الحرب.

الجواب السادس

ومن الأمور التي تطرق لها القرآن الكريم بخصوص النفاق والمنافقين، هي دعوته لمقاتلتهم والانتقام منهم.

ولدينا ثلاثة مواضع وربما أكثر توضح ملامح الدعوة لمقاتلة المنافقين، أو تحذرهم من وقوع الحرب ودائرتها عليهم:

الموضع الأول:

قال عزّ من قائل: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً* سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1].

يقول صاحب تفسير الميزان في هذه الآيات:

---

(١) الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ الانتهاء عن الشيء: الامتناع والكف عنه، والإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به، وإلقاء الاضطراب بسببه، والإغراء بالفعل: التحريض عليه.

والمعنى: أقسم لئن لم يكف المنافقون والذين في قلوبهم مرض عن الإفساد، والذين يشيعون الأخبار الكاذبة في المدينة لإلقاء الاضطراب بين المسلمين، لَنُحرضَنّك عليهم ثم لا يجاورونك في المدينة بسبب نفيهم عنها إلاّ زماناً قليلاً وهو مابين صدور الأمر وفعلية إجرائه.

قوله تعالى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾، الثقف: إدراك الشيء والظفر به، والجملة حال من المنافقين ومن عُطِفَ عليهم، أي حال كونهم ملعونين أينما وجِدوا أُخِذوا وبولِغ في قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ السنة: هي الطريقة المعمولة التي تجري بطبعها غالباً أو دائماً.

يقول سبحانه: هذا النكال وعدنا به المنافقين ومن يحذوا حذوهم من النفي والقتل الذريع، هي سنة الله التي جرت في الماضين فكلما بالغ قوم في الإفساد، وإلقاء الإضطراب بين الناس، وتمادوا وطغوا في ذلك أخذناهم كذلك ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فتجري فيكم كما جرت في الأمم من قبلكم[1].

وإنك لَتَشُم رائحة القتال وإعلان الحرب قوية من خلال الآيات

---

(١) تفسير الميزان١٦ : ٣٤٠.

وتفسيرها خصوصاً الآية: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾.

والحق أن الإرجاف أي توهم للمؤمنين وأهل المدينة أن الرسول ﷺ هُزِمَ أو قُتِل وليس الأمر كذلك، والاستهزاء برسول الله ﷺ، والطعن على المسلمين دينهم، والتآمر على الرسول ﷺ، وممارسة الأعمال التخريبية، والاتفاق مع الأعداء ضد رسول الله ﷺ، كان يؤدي لاغتمام المسلمين وانقباض نفوسهم وظهور البلبلة في الدولة الفتية.

كما في تفسير القُمّي في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾: نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة يرجفون رسول الله ﷺ إذا خرج في بعض غزواته، يقولون: قُتل وأُسير فيغتم المسلمون لذلك ويشكون إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجل في ذلك: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ...إلى قوله... إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلاّ قليلاً[1].

كل ذلك وغيره من دواعي الحرب، ومن مسببات الشحناء والمقاتلة، بل إن كل واحد من تلك الأسباب يصلح برأسه سبباً لشن الحرب عليهم.

فإذا ذكرنا سابقاً أن الفتنة وإظهار الفساد في الأرض والظلم والتجاوز على أقدار الآخرين، والعمل لتمزيق صفوفهم، وبذر الشقاق والفرقة، والحث على التمرد والانفصال، كلها من مناشئ وملاكات الحرب، وهي منفصلة مستقلة، فكيف لو اجتمعت جميعها في زمرةٍ بشرية همّها أن تعمل ذلك في مجتمع فتي، حتى تؤدي إلى انحطاط دولة المسلمين، وتفكيك عرى وحدتهم العقائدية، والسياسية، والاجتماعية.

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٩٦، عنه في بحار الأنوار ٢٢: ٧٠، تفسير الصافي ٤: ٢٠٤، تفسير نور الثقلين ٤: ٣٠٧، تفسير الميزان للطباطبائي ١٦: ٣٤٤.

إن هذا التيار النفاقي الخبيث قد فعل الكثير من أجل بلوغ الغاية، وطيلة مدة وجود الرسول الأكرم ﷺ وفي عصر رسالته الأول، وبالغوا في الجهد وبذل الوسع في خذلانه وتخذيل أنصاره، وتجييش الجيوش عليه، واستنفار الأعراب من حوله إلى الحد الذي لعلهم أفلحوا في بعض الجهات.

وكانوا أكثر لجاجاً بعد شهادته ﷺ، والتحاقه بربه أن زحزحوا كل شيء عن مستقره، وأججوا نار الفتن، وأعدّوا الأمور لحروب طاحنة بين المسلمين.

ألا يستحق مثل هذا التيار وهو يملك هذه النوايا ويقوم بهذا الحجم من المؤامرات، ألا يستحق المواجهة والإغارة وقصم الشوكة.

أليس الحق هنا شرعياً في إطار كونه دفاعاً عن النفس، وعن الوجود الذاتي للمسلمين بكامل مقومات ذلك الوجود.

أليس الحق هنا قانونياً (في إطار النظر للقانون الوضعي البشري المعاصر) باعتبار الحرب معهم من أجل دفع ضرهم عن سيادة الدولة القائمة، والمحافظة على مرتكزاتها وعلى كيانها السياسي.

أليس هو حقاً إنسانياً من جهة محافظة المسلمين على عدم السماح لأي فئة تريد فتح ثغرة في بلادهم، تكون ممراً للأجانب، والجواسيس، ولأفراد مرتزقة يريدون أن يجيسوا خلال الديار.

كل هذا والمسلمون يعيشون غمرة الجهاد، والدفاع المستميت عن بيضة الإسلام، وعن ذرى صرحهم الجديد.

أليس هو حقاً طبيعياً لأي فرد مسلم في مقام كونه مستجيباً لنداء الله المتمثل بنداء رسول الله ﷺ، لمحاربة ذوي الأطماع، والظالمين، والمفسدين، والمنافقين، والذي فرغنا من الكلام به سابقاً، وقلنا إنه قائم على صحة كون النبي ﷺ نبياً وعبداً مأموراً لله لا يجوز له مخالفته، بل يجب عليه

المبادرة في طاعته دون توان.

كلها حقوق، وعلينا أن نتبع الحق الذي لا بد من اتباعه، ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾[1]، وعليه فإذا شَرّع الرسول الكريم ﷺ بالسيف، وهرع المؤمنون لمقاتلة المنافقين، فأي جهة أو فرد يعترض عليهم، أو أي جهة لا تعطيهم الحق في ذلك، أو أي جهة لا تدينهم في حال عدم المنازلة لأشرار الخلق، وقطع أعناق فتنتهم، وتطهير الأرض من رجسهم.

إن كل مُنصِف، وكل من يعرف أن الحق يجب أن يقال، سيُحَكّم ضميره، ويأمر بمقاتلة هؤلاء، وهو أمر بالمعروف، ولايقبل ببقائهم على حالهم، وهذا هو النهي عن المنكر.

هذا إذا خُلّينا وطباعنا كبشر بعقول مجردة، وفِطَر سليمة لم تلوث بالظُلم، ولم تبرم المواثيق للتآمر على الحق، ولم تدنس طبائعها بغمز الباطل وأهله على الحق وأهله.

أما إذا لم تكن كذلك فالأمر يأتي منعكساً وتطلق على الإسلام ـ كما يفعل الغرب المجرم ببعض مفكريه ـ أنه إسلام دماء وإسلام الهيجاء.

هذا والقرآن لم يبين فقط كونهم منافقين، وإنما أردف ذلك بأن في قلوبهم مرضاً[2]، فهم أصحاب شهوة عارمة، وغرائز غير منضبطة، ينفلتون بها عن الاعتدال، وعن استقامة الرجال، ويتبعونها إتباعاً حثيثاً، فيقعون بسببها في كل وادٍ محرَّم، وفي كل فجٍّ سحيق.

أنهم يطلبون بنزواتهم النساء لا على وجه شرعي، فيهدمون

---

(١) الأحزاب: ٥٣.

(٢) وهذا وإن كان مستحقاً لأن يفرد في بحث مستقل إلاّ أنه نأتي به هنا على سبيل الإجمال والسرعة.

أخلاق الناس، ويخالفون حدود الله، ويزرعون أمراضاً أخلاقية في البيئة الإسلامية، ويهدمون البيوت على أهلها، لما تخلفه هذه الأمراض الشاذة من مساوئ تحيق المجتمع، وتضيّع النسل، وتذيب العفّة والطهارة، ولما يخلفونه من عار ينخر سور العائلة، ويدنس قدسها المصون.

فجمعوا بذلك شذوذاً أخلاقياً إلى شذوذهم الفكري والنفسي، وشذوذاً ذوقياً بناءاً على فجورهم بالنساء وتركهم نسائهم إلى شذوذهم العقيدي.

فأي فتنةٍ أفسد من هؤلاء وأكثر منهم شراً، كل ذلك بسبب نفاقهم وقلوبهم المريضة المعتلة.

روى ابن جرير الطبري: (حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ...﴾[1] قال: هؤلاء صنف من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، أصحاب الزنا، قال: أهل الزنا من أهل النفاق الذين يطلبون النساء فيبتغون الزنا، وقرأ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[2]، قال: والمنافقون أصناف عشرة، في براءة، قال: فالذين في قلوبهم مرض صنف، منهم مرض من أمر النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾[3] يقول: وأهل الإرجاف في المدينة بالكذب والباطل)[4].

هذا مع العلم أن معنى ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ الواردة في الآية المباركة

---

(١) الأحزاب: ٦٠.

(٢) الأحزاب: ٣٢.

(٣) الأحزاب: ٦٠.

(٤) جامع البيان لابن جرير الطبري٢٢: ٥٩

كما يذهب له أهل التفسير: أي لنحملنك عليهم، لنحرشنك بهم ومعنى نحرشنك عند أهل اللغة هو ما يلي:

(الحرش أن تهيج الضب في جحره، فإذا خرج قريباً منك هدمت عليه بقية الجحر)[1].

وإنك تلاحظ أن المقصود من إخراج الضب وهدم داره هو معناه إعلان الحرب ونشوبها بالضرورة، إذ إخراج الإنسان من داره وطرده منها، وإن كان مستحقاً كل الاستحقاق لذلك لا يمكن أن يمر دون مقاومة محتملة، ومواجهة معتدة.

هذا وهو فرد فكيف إذا كانوا جماعة، وهذه الجماعة منظّمة ولها قائد، وتصنع قراراً، وتتلون حسب طبيعة الحدث، وتحاول قدر الإمكان أن تكسب الجولة في النهاية.

إنها الحرب لا محالة.

وقد صرح بذلك صاحب زاد المسير حيث قال: (قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ أي عن نفاقهم، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي فجور، وهم الزناة، ﴿الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ بالكذب والباطل يقولون: أتاكم العدو، وقُتلت سراياكم وهُزِمت ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم بأن نأمرك بقتالهم، قال المفسرون: وقد أُغري بهم فقيل له: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾)[2].

وهذا بالواقع يدعم كون أن الحالة النفاقية كانت واحداً من مناشئ

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٦: ٢٨٠، غريب الحديث للحربي ١: ٢٨٥.

(٢) زاد المسير ٦: ٢١٦.

الحرب والمواجهة العسكرية المسلحة.

الموضع الثاني:

قوله تبارك اسمه: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۞ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1].

وهذا موضع ثانٍ يحمل آيات قرآنية مباركة تدعوا المؤمنين لمقاتلة الكافرين والاقتصاص منهم، وعدم السماح لهم أن يكونوا آمني السرب مستقري الطرف.

وهذه الآيات نازلة في توبيخ المؤمنين في مجرد خلافهم على قوم لا يجب اختلاف الرأي بشأنهم، إذ أن أمرهم ظاهر واضح، فلماذا الانقسام فيهم فئتين، ثم تؤيد الآية القسم الذي يذهب إلى مقاتلتهم وتوحد الرأي والجهد حوله وإن كانت مستنكرة لخلافهم في أول الأمر[2]، طالبةً من الجميع بالإضافة إلى ترك الفرقة الموهنة لهم أن يقاتلوا المنافقين بكل عزيمة وجدية وثبات.

ولكن مع ملاحظة ما طرحت الآيات في هذا الموضع من شروط وأسس، اللازم إتباعها والالتفات إليها بحذر.

---

(١) النساء: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) ناقدة للشفاعة بأمر هؤلاء.

يقول السيد عبد الأعلى ﷺ: (قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ إنكار على ما حصل من المؤمنين من التفرقة في أمر المنافقين إلى فرقتين مختلفتين، فرقة تتبرأ من المنافقين وترى قتالهم، وفرقة أخرى تتولاهم وتشفع لهم وترى ترك قتالهم، فلم يتفقوا على كفرهم وقتالهم.

وكيف كان فالآية المباركة تدل على توبيخ المؤمنين على تفرقهم وعدم اجتماعهم في قطع مادة الفساد، والإغماض عن شجرة الضلال وتركها حتى تنمو وتقف عائقة في سبيل الدين الحق ونشر العدل.

كما أن الآية الشريفة ترشد المؤمنين إلى كيفية التعامل مع الفئات في داخل المجتمع، وتأمرهم للاتفاق والاتحاد والتعاون بينهم مقابل الفئة، فإما الحكم عليهم بالكفر والقتال معهم، أو نبذهم والإعراض عنهم وعدم التعامل معهم)[1].

ثم يَخلُص في تفسير هذه الآيات إلى نتيجة مهمة لها ربط في عمل البحث هي:

في تفسير قوله تعالى: (﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ، أمر بالقتال حيث تحقق شروطه، وهي الإعراض عن الإيمان المصاحب بالهجرة المستقيمة التي تكشف عن رسوخ الإيمان في القلب، ونبذ النفاق والعداء للحق وأهله، وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بقتلهم حيث ما وجدوهم في الحل والحرم، كسائر الكفار بعد نقض العهد منهم.

والآية الكريمة تأمر المؤمنين أن يطلبوا منهم الهجرة ومراقبة أعمالهم،

---

(١) تفسير مواهب الرحمن للسيد عبد الأعلى السبزواري ٩: ١٢٢.

وتبين العلّة في قتالهم والعذر في جهادهم، وقد ذكر عزّ وجل بعض أحكام جهادهم في سورة التوبة)[١].

ويلاحظ هنا:

إن المنافقين لم يتورعوا في مسألة المجاهرة بالعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكفوا أيديهم عن أذى رسول الله ﷺ والمسلمين، إذ وصل بهم التجاسر إلى حد التجرؤ على رسول الله ﷺ وإيذائه، وبصورة سافرة.

الموضع الثالث:

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

وهذه آية أخرى تحمل بطاقة الدعوة إلى مقاتلة المنافقين بخط واضح مقروء، بل تكلمت حولهم بلفظ أعم من الحرب وهو الجهاد، ومعلوم أن الجهاد يقتضي العمل بإزاء الشيء الآخر بكل جهد إن كان نفسياً، أو اجتماعياً، أو قانونياً، على سبيل العقوبة والمؤاخذة.

وهذا الجهاد حتماً سيكون مفتوحاً من الناحية الزمانية والمكانية، أو كما يعبر عنها (الزمكانية)، وأنه مطلق بكافة الوسائل والسبل المتاحة، وجميع الفرص المتوفرة، ومن جملة هذه الوسائل، الجَنْبَة القتالية الحربية بحدّ السيف وسطوة السنان.

قال العلامة الطباطبائي في الميزان: (قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ

---

(١) مواهب الرحمن ٩: ١٢٦، والآية ٨٩ من سورة النساء.

(٢) التحريم: ٩.

جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم وهو يكون باللسان وباليد حتى ينتهي إلى القتال، وشاع استعماله في الكتب في القتال وإن كان ربما استُعمِل في غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

واستعماله في قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق، وأما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف، وإنما يبطنون الكفر ويقلبون الأمور كيداً ومكراً، ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتلهم ومحاربتهم.

ولذلك ربما يسبق إلى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم، فإن اقتضت المصلحة هَجَروا ولم يُخالِطوا ولم يُعاشِروا، وإن اقتضت وعظُوا باللسان، وإن اقتضت أخرجوا وشَرَّدوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذ اخذ عليهم الردة، أو غير ذلك.

وربما شهد لهذا المعنى، أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد، تعقيب قوله تعالى: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بقوله: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، أي شدد عليهم وعاملهم بالخشونة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فهو عطف على ما قبله من أمر، ولعل الذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا: (إن هؤلاء الكفار والمنافقين مستوجبون الجهاد) والله أعلم)[2].

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٩: ٣٣٩.

وقد اختلف المفسرون والرواة في معنى جهاد المنافقين بعد أن اجمعوا على صحة قتال الكفار فقال بعضهم إن جهاد المنافقين باليد واللسان، وقال آخر باللسان فقط، وقال ثالث بإقامة الحدود عليهم لأن أكثر من يصيب الحد في ذلك الزمان المنافقون، وذهب آخر أن جهادهم كجهاد المشركين.

ففي جامع البيان: (قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ما قاله ابن مسعود، من أن الله أمر نبيه ﷺ من جهاد المنافقين، بنحو الذي أمره من جهاد المشركين).

وأسّ الاختلاف باعتقادنا هو كون الرسول ﷺ لم يُنقل عنه أنه قاتل المنافقين، أو قاد حرباً ضدهم على نحو وقوع السيف ورد الحيف، كما قال ذلك صاحب الميزان: (وفي المنافقين باستمالتهم وتأليف قلوبهم حتى تطمئن قلوبهم إلى الإيمان وإلاّ فلم يُقاتل النبي ﷺ منافقاً قط)[1].

وهل جهاد المشركين إلا ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

ولكن مجرد عدم مقاتلة النبي ﷺ لهم، وعدم شنه حرباً ضدهم لا يعني أنهم غير مشمولين في إطار المقاتلة والقتال، لصريح الآيات، وإن لم يقع ذلك عملياً من الرسول ﷺ، فهم على صعيد النظرية والنظر، أو كما يقول الفلاسفة: بالقوة لا بالفعل معنيون بآيات القتال والحرب، وحتى في هذه الآية، وذلك لما يلي:

أولاً: هناك قرائن عدّة تساعد على أن المراد بجهادهم قتالهم، منها جمع المولى تبارك وتعالى الكفار والمنافقين على صعيد واحد، ربط بينهما

(١) تفسير الميزان ١٩: ٣٣٧.

بقوله تعالى: ﴿جَاهِدِ﴾ وربط مرّة أخرى بقوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ، ولم يفرد أحدهما عَنِ الآخر وهذا العموم يصعب تخصيصه بدون قرينة، ولا قرينة في المقام.

ثانياً: لأنه ـ كما قلنا ـ الجهاد أعم من الحرب فيستفاد من ذلك أن الحرب داخلة في معنى الجهاد والحرب مقصودة من خلال لفظ الجهاد أيضاً، إذن لا يستفاد من نفس الآية الفصل في معنى الجهاد وكيفيته بين الكفار من جهة والمنافقين من جهة، إنما جاءت الفائدة خارجية في مسألة التفريق بينهم، وهذا له أسباب كما سنبينه إن شاء الله.

أو لئن مقاتلتهم كانت مشروطة بإظهار نفاقهم وبناءاً على عدم الإظهار فلا قتال.

ثالثاً: جمعهم في لفظ واحد بقوله تعالى ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ .

رابعاً: إن بعض المفسرين ذهبوا إلى كون الجهاد المقصود في الآية هو الجهاد باليد ـ كما أسلفنا ـ فقد ورد في تفسير القرطبي: (وروي عن ابن مسعود أنه قال: جاهد المنافقين بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك، فإن لم تستطع فاكفهر بوجوههم)[1]، وقد رأيت أنه جعل جهادهم باليد مقدماً على من سواه.

والملاحظ في آيات المواضع الثلاثة أنها تشترك بأمور هامة:

الاشتراك الأول:

أنها تشترك بلغة واحدة، ونَفَس واحد من حيث الشدة على المنافقين فهي:

---

(١) تفسير القرطبي ٨ : ٢٠٤.

الآية الأولى: ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[1].

وفي الثانية: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[2].

وفي الثالثة: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[3].

وفي الجملة أنها تتوحد في لغة الخطاب وكأنها تقول ليكن موقفكم مع المنافقين صلباً، خشناً، قاسياً، لا هوادة فيه ولا تراخي.

الاشتراك الثاني:

إنها تشترك في الحط من أقدار المنافقين - إن كان لهم قدر - وفي وصمهم بما فيه من سبة وعار.

ففي الأولى: هم منافقون، قلوبهم مريضة، ومرجفون في المدينة، يكذبون ويختلفون ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾، هذه الصفات جميعها متحققة في هؤلاء المنافقين، فكل منافق منهم بالإضافة إلى عيب النفاق الذي فيه، فهو مريض القلب، ومُرجِف برسول الله ﷺ، هذا بناءاً على أن الواو مقحمة.

كما ورد في تفسير القرطبي مع دليله اللغوي يقول: (قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ...﴾ الآية، أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، كما روى سفيان بن سعيد، عن منصور، عن ابن رزين قال: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، هم شيء واحد

---

(١) الأحزاب: ٦٠.

(٢) النساء: ٨٩.

(٣) التوبة: ١٢٣.

يعني أنهم قد جمعوا هذه الأشياء والواو مقحمة كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام   وليث الكريهة في المزدحم

أراد: إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة)(١).

وفي الثانية: منافقون، أركسهم الله بما كسبوا، أهل ضلال، كفار، مطرودون من ولاية المؤمنين.

وفي الثالثة: منافقون، ساواهم بالكفار، مهددون بالنار وعقوبة الجبار.

الاشتراك الثالث:

تطالب الآيات في المواضع الثلاثة بجهادهم وقتالهم وقتلهم، وتغري المسلمين بهم، وتضع بينهم وبين المؤمنين فاصلة، فالمؤمنون أهل فضيلة وسلطة وهجوم على جرثومة النفاق والفساد، وهم ـ أي المنافقون ـ أهل رذيلة وهزيمة وتيه والحطاط.

الاشتراك الرابع:

ثم تبين الآيات في المواضع الثلاثة، جمعية المؤمنين، وألفة قلوبهم على الحق، وتوحدهم الفكري، والعملي على رفض الحالة النفاقية، ثم أنها تبين سلامة نفوسهم فهم يطلبون لهؤلاء المنافقين الهداية، وحبهم في إرجاعهم، إلى جادة الحق وصراط الجنة، بدليل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾(٢)، وتبين أيضاً ممقوتية النفاق وانعزالية أهله.

ففي الأولى: هناك نوع تكريم للمؤمنين فهم يستحقون شرف جوار

---

(١) تفسير القرطبي ١٤: ٢٤٥، عنه في فتح القدير: ٣٠٥.

(٢) النساء: ٨٨.

رسول الله ﷺ الذي لا يستحقه المنافقون والمهددون بانتزاعه: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، والمؤمنون في عناية الله، وبُعد عن اللعنة والمطرودية من الرحمة، وبخلافه المنافقون.

وفي الثانية: المؤمنون، أهل هداية، ورعاية الله قد أحاطتهم، وهم أهل إيمان ونقاء، وولايتهم لبعضهم طاردة لولاية المنافقين الأشرار، وهم في أهل كرامة الجهاد، وقتل أعداء الله، وبخلافه المنافقون.

وفي الثالثة: المؤمنون أهل إيمان وبراءة من صفة النفاق، وهم غير مهددين بجهنم والمصير السيء، بل العكس فالآية السابقة لها تقول: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[2]، وبخلافه المنافقون.

وهذا كله تعريض صريح بالنفاق كحالة، والمنافقين كممارسة، ومقت شنيع لهم. وهو مدح وإكبار وثناء على الإيمان كحالة، والمؤمنين كممارسة ورفعة سامية لهم.

وهذه المقومات المشتركة الأربع تجعل المفعول المعنوي للآيات في المواضع الثلاثة أكثر انصباباً في الهدف، وأكثر انسيابية للمعنى المطلوب، وهو ضدية النفاق، وأكثر ترجمة لجدلية التعامل معهم، وهي جدلية الرفض والمطاردة والمقت والامتعاض.

وبعد أن فرغنا من المبحث الأول نتناول الآن مسألة اجازة الرسول المصطفى ﷺ المنافقين بالاشتراك في حروبه في المبحث الآتي.

---

(١) الأحزاب: ٦٠.

(٢) التحريم: ٨.

المبحث الثاني

لماذا أذن رسول الله ﷺ للمنافقين بالاشتراك في حروبه؟

لقد ورد في كتب التاريخ مايؤكد أن الرسول ﷺ سمح للمنافقين في الاشتراك مع المؤمنين في قتال المشركين والكفار، كما حصل ذلك في غزوة أُحد ـ وإن رجعوا في أثناء الطريق ـ وكما حصل ذلك في معركة تبوك، وفي غزوة بني المصطلق وغير هذه المعارك.

هناك إجابات كثيرة محتملة على سبب سماح الرسول لهؤلاء المنافقين في الاشتراك بحروبه:

الإجابة الأولى

إن الرسول الكريم ﷺ رسول الرحمة والانقاذ، وهو الذي جاهد وأعطى، وأنفق عمره، وحياته، وطاقته، وشعوره، وكل ما يعود له ملكاً، أعطى ذلك كله؛ لكي يهدي كافراً، أو يرشد ضالاً، أو ينير الطريق لمشرك، لأنه رحمة للعالمين، ومظهر للُطف الله في الكونين، فهو القلب الأبوي لجميع البشر وإن كانوا ذوي عقوق.

ومن جملة الطوائف التي أراد الرسول ﷺ شمولها برحمة الهداية، ونعمة الاقتراب من الله، هم المنافقون بكل تياراتهم العاملة في المدينة، مكيين كانوا أم مدنيين، أم غيرهم.

فهو يمنحهم الفرصة للخروج من مستنقع النفاق إلى أفق الإيمان، ومن حضيض التخلف الأخلاقي والذلة الروحية إلى النمو العميق والعزّة والانطلاق.

وأفضل سبيل لترجمة هذه المفردات، وتطبيق تلك المعاني هو إشراكهم

عملياً في أكرم الأدوار التي يعيشها المؤمن، وأعز الحالات وأقربها إلى الله، وهو الجهاد في سبيل الله، وحمل السيف بوجوه الأعداء، لأن «الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه»[1]

مما يعني سرعة تطهيرهم وتنقية قلوبهم، فإذا كان الإسلام حريصاً على كل البشرية رغم كثرة عقباتها العقائدية، ونكباتها الأخلاقية، ورغم بُعد أفرادها عنه مكانياً وزمانياً، وقلة خطورتهم عليه، فالأجدر به أن يولي المنافقين القريبين منه اهتماماً خاصاً، أنهم أكثر خطورة من غيرهم بفعل هذا القرب، وأكثرهم تقبلاً للإسلام ـ إذا فرض هناك تقبل ـ؛ لأنهم عاشوا قريبين من الرسول ﷺ وأصحابه، ومن القرآن وآياته، ومن جهاد الرسول ﷺ وحروبه وآثارها.

والخلاصة:

إن إشراكهم جاء ترجمة لرحمة الله وإنسانية رسوله الأكرم ﷺ وعلى هذا كان إخراجهم في حروب الرسول الأعظم ﷺ، ولكن يبقى أمر آخر وهو هل أنهم استفادوا من تلك الفرصة، وانتفعوا بذلك الاهتمام أم لا؟

فإن هذا شيء آخر ومبحث ثانٍ.

إنّ ما نريد إثباته هنا هو كرم الرسول ﷺ في استجلابهم، ومحاولة الأخذ بأيديهم لحو الهدى، وحسن العاقبة، وجزيل الثواب، ولا يهمنا فيما بعد هل التفتوا إلى أنفسهم؟ وهل أخذوا بيد الرسول ﷺ الذي أعطاهم لطفه وكرمه؟ أم ارتكسوا بالمزيد من النفاق وأخذتهم أمواجه الآسنة؟، فذلك أمر آخر، وله حديث آخر.

---

(١) نهج البلاغة ١: ٦٧ / الخطبة ٢٧، الكافي ٥: ٤، معاني الأخبار: ٣٠٩، وسائل الشيعة ١٥: ١٤، الغارات ٢: ٤٧٤، بحار الأنوار ٩٧: ٧.

وربما يجد المتتبع في التاريخ موارد كثيرة من هداية بعض المنافقين في خضم الحروب وغيرها.

فالذي يغترف من هذا المعنى فهو الفائز ومن لا يطيق الهداية فتكون النتيجة التالية فوزاً للمسلمين.

الإجابة الثانية

إنّ مراد الرسول ﷺ كشفهم بوضوح أمام المسلمين، فالمنافق يبقى ضمن طبيعته بالمراوغة والالتواء، ومحاولة التملص وتسويف الأغراض، والعمل في تغطية بواطنه مخفياً غير معروف.

ويكون كذلك ما دام في دِعة وعافية مخادعاً للرسول والمؤمنين ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[1] يُظهر لهم بخلاف ما يُبطن، ويبطنَ وتنطوي نفسه على خلاف مَا يظهر، فلا محك فيُكشَف فيه ولا محنة فينجلي معدنه بها، فيمكث هكذا مُنسقاً ضد المؤمنين، مُتسقاً مع أقرانه المنافقين، وسائر الأعداء.

فيخفون أنفسهم بأثوابهم هذه، وبالتالي يضيع أمرهم على المؤمنين، ويصعب فرزهم من أوساط المسلمين، ولكن تعريضهم إلى الحرب الضروس، وإلى القتال المُرّ، يضطرهم بالنتيجة لكشف نواياهم أو انكشاف نواياهم رغماً عنهم، وهناك تُبان حقائقهم بما لا يخفى على الناظر بعيداً كان أو قريباً، صغيراً كان أو كبيراً، حاضراً في الحرب أو غائباً عنها، فإن أمر انسحابهم من القتال كان بسبب ما يسري في قلوبهم من مرض النفاق ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾[2] ، هذا من جهة.

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) آل عمران: ١٦٧.

ومن جهة أخرى، فإن انسحابهم من الحرب، وطلبهم العذر لغرض الإعفاء رغم عدم استحقاقهم ذلك، لم يكشف عن خبث نواياهم وعدم سلامة إيمانهم فقط؛ إنما كانت فرصة لأن ينـزل بهم قرآن معلناً بوضوح عن هويتهم، وعن مواصفاتهم، وكل ما يتعلق بهم؛ وكان ذلك الكشف الغيبي صارخاً، واضحاً، فاضحاً، فلا غبار ولا ادعاء ولا شك ولا ريب حيث السماء وضعت فصل الخطاب.

فكان أن كُشِفوا للملأ بعد الخفاء، واستوضحهم المسلمون بعد طول عناء، في جملة ما نزل بهم من الآيات القرآنية في تلك الوقائع التاريخية المهمة.

ولولا تلك الفرصة التي منحها لهم الرسول ﷺ ما كانوا لِيُعلَموا وما كانوا لِيُكشَفوا بهذا الأسلوب المثير ببراعته وأدائه.

قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾[1].

الإجابة الثالثة

إن إخراجهم يمثل تسديداً غيبياً للرسول ﷺ وذلك بما نزل عليه من آيات بخصوصهم توضح زمرتهم، وتُخبر الرسول ﷺ والمقاتلين بأي نحو سيكونون.

وهل هم هجروا النفاق أم أنهم مردوا عليه؟ وهل هم أهل ولاية للمؤمنين أم: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[2]؟.

إذن خروجهم مع الرسول ﷺ مناسبة لإفاضة التعريف بهم، وزيادة

---

(١) العنكبوت: ١١.

(٢) التوبة: ٦٧.

توجيه نظر المؤمنين لهم، مما يعني أن الرسول الأعظم ﷺ والمؤمنين لم يكونوا متروكين من هذه الجنبة، إنما يوضح لهم الغيب كل الجزئيات المحيطة بهم والمحتملة التأثير عليهم.

وفعلاً نـزل بالمنافقين من القرآن الكريم الكثير، وكشف من محاولاتهم بإزاء الرسول ﷺ الكثير، ونبّه الرسول ﷺ على مواقف لو لم يتداولها الغيب لانتهى فيها شخص الرسول ﷺ.

وبقي القرآن الكريم يرعى الكيان الديني غيبياً، ويسدده في الظروف الحرجة بما ينـزل عليه من الوحي إلى الحد الذي بات معه المنافقون على حذر شديد ووجلٍ عظيم، من أن تنـزل على رسول الله ﷺ آية تحدد أهدافهم، وتكشفُ أسمائهم، وتحذر من مشاريعهم التخريبية الهدّامة.

ويكشف القرآن الكريم في إطار ملاحقته للمنافقين وحصحصة نواياهم، حتى هذا الحذر في نفوسهم، وذلك التوجس الرابض على شغاف قلوبهم، بقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[1].

ثم كان الكثير من مصاديق هذه الآية مما كشفه القرآن الكريم وأخرجه في تاريخ المسلمين وعند وجود النبي الأكرم ﷺ.

الإجابة الرابعة

تأليب الرسول ﷺ والمؤمنين مِن حوله على النفاق والمنافقين، فالرسول الأكرم ﷺ يعلم أن هؤلاء سوف لن يشتركوا بالحرب، وسوف يتسللون لواذاً منها، وسوف يصيبهم الخور والضعف والجُبن والفرار،

---

(١) التوبة: ٦٤.

وإنهم بالتالي لا يتمكنون أن يجاروا أحداث الحرب، ويجابهوا فرسانها.

لا لأن الرسول ﷺ عالم بمستقبل هؤلاء، ولا لأنه مُنبأ من قِبل الله بشأنهم، ولا لأنه يعرفهم من خلال مواقفهم السابقة فقط، وإن كان كل هذا صحيحاً، ولكنه ﷺ يعلم أن النتاج الطبيعي للنفاق ومرض القلوب، والبناء السيء الهش، والأمور القذرة التي بُنيَت عليها نفوسهم، وهذا المقدار الهائل من الوسوسة في قلوبهم، والشك الكثير الذي تلبّس بهم، كل هذا سيجعل نفوسهم خاوية في مواجهة الأحداث، خصوصاً العنيفة منها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[1].

فكيف لو كان كَسْب المنافقين كله الخطايا، والتحريض على رسول الله ﷺ، وهَمْز ولَمْز المطوّعين للحرب، وتخريب المجتمع ومقاتليه معنوياً، إنها أمراض خطيرة في النفس الإنسانية لها آثار وضعية تبرز في حينها وفي وقتها المناسب لها، وأنسب الظروف لبروزها هو احتدام الأسنّة، وحمل المهج والأرواح على كف الهبة والعطاء.

فهذا موقف يحتاج إلى فؤاد مستقر على مبدأ يدفعه لقبول المصير، أما أن يكون في الجيش إنسان يحمل فؤاداً يضاد الدين، ويحارب سنّة الله، ويعمل جاهداً لإيقاف حركته ومسيرته، ويقبل أن يكون مصيره الدفاع عنه، والموت لأجله، فهذا لا يمكن قبوله.

وهذا بحد ذاته بما يحمل من انكفاء عن الهدف، وخذلان لله ولرسوله ﷺ، ورأس النفاق الخيانة[2]، فسيؤدّي أخيراً إلى هذا الانحدار الخطير وسيكوّن في

---

(١) آل عمران: ١٥٥.

(٢) عيون الحكم والمواعظ لعلي بن محمد الليثي الواسطي:١٢٢، عنه في مستدرك الوسائل: ١٥.

نفوس المؤمنين حالة محكمة من بغض النفاق والحذر من أهله والسعي لتطهير أوساطهم من المنافقين، والبحث عنهم لاستئصال شأفتهم، وقلع شوكتهم، وسيجعلهم يجتنبون مناشئ النفاق كي لا يكونوا في طريق المنافقين.

وكل هذا إنما يحصل وبشكل تام وكبير لو رأوا سلوك المنافقين وأعمالهم الفاسدة عن قرب وفي وسط حدث مهم كالحرب، فيكون أوعى في بغضهم، واجتناب أمرهم، والالتزام بما يقوله الرسول ﷺ عنهم.

ويكون ردعاً للمنافقين وتنقية للمؤمنين، ورصّ صفوفهم بوجه أعدائهم ودعوتهم إلى الالتفاف حول رسول الله ﷺ، وفعلاً نقل التاريخ كيف تعامل المؤمنون مع المنافقين حين أمرهم النبي ﷺ في إخراجهم من المسجد.

الإجابة الخامسة

قمع حالة الشقاق المحتملة، في حالة كونهم يُطردون عن المشاركة في الحرب، ويخرجون من إطار معونة المؤمنين على عدوهم، مِن شأنه أن يُعَرِّض معسكر رسول الله ﷺ إلى حالة من التساؤل والارتجاج: إن هؤلاء الذين أُقصوا من المشاركة في الحرب، هم من جملة المؤمنين على رأي البعض في معسكر الرسول ﷺ، وربما لم يكونوا مُكتَشفين بهذا المقدار من الوضوح.

وعلى رأي الفئة الثانية أنهم منافقون، يُخاف على المؤمنين منهم، فإنهم لا يزيدون المقاتلين إذا خرجوا إلاّ خبالاً، ويبثون في صفوفهم الفتنة، وما أشد حاجة المقاتل في حربه إلى الوحدة والاستقرار النفسي، وعدم تشتت قواه الذاتية.

فبين رؤية الفئة الأولى القائلة بإيمان هؤلاء وضرورة مشاركتهم خاصة مع معرفتنا كثرة عددهم، وما يلحق جيش الإسلام من انفصال هذه الكثرة من

جهة، وإن جيش الإسلام قليل العدد أمام العدو، فكيف نرضى أن يُثلَم منه قسم له أهميته في مواجهة الأعداد الكبيرة من المشركين من جهة أخرى.

علماً أن المشركين فيهم الشجعان، والجسورون، والفرسان الأقوياء، مما يجعل داعي الفئة الأولى المطالب بمشاركتهم داعياً قوياً ووجيهاً.

والفئة الثانية من المؤمنين معلوم رأيها في ما سبق من سطور، وبهذا يقع الانقسام والخلاف في مشاركة هؤلاء وعدمه، مما يكون له أبلغ الأثر على الحرب ونتائجها المرتجاة، لأن مسألة الانقسام والخلاف قد تؤدي إلى شلّ العسكر وفشله، وذهاب ريحه، وانكساره، وهزيمته أمام الأعداء.

فعمد الرسول ﷺ للبت بهذه القضية خشية هذا الاحتمال، فسمح لهم بالخروج إلى الحرب فلا القائلون بعدم خروجهم يرفضون، باعتبار أن الرسول ﷺ أمر بذلك والرسول ﷺ يعلم أمرهم ومنقلبهم، فهذا أمر يُطمئن هذه الفئة، وأما القائلون بضرورة مشاركتهم سيطمئنون لهذا الأمر باعتباره ﷺ لَبّى رأيهم، وحقق رغبتهم.

وقد تكلم لنا القرآن الكريم في مناسبة عن هذا الانقسام الحاصل بين المؤمنين بخصوص المنافقين ودورهم في الحرب.

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [1].

الإجابة السادسة

لعل بقاؤهم في المدينة مع خلوها من الرساليين، وخلوها من أصحاب الديار، يشجّعهم على الوثوب عليها بما لديهم من قوة، ليستلموا جميع

---

(١) النساء: ٨٨.

مراكزها، ومصادرها الاقتصادية، والتموينية والتسلحية، ويقفون بوجه الرسول ﷺ وأصحابه.

خاصة مع افتراض وجود اليهود في المدينة، وهم كارهون لظل الرسول ﷺ فضلاً عن شخصه الشريف، وقد يكون الأمر أشد خطورة في كونهم على اتفاق، وتنسيق مع الأعداء من قريش وغيرها فقد يحصل التفاف من المشركين، ولو بشكل مجموعة واحدة تدخل المدينة.

بينما الرسول ﷺ وأصحابه مشغولون في مقاتلة الباقين، فتكون تلك المجموعة وزمرة المنافقين يداً واحدة في إحتلال المدينة، وانتهاك حرمة نسائها وقتل من بقي فيها، والعبث بها، وبدرجة قصوى، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى سقوط دولة الرسول ﷺ، أو إضعافها بشكل كبير جداً.

خصوصاً إذا أحاطتهم النكبات وبهذا المقدار المفرط المؤلم، فلكي يأمن الرسول ﷺ شرّهم ومؤامراتهم أخرجهم معه.

مما يعني أن الرسول ﷺ يعرف ماذا يعني وجود المنافقين في المدينة، ويعرف حجم الأخطار التي سوف تحلق به، لو كان لهم ما أرادوا، ويعلم ما سوف يصيبه من قريش ومن القرى الحاقدة، والجماعات المنتظرة لهذا الموقف.

فضلاً عن اليهود الذين يتربصون به وبأصحابه الدوائر، وفعلاً عقدوا معهم حلفاً واستنهضوهم وألَّبُوهم على المسلمين بعد أُحُد، ويعلم ﷺ ما سوف يحل بالمؤمنين وعيالاتهم من الرزايا وما تنـزل بساحتهم من الأقدار، لذلك كان ﷺ لا يتساهل ولا يتوانى في علاج داء النفاق، وإعلان الحرب الاجتماعية عليه.

ومما يعين على هذا الرأي أن في حرب أُحُد كانت مشورة عبد الله بن أُبيّ بن سلول على رسول الله ﷺ هو البقاء في المدينة وعدم الخروج لملاقاة الأعداء في خارجها، وهذا ربما يعني في بعض ما يعنيه أنه كان ينتظر أن

يقترب المشركون فيتآمر وإياهم على محاصرة الرسول ﷺ في المدينة والقضاء عليه، وبشكل مؤكد ومضمون.

ومما يعين عليه أنه لما استنفرهم الرسول ﷺ للحرب والقتال، ومناجزة أعداء الله تركوه في منتصف الطريق، ورجعوا في دِراما مبيتة يراد منها خذلان الرسول ﷺ وكسر نفسيته وأصحابه، وسحق معنوياتهم، والتأثير على هيبتهم، وما كسبوه من انتصار في بدر الكبرى.

وحينما رجعوا حملوا شعاراً غريباً حيث إنّهم ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾[1] والحال أن الرسول الأكرم ﷺ يدعوهم إلى ميدان القتال وسوق المنايا والآجال ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾[2].

كل هذا وغيره يكشف على أن مخططاً ما يُحاك ضد الرسول ﷺ ودولته الغَضّة.

اعتراض وجواب

أما لو قيل: إن إخراجهم قد يؤدي إلى انضمامهم إلى العدو في حين الالتحام، مما يشكل خطورة على الرسول ﷺ وجيشه من جانب انكسار نفسية أتباعه بفرار هؤلاء لأعدائه، ومن جانب تقوية شوكة الأعداء وازدياد قوتهم بوجه المسلمين، نقول:

الجواب الأول

يجب أن لا ننسى أن الرسول ﷺ لم يخرج معتمداً على هؤلاء كما أسلفنا، إنما كان ﷺ يعتمد على الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[3] وقد

(١) آل عمران: ١٦٧.

(٢) آل عمران: ١٦٧.

(٣) الحج: ٤٠.

نَصَرَهُ الله بالرعب، وبما لديه من عناصر مضحية، مجربة، معروفة، تفديه بماء العيون، وأغلى الأثمان أن كانت أرواحاً، أو أجساداً، وهؤلاء المنافقون لا يقلبون الموازين، إذ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1].

الجواب الثاني

لعله تكون فرصة مناسبة لقتلهم واجتثاث وجودهم إن التحقوا بجيش العدو، لأنهم أصبحوا جيشاً كافراً، حاله حال الجيش المعادي، أو أسوء منه، مما يعني تخلص الإسلام والمسلمين منهم.

الجواب الثالث

إن يكون هؤلاء مع الأعداء في ساحة الحرب افضل من أن يكونوا معهم في المدينة، لو فُرِضَ التفاف الجيش المشرك عليها، وبذاك لا تذل فقط الرقاب وإنما تنهب الأعراض، وتسلب الديار، وهو أشد وقعاً على المسلمين في باب المزاحمة والترجيح.

الجواب الرابع

إنّا نشكُ في كون هؤلاء مستعدين ليكونوا سيوفاً لصالح المشركين ضد المسلمين، لا لكونهم لا يريدون الموت والزوال لأهل الإسلام، وإنما لعدم قدرتهم النفسية على المواجهة والقتال والتضحية أساساً.

إنّا نعتقد أن واحداً من أسباب نفاقهم وعدم خروجهم، هو جبنهم وهروبهم من الموت، وفرارهم من حد السيف، لأنهم طُلّاب دنيا، وطالب الدنيا يروع من ذكر الموت.

---

(١) آل عمران: ١٢٦.

نعم لعلهم سيكثّرون السواد بوجه رسول الله ﷺ، أو يشاركون مشاركة ضعيفة لمعرفتهم بشدة المسلمين واستماتتهم، وهذا يعني القضاء عليهم في الحرب، مما يُضيّع أهدافهم في التمسك بالدنيا والتعلق بحبالها.

الجواب الخامس

غايته أن تلحق الهزيمة بالرسول ﷺ، وأصحابه، وجيشه، بسبب وجود المنافقين مع أعداء الله ورسوله ﷺ، على أسوء الفروض والاحتمالات، ولكن الهزيمة المحتملة لا تسبب رجوع الرسول ﷺ بعدها إلى الصحارى والفجاج، وإنما إلى ديار، وبيوت، ومساجد، لا أن يعود الرسول ﷺ إلى المدينة ولا نساء ولا أولاد ولا أعراض فيها، إنما يعود لها وهو مدافع عنها، ذاب عن كرامتها، متحصن بحصن تلك المدينة الواقية له، وهذا بخلاف ما لو كانوا في المدينة، فإن ذلك كله سوف يخرج من خيار الرسول ﷺ ويذهب بناؤه أدراج الرياح.

الجواب السادس

لغرض إشراكهم في الغنائم مما يؤلف قلوبهم على الإسلام، أو يجلب مساعيهم نحوه على نحو كون الغنائم تلبّي مطامعهم المادية، أو تركز طموحهم في التوسعة والإكثار للمال، فقد ذكر القرآن الكريم أن صنفاً من الناس إنما يخرج هادفاً لجمع المال وابتغاء الإكثار من الغنائم ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾[1].

ثم ضبط لنا التاريخ ذلك، وصرح به، ويذكر في غزوة تبوك، كما عن المغازي للواقدي: (ولما مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائراً، فجعل

---

(١) عيون الأثر ٢: ٢٥٦، سبل الهدى والرشاد: ٣: ٤٤٣.

يتخلف عنه الرجال فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان! فيقول ﷺ: «دعوه فإن يَكُ فيه خير فسيُلحقه الله بكم، وإن يَكُ به غير ذلك فقد أرى حكم الله فيها» فخرج معه ناسٌ من المنافقين كثير لم يخرجوا إلاّ رجاء الغنيمة)[1].

وبعد أن فرغنا من المبحث الثاني ومناقشة تفاصيله سوف ندخل في تفسير ظاهرة قضية سكوت الرسول ﷺ على موقف عبد الله بن أُبي في المبحث الثالث

(١) المغازي للواقدي ص١٠٠٠، أنظر الثقات لابن حيان ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٢: ٣٧١.

المبحث الثالث

سكوت الرسول ﷺ عن عبد الله بن أبي

لماذا سكت الرسول المصطفى الأعظم ﷺ على عبد الله بن أُبيّ بن سلول؟ ولماذا أجاب طلبه في الإفراج عن يهود بني قَيْنُقاع؟

قد جاء في كتب التاريخ: أن الرسول الأكرم ﷺ سكت على عبد الله بن أُبي بن سلول، وهو عميد المنافقين وسيدهم في المدينة عندما سحب الرسول ﷺ من أثوابه طالباً منه أن لا يعاقب يهود بني قينقاع على غدرهم وقبيح فعلهم، وسنناقش هذا الأمر ضمن هذا البحث:

المثير حقاً أن تنتهي محاولة ابن أُبيّ وإساءته إليه ﷺ دونما ردع وتَوبيخ شديدين، ولقد كان من المنتظر لشخصٍ من هذا النوع قام بـجرم قبيح وفعل سيء أن يأخذ استحقاقه العقابي، ولو استوجب ذلك جرحه، أو قتله والبطش به.

بينما نراه يخرج من الحدث سالماً معافى لم يلق قدحاً ولا جرحاً ولا أخذاً قط، وبينما هو ممن يستحق أن يجلد به الرسول ﷺ الأرض لِقُبح كلامه وسوء نـزاعه مع الرسول الأعظم ﷺ، نجد أن الرسول ﷺ اكتفى بالغضب المكتوم في داخل النفس، والذي ظهرت إماراته على وجهه الشريف تعرقاً واحمراراً.

وبالوقت الذي ننتظر فيه أن يُلحق باليهود في الطرد والإجلاء، نرى الرسول الأكرم ﷺ يُلبي له طلبه، ويُرضي رغبته، ولا يُنفق معه طائل جهد إلاّ أن يقول ﷺ: «خلوهم لَعَنَهُم الله، ولَعَنَهُ مَعَهُم»[1]، بضمير

---

(١) الطبقات الكبرى ٢: ٢٩، تاريخ الطبري ٢: ١٧٣، عيون الأثر ١: ٣٨٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٠.

الغيبة لا الحضور، مما يعني أن الكلام لم يكن بوجه ابن أُبيّ، أو بوجهه ولكن أراد له التخفيف.

ولا يُستَبعَد ان ابن أُبيّ لم يسمع بهذه اللفظة البتة، أو أراد الرسول ﷺ أن لا يُسمعَهُ إيّاها، أو أراد أن يُسمعها المسلمين دونه، على أية حال هكذا كان الأمر.

فهل يعني هذا أن الرسول ﷺ غير قادر على أخذ حقه من ابن أُبيّ وهو نبي ومعه جيش وشعب؟ وهل يعني انه خَضَع لطلب إبن أُبيّ؟ أوَ ليس هذا النوع من الخضوع سُبّة على عوام الناس فكيف لا يكون سُبَّة على أسيادهم وذوي الهيبة والوقار فيهم، ومن لهم دور القيادة والقدوة عندهم من باب أولى؟.

ثم ألا يكون هذا هزيمةً نفسية للمؤمنين، وتجبيناً لهم في مواقف من هذا القبيل.

أم لم يكن هذا كله، أم يكون عكسه تماماً؟ إذن لنرى أي السلوكيات أولى من خلال هذا البحث المختصر.

والبحث عن هذا التساؤل يقع في عدّة إجابات:

الإجابة الأُولى:

إن الرسول المصطفى ﷺ إنما لم يرد عليه خوف الفتنة في انضمام اليهود إلى ابن أُبيّ وقيادة حرب عنيفة ضارية على رسول الله ﷺ، وكان بمقدورهم ذلك لو قدّر انفلات الموقف من يد الرسول ﷺ، خصوصاً أن حصونهم إلى الآن لم تُفَتش، وهم الآن في حرارة الموقف.

فإذا أقام المنافقون بزعامة ابن أُبيّ بحركة سريعة لمساعدة اليهود، تُعيد لهم موقعهم وسلاحهم، وأنفاسهم، وتُهيئهم لموقف المواجهة، وتُعيد

الموازنة لكفتي الميزان، فإن ذلك يقضي على أمل الرسول الأمجد ﷺ في القضاء عليهم، أو على خطرهم بكلمة أدق، والحال هو ﷺ يقوم بترصين قواعده الأمنية والسياسية، بينما يأتي وبنفسه ﷺ ولموقف طارئ فينسف القاعدة وأمنها، وأهلها، ومؤسسيها بيومٍ واحد.

الإجابة الثانية:

إن هذه الحرب المحتملة سوف تؤدي إلى استنزاف المسلمين ـ على فرض بقاءهم بعدها ـ وهم الذين يُعِدُّون أنفسهم لعدوان خارجي محتمل بل متيقن.

والدليل على ذلك غزوة السويق، وغزوة أُحُد، وغيرها ـ حيث كانت غطفان وسليم ومحارب، تُهيئ تشكيلاتها ومقاتليها للإغارة على المدينة ولكن الرسول ﷺ باغتهم قبل أن يباغتوه ـ فكيف يمكنهم المحافظة من اليهود والمنافقين.

الإجابة الثالثة:

ومع وجود هذا الهرج والمرج الواسع، مَن يضمن عدم حصول أعمال شغب وتخريب قد لا تُبقي للمسلمين داراً، ولا من نسائهم أبكاراً، ولا لمسجدهم آثاراً، أي لا تبقى لهم باقية تُذكَر؟

حيث يكون هناك سرقة، وغدر، وبطش، وحرق، وهدم، والمعلوم أن اليهود وحسب تعبير إبن أُبيّ وإحصائياته[1] (أربعمائة دارع وثلاثمائة حاسر)[2] وكان الراجعون من المنافقين في أُحُد مع إبن أُبيّ بن سلول ثلث

---

(١) التي تأتي دقيقة عادة لأنه منهم حلفاً وهذا مُعلَن، ومنهجاً وهذا مُبطَن.

(٢) المغازي ١ :١٧٧، وفي إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٧٥، وتاريخ الطبري ٢: ١٧٣، والبداية والنهاية ٤: ٥، وسيرة ابن هشام ٢: ٥٦٢، سيرة النبي لابن كثير ٣: ٧، وسبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٠، «أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع».

الجيش مع رسول الله ﷺ عند حربه مع المشركين في أُحُد، ما سوى الباقين والمتخلفين أصلاً في المدينة.

وإذا عرفنا أن جيش الرسول ﷺ في أُحُد كان ما يقارب الألف مقاتل، فيكون عدد الراجعين (٣٥٠) أو يزيدون، وطبعاً هذا لا يعني عدم وجود آخرين غيرهم، كانوا قد ذهبوا مع الرسول ﷺ في جيشه إلى أُحُد.

هذا ما عَدا ما لليهود من نساء وصبيان، وكذلك ما للمنافقين، فهم إذن عدد يفوق على كل التقادير، عدد أفراد الجيش الإسلامي، ولو تنـزلنا لقلنا يساويه، وهذا العدد له أهلية أن يكون منافساً قوياً للمسلمين قد يتمكن من سحقهم تماماً.

الإجابة الرابعة:

إن يهود بني النضير وبني قريظة لا يزالون بجوار النبي ﷺ، وهم بهذا الجوار يشكلون جداراً مانعاً نسبياً، من حرية حركة الرسول ﷺ، وعدم اتخاذه قرارات تتسم بالشدّة.

فما المانع أن ينصروا إخوانهم من يهود بني قَيْنُقاع ومن معهم من المنافقين على رسول الله ﷺ، فخلاف اليهود ـ على فرض الخلاف ـ ليس في حال كونهم يواجهون بعقيدتهم عقيدة جديدة، لديهم اعتقاد أنها تريد محوهم.

فالوحدة العقائدية تنسيهم الخلاف، وحتى إن لم تنسيهم الخلاف ربما يتدخلون لنصرة بعض حلفائهم من المنافقين.

ومن قال إن قريش، سوف لن تتدخل في حسم الموقف ووضع حد لإنهاء جرأة النبي ﷺ وتمرده عليهم، وهي فرصة لا يأتي القدر بأثمن منها.

ونرى الواقدي خاصة يرتب في مغازيه غزوة السويق بعد غزوة بني قَينُقاع من الناحية الزمنية، ومن حيث تسلسل كتاباته لغزوات الرسول ﷺ،

مما يعني أنهم أثّر فيهم ذلك، وإن لم يكن سبباً قوياً للهجوم على الرسول ﷺ، فكون غزوة السويق متزامنة مع غزوة بني قَينُقاع أمرٌ فيه معنى.

بل ورد أن بني سُلَيم في جمع - يعني جمع من المقاتلين - وغطفان في جمع كانوا يريدون الإغارة على رسول الله ﷺ ومدينته، وبعد غزوة بني قَينُقاع - كما في المغازي للواقدي - مما يوحي أن هؤلاء بدأ خوفهم الجديّ من الرسول ﷺ وجيش المدينة أكثر من قبل.

أقول: فما المانع لهم وهم أعداء رسول الله ﷺ أن يتدخلوا لنصرة اليهود والمنافقين في المدينة، مع كون المسلمين استهلكهم الخلاف الداخلي وربما الخلاف الخاص والبيني - بسبب فتنة إبن أُبيّ - فيكون التمكن منهم ونصر أعدائهم المدنيين أيسر وأسهل على قريش وغطفان وبني سُلَيم، ويهود بني النضير وقريظة.

الإجابة الخامسة:

ثم ماذا يريد الرسول ﷺ من اليهود، وماذا يريد المنافقون منه ﷺ، فإن قلنا إن إبن أُبيّ والمنافقين يريدون من الرسول ﷺ أن لا يقتل اليهود، فهذا إنما نستَبعدُه، لعلمهم أن الرسول ﷺ لا يقتلهم، وإن كانوا مستحقين للقتل في الواقع ونفس الأمر.

وإن كانوا يريدونه ﷺ أن لا يخرجهم فقد وقع هدفه ﷺ في نهاية المطاف، فماذا يريدون إذن؟ والأرجح عندنا لا هذا ولا ذاك للأسباب التالية:

أ - إن الرسول ﷺ ليس رجلاً جزّاراً حتى وإن قال ابن أُبيّ (تريد أن تحصدهم في غداة واحدة)[1].

---

(١) المغازي ١ :١٧٨، تاريخ الطبري ٢ : ١٧٣، البداية والنهاية ٤ : ٥، سيرة ابن هشام ٢ : ٥٦٢ إعلام الورى بأعلام الهدى ١ : ١٧٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣ : ٧، سبل الهدى والرشاد ٤ : ١٨.

ب ـ وإن كان حكمهم السماوي القتل فلا يوجد مجال لتركهم دون تنفيذ حكم الله فيهم، وتسامح الرسول ﷺ في قتلهم، لم يكن إكراماً لسواد عيون إبن أُبيّ أو خوفاً منه، فالرسول ﷺ كان هو وأصحابه قد تعرضوا لأخطر المخاطر دون أن يكترثوا لأنهم يريدون ليس فقط تنفيذ الحكم الشرعي بل المحافظة عليه، كما في الخندق ومن قبل في بدرٍ وأُحُد.

ج ـ إنما جاء كلام إبن أُبيّ (تريد أن تحصدهم في غداة واحدة) لمجرد الإثارة من إبن أُبيّ، وكسباً منه لمودة اليهود، وتأكيداً على نصرته التي قطعها على نفسه، فإن لم يحققها لهم في الحصن فإنه لم يُقصِّر بها خارجه.

وإنما أراد إبن أُبيّ أن لا يأخذ الرسول ﷺ أموالهم وسلاحهم، وأن لا يخرجهم من المدينة، ويجعله مكتفياً منهم بحصاره السابق لهم، وانكسارهم فيما بعد[1].

د ـ إنه عاوَدَ الرسول ﷺ مرّة ثانية في العفو عنهم (فجاء إبن أُبيّ بحلفائه معه، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يُكلم رسول الله ﷺ أن يُقرّهم في ديارهم)[2].

هـ ـ وإن إبن أُبيّ يعرف أنه سوف يبقى ضعيف الجانب بدون اليهود، أو ليس كقوته السابقة، واندفاعاته الحماسية الحادة ولو كانت بعكس التيار.

وإذن ليس لديه القدرة من تهديد الرسول الأعظم ﷺ، بالمقدار الذي كان عليه سابقاً، فلو كانوا موجودين في أُحُد فإنه ـ إبن أُبيّ ـ ربما لا يكتفي بعدم الخروج للحرب مع الرسول ﷺ فقط إنما التآمر مع اليهود ـ

---

(١) أوردنا هذه الاجابة لاحتمال أن يعترض علينا أحد بما يلي: الم تلاحظوا الرواية المشيرة الى قتلهم.

(٢) المغازي ١: ١٧٨.

وهم الموتورون ـ على إحداث إنقلاب في المدينة المنورة.

وفي الحصيلة لم يحصل إبن أُبيّ على مطلبه هذا، ونَفَّذ الرسول ﷺ تهديده الذي أراد وهو الإخراج دون القتل.

إذن احتمالنا هو الاحتمال الثالث: وهو أن ابن أُبيّ أراد إبقائهم على حالهم.

الإجابة السادسة:

ثم من قال إن ليس في المسلمين منافقون ممن لم يظهر نفاقه بعد، مُحبّاً لإبن أُبيّ بن سلول، ومؤيداً له في الباطن، أو حليفاً له، يرجون نصرته، وهم ـ أي اليهود ـ بذات الوقت يُجيدون لغة الالتفاف والتملص، والتحريض والتأليب، واستدرار العواطف والمشاعر، وفي مواقف مُحرجة.

(فجَعَلَت قَينُقاع تقول: يا أبا الوليد [1]، من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟)[2]. لاحظ الاسلوب الاستفزازي واللغة العاطفية ، ومحاولة قلب الموقف.

وعلى هذا تكون الحرب الشعبية فرصة جاهزة لإعلان الانشقاق من قبل المنافقين، والالتحاق بجيش العدو، ولنتصور الموقف بعد ذلك.

الإجابة السابعة:

لا يَحسُن أن يستمر الرسول ﷺ بكلامه مع هذا الفاسق المنافق منازعاً له، الذي وضع نفسه كَنِدٍّ لرسول الله ﷺ مباشرةً، لذلك طالبه الرسول ﷺ «أرسلني» ولأكثر من مرة دون أن يُصعّد الموقف معه على

---

(١) يعني عُبادة بن الصامت المكلف من قبل الرسول ﷺ بإجلائهم.

(٢) المغازي ١:١٧٩.

سبيل إثارته ورفض طلبه بالمرة.

بل اكتفى بغَضَبه واحمراره وتعرقه، وقوله ﷺ: أرسلني، دون المزيد عليه، ولّما رأى الأمر لم ينته بذلك، أجابه لطلبه في الإخراج دون القتل ـ على صحة نظرية القتل ـ وهناك لعَنه ولعَن اليهود معه أو بالعكس، وذلك بعد ما ضمن الرسول ﷺ هدوء الموقف وانقطاع أثره، واستتباب الوضع ولو آنياً.

وإلاّ فليس من اللائق والمناسب أن يكون هذا الرجل منازعاً للرسول ﷺ، مخاصماً له، أمام الملأ، وليس من المناسب أن يجعل الرسول ﷺ من منازعة هذا الطائش المنافق سبباً في إشعال فتنة تحرق الأخضر واليابس وما بينهما.

الإجابة الثامنة:

ومن المرجّح جداً أن نقول: إنها أخلاق الرسول ﷺ في تحمل أغلاط الأخرين، وإغلاظهم عليه، وتجاوزاتهم على مقامه الشامخ المنيف الشريف، بقصد إصلاحهم، وتوجيه أخلاقهم.

فضلاً عن كونه رسولاً يطلب السلام للناس، والأمن للأمة ما وسعه إلى ذلك السبيل، فهو نبيٌ رحمة وتسامح، وقد عُرِف عنه ذلك في الجَم الغفير من المواقف ما قبل البعثة وما بعدها، وما قبل الهجرة وما بعدها.

وليست أحداث إلقاء السلى عليه وهو يصلي، ولا رميهُ بالحجارة وهو ﷺ يمشي، ولا محاولة خنقه، ولا شتمه وسبّه، والضحك عليه، وغير ذلك عنّا ببعيد.

فلْتكن هذه من تلك.

والظاهر أن الرسول الأكرم ﷺ كان قد قرر أن يُحسِن صُحبة إبن

أبيّ إلى آخر عمره، وإن بَدَرَ منهُ ما بَدَر، فقد جاء ذلك المعنى في ردّ الرسول ﷺ على إبن عبد الله بن سلول حيث اقترح على الرسول ﷺ قتل أبيه، بعد غزوة بني المصطلق (المريسيع)، ولكن لم يوافقه الرسول ﷺ على ذلك:

جاء في المغازي: (وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبي مقالة عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: «مر محمد بن مسلمة يأتك برأسه» فجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن كنت تُريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فمرني، فوالله لأحملنّ إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا.

والله، لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالدٍ مني، وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر، ولا يشرب شراباً إلاّ بيدي وإنّي لأخشى يا رسول الله أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأدخل النار، وعفوك أفضل، ومنك أعظم.

قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله! ما أردتُ قتله وما أمرت به، ولنُحسِننّ صحبته ما كان بين أظهرنا»[1].

والأعظم من هذا كله أن الرسول ﷺ صلّى عليه عند موته باعتباره من سائر المسلمين، وداخلاً في عنوانهم ولو ظاهراً.

الإجابة التاسعة:

ولعله ﷺ أراد أن يُعالج ما يحتمل حصوله من الخلاف ـ كما برَزَ فيما بعد ـ بين المهاجرين والأنصار من جهة، والأنصار بأوسها وخزرجها من جهة أخرى.

---

(١) مغازي الواقدي ٢: ٤٢١، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٥٠، وانظر تفسير القمي ٢: ٣٧٠، بحار الأنوار ٢٠: ٢٨٨، تفسير الصافي ٥: ١٨٠، تفسير نور الثقلين ٥: ٣٣٤.

فكأنه ﷺ أراد أن يقول، يجب أن يكون السلوك الإيماني القيمي عالياً جداً، بحيث تُقدّم المصلحة الإلهية الإسلامية في كل شيء، وقبل كل شيء.

وأراد ﷺ أن يقول: إنّ التعامل الإنساني التسامحي حسن على كل حال ـ طبعاً ما لم يكن ناتجاً عن ذِلّة وضُعف وقَهر ـ، فلمّا رأيتموني ـ يا معشر المسلمين ـ مسامحاً وأنا نبيّ، مع مُعتدٍ عليّ وهو بعدُ منافق، وجب عليكم أن يسامح بعضكم بعضاً، في موضع الهفوة، ومورد الزلّة.

ولعل هذا الموقف وغيره نفعهم من جهة تخفيف حِدّة بعض المواقف الكائنة بينهم، وإن لم يكن ألغاها بالمرة.

إلى هنا اتممنا الاتجاه الأول في مباحثه الثلاث التي ناقشنا فيها احتواء الرسول ﷺ لخطط المنافقين والآن سندخل في دراسة كيفية احتواء الرسول المصطفى ﷺ بمخططات المشركين وذلك في الاتجاه الثاني .

الاتجاه الثاني: احتواؤه ﷺ لمخططات المشركين

لقد عمد الرسول الأعظم ﷺ الى احتواء مخططات المشركين، ولا ننسى التأكيد هنا أن كل خطط الرسول ﷺ وبكل أبعادها داخلة في صميم دفع المشركين واحتواء خططهم.

بل الحرب نفسها معهم تكون بمثابة الدور الرئيسي في احتواء هذه الخطط.

وحتى نوضّح ذلك ومقصودنا منه، سنقيم عدّة دراسات لأكثر من مسألة وعلى شكل مباحث ليبيّن لنا المراد في قدرة الرسول ﷺ في تطبيق فكرة الاحتواء هذه، وأهمية ذلك في الحروب التي أقامها ﷺ وانعكاساتها بالتالي على واقع حياة الأمّة.

المبحث الأول
نتائج الحرب في بدر القتال

ألقت بدر القتال (بدر الكبرى) بظلالها على أجواء المسلمين بركةً عامرةً، وعطاءاً وافراً؛ لأنها وفرت للمسلمين ـ وبفضل الله ﷻ ـ ثماراً طازجة، وشراباً لذيذاً، وإن كان قد جاء بعد متاعب مضنية، وأيام صعبة، وحدثٍ صاخب.

ولعله يمكن ـ بعد النظر إلى معركة بدر تاريخياً ـ استنباط بعض النتائج التي تمخضت عنها حرب المسلمين الأولى والكبرى مع قوى الشرك السفياني آنذاك لنقول:

النتيجة الأولى:

تعرض الأمة لأول اختبار بهذا الحجم ونجاحها فيه

من المعلوم والصحيح أن المسلمين مروا باختبارات كثيرة من قبل بدر الكبرى إلاّ إنها كانت محدودة وصغيرة نسبياً، وليس لها تلك الآثار الكبيرة الحجم كالتي حصلت في بدر.

ويمكن أن نحدد عظم ذلك الاختبار من خلال نقاط عدّة:

١. إن المسلمين إلى الآن لم يواجهوا جيشاً بهذا العدد، وبهذه العدّة منذ أن دخل المسلمون المدينة حتى ساعة اللقاء في بدر الكبرى.

٢. إن القادمين للحرب ليس هم من قبيلة ضعيفة، أو خاملة الذكر، أو قبيلة ليس لها موقف مع رسول الله ﷺ.

إنه كان لقاء مع قريش ويكفينا في فهم معنى ذلك ما قاله بعضهم عند جلسة التشاور (يا رسول الله! إنها والله قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فتأهّب لذلك أُهبته وأعِدّ لذلك عُدَّته)[1].

ونعلم حجم وأهمية الحدث من خلال استغاثة المسلمين بين يدي الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2]، ونعلم حجمه أيضاً من دعاء الرسول ﷺ:

«اللّهمّ إنك أنزلت عليّ الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد.

---

(١) المغازي ١: ٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ١١٢، الدر المنثور ٣: ١٦٦، عيون الأثر ١: ٣٢٧، سبل الهدى والرشاد ٤: ٢٦ والقائل هو عمر بن الخطاب.

(٢) الأنفال: ٩.

اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخُيلاءها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك. اللّهم نصرك الذي وعدتني. اللّهم أحنِهم الغداة»[1].

٣. ما سوف يترتب على هذه المواجهة من أمور، كما سنشير إليها في بيان النقاط اللاحقة.

النتيجة الثانية :

الإمداد الغيبي

الحصول على المد الغيبي الذي دعم إيمان المؤمنين وصَعّد معنوياتهم وكان سبباً هاماً في تحقق النصر في معركة بدر، وهذه الفقرة وإن كنا سنناقشها بالتفصيل في موقع آخر من هذا الكتاب إلاّ أنه لا بأس بالإشارة لها هنا.

فالمؤمنون مؤمنون بالغيب وحصول مصداقية الدعم الغيبي لهم، يعني أن إيمانهم سيتجذر في نفوسهم ويقوى في أرواحهم مع كونه ـ أي المد الغيبي ـ ترتب على دعائهم واستغاثتهم ودعاء الرسول ﷺ بالنصر: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2].

والشعور بأن الله ﷻ ناصرهم ومعهم في تلك الشدّة وهم تحت ظلال السيوف أمرٌ يمنحهم العزيمة والثبات.

كما أنه يشد تصديقهم بالنبي ﷺ بعرى لا تنفصم، ويكبح نعرة المشككين بوقوف الغيب بجانبه ﷺ.

---

(١) المغازي ١ :٥٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤ : ١٢١، وبحار الأنوار ١٩ : ٣٣٤.

(٢) الأنفال: ٩.

وإن يكسب الإنسان ثمرة من ثمرات إيمانه وواحداً من دواعي ارتباطه بالغيب، أمرٌ يضفي عليه السعادة الغامرة، والاستهانة بالدنيا، والاستعداد الدائم للبذل، بل سيكون في موقع السؤدد والافتخار، لذا ترى من ينقل روايةً أو حديثاً عن المشاركين في بدر من الصحابة يمدحه أولاً بالقول إنّه بدريّ.

ولو لم تكن تلك الصفة من الأهمية بمكان لَما نُعِت بها الاخرون وأصبح المسلمون بعدهم يفخرون في قول يقولونه بأنه وافقهم عليه البدريون.

النتيجة الثالثة:

الكيان والدولة

إنّها رسَّخت كيان الرسول ﷺ الديني، وشخصية الإسلام الإجتماعية والسياسية والعسكرية أمام قريش وجميع القبائل بشكل واقعي، فبدى الرسول ﷺ ـ أمام الجميع ـ وهو دولة مستقرة لها قدرة الدفاع عن نفسها وردع المعتدي عليها، ولها قابلية توجيه الجيش وتسجيل الانتصار والعودة بلواء مرفوع.

إن غاية ما تطمح له القبيلة آنذاك أن تكوّن ذلك الكيان المستقر في واقعه والمهاب في عين عدوه، والقوي عند الاضطرار إلى الحرب، والقادر على استقطاب أنظار الجميع ممن حوله، وأن تكون كلمتها مسموعة، وهامتها مرفوعة، ولها إرادة حاكمة، وتصور سائد، وسيادة معلومة معلنة، وقيادة قوية قادرة.

وقد تحقق كل ذلك في دولة الرسول ﷺ وأصبح مشخّص المعالم ومعلوم الملامح بعد معركة بدر بالذات، مما يعطي الكيان الإسلامي تلك الشخصية المحددة ليستقر في نظر القبائل كما يمنحه نفس القيمة في نظر

نفسه، وكما هو الواقع لذلك الكيان العظيم.

إذن لم يَعد الرسول المصطفى ﷺ والمسلمون في نظر قريش وبقية القبائل، مجرد مجموعة صَبَت عن تعاليم الصنم[١] وَعَدَت تقارع القوم بأفكار جديدة، وهي على أسوء التقادير عصابة تسلب القوافل وتطارد الأفراد وتقلق أمن البلاد.

لا لم يعد الأمر كذلك!!

فهم الآن دولة ولواء وجيش منظم، وعاصمة منيعة ودستور حاكم، وقوة لا تغلب، واقتصاد متين، وتسليح مكين، مرجعها ليس إلى التمور والسيوف فحسب، إنما إلى الإيمان بالواحد القهار.

إنهم من الجهة الاجتماعية أصبحوا أصحاب حضارة سِمتها الارتباط بالغيب والنـزوع إلى التغيير بما يوافق تلك السِمة، وهدفها إلغاء الصنم، وإشاعة تعاليم السماء بين البشرية جمعاء، وقد كسبوا الجولة الأولى في الخطوات الأولى نحو تحقيق ذلك الهدف، والآتي أعظم.

النتيجة الرابعة:

الاستحقاقات الكبرى

أبرزت الحرب بعض العناصر الفذة الشجاعة وأخرى ضعيفة، فقد عرف العسكران أن أول من بارز القوم في يوم بدر حمزة بن عبد المطلب عليه السلام وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه حيث دعاهم الرسول ﷺ لمواجهة عدوهم المشرك، ونصرة نبيّهم المرسل فلبّوا النداء وبادروا المواقع.

---

(١) لو صح التعبير.

ومعلوم أن النبي ﷺ لا يقدّم إلاّ أهل الشجاعة والنجدة وممن اتصفوا بحقيقة الإيمان، لخطورة الموقف وحساسية النتائج وأهمية الدور، وهذا يعني ـ بالضرورة ـ عظمة المختارين لذلك التمثيل البطولي والمنازلة الجسورة.

وذلك ما نراه جلياً في كلام عتبة أو منادي المشركين ما يؤكد هذا الأمر وبقوة حيث قال للخارجين من المسلمين للقتال والمنازلة الفردية والمبارزة البدرية، وذلك عند مناداته لرسول الله ﷺ: (أخرج لنا الأكفاء من قومنا) [1].

وتقرير عتبة لجوهر هذا الطلب عندما سألهم مَن أنتم؟ كما هو في الرواية التالية: (ثم نادى منادي المشركين: يا محمد، أخرج لنا الأكفّاء من قومنا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا بني هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكّم الذي بعث الله به نبيّكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله».

فقام حمزة بن عبد المطلب، وعليّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف، فمشوا إليهم.

فقال عُتبة: تكلموا نعرفكم ـ وكان عليهم البيض فأنكروهم ـ فإن كنتم أكفّاء قاتلناكم.

فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله.

قال عتبة: كفؤٌ كريم، ثم قال عتبة: وأنا أسد الحلفاء، ومَن هذان معك؟

قال: عليّ بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث.

---

(١) المغازي ١:٦٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤:١٢٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ٢٥٧، بحار الأنوار ٧٥: ٣٣٤.

قال: كفؤان كريمان)[١].

وبالفعل فقد حسم هؤلاء الثلاثة الموقف القتالي لهم، بل للمسلمين، بل للتاريخ في مساره اللاحق، وجاء انتصارهم بداية الفتح في بدر القتال.

وقد وثقت المصادر التاريخية من مواقف عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في تلكم الملحمة العظمى الكثير، وأيضاً وثقت المصادر موقف حمزة بن عبد المطلب كذلك ولعل قولاً لأميّة بن خلف يوضح لنا الجهاد المرير لحمزة في يوم بدر، وذلك في كلامه مع عبد الرحمن بن عوف[٢].

يقول عبد الرحمن بن عوف: (فقال لي أُميّة: رأيت رجلاً فيكم اليوم مُعلِماً، في صدره ريشة نعامة، من هو؟

قلتُ: حمزة بن عبد المطلب.

فقال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل)[٣]، والفضل ما شهدت به الأعداءُ.

وفعلاً أثبت لنا التاريخ على طول امتداد حياة تلك الشخصيتين وعظمة اختيار الرسول ﷺ لهما ودقته في ترشيحهما لخوض أول منازلة في أكبر منازلة، وكشف لنا من عظمتهما فيما بعد، حيث انتهت حياة حمزة بالشهادة في ميدان

---

(١) المغازي ١:٦٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ١٢٨ ـ ١٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٣٨ : ٢٥٧، كنز العمال ١٠: ٤١٤، الطبقات الكبرى٢: ١٧، كشف الغمة ١: ١٨٥.

(٢) وكان هذا الحديث قد جرى بينهما في يوم بدر.

(٣) المغازي ١:٨٣، السنن الكبرى ٣: ٢٧٦، مجمع الزوائد ٦: ٨١، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٦، الثقات لابن حبان١: ١٧٣، تاريخ الطبري٢: ١٥٣، البداية والنهاية ٣: ٣٥، سيرة ابن هشام ٢: ٤٦١، البداية والنهاية ٢: ٤٣٨، سبل الهدى والرشاد ٤: ٤٧.

أُحُد وهو في أوج العظمة والإقدام والذب عن رسول الله ﷺ.

وانتهت حياة عليّ عليه السلام بالشهادة بعد جهاد طويل ليس له نظير أو شبيه في كل فقرات التاريخ وليومنا هذا، مدافعاً عن النهج النبوي والرسالة الربّانية.

ولا نقصد بذكر حمزة عليه السلام أسد الله وأسد رسوله، وعليّ عليه السلام وليد المحراب وشهيده، أن نحذف أدوار بعض الشخصيات المهمة، أو نشطب عليها وإنما نرى لهذين الشخصين من الأهمية بما لا يرقى له الآخرون وإنْ بذلوا الوسع، واجتهدوا في توظيف الطاقة.

وإلاّ فأبو دجانة رجل المواقف البطولية وصاحب الصولات الجريئة ـ كما يثبته كلام أُميّة بن خَلَف في تكملة الرواية السابقة ـ كان له فضل لا يجهل.

وإليك تكملة الرواية: (ثم قال: فمن رجل دَحْداح قصير، مُعْلِم بعصابة حمراء؟

قال، قلت: ذاك رجل من الأنصار يقال له سِماك بن خَرَشة.

فقال: وبذاك أيضاً يا عبد الإله صرنا اليوم جَزَراً لكم)[١].

ومعلوم أيضاً في المقابل أن من المسلمين مَن كان قبل بدر ذا حضور خامل ودور ضعيف كان لبدر الكبرى الفضل في إبرازهم لنا.

النتيجة الخامسة:

المعادلات الجديدة

أثبتت معركة بدر ـ بما لا يقبل الشك ـ أن موازين الحرب ليست فقط في العُدّة والعَدَد، وإنما بسلامة العقيدة، وقوّتها في النفس.

---

(١) نفس المصادر السابقة.

وهذا ما يطمئن نفوس المسلمين مع التزامهم شروط الدين في كل عصر ومِصر لإنهم هم المنصورون بإذن الله ﷻ، وإلاّ فما هو تفسير أن تغلب القِلّة الكِثرة حيث كانت نسبة المسلمين الى المشركين هي الثلث، وكيف يغلب السيف والسيفان تلك السيوف القريشية المشهورة، والفرس والفرسان تلك الخيول الكثيرة الغازية، إنها موازين الغيب المبتنية على سلامة النيّة، وقوة الارتباط، وصدق الجهاد في مواطن البلاء: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[1]، وذلك لأنهم كانوا فئة مخلصة مؤمنة ميزانهم الإخلاص لله ﷻ والإيمان به دون التعويل على غيره.

ولذا نرى عندما انقلب المقياس في حُنين عند المؤمنين وقالوا: لم نُغلَب اليوم من قلة، دون أن يقولوا: لن نُغلَب اليوم ونحن نؤمن بالله وندافع عن دينه، لم تغنهم كثرتهم من الله من شيء بل ولّوا مدبرين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[2]

ولو قيل لنا: كان ذلك الزمان يختلف عن زماننا فقد كان القتال بالسيف فنـزلت الملائكة يشدّون على أيدي المؤمنين ويضربون أعناق الكافرين... أمّا الآن فالحرب بالأشعة والأزرار وعبر مسافة بعيدة حيث تعبر صواريخهم القارات مما لا مَلَكٌ يردّها ولا عنق يضربها.

نقول: إن الملاك واحد في الردع والنصرة، فالذي يكون قادراً على تزويد المؤمنين بتلك الطاقات الغيبية وعلى بث الرعب في نفوس المشركين

---

(١) آل عمران: ١٢٣.

(٢) التوبة: ٢٥

هو نفسه ﷻ قادر على رد الصواريخ وتعطيل فاعليتها وإلقاء الرعب في نفوس من أطلقها ومن ورائهم.

قال عزَّ وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، فـ ﴿إِذْنِ اللَّهِ﴾ ﷻ غير ناظر هنا إلى العدد قلةً أو كثرة، ولا إلى العُدَد سيوف هندية أو صواريخ ذريّة... رماحاً سمهرية أو أشعة وقنابل بايلوجية، إن المِلاك عنده ﷻ: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وكفى، وهذا يمكن تحققه في كل زمان، وفي كل مكان.

نعم... نحن لا ننكر أبداً ضرورة الإلتزام بالأمر الإلهي الآخر، وهو ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2]. ولكن أن نفترضه العامل الأوحد في حسم النتائج.

النتيجة السادسة:

سحق الهيبة المعادية

قضت بدر على البعض من أهم أفراد قريش وشخصياتها الذين كان لهم دور كبير في محاولة تهديم الرسالة، فقتل سبعين نفراً من المشركين بينهم من سادتهم وزعمائهم وقادتهم الكثير، كأبي جهل، وأميّة بن خلف، وربيعة، والوليد، وحنظلة بن أبي سفيان، وعقبة بن أبي معيط، وأبو البختري وهو العاص بن هشام، ونوفل بن خويلد، ومُنَبّه بن الحجاج وأخوه نبيه وغيرهم، له معناه في معادلات الحرب.

حيث إن هذا جمع مهم له تأثير كبير في تقليل نسبة المناهضين لرسالة

---

(١) البقرة: ٢٤٩.

(٢) الانفال: ٦٠.

الرسول الأعظم ﷺ، والقضاء على جملة من المخططات الخبيثة التي لو قدّر لها البقاء للعبث دوراً في رسم أحداث المستقبل، كما أن ذهابهم يعني حصول النقص النوعي في عدد المشركين وهذا لوحده له أهمية كبرى.

هذا مع الالتفات إلى أن هذه الشخصيات هي التي قادت المواجهة العريضة الصاخبة مع النبي الأكرم ﷺ وصحبه الأجلاء، وهي التي مارست معه ومعهم دور الظلم، والاضطهاد، والتشريد، والسلب، والتهجير والحرب بكل أنواعها، ومختلف أساليبها.

النتيجة السابعة:

الانطلاقة المباركة

كانت بدر بمثابة البداية المباركة لانطلاقة بعيدة، وحدث كبير تعقبه أحداث أخرى تُبنى عليه من الناحية التأسيسية؛ لذلك نرى كلامهم في أحُد بضرورة الخروج إلى مواجهة العدو خارج المدينة مبنياً على أساس تصوّرهم على ملحمية معركة بدر وعلى نتائجها الضخمة، وعلى ما زرعته في نفوسهم من رغبة حادة لملاقاة العدو والجهاد في سبيل الله ﷻ.

إن بدر كانت بمثابة الضياء الكاشف عن مواضع القوة فيهم، وعن مواضع الضعف في الأعداء، وكان امتداد هذا الضياء بعيداً يُحْمَلُ على أجنحة عسكر المؤمنين ليخرق بهم أحُداً والأحزابَ وخيبرَ وجميع الحروب اللاحقة.

إنها بدر العظمة التي أسست لهم هذا الفهم المتجذر بضرورة خوض ملاحم الهداية والاعتقاد بالنصر على كل فرض.

فلا يبعد عن الحقيقة من قال إنها كانت زاداً للمؤمنين في كل حياتهم الجهادية، ووقوداً لتحرير طاقاتهم إذا خاطبتهم الهيجاء بصليل سيوفها في كل زمان.

النتيجة الثامنة:

استرجاع الحقوق المسلوبة

وفي بدر تم إرجاع بعض الحقوق المسلوبة، حيث غنموا من المشركين ما غنموا.

فإن مراجعة قليلة إلى تاريخ الدعوة والدعاة في مكة يذكرنا باعتداء قريش على ممتلكات المؤمنين ومصادرتهم لحقوقهم الشخصية مما يعد ملكاً صرفاً.

ويذكرنا بتهجيرهم عن ديارهم وأموالهم ونخيلهم واراضيهم وعن وطنهم، ويذكرنا أيضاً بالحرمان الذي عاشوه في ظل سياسة قريش الساخطة الظالمة، وحصارهم الاقتصادي لهم.

فهم وبالإضافة إلى مشروعية أخذهم لأموال المشركين؛ لأنهم خاضوا معهم حرباً، إلاّ أن هناك مشروعية أخرى بيد المؤمنين غير الأولى، وهي كون هؤلاء المحاربين لهم الآن قد اعتدوا عليهم وسلبوا حقوقهم جميعاً من قبل، فصار استرجاع تلك الحقوق عن طريق أخذ الغنائم يمثل إعادة الحق الشرعي المغصوب إلى أهله.

ثم لا ننسى أن هذه الغنائم عززت من الوضع الاقتصادي المالي والمعاشي للمسلمين والذي يمثل بدوره تعزيزاً للجَنبة المعنوية والنفسية والتهيؤ على نحو الاستعداد للمستقبل.

النتيجة التاسعة:

الانتكاسة الكبرى لجبهة العدو

كانت بدر القتال بمثابة الانتكاسة لقريش بين القبائل لا فقط لِما حصل فيها من مد غيبـي دحض مزاعم المشركين بقدسية الصنم، ولا لأنه ﷺ انتصر عليهم انتصاراً عسكرياً ساحقاً، ولا لأنه ﷺ حقق

أهدافه المقدسة، ولا لأنه ﷺ قتل زعمائهم وارجعهم خائبين، ولا لأنه ﷺ كسب نصراً باهراً له آثاره العظيمة في بحر التاريخ ومسرح أحداثه، ولا لأنه ﷺ أرغم أنوفهم وألويتهم وزهوهم وكبريائهم ومرغها في التراب، بل...

لأنه ﷺ ـ وبالاضافة الى ذلك كله ـ كان قد أثبت للإسلام العظيم شخصيته الاجتماعية والسياسية المستقلة والمهابة بين الجميع، فقريش التي كانت تمثل جنبة العظمة والكِبر بين القبائل، والتي لم ترضَ بالحلول السلمية، والتي تريد لَطْم الكيان الإسلامي ثم الرجوع بهيبتها من حيث أتت . لم تحصل على غير الهزيمة والفرار.

نعم أرادت أن تلطم الجماعة الإسلامية بكل استخفاف واستهانة؛ لكي لا يكرروا اعتداءهم، ثم يشربوا الخمر عند بدر، ويلاعبوا النساء على زعمهم، قد رضوا الآن باستنشاق غبار الهزيمة رغماً على أنوفهم، وقد لطمهم الرسول ﷺ وادّبهم.

النتيجة العاشرة:

إختبار المواقف

كشفت عن مشاركة الأنصار في الدفاع عن الرسول ﷺ خارج المدينة، فإنه من الواضح أن تعهد الأنصار في حفظ ومناصرة الرسول ﷺ كان وفق الاتفاق بينهما في حدود مدينتهم، أما أن ينتفض الأنصار مع رسول الله ﷺ ويسجلوا موقفاً تاريخياً رائداً، فهذا ما كان يرجوه الرسول الأكرم ﷺ لهم وإن كان يحتمل غيره وفقاً للاتفاق.

حدثتنا المصادر التاريخية: (ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها الناس!»

وإنما يريد رسول الله ﷺ الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلاّ في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه نفوسهم وأولادهم.

فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ!»

فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا!.

قال ﷺ: «أجل».

قال: إنك عسى أن تكون خرجت عن أمرٍ قد أوحي إليك في غيره، وإنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئتَ به حقّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامضِ يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل... إلخ)[1].

وفعلاً شارك الأنصار في معركة بدر، وكشفوا الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، وبسطوا أساريره بفعلهم، واستحقوا نصرة المولى ﷻ ليصنعوا نصراً هو إلى الإسطورة أقرب منه إلى الحقيقة، الا وهو النصر في معركة بدرا.

النتيجة الحادية عشرة:

توطيد الآمال

ان بدراً عززت مواقف وإيمان المؤمنين في مكة والذين منعتهم

---

(١) المغازي ١ :٤٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ١١٢، الثقات لابن حبان ١: ١٥٨، وانظر تفسير أبي حمزة الثمالي: ١٨٢، تفسير مجمع البيان ٤: ٤٣٢، بحار الأنوار ١٩: ٢١٨، جامع البيان ٩: ٢٤٦، تفسير القرطبي ٧: ٣٧٤، تفسير الثعالبي ٣: ١١٦، تاريخ الطبري ٢: ١٤١، البداية والنهاية ٣: ٣٢٠، سيرة ابن هشام ٢: ٤٤٧، السيرة النبوية ٢: ٣٢٩.

الأغلال والجدران من الالتحاق بمواكب المهاجرين.

وفي الواقع هذه النتيجة تعتبر نتيجة مشتركة مع كل المعارك التي خاضها المسلمون في أي موقع، والتي تعني ـ بما لا يقبل الشك ـ حصول المعذبين والمعتقلين في سجون قريش على المد المعنوي، والذي يدعم موقفهم في مواجهة حثالات قريش، وسخفها بالقوة والصمود والتحدّي.

كما يعطيهم فرصاً أكبر في أمل التخلص من تلك الأقبية، لأن انتصار المسلمين يعني اقترابهم من مكّة خطوة، والانتصار في المعارك الأخرى خطوات أخرى مضافة... وهكذا.

كما يعطيهم شعوراً مضاعفاً بصدق نبوة محمد ﷺ وأحقيّته في كل مطاليبه وظلامته التي يعاني منها، وفي نفس الوقت بطلان الخط القريشي والداعين له.

كل هذا بفضل الدفقات البدرية التي حملها لهم عبير النصر المحمدي عبر الأثير المدني المكي.

النتيجة الثانية عشرة:

الأخلاق...وإرادة السلام

أثبتت الحرب في بدر ـ بلا ريب ـ إنسانية الرسول ﷺ وسلميته، فهو ﷺ الذي خرج مدافعاً، وهو الذي اقترح عليهم عدم الحرب، وهو الذي حاول دفع القتال بدفع دية عبد الله بن الحضرمي، وهو الذي لم يبدءهم بالقتال إلى أن بدءوه، وهو الذي قال لهم: «يا معشر قريش خلّوا بيني وبين العرب»[1] مطالباً لهم بالانصراف وترك الخوض في الدماء.

---

(١) بحار الأنوار ١٠٨: ٢٩٢، وانظر تفسير القمي ٢: ٣٩١، التفسير الصافي ٥: ٣٤، تفسير نور الثقلين ٥: ٥١.

وهو الذي دفن قتلاهم بعد المعركة، وهو الذي أمر المسلمين بعدم قتل بعض الشخصيات القريشية رداً على مواقفهم قبال المسلمين في مكة.

وفي الخلاصة حاول الرسول ﷺ جاهداً أن يشيع لغة الصلح وخطاب السلام، ووقف طوداً أمام الحرب ومقدماتها وسعى بكل جهده الشريف لأن يحول بين القوم وبين الحرب لكن أبت جلافتهم وحماقاتهم وأقدارهم إلاّها، فوقعوا فيها صرعى خيارهم وضحايا نواياهم.

ثم إن قبول الرسول ﷺ بخيار الحرب في وقعة بدر كان دفعاً لشر قريش، ومحاولة منه ﷺ لاستئصال وتهديم عقبة تقف أمام تيار السِّلم والأمن وحب الصلاح والسلامة للعنصر البشري الذي يقوده النبي محمد ﷺ، ويريد له أن يقتحم جميع السدود التي أمامه كي يصل إلى غايته المنشودة في تحقيق السلام.

فكان لابدّ من خوض القتال في بدر القتال كي يمهد السبيل ويعبد الطريق للسلام العالمي والأمن البشري.

وكان الذي أراده ﷺ.

وحتى نقف على دقّة التفكير النبوي ـ إذا جيز لنا التعبير بذلك ـ وهِمّة الرسول ﷺ في احتواء المخططات المشركة، لنرى كيف أراد أن يلغي برامج المشركين القتالية بخطوة واحدة، وهي طريقتهُ الأولى في التعامل مع المشركين في أحُد ، نتابع ذلك في المبحث اللاحق.

المبحث الثاني

الحرب في المدينة أفضل منها في خارجها

لماذا كان الرسول ﷺ يريد دائرة القتال لمعركة أُحُد داخل المدينة وليس خارجها وما هو سر تطابق رأي أكابر الصحابة مع رأيه؟

قد ورد في مصادر التاريخ تأكيد على كون رسول الله ﷺ كان غير راغب بالخروج بجيشه من المدينة، هذا وجيش العدو المشرك قد لاحت طلائعه، وأرسل بهائمه في ربوع المدينة المنورة.

وإنه ﷺ إنما خرج من المدينة إلى خارجها وهو كاره لهذا الخروج، لا فراراً من الحرب (حاشاه)، ولا طلباً للعافية والسلامة وهو نبي الجهاد ومختار الله والمصطفى من بين العباد.

وإنما كان يرى ﷺ أن القتال في داخل المدينة أفضل من القتال في خارجها، بقوله ﷺ: «فامكثوا فيها».

والطريف أن رأي عبد الله بن أُبَيّ بن سلول جاء موافقاً تمام الموافقة لرأي رسول الله ﷺ، هذا بصرف النظر عن نواياه المبيتة، وعن روحه النفاقية المعلومة.

والذي يوضح أن الرسول ﷺ كان رأيه ورغبته البقاء، ما ذكرته كتب التاريخ عنه ﷺ، فهذا الواقدي يعرض علينا تلك الحكاية بشكل مفصل.

وسنوضح بعد سرد هذه الرواية أموراً تتعلق بسبب هذه الرغبة عند رسول الله ﷺ.

يقول الواقدي في مغازيه: ـ طبعاً وبعد أن طلب الرسول ﷺ المشورة من أصحابه بقوله: «فأشيروا عليّ» ـ (فقام عبد الله بن أُبَيّ فقال: يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية فيها، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة.

والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة أعداداً لعدوّنا ونُشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك.

يا رسول الله، أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة.

وكان رأي رسول الله ﷺ مع رأي ابن أُبَيّ، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار)[1].

ولعله ـ أي ابن أبي ـ أشار هنا بما يراه صواباً حباً بظهور الصواب على رأيه، وأنه لا يخطئ بإصابته لبٌ الحدَثِ ومعرفة نتائجه، مما يعطيه زخماً أمام المسلمين هو محتاج إليه.

كما ويبرهن بذلك على لياقات في شخصيته يفرض من خلالها ـ مستقبلاً ـ كلما يراه عقله، أو نفسه، أو شيطانه، وكما يريد.

أو لعله كان عارفاً أن أهل المدينة من أنصارها ومهاجريها لا يأخذون برأيه ولا يسمعون مشورته وهذا مهم، فيكون كلامه من باب خالف تُعرف، أو من باب إثبات الوجود، خاصة أن هناك رواية تخالف رأيه في البقاء أي تقول أن أهل المدينة كانوا يخرجون لعدوهم إذا غزاهم، ويلاقونه بالسيف خارج مدينتهم.

---

(١) كتاب المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٢.

ولعله (وإن نصح بالمشورة) ولكن لا يمكن كشفه بشكل تام إلاّ إذا كان عمل الرسول ﷺ في آخر المطاف مخالفاً لمشورته من الناحية العملية وإن كانت واقعة على مراد النبي ﷺ من الناحية النظرية.

ولعله أيضاً أراد ـ أي ابن أُبَي ـ للمشركين أن يحاصروا المدينة فينقلب على الرسول ﷺ ـ وهذا ليس بحديثنا إنما جاء استطراداً ـ.

فعن الواقدي في مغازيه: (وقالوا: قال أنس بن قتادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم.

فقال رسول الله ﷺ: «إنـي أخاف عليكم الهزيمة».

قالوا: فلما أبوا إلاّ الخروج صلّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس، ثم وعظ الناس وأمرهم بالجدّ والجهاد، وأخبرهم أنَّ لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بذلك حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخوص إلى عدوهم)[1].

والذي يجعلنا نتساءل؟

هو أنه قد يرى العدو عدم خروج الرسول ﷺ وجنده من المهاجرين والأنصار إنما هو جُبْنٌ، وضعف عن المواجهة، وفرار من مقابلة قريش.

كما رأى ذلك بعض الصحابة، وخشوا أن تفسر قريش موقفهم في عدم الخروج من المدينة جبناً ليس إلاّ.

جاء في المغازي: (وقال رجال من أهل السن وأهل النية منهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، في غيرهم من الأوس والخزرج: إنّا نخشى يا رسول الله أن يظن عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأةً منهم علينا)[2].

---

(١) الواقدي ١: ٢١٢ ـ ٢١٣، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣ ـ ٢٢٥، وانظر بحار الأنوار ٢٠: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) المغازي١: ٢١٠، وفي شرح نهج البلاغة١٤: ٢٢٣، وسبل الهدى والرشاد٤: ١٨٥.

وحتى يدفعوا إشكالاً مقدراً اسمه القلة والكثرة، والعدّة الضعيفة والعدّة القوية، والذي يمكن لرسول الله ﷺ أن يشكل به عليهم، أردفوا بالقول: (وقد كنتَ يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بَشرٌ كثير، وقد كنا نتمنى هذا اليوم وندعوا الله به، فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا)[1].

وفئة أخرى من المسلمين رأت بالبقاء في المدينة سداً لباب الإستشهاد، وإلغاءاً لفرصة عرض بطولات فتيان الإسلام، وشجاعتهم، وبسالتهم أمام قريش العادية، وكلموا الرسول ﷺ بذلك.

كما في المغازي للواقدي: (فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا من رسول الله ﷺ الخروج إلى عدوهم، ورغبوا في الشهادة وأحبّوا لقاء العدوّ: أُخرج بنا إلى عدوّنا!)[2].

هذا من جهة ومن جهة أخرى لقد ورد في بعض الأثر أنه: (ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلاّ ذلوا)[3].

فكيف يمكن لنا أن نجمع بين رغبة الرسول ﷺ في البقاء، وما ورد من إيراد؟

---

(١) المغازي ١: ٢١٠، ٢١١، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣، وسبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٥، وبحار الأنوار ٢٠: ١٢٤.

(٢) المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٢، وبحار الأنوار ٢٠: ١٢٤، وسبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٥، الطبقات الكبرى ٢: ٣٨.

(٣) الكافي ٥: ٥، دعائم الاسلام ١: ٣٩٠، كتاب سليم بن قيس: ٢١٣، الارشاد ١: ٢٨٠، أمالي المفيد: ١٤٧، الاحتجاج ١: ٢٥٦، عيون الحكم والمواعظ: ١١٠، بحار الانوار ٢٩: ٤٦٥، شرح نهج البلاغة ٢: ٧٤، مفردات غريب القرآن: ٣٤١، السير الكبير ٣: ٨٩٤. والقول لأمير المؤمنين عليه السلام.

والجواب على ذلك:

إن الرسول ﷺ طرح قضية البقاء في المدينة لأنه ﷺ يعلم أنْ ليس أمام قريش في حال معرفتها بعدم خروج المسلمين من مدينتهم، إلاّ احتمالات ثلاثة:

الإحتمال الأول: هو أن تقرر قريش الإنسحاب، وعدم البقاء في انتظار خروج المسلمين، وتلك في الواقع هي الخيبة لهم، وذلك هو النصر للمسلمين.

فهم جاءوا لغرض الثأر من المسلمين، وليسوا بقادرين على تحقيق ذلك الغرض، فيرجعون مذمومين مدحورين، يجرون أذيالهم، راجعين بخيرتهم لم ينالوا خيراً.

إنما نالوا المتاعب الشداد في قطع البيد، وخسروا كثيراً لغرض إدامة السفر، وقد ذهبت جهودهم القديمة هباءاً منثوراً، فلا الجيوش التي جيّشوها، ولا القبائل والأعراب والأحابيش الذين جاءوا بها، ولا الذين ذهبوا لأغراض الإعلام والتحريض في القبائل، ولا الأرباح التي ادخروها من قافلة أبي سفيان قُبيل حرب بدر، ولا تخطيط شيطان قريش أبي سفيان، ولا غير ذلك بالقادر على أن يؤدي شيئاً، فقد تحصن الرسول ﷺ، ورجع الجيش القريشي المشرك المتأهب دونما فلاح.

والنبي ﷺ بالجهة المقابلة حافظ على جُنْده وأعجز عدوه، وانتصر مخططه عليهم، وذلك ما يبغي، وكفى الله المؤمنين القتال.

الإحتمال الثاني: هو أن تقرر قريش الإقامة والبقاء حتى يخرج الرسول ﷺ إليهم في جنده وجيشه ـ طبعاً هذا الكلام مبني على احتمال قريش في خروج الرسول ﷺ إذا طالت المدة، وأما مع عدم الاحتمال فلا قيمة للاستدلال ـ وهذا البقاء سيفضي بهم إلى الرجوع للاحتمال الأول،

إذ مع عدم خروج الرسول ﷺ، ستطول بهم المدة، ويأتي عليهم الأمد، فتنقص أغذيتهم، وتقل همّتهم بطروء السأم والملل عليهم.

وربما ينشب الخلاف فيما بينهم، بين مطالب بالرجوع، وراغب في البقاء، أو غير ذلك. فيدفعهم ذلك إلى الشقاق، وهل كانت ثمرة الشقاق إلاّ التناحر والفرقة والخراب. وربما الصراع الدموي، والقتال الطويل الأمد ليحصدهم القتل الذريع والفناء السريع.

وربما يصل بهم الضعف الى أن يخرج لهم الرسول ﷺ من المدينة فيتمكن منهم وينتصر عليهم ويأخذ ما بقي لديهم، ويسبي نسائهم، بعد ذبح رجالهم، أو أسرهم وهذا يعني أيضاً انتصاراً للمسلمين في كافة تلك التفريعات.

الإحتمال الثالث: أن يهاجموا المسلمين في داخل المدينة، بأن يقتحموها عليهم، ويخوضوا الحرب بين بيوتهم وفي داخل شوارعهم.

وهذا هو محل النقاش والتحليل.

إذ لو كان النصر هو الهدف فقد تحقق في الاحتمال الأول، وهو متحقق في الاحتمال الثاني، فكيف نحرز تحققه في الاحتمال الثالث.

وكيف ندفع شبهة اتهام المسلمين بالجُبن المطروحة من قبل الأنصار، وشبهة (ما غزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلوا).

ولعل الإجابات التالية تحقق لنا مقداراً واضحاً من الشجاعة العظيمة في قرار الرسول ﷺ والحكمة البالغة التي يتحلى بها، والنظر البعيد الذي يراه دون أن يدركوا بعضاً منه.

إن النصر سوف يكون متحققاً قطعاً في جيش الرسول ﷺ، وسيكون حليفه ـ وفق الإجابات الآتية ـ البركة والكرامة والإنتصار.

الجواب الأول:

إن المدينة كانت غير معروفة لجيش العدو، حيث شوارعها، وديارها، والآطام، والأزقة، والسكك، ومنه يعرف أن العدو سوف يلاقي صعوبة في التحرك، ويفقد حرية المناورة فيها.

بينما أهل المدينة عارفون بكل شؤونها، وفجاجها، وآطامها، فصاحب الدار أدرى بالذي فيها، وقد بين الرسول ﷺ هذا الأمر وجعله سبباً في اندحار العدو.

ورد في كتب التاريخ: (فقال رسول الله ﷺ: **«أمكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، وارموا من فوق الصياصي والآطام»**)[1].

وهذه في الواقع ـ أي عدم معرفة العدو بالمدينة بخلاف المسلمين ـ نقطة قوة يمكن استثمارها لردع العدو، أو إجهاضه وتدميره.

طبعاً على فرض أنهم قادرون على اقتحام المدينة وتسور حصنها، وإلاّ فالمسلمون سوف يحصنونها، أو هي محصنة بالواقع (فكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية فهي كالحصن)[2].

الجواب الثاني:

إن جيش مكة المشرك لم يكن قد تعود القتال في الشوارع والحارات، فهم لا يحسنون قتال المسلمين فيها. علماً أن المدينة ذات آجام

---

(١) المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣، وانظر الطبقات الكبرى ٢: ٣٨.

(٢) المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣.

ونخيل كثيف، وأنهار داخل المدينة، ومرتفعات ومنخفضات، وممرات حادة أو مسدودة، ولا تخلوا من وديان وشقوق وآطام، فضلاً عن المنازل والحصون والمسجد وغير ذلك، كما أنها عرفت بكثرة الآبار.

بينما جيوش المسلمين من أهل المدينة (الأنصار) قد تعودوا على هذا النوع من القتال، لأنه وكما يبدو من كلامهم عندما استشارهم الرسول ﷺ في الخروج لحرب المشركين، أنهم قديماً لاقوا حرباً، بل حروباً في مدينتهم.

وهذا يعني إجادتهم لحرب المدن، أو القتال في شوارع صعبة المداخل، وهم أهل فنّ فيه وخبرة، وهذا أيضاً مُصَرَّحٌ به في كلام ابن سلول: (يا رسول الله أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الراي من أكابر قومي وأهل الراي منهم، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة)[1].

هذا دليل، ودليل آخر هو سعي المشركين في استفزاز المسلمين، بأن تركوا خيولهم وإبلهم ترعى في مزارع المسلمين، حتى يضطروهم للخروج إلى خارج المدينة، وإلاّ فالأصحاب لا يسكتون على مثل هذا الإنتهاك، وعلى مثل هذه الوقاحة والصلافة.

إذن تسريح الإبل والمواشي في أرض المسلمين كانت فكرة سُفيانية، فنية، تكتيكية، يراد بها إخراج المسلمين من صياصيهم، وجرهم إلى حرب فعلية.

ودليل ثالث هو قول ابن سلول: (كنا نقاتل في الجاهلية فيها)، إذن كانت هناك حروب في الجاهلية وهذه الحروب يخوضها أهل المدينة في مدينتهم وهذا يؤكد ـ أيضاً ـ أن طبيعتها الجغرافية، أو تركيبة البناء وأمور أخرى تجعل القتال فيها لصالح أهلها وليس في صالح العدو.

---

(١) المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣.

والمعروف أن الحرب كانت قائمة مشتعلة بين أهم جناحين من سكان المدينة، وهم الأوس والخزرج، وبينهما حروب طاحنة، وثارات كثيرة، لم يأتِ عليها إلاّ رسول الله ﷺ في دعوته الإسلامية، وإلاّ فهم أهل حرب وعداء، والحرب بينهما سجال.

وكونهم يسكنون أرض المدينة سوية، يدعم كونهم يجيدون حرب الشوارع ويعرفون كل شيء فيها ينفعهم عند الإنطلاق والحركة، إذاً لا بدّ أن تكون نفس المدينة ساحتهم القتالية وميدان حربهم المستعر.

ولدينا رواية ترينا عمق الجراح التي أودعتها تلك الحروب في نفوس الأنصار (الأوس والخزرج)، وصعوبة معالجتها، وكونها من الحروب التقليدية المزمنة الثابتة الأثر بين الحيين:

جاء في كتاب تاريخ المدينة: (فكان يوماً رجل من الأوس، ورجل من الخزرج جالِسَين، معهما يهودي، فجعل يذكرهما أيامهما في الجاهلية، في الحرب التي كانت بينهما حتى استبا واقتتلا، ودعا هذا قومه وهذا قومه، فخرجت الأوس والخزرج في السلاح، وصف بعضهم لبعض.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاء حتى وقف بينهم، فجعل يعظ بعض هؤلاء وبعض هؤلاء حتى رجعوا ووضعوا السلاح، وأنزل الله ﷻ قرآناً: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[1].

وقال صاحب الكتاب في الهامش معرفاً ذلك اليهودي الذي فتن المؤمنين: (واسمه شأس بن قيس اليهودي، وفي معالم التنـزيل ٢: ١٩٨ شماس بن قيس اليهودي وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين،

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبه النميري ٢: ٤١٩، والآية (١٠٠) من سورة آل عمران.

مر على نفر من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم، فغاظه ما رأى من إلفتهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية.

وقال: إن اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يذكرهم بيوم بغاث وما تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم، فتنازعوا وتواثبوا...)[1].

إذن الحروب الداخلية أودعتهم تجربة قتالية، ولوناً متميزاً من الدفاع والهجوم والمقاومة، كما أن هناك نوعاً آخر من الحروب وهي حرب أهل المدينة مع الغازين لها، وهو ما نصطلح عليه بالحرب الخارجية، وهذا واضح من لسان الرواية في بداية الحديث.

ومعلوم أن هذه الحروب بنوعيها، كم سوف تلقي وتضيف امتيازات على جيش المدينة، يضاف إلى هذا خبرات أهل مكة المكرمة من المهاجرين وفيهم الفحول.

والذي يبدو أن قريشاً ما كانت تفكر في اقتحام المدينة، فهذه الفكرة أبعد ما تكون عن ذهن قريش، مما يعطينا دليلاً ناصعاً على أن كل ذلك إنما كان قائماً لعدم صلاحية قواتهم في خوض هذا النوع من المعارك.

روى الواقدي: (فحدثني عبد الله بن عمرو بن زهير، عن عبد الله بن عمرو بن أبي حكيمة الأسلمي، قال: لما أصبح أبو سفيان بالأبواء

---

(١) معالم التنزيل ١: ٥١٥، جامع البيان ٤: ١٦، أسباب نزول الآيات للنيسابوري: ٧٦ ـ ٧٧، تفسير الجلالين: ١٧٣، لباب النقول: ٤٤، تفسير الثعالبي ٢: ٨٢، وانظر الاصابة ١: ٣٠٦، سيرة ابن هشام ٢: ٣٩٦، عيون الأثر ١: ٢٨٤، سبل الهدى والرشاد ٣: ٣٩٨.

أُخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة، فقال أبوسفيان: أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبّروه بمسيرنا، وحذروه، وأخبروه بعددنا، فهم الآن يلزمون صياصيهم، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا.

فقال صفوان: إن لم يصحروا[١] لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يجتبرونها[٢] أبداً، وإن أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم، وسلاحنا أكثر من سلاحهم، ولنا خيل ولا خيل معهم، ونحن نقاتل على وترٍ عندهم، ولا وتر لهم عندنا)[٣].

وواضح أن صفوان بن أمية طرح احتمالين، ولم يطرح الإحتمال الثالث؛ فأما أن لا يخرجوا فينسحب الجيش السُّفياني المشرك بعد إجراء بعض العمليات التخريبية، وأما أن يخرجوا فيواجههم بالسلاح.

وأما احتمال كونهم يدخلون المدينة ويقاتلون فيها، فهو احتمال غير موجود. ومن هنا نعرف فكرة الرسول ﷺ في تدمير فاعلية واندفاع الجيش الغازي وامتصاصه لذلك الزخم وارجاع أصحابه خائبين، دون أن يُمَس هو ﷺ أو مدينته وأصحابه بسوء يذكر.

الجواب الثالث:

يكون أدعى في قلوب المهاجرين والأنصار للمقاومة حتى النفس الأخير، وأخذ المشركين بالحذرِ مقتدرة وقتلهم، لأن أقصى ما يحافظ عليه الإنسان روحه ودينه وعرضه وأرضه، والكل مهدَّدٌ الآن، فلا مهرب من

---

(١) أصحر الرجل: أي خرج إلى الصحراء.

(٢) اجتبره: أحسن إليه.

(٣) المغازي ١: ٢٠٥، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢١٨ ـ ٢١٩.

الدفاع المستميت، وإيقاع المهالك بالعدو، فأما أن تَسلم النفس والنفيس ويحافظ عليهما، أو يُضَحّى بهم ولا خيار آخر يمكن قبوله.

الجواب الرابع:

لما علم الرسول ﷺ أن قريش جاءت موتورة طلباً لثأر قتلاها، وقد شقت الأرض نحو المدينة لا تلوي على شيء، وتركت خيلها ومواشيها تعيث في زروع المدينة لتهيّج المسلمين للخروج ـ كما قلنا ـ.

فهذا معناه أنها لا تقبل العودة إلاّ بإصابة المسلمين، وإنزال البأس بهم، وإيداع القرح في قلوبهم ما عاشوا، بل محوهم عن الحياة إن استطاعوا.

وكذلك تأهبت قريش للحرب بدرجة قصوى فبعثت الرجال لتحريض القبائل، وأخرجت النساء إلتماساً للحفيظة، والشعراء للهجاء والذم، والمدح والثناء، ولتهييج المروءات، وتحفيز النخوة، وأخذت أموالاً طائلة استعداداً للأزمات والطوارئ.

كما ذكر ذلك كله ابن هشام في سيرته: (فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان بن حرب، وأصابه العير بأحابيشها، ومن أطاعها من قبائل كنانة، وأهل تهامة.

وكان أبو عَزّة عمرو بن عبد الله الجُمَحيّ قد منّ عليه رسول الله ﷺ يوم بدر، وكان فقيراً ذا عيال وحاجة، وكان في الأسارى فقال: إني فقير وذو حاجة قد عرفتها فامنن عليّ صلى الله عليك وسلم، فمنّ عليه رسول الله ﷺ.

فقال له صفوان بن أمية: يا أبا عزّة إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك فاخرج معنا؛ فقال: إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أُظاهر عليه، قال: بلى فأعنا بنفسك، ولك الله عليّ إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن

أجمل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزّة في تهامة، ويدعو بني كنانة ويقول:

إيهاً بني عبد مناة الرزّام　　أنتم حماةٌ وأبوكم حام

لا تَعدُوني نصرَكم بعد العام　　لاتسلموني لا يحل إسلام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جُمَح إلى بني مالك بن كنانة، يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ فقال:

يا مالِ، مال الحَسَب المُقَدَّمِ　　أنشد ذا القربى وذا التذمُّمِ

من كان ذا رُحم من لم يَرْحَمِ　　الحِلف وسط البلد المُحَرَّمِ

عند حطيم الكعبة المعظَّمِ

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها، فقال له: أخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طُعَيمة بن عدي، فأنت عتيق[1].

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن، التماس الحفيظة وألاّ يفروا)[2].

فقريش جاءت بأهبة القاضي على القوم، لا الداعي لهم إلى صلح،

---

(١) والرواية تنقل بنفس الصيغة على لسان هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان طلباً لثار أبيها وعمها وأخيها، عتبة وشيبة والوليد، ولا يهمنا أيٌّ منهم كان صاحب الرواية بقدر ما يهمنا ثبوتُها.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٢٤، ٢٥، البداية والنهاية ٤: ١٢، السيرة النبوية ٣: ٢٠، وانظر تاريخ الطبري ٢: ١٨٧ ـ ١٨٨، عيون الأثر ١: ٤٠٦، بدون الشعر.

أو رضاية، أو هدنة، أو حتى حرب محدودة.

ولذلك رأى رسول الله ﷺ بحنكته وحكمته أن يدخلهم مداخل صعبة لا من جهة الأرض التي يقاتلون عليها فقط، بل من جهة حرب أخرى لم يحسبوا لها حسابا، وهي الحرب عليهم من أعالي المنازل، ومن فوق السطوح، بما يكون لهم شغل شاغل عن مقاتلي المدينة.

وتتحول حربهم من هجوم على المسلمين إلى دفاع عن النفس، فيتمكن المسلمون من الغلبة عليهم وأسرهم، وربما المحافظة على أرواحهم ليسلموا في المستقبل، كما أراد الرسول ﷺ، لَمَّا عرف جمعهم وهمهم أن يُحَشِّدَ كل طاقات المسلمين الممكنة، في خدمة مصير المعركة، أو معركة المصير.

وحتى النساء والصبيان يجب أن يَرفعوا مواقعهم؛ ليمارسوا هذا النوع من المواجهة، فيكون أثقل على العدو وأنكى، وَلِيُدْخِل في قلوب المؤمنين صواعق التفاني، وإظهار مبلغ الشجاعة والإقدام، والصبر على البلوى، والمواصلة في المقاومة، وهم يرون نسائهم وصبيانهم يشاركونهم الجهاد من سطوح البيوت وشُرَف الديار.

خاصة أن النساء والصبية لهم خبرة في ذلك، وهذا مؤكد في كلام عبد الله بن أُبَيّ بن سلول في حديثه عن دور النساء والأطفال في تلك الحروب:

ففي المغازي: (ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي، ونجعل معهم الحجارة، والله لربما مكث الوِلدان شهراً ينقلون الحجارة اعداداً لعدوّنا، ونُشبّك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية، وترمي

المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام، ونقاتل بأسيافنا في السكك)[١].

وبتعبير آخر:

إن الرسول ﷺ أراد استخدام نظام المقاومة الشعبية (الميليشيات الشعبية أو الجيش الشعبي) بالإضافة إلى القوة النظامية المعدة، ومعلوم أن القوات الشعبية تعتبر الظهير القوي للجيش المنظم، والمساند الفعال له.

وها قد نزلا معه في الميدان فيكونا جيشين متآزرين على جيش دخل في مأزق الشوارع وكماشاتها.

وفي الخلاصة فإن كل مقاتل من المشركين، يدخل إذا دخل ميدان الحرب ـ أرض المدينة وشوارعها وبيوتاتها ـ وهو في وسط حربٍ طاحنة، وجبهات عدة مفتوحة، ترهقه، وتَفِلُّ عُراه.

الجواب الخامس:

لِما كان لأهل المدينة من إحساس نفسي، ومايرونه بمنظار تجريبي من ملازمة اليمن والبركة لهم في حال كونهم يقاتلون في داخل مدينتهم، وما هاجمهم جيش وهم يقاتلونه فيها إلاّ هُزم، وكانوا هم المنتصرين الغالبين، المفلحين المنجحين.

وأنهم إذا خرجوا منها ذُلوا وهانوا، وهذا يعني أن هذه العقيدة ستؤدي فعلها النفسي في قلوب المسلمين، حيث إن القناعات القلبية لها مدخلية في صياغة الموقف والشخصية، فدخول المعركة مع إحساس كونهم منتصرين، هو غير إحساسهم في دخول المعركة وهم مهزومون قطعاً.

فإن الإحساس بتحقق النصر هو في الواقع انتصار نفسي، والإنتصار النفسي مقدمة مطلوبة للإنتصار الخارجي.

---

(١) المغازي ١: ٢١٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٢.

والإحساس بالهزيمة هو في الواقع انهزام نفسي، وهو كذلك مقدمة للهزيمة الخارجية عندما يدوي صليل السيوف، في أصول الآذان.

وقد حدثنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أن طائفتين من المسلمين همتا بالفشل، وهما بنو سَلِمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وقد كانا جناحَي العسكر، بينما جاءت قريش بجدها وحدها؛ لأن الخلاف واحد من عوامل الهزيمة النفسية، وهو يؤدي بالتالي إلى الفشل في المواجهة، وعدم القدرة في مجاراة المواقف القتالية.

وبالنتيجة أراد الرسول ﷺ أن يستثمر إحساسهم النفسي باليمن والبركة ويقاتل بهم داخل المدينة، إنسجاماً مع ذلك الإحساس المؤثر.

الجواب السادس:

ضماناً لعدم وقوع فتنة الإنشقاق من المنافقين فقد كان رأي زعيمهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول موافقاً لرأي رسول الله ﷺ هذا وداعياً له ـ وقلنا سابقاً مع الإغماض عن نواياه ـ ولو كان القتال في المدينة لما رجع إلى المدينة بورقة ضرورة عدم الخروج من المدينة ـ كما زعم ـ.

عن الواقدي: (فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أحد ـ إلى موضع القنطرة اليوم ـ جاء وقد حانت الصلاة، وهو يرى المشركين، أمر بلالاً فأذن وأقام وصلّى بأصحابه الصبح صفوفاً، وارتحل ابن أُبَيّ من ذلك المكان في كتيبة كأنه هيق[1] يقدمهم، فاتّبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: أُذكركم الله ودينكم ونبيكم، وما شرطتم له أن تمنعوه مما تمنعون منه

---

(١) قال ابن دريد: الهيق: الظليم، وهو الذكر من النعام، والأنثى هيقة (جمهرة اللغة ٣: ٣٦٠و١٦٩٠) ويريد هنا سرعة ذهابه.

أنفسكم وأولادكم ونسائكم.

فقال ابن أُبَيّ: ما أرى يكون بينهم قتال، ولئن أطعتني يا أبا جابر لترجعنّ، فإن أهل الرأي والحجى قد رجعوا، ونحن ناصروه في مدينتنا، وقد خالفنا وأشرت عليه الرأي، فأبى إلاّ طواعية الغلمان.

فلما أبى على عبد الله أن يرجع ودخلوا أزقة المدينة، قال لهم أبو جابر: أبعدكم الله، إن الله سيغني النبي والمؤمنين عن نصركم! فانصرف ابن أُبَيّ وهو يقول: أيعصيني ويطيع الولدان؟

وانصرف عبد الله بن عمرو بن حرام يعدو حتى لحق برسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف، فلما أصيب أصحاب النبي ﷺ سُرّ ابن أُبَيّ، وأظهر الشماتة وقال: عصاني وأطاع من لا رأي له)[1].

ونلاحظ إلحاح ابن أُبَيّ على نقطة واحدة ويركز النظر والإلتفات لها، هيَ كيف عصاني في عدم البقاء في المدينة، وأطاع غيري في الخروج منها، وتراه يسر عند إخفاق المسلمين في نيل النصر التام في أُحُد، وكذا لكثرة قتلى المسلمين، ويعلل الخسائر والأضرار التي لحقت بهم؛ بأنها نتيجة عدم أخذ رأيه في البقاء بالمدينة.

وإن بقاء الرسول ﷺ في المدينة معناه حرق هذه الورقة التي طالما تمسك بها ابن أُبَيّ وبالتالي المحافظة على الصف الإسلامي من التصدع.

نعم قد يرجع عبد الله بن أُبَيّ بحجة أخرى وبسبب آخر، أو لا يقاتل المشركين حتى لو كان القتال داخل المدينة بحجة ثانية لاأدري ماهي؟ لكن حتماً سيكون ملاكها وباقي الحجج واحداً، وهو عدم رغبة ابن أُبي في نصرة الرسول ﷺ بل رغبته في القضاء عليه، وهذا ما لا ربط له هنا.

---

(١) المغازي ١: ٢١٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

الجواب السابع:

وفي حال الإنتصار عليهم وإيقاع الهزيمة بهم، فإن واحداً منهم غير قادر على الفرار، لأنه محاط بالأكام والديار، مما يعني أنه ستدركه سيوف المهاجرين والأنصار، وهو معناه القضاء على جيش أبي سفيان الغازي وطحن شوكتهم.

ولأن الصحراء التي تعوّد القريشي القتال فوقها ليست أمام نظره، حتى يمسك بلابتها، فلا يتوقف إلاّ وهو عند قريش.

ثم سيلحقه العار عند الفرار ـ لو فرض التسليم بالتمكن منه ـ لأنه فرٌ ليس من سيوف الرجال فقط، وإنما من أحجار النسوة والأطفال، وهذا بذاته عار عند العرب، ويأنف الفارس منه.

الجواب الثامن:

إن القتال في داخل المدينة يعني زيادة في الإمعان بإبطال حجج العدو، فالذي يطلب الثأر يطلبه من الرجال المقاتلين، لا من الذراري والنساء، والهجوم والاعتداء على الديار. فإن الديار بما فيها من نساءٍ وصبيان تعتبر قواعد آمنة كما تقتضيه قواعد الحرب عند الجميع.

وكما فعل الرسول ﷺ معهم في فتح مكة، وكما فعله ﷺ في معاركه الكبرى المعروفة.

الجواب التاسع:

إن بقاء الرسول ﷺ في مدينته، وعدم خروجه منها، يبرهن بشكل واضح أن الرسول ﷺ ليس رسول حربٍ، تحركه نزوات إراقة الدماء، والإحساس باللذة عند تطاير الرؤوس وسائر الأعضاء.

فهو ﷺ لا يطمع في حربٍ وقتلٍ حتى وإن أدرك أنه منصور

وسيصيب من العدو مقاتله، فهو ﷺ لم يخرج إلى الحرب إلاّ إذا استيأس أنه لا محيص منها، ولا سبيل إلاّ بدخول غمراتها، وفعلاً كان الذي كان.

فإذا كان البقاء داخل المدينة يدعم حالة اللاحرب وإدامة آثار السلام الذي يطلبه الرسول ﷺ فلا بأس بعدم الخروج؛ لأنه يحقق المقصود من دفع الشرك والمشركين وتحقيق سلمّية الرسول ﷺ وحبه في عدم إراقة دماء الجميع.

الجواب العاشر:

لرؤيا رآها النبي ﷺ وهي من مظاهر التعليم الإلهي، والتوجيه الغيبـي، ولها أهمية في تحديد المسارات الرسالية، والحربية القتالية؛ لأن رؤيا الأنبياء تعد وحياً وإبلاغاً ـ كرؤيا إبراهيم بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام وقد فعل، وكرؤيا يوسف عليه السلام بنفسه وإخوانه وقد كان ـ فهي بالتالي ليست كرؤى بقية الناس.

فإذا اعتمدها الرسول ﷺ فهو في الواقع معتمد على رأي السماء ـ الذي لم يأتِ على سبيل الوجوب، وضرورة الاتباع هنا كما هو مفروض، وإلاّ لما خالفه الرسول ﷺ ـ الذي أراد به الخير والصلاح لسيدِ الأنبياء.

أما ما هي حكاية الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ وماذا رأى فهي كالتالي:

يقول الواقدي في مغازيه: (رأى رسول الله ﷺ رؤيا ليلة الجمعة، فلما أصبح رسول الله ﷺ واجتمع المسلمون خطب، فحدثني محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: ظهر النبي ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا أيها الناس! إني رأيت في منامي رؤيا، رأيت كأني في درع

حصين، ورأيت كأن سيفي ذو الفقار انقصم[١] من عند ظبته[٢]، ورأيت بقراً تذبح، ورأيت كأني مردفٌ كبشاً».

فقال الناس: يا رسول الله، فما أوّلتها؟

فقال ﷺ: «فأما الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي من عند ظبته فمصيبةٌ في نفسي، وأما البقر المُذبّح، فقتلى في أصحابي، وأما كأني مردفٌ كبشاً، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله».

وحدثني عمر بن عقبة، عن سعيد، قال: سمعت ابن عباس يقول: قال النبي ﷺ: «وأما انقصام سيفي، فقتل رجل من أهل بيتي»[٣])[٤].

فأراد رسول الله ﷺ ووفق هذه الرؤيا أن يبقى في المدينة، درعه الحصين، وملجئه الأمين.

الجواب الحادي عشر:

ومن قال إن الرسول ﷺ لم يكن ناظراً إلى ما سوف يحصل من أصحابه من عصيان، ورغبةٍ في حطام الدنيا؟ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[٥] فيكون منهم مخالفة لأوامره ﷺ، فيخسروا ويُدفَعوا، فأراد ﷺ أنَ يدفع ذلك بقرار البقاء في المدينة، وإن كان عالماً أن الحرب حاصلة لا محالة.

---

(١) انقصم: انكسر.

(٢) ظبة السيف: طرفه.

(٣) وفي موضع آخر فهو الذي أصاب وجهه ﷺ.

(٤) المغازي للواقدي ١: ٢٠٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢١ ـ ٢٢٢، وبحار الأنوار ٢٠: ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٥) آل عمران: ١٥٢.

فيكون ذلك أدعى في طاعة الرسول ﷺ، واحترام نواهيه وأوامره، والتمسك بما يريده بالتزام عالٍ.

ونرى القرآن الكريم كثّف الضوء على وقعة أُحُد، وكشف عن خبايا نفوسٍ، ومطامع أخرى، ثم دعاهم للتأهب والتوكل على الله ﷻ، والتوبة إليه، وشكره على نعمائه عندهم، بأمور معللاً أن ما أصابهم إنما كان بسببها.

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [1].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [2].

لذلك يمكن القولُ بعد هذا التوبيخ القرآني، أن الذي حصل للمؤمنين في أُحُد من قبيل الرد الإلهي لمخالفتهم رغبة الرسول ﷺ وهي من قبيل العقوبة التأديبية للأمة بضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها

---

(١) آل عمران: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) آل عمران: ١٥٥.

على عدم موافقتها ما أراد الرسول ﷺ، سواءاً كان ذلك رغبته بالبقاء في المدينة، أو أمره لهم بالمحافظة على مواقعهم ـ في وقت الحرب ـ لكنهم تعدوها طمعاً بالدنيا والغنيمة، فعصوا بذلك الرسول ﷺ، والله العالم.

ملاحظة:

قد يذهب أحَدٌ: أن كلما حصل من الرسول ﷺ في عملية طلبه من المؤمنين البقاء في المدينة، إنما كان الهدف منه اختبار صدق نوايا المؤمنين، ومقدار استعدادهم لملاقاة الحتوف. فهي عملية فرز لأصحابه ومعرفة هممهم، وتوقهم للشهادة، ورغبتهم في الحرب لئلاّ يُنكَسُوا.

وحيث عرف عزيمتهم، وتجلت له ﷺ نيتهم، رأى الخروج بهم أولى من البقاء. وإن كان الرسول ﷺ صادق الرغبة في البقاء بالمدينة، ليس بسبب أنه لا يعرف كونه سيخرج منها فعلاً، إذ الخروج أمر متحقق كما سيأتي.

وإنما منشأ الرغبة من أمر آخر، وكذا منشأ ظهور الكراهية على وجه رسول الله ﷺ، إذ يحتمل أن يكون بسبب ما يعلم الرسول ﷺ من تحقق بعض الخسائر في جيشه، أو في عدم التمكن من كسر جيش العدو بشكل ساحق، أو لِما يعلمه من فقد عمّه حمزة عليه السلام أسد الله وأسد رسوله، أو فرار أصحابه في نهاية الأمر، أو ما يصيب قومه لما يعلمه من الجرح البليغ والقتل الذريع.

خصوصاً إذا صحّ ما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال لهم: «إني أخاف عليكم الهزيمة»[1]، عند جوابه لأنس بن قتادة: (قال أنس بن قتادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم.

---

(١) المغازي:٢١٣، وعنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٥، وبحار الأنوار ٢٠: ١٢٥.

فقال رسول الله ﷺ : «إني أخاف عليكم الهزيمة»[١].

حيث فقدوا سبعين فارساً مقاتلاً لهم الأهمية في سوح الوغى، وفي أيام الكريهة، وفي الحياة الاجتماعية السلمية، ويكفينا منهم أن نذكر مصعب بن عمير.

ذلك الصحابي الجليل القدر، العظيم المنزلة، الزاهد في الدنيا وصاحب التاريخ المزدحم بالجهاد والمقاومة، وبذل النفس، وحماية رسول الله ﷺ، والعمل بكل ما عنده من أجل نشر دعوة رسول الله ﷺ، فهو من المؤمنين السابقين، والمعذبين الأوائل والمهاجرين، ومن البدريين الأبطال، وأصحاب السابقة في الجهاد.

ثم هو سفير رسول الله ﷺ من قبل إلى المدينة والذي أسلم أكثر أهلها وساداتها على يديه، وحامل لواء المهاجرين في أحد[٢]، وأخيراً المعانق للشهادة بثبات وإخلاص.

ومنهم أيضاً عم الرسول الأكرم ﷺ حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء ﷺ الذي كان سيفاً مشهوراً في سبيل الله، وكان لساناً صارماً في الذب عن رسول الله ﷺ، ثم هو رجل الحرب، وصاحب الصولة، والمعتمد الأمين عند رسول الله ﷺ، وهو المهاب في الحروب، والقتّال عند الضرب، والمخيف لأعداء الله، إن ظهر لهم ظهرت لهم المنايا، فهو أسد الله وأسد رسوله وابن عمه ﷺ، وسيد الشهداء.

إن ذلك كله يصلح أن يكون مناشيء لظهور الكراهة عند رسول الله ﷺ، ولكن اتفق كلامه مع قومه، وكلامهم معه مع ظهور

---

(١) وهذا دليل آخر يفسر لنا عدم رغبته في الخروج من المدينة وإن كان يعلم أنه خارج منها البتة.

(٢) على رواية.

إمارات الكراهة عليه في وجهه، لتلك الجهات المذكورة، لا لتصنعه ﷺ لذلك ابتغاءاً لاختبارهم كما يُظن.

فلا هو كاره للخروج للجهاد باعتباره يعلم تحققه وأنه في سبيل الله ﷻ، وإن كان صادق الرغبة في البقاء، لما يرى من أهمية وصواب البقاء. ولا يلزم محذور من هذا الجمع لعدم وقوع المنافاة في ذلك.

فهو لا يظهر الكراهة في وجهه المتعالاً ـ إن لم يكن في الواقع كارهاً ـ ليختبر أصحابه وثباتهم، كي لا يكون مخادعاً لهم، إنما كانت عليه إشارات عدم الارتياح والكراهة لكنها غير مربوطة باستخدامها كغطاء لمعرفة حقيقة نوايا أصحابه.

إن القول بأنه ﷺ أبدى كراهيته، وعدم رغبته لمجرد اختبارهم فيكون بذلك مخادعاً لهم، أي أنه يفتعل ذلك كي لا يصعب على الجبان أن يعبّر عن جبنه في حال طلبه من الرسول ﷺ البقاء في المدينة ـ إذ هو سيكون موافقاً لرأي الرسول ﷺ ـ فيكون رأيه مقبولاً محبوباً، غير منظور فيه سوى موافقته رغبة الرسول ﷺ، وإن كان دافعه الجبن لا الحرص في الواقع.

هو قولٌ مجافٍ للحقيقة لما هو معروف من خلق الرسول ﷺ، ومن عمله وفق أحكام الله الخالية من المخاتلة والمخادعة والتحايل.

وتنـزلاً نقول:

ربما صحَّ هذا كله من بعض الوجوه على فرض أن الرسول ﷺ افتعل الكراهة في وجهه الشريف، إذ ما المانع أن يختبر القائد جنده بالأسلوب الذي يراه مناسباً، فإن المكروه في الوضع العادي، لا يكون مكروهاً في الوضع الاستثنائي، كما أن المحرم في الحكم الأولي، يصبح محلّلاً بالحكم الثانوي، ولا غضاضة في ذلك ولا مؤاخذة.

كما أن الرسول ﷺ أول العارفين بأحكام الله ﷻ، ما حلّ منها وما حَرُم، فلا يمكن أن يأتي بشيء ليس له جذرٌ في الشريعة، وإن تصورناه بعيداً عنها، وهو ﷺ المعروف بأسمى مراتب الخلق وأزكاها، فلا يمكنه على وجه الإطلاق أن يأتي بما يخالفها، وإن تصورناه مخالفاً لها.

ثم إن دراسة محيط الحدث بدقة يثبت لنا تلك الكراهة واقعية كانت أو مفتعلة، ولعله فقدنا الكثير من القرائن الموصلة إلى ذلك المحيط ومعرفة تفاصيل ما عليه في أعماقه وشواطيه، فلا يجوز محاكمة الحدث مع عدم الإحاطة بكل تفاصيله كما هو مسلّم.

والقول بأنه فعلاً أراد أن يختبر الصحابة، وأنه ﷺ كان صادق الرغبة في البقاء فهذا عندنا مقبول للأسباب التالية:

(١) إن مجرد الرغبة في البقاء لا يعني كراهية الخروج إلى جيوش شيطان أمية أبي سفيان، لأن إثبات الشيء لا ينفي ما عداه.

(٢) وهذا الكلام يدعمه رؤيا رسول الله ﷺ وتعبير تلك الرؤيا، فهو ﷺ يعلم أن المعركة واقعة، وأن من أهل بيته من يصاب بها.

(٣) ويؤيد ذلك أنه ﷺ لما قال في جوابه ـ للخباب بن المنذر بن الجموح الذي بعثه يستطلع القوم وحيث أتاه فأخبرهم ـ: «حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول»[1]، ولم يقل صلوات الله عليه وآله بك أسكن، وبك أتحصن . وهذا معناه ان هناك صولة ولا يتحققان إلاّ والحرب ناشبة واحتمال كونها تنشب في نفس المدينة احتمال ناقشناه من قبل ورددناه.

(٤) ويدعمه موقف عبد الله بن أُبيّ بن سلول، حيث تخلف عن

(١) سبل الهدى والرشاد ٤ : ١٨٣ .

رسول الله ﷺ هو وزمرته المنافقون، دون غيرهم من الصحابة، وحتى الذي تأخر منهم ـ من الصحابة ـ إنما كان له عذرٌ في ذلك مقبول ـ كما مرّ أو سيمر ـ فلو لم يكن من ذلك الموقف إلاّ كشف ابن أُبيّ وجماعته، وبهذا الشكل الواضح، لكفى قيمة وحنكة.

(٥) ويفسر ويؤيد ذلك اندفاع المندفعين، بحماس منقطع النظير للقتال والنِـزال والشهادة، لأنهم عبروا عن صريح نيتهم دون مواربة أو جاذبية من نية أخرى، وفيهم من لا يطمع أن يخالف رسول الله ﷺ، أو يراه كارهاً لما يكون منه، بل منهم الأشداء الصيد والفرسان الصناديد، كحمزة سيد الشهداء وعم خاتم الأنبياء ﷺ، وأسد الله وأسد رسوله، وجماعة آخرون.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى سوف نرى رسول الله ﷺ كيف يتعامل مع أملهم بالشهادة ودخول الجنة وهم يطلبون منه الخروج من المدينة.

إنه تعامل بالحنو وقبول الرغبة، والتأمين على دعوات الشهادة، مُزيداً في التساؤل ـ ولعله لِنفس علة الاختبار ـ مع بعضهم حتى يستزيد بما تفيض به صدورهم.

يقول الواقدي في مغازيه: (وقال مالك بن سنان، قال أبو سعيد الخدري: يا رسول الله، نحن والله بين إحدى الحسنيين، إما يظفرنا الله بهم فهذا الذي نريد، فيُذلهم الله لنا فتكون هذه وقعةَ مع وقعة بدر، فلا يبقى منهم إلاّ الشريد، والأخرى يا رسول الله، يرزقنا الله الشهادة، والله يا رسول الله، لا أبالي أيهما كان، إن كان كلاً لَفيهِ خيرا. فلم يبلغنا أن النبي ﷺ رجع إليه قولاً، وسكت.

فقام حمزة بن عبد المطلب ﷺ وقال: والذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي هذا خارجاً من المدينة.

وكان يقال إن حمزة يوم الجمعة صائم، ويوم السبت صائم فلاقاهم وهو صائم.

قالوا: وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم: يا رسول الله، أنا أشهد أن البقر المُذبَّح قتلى من أصحابك وإني منهم، فلِمَ تحرمنا الجنة؟ فو الذي لا إله إلاّ هو لأدخلنَّها.

قال رسول الله ﷺ: «بِمَ؟»

قال: إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف.

قال رسول الله ﷺ: «صدقت!». فاستشهد يومئذٍ.

وقال إياس بن أوس ابن عتيك: يا رسول الله، نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبّح، نرجو يا رسول الله أن نُذبَّح في القوم ويُذبَّح فينا، فنصير إلى الجنة ويصيرون إلى النار.

مع إني يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمداً في صياصي يثرب وآطامها! فيكون هذا جُرأة لقريش، وقد وطئوا سعفنا فإذا لم نذب عن عِرْضِنا لم نزرع.

وقد كنّا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا، ولا يطمعون بهذا منّا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبّهم عنا، فنحن اليوم أحق إذ أيدنا الله بك، وعرفنا مصيرنا، لا نحصر أنفسنا في بيوتنا.

وقام خَيثمة أبو سعد بن خيثمة فقال: يا رسول الله، إن قريشاً مكثت حولاً تجمع الجموع، وتستجلب العرب بواديها ومن تبعها من أحابيشها، ثم جاءونا قد قادوا الخيول وامتطوا الإبل، حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا.

ثم يرجعون وافرين لم يُكلَموا فيجرّئهم ذلك علينا حتى يشنّوا

الغارات علينا، ويصيبوا أطرافنا، ويضعوا العيون والأرصاد علينا، مع ما قد صنعوا بحروثنا، ويجترئ علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم، فنذبهم عن جوارنا، وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا، أو تكون الأخرى فهي الشهادة.

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرزق الشهادة، وقد كنت حريصاً على الشهادة.

وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول: إلحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنّي ورقّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة.

فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً.

وقالوا: قال أنس بن قتادة: يا رسول الله، هي إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الغنيمة والظفر في قتلهم.

فقال رسول الله ﷺ: «إنـي أخاف عليكم الهزيمة».

قالوا: فلما أبوا إلاّ الخروج صلّى رسول الله ﷺ الجمعة بالناس، ثم وعظ الناس وأمرهم بالجدّ والجهاد، وأخبرهم أنّ لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بذلك حيث أعلمهم رسول الله ﷺ بالشخوص إلى عدوهم)[1].

وأخيراً يمكن القول إن الرسول الأعظم ﷺ قدر لكلتا الحالتين

---

(١) الواقدي ١: ٢١٢ ـ ٢١٣، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٣ ـ ٢٢٥، وانظر بحار الأنوار ٢٠: ١٢٤ ـ ١٢٥.

مقاديرها؛ فاستعد لغرض البقاء في المدينة وهيأ الأمر لذلك، واستعد لغرض الخروج منها وهيأ الأمر لذلك، وهذا من شأن القائد العظيم، وجدارته في عمله القيادي، إذ الواجب أن يستعد لكل الاحتمالات، ولأسوء الفروض، وعلى كافة التقديرات.

سيما مع عدم وجود مانع يمنع الاحتمالين، احتمال القتال داخل المدينة، واحتمال القتال خارجاً منها.

وقد ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾[1].

والخلاصة أن رسول الله ﷺ قد تمكن من إحتواء مخططات قريش في حرب أُحُد عبر خطّته، وممارسته القيادية للمعركة في كل أبعادها الداخلة في طريقة تعامله مع المؤمنين، وفي طريقة تعامله مع المنافقين، ومع المؤمنين، ومع المشركين في وقت المواجهة.

ولكن لو كانت خطة الرسول ﷺ في البقاء بالمدينة هي المطبقة، وهي المعمول بها مع قريش آنئذٍ لَكان الاحتواء له نسبية أخرى وأبعاد ثانية، إنه احتواء تام، وشلّ لقدرة قريش بالكامل، كما فعل ذلك ﷺ في الأحزاب وجاءت ثماره تامة كما سنبين إن شاء الله ﷻ.

ولكن ما كان لنبيٍّ أن يضع لامته بعد أن لبسها.

وفي البحث اللاحق دراسة أخرى في محاولة الرسول الأعظم ﷺ لاستثمار كل الفرص في أُحُد ليخرج منها ـ ورغم قساوة الموقف ـ بنصرٍ على أعدائه على مستوى الأهداف والغايات.

وحتى نوضح ذلك ونبسّط الحديث فيه أكثر فلنطالع الدراسة الآتية. في المبحث الثالث والمتفرع عن الاتجاه الثاني.

---

(١) المجادلة: ٢١.



المبحث الثالث

في أُحُد.... من انتصر على من؟

إن قضية أحُد فعلاً كانت قضية شائكة وفيها الكثير من المطبّات التي تُوقف جريان القلم؛ إذ أن الأحداث التي كانت في المعركة أحداث عظيمة، وكذلك مرتبكة يصعب معها فرز النتائج، وفي صالح مَن كانت.

فهناك مَن يعتقد أنّ قريشاً هي التي غلبت في تلك الحرب وكانت الدائرة لها على المسلمين، وبهذا المعنى كانت هي المنتصرة، والجيش الإسلامي أُصيب بالهزيمة والخيبة المرّة.

وهناك من يرى أن الحرب أفضت إلى اقتسام المسلمين والمشركين للهزيمة والنصر؛ حيث انهزم المشركون في أوّل الأمر ثم انتصروا في آخره، وفاز المسلمون في أوّل الأمر ثم انهزموا في آخره.

وهناك من يرى أن المسلمين انتصروا انتصاراً كاسحاً على المشركين.

وحيث لابدّ من الانضمام إلى أحد الآراء ودفع الرأيين الباقيين.

نقول: وأرجو أن لا أكون مع عاطفتي المجردة، بل بودي أن يبقى قلمي على مساره في مناقشة الأمور بواقع علمي، موضوعي.

نعم إننا مع الرأي الأخير القائل: بانتصار المسلمين على المشركين وذلك طبقاً للموارد التالية:

المورد الأول

إن المشركين لم يحققوا أهدافهم التي جاءوا من أجلها، وعدم تحقيق الأهداف يعني بالضرورة عدم كسب المعركة، كما عبّر عن ذلك عكرمة بن أبي جهل: (لا محمداً أصبتم، ولا الكواعب أردفتم فبئس ما صنعتم)[1].

يعني كان هدفهم المرسوم هو قتل النبي ﷺ وسبي الذراري، ولما لم يفلحوا بذلك ولم يحصلوا عليه فهم قد فقدوا مخططهم الذي يقضي بأن يكون محمدٌ ﷺ واحداً من أهدافهم وليكن أكبر أهدافهم وأهمها.

ولما لم يُقتل النبي ﷺ ولم تسبى الذرية، فمعناه خسرت قريش الحرب، هذا إذا كان الميزان في النصرة والهزيمة تحقق الأهداف وعدمها، أمّا إذا كان الميزان بكثرة القتلى والجرحى فيكون الجواب: نعم، إن المشركين قد حالفهم النصر، لكن هذا لم يقل به أحد أولاً، ومخالف للواقع والوجدان ثانياً.

فقد يعطي العسكر تضحيات هي في واقعها أكثر من تضحيات عدوّه، لكنه ينال أهدافه كاملةً، بحيث لا يذكر مع تحقق أهدافه حجم خسائره بالأرواح وإن كانت فادحة، وقد يعطي تضحيات قليلة لكنه لا يحقق هدفاً يذكر، أو يذكر ولكنه دون المراد.

وصفوان بن أمية كان يرى أنهم غلبوا المسلمين بهذا المقياس خلافاً لرأي عكرمة بن أبي جهل الذي يرى ـ وهو رأي سائر أفراد الجيش ـ بأنهم لم يحققوا نصراً يذكر مما يؤكد أن هدفهم لم يتحقق فعلاً، ويؤكد أيضاً إنهم يربطون بين النصر وتحقيق الأهداف وما داموا لم يحققوا

---

(١) المغازي ١: ٣٣٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٨، وانظر بحار الأنوار ٢٠: ٣٩، و ج ٤١: ٨٤، السنن الكبرى ٦: ٣١٧، المعجم الكبير ١١: ١٩٧، التبيان للشيخ الطوسي ٣: ٥٠، تفسير ابن كثير ١: ٤٣٧.

الأهداف فهم غير منتصرين لا محالة، وهذا الكلام بعينه يصلح رداً على من يعتقد أنهم حققوا أهدافهم فقد كان الثأر همهم الوحيد الذي حداهم لحرب أحُد، وحيث قتلوا حمزة ومصعب وجماعة غير قليلة من المسلمين فقد حُقّقت أهدافهم.

ونحن لا نرضى حتى بهذا المقدار، ولا نرضى بذلك لَما يلي:

١ ـ اعترافهم أنفسهم بذلك، كما مر سابقاً.

٢ ـ ولكون أساس العداء القائم بينهم والمؤدي لقتل أبطالهم في بدر واحد هو نفسه لم يزل باقٍ على حاله وعلى استعداده ووثوبه وهو استمرار وجود الرسول محمدٌ ﷺ ودولته وجيشه وعاصمته، وهذا الوجود هو العقبة الأساسية الكبرى التي يترتب عليها كل شيء من شأنه أن ينغص قريش ويلوي عنانها.

٣ ـ لأن المسلمين قتلوا منهم في أحد رجالاً مهمين وهم أصحاب الراية واللواء ولم يبقوا لهم عيناً ولا أثراً.

٤ ـ لأنهم همّوا بالرجوع في طريق عودتهم إلى مكة لإكمال أهدافهم في إدراك ثأرهم.

وبهذا لا يرون لما قتلوا قيمة دون استئصال الجميع حيث إن قتل الجميع ـ لا البعض ـ هو النصر عندهم.

عن المغازي: (ويقول قائلهم فيما بينهم: ما صنعنا شيئاً، أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم، قبل أن يكون لهم وَفْرٌ)[1].

---

(١) المغازي ١:٣٣٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٨، وانظر شرح الأخبار ١: ٢٨٤، بحار الأنوار ٢٠: ٤٠، تفسير مجمع البيان ٢: ٤٤٨، جامع البيان ٤: ٢٣٨، تفسير ابن كثير ١: ٤٣٩.

فالرسول محمد ﷺ حافظ على وجوده الشريف، وعلى جيشه، وعلى عاصمة دولته، وعلى المسلمين عموماً، وتصدّى بقوة لمنع الاندفاع القريشي نحو المدينة إلى آخر لحظة من المعركة، وبهذا عطّل جميع أهداف قريش تقريباً.

المورد الثاني

ومن الناحية الواقعية فإن الهزيمة في بداية الحرب جاءت من قريش كما جاءت من المسلمين في نهايتها.

عن الواقدي في مغازيه: (كان أوّل من قدم بخبر أُحُد وانكشاف المشركين عبد الله بن أُميّة بن المغيرة، كره أن يقدم مكة وقدم الطائف فأخبر: إنّ أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا، كنت أوّل من قدم عليكم! وذلك حين انهزم المشركون الانهزامة الأولى)[1].

فبأي قياس نمنحهم النصر دون المسلمين، أو للمسلمين دون المشركين، نعم تفيدنا المرجحات بالمقام، ومن خلالها نعرف أن ميزان المسلمين أرجح وأوفر.

المورد الثالث

قول أبي سفيان في يوم أُحد: الموعد بيننا وبينكم يوم بدر الصفراء في العام القادم، ولو كان قد حصل على أهدافه لما استعجل في طلب القتال، فَلِمَ القتال وقد أُجهِضَ المسلمون وتحققت الغاية، وسنرى في البحث اللاحق ـ هل استعجل أبو سفيان في اطلاق الموعد ـ خطأ أبي سفيان الاستراتيجي في إطلاقه للموعد العاجل هذا.

---

(١) المغازي ١ :٣٣٢، وانظر شرح نهج البلاغة ١٥: ٤٤.

المورد الرابع

لو كان الرسول ﷺ مهزوماً في أُحد لما طاردهم في اليوم التالي حتى بلغ حمراء الأسد يطلب قريش وقتلها، ففي الواقع كان هذا الهجوم على الأعداء يؤشر بالنسبة للمسلمين مؤشراً مهماً بالإضافة إلى كونهم عطّلوا أهداف قريش فإنهم يريدون أن يلحقوا بهم الدمار النهائي، ولم يكتفوا بالنتيجة الأولى، فلو كانوا منهزمين لصعب عليهم أن يجمعوا شتاتهم ويهجموا على عدوهم هذا مع العلم أن غزوة حمراء الأسد كانت فقط للمشاركين في أُحد، إن لم نقل فقط للجرحى.

كما عن المغازي: (هذا منادي رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، فوثبوا إلى سلاحهم وما عرجوا على جراحاتهم)[1].

فهل يَهمُّ المنهزم بالحرب، والجرحى من الضرب والذين أصابهم الفشل والارتياع؟ بالكر على العدو، معلوم أن المسلمين أصابهم ما أصابهم في أحُد لكنهم بقوا مندفعين بعزيمة المنتصر لا مذعنين بخيبة المنهزم الخائب.

المورد الخامس

إرادتهم ـ أي المشركين ـ الرجوع ومقاتلة المسلمين من جديد، ولو كانوا قد حسموا موقفهم وحققوا أهدافهم، فلماذا هذا الرجوع وطلب الحرب؟

وقد يسأل سائل لقد قبلتم قبل قليل بأن رجوع المسلمين ومطاردتهم للمشركين في غزوة حمراء الأسد يحكي عن كونهم منتصرين، ولم يكن الأمر كذلك في إرادة المشركين الرجوع للمسلمين بل على العكس إذ جعلتموها إشارة تؤيد كونهم منهزمين.

---

(١) المغازي ١: ٣٣٥، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٥.

والجواب: إن المشركين لما عادوا أوضحوا أن سبب عودتهم عدم تمامية أهدافهم، وكان هذا واضحاً وقد ذكرناه مراراً، وقد جاء ذلك على لسان عكرمة بن أبي جهل حيث قال: (لا محمد أصبتم، ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم)، وكان هذا كلام أفراد الجيش معه.

وقد فرغنا من القول بأن عدم تمامية الأهداف، أو عدم نيلها بالأساس يعني خسارة الحدث وانتفاء النصر المزعوم.

بينما المسلمون لم يعلنوا أن أهدافهم كانت غير تامة وإنما أرادوا تحقيق أهدافٍ أخرى كانوا يرون بإمكانهم تحقيقها فهم قد أضافوا نصراً لنصرهم، وأزاحوا به جزءاً من الهم بسبب فقدهم الشهداء العِظام ﷺ.

المورد السادس

تبيّن أخيراً ـ وإن كانــوا همّوا بالرجوع للمسلمين ـ أنهم يعانون من عقدة الخوف من مقابلة المسلمين، بحيث لما سمعوا بتحرك الرسول ﷺ نحوهم يبغي مطاردتهم وإقامة الحرب معهم، أقاموا الدعاية المضادة، وجنّدوا طاقات معينة لتذهب إلى الرسول ﷺ فتخوّف المسلمين بإرادة قريش الرجوع لهم والحرب معهم كذباً وزورا، وأعطوا لذلك الأموال.

فلو كانوا منتصرين لماذا هربوا عند سماعهم أخبار قدوم الرسول ﷺ؟ إذ المنتصر يجب أن يقف شامخاً في قبول التحدي وردّ القادم، لا أن يفتعل الأكاذيب الدعائية حتى يحقق الفرار تحت جنح تلك المزاعم والأكاذيب.

جاء عن الواقدي في مغازيه: (ومرّ بأبي سفيان نفرٌ من عبد القيس يريدون المدينة، فقال:

هل مُبْلِغو محمداً وأصحابه ما ارسلكم به، على ان اوقِرَ لكم اباعركم زبيباً غداً بعُكاظ إن انتم جئتموني؟

قالوا: نعم.

قال: حيثما لقيتم محمداً وأصحابه فأخبروهم أنا قد أجمعنا الرجعة إليهم، وأنا آثاركم.

فانطلق أبو سفيان، وقدم الركب على النبي ﷺ وأصحابه بالحمراء، فأخبروهم الذي أمرهم أبو سفيان.

فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل! وفي ذلك أنزل الله ﷻ:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [١] الآية.

وقوله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [٢] الآية.

وكان معبد قد أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله ﷺ يُعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة) [٣].

بينما نرى أن الرسول ﷺ المنتصر ومع هذا الوعيد والتهديد لم ينصرف إلاّ بعد ما تأكد من انصراف قريش ورحيلهم خائفين وجلين، وتلقى تهديدهم ببطولة وشجاعة وصبر واحتساب ﴿قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [٤].

المورد السابع

قول أبي سفيان في يوم فتح مكة للرسول الأعظم ﷺ بأنه لم يلتقِ

(١) آل عمران: ١٧٢.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) المغازي ١: ٣٤٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٩ ـ ٦٠، وانظر ما معناه في تفسير الميزان ٤: ٧٢، الدر المنثور ٢: ١٠١، فتح القدير ١: ٤٠١.

(٤) آل عمران: ١٧٣.

معه في موقف إلاّ وكان النبي الأعظم ﷺ منتصراً فيه.

ففي المغازي: (يا محمد استنصرتُ إلهي، واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتك مرّة إلاّ ظفرتَ عليَّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مُبطلاً غلبتك!)[1]. فإنك ـ قارئي الكريم ـ تجد أبا سفيان يطلق كلامه بظفر الرسول ﷺ عليه في كل المواقف دون أن يستثني أُحُداً منها، وبقوله: ما لقيتك من مرّة، يطرد احتمال إرادته نصر الرسول ﷺ في الجملة، أو جاء بكلمة الظفر على نحو التغليب.

ثم إنه أسند النصر إلى أحقية إله محمد ﷺ، والهزيمة إلى بطلان آلـهة أبي سفيان، ومع ثبات كون إله محمد ﷺ حقّاً بنظر أبي سفيان ـ ولو افتراضاً ـ يلزم منه أنه لم يكن منتصراً في مورد ما مع النبي محمد ﷺ، ويلزم منه انتصار النبي المصطفى ﷺ في كل الحروب والوقائع مع أبي سفيان؛ للملازمة التي أثبتها أبو سفيان في عبارته وهي ملازمة النصر للإله الحق والهزيمة للإله المبطل، وإلاّ يشذ معنى العبارة ويتخلف المعلول عن العلة.

إذ العلة في النصر هو كون الإله حق، فلو انتصر أبو سفيان في مورد ما فهذا يعني أن المعلول ناتج عن إله غير حق، وهذا يعني أن المعلول وقع معلولاً لغير علته، وما يجب أن يقع معلولاً لعلته قد تخلف عن الوقوع، وهذا ممتنع.

وبعبارة أخرى:

نقول: لو فرضنا إنه انتصر ولو مرة واحدة كما في أُحد حسب الفرض، للزم منه كون إله محمد ﷺ ليس بحق، وإن إله أبي سفيان لم

---

(١) المغازي ٢: ٨١٦، مجمع الزوائد ٦: ١٧١، المعجم الكبير ٨: ٨، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢١٧.

يكن باطلاً، وهذا خلاف مقصود أبي سفيان ومراده، بل يمكن أن نتعدى حروب قريش إلى جميع الحروب التي خاضها الرسول ﷺ وبنفس الملاك الذي طرحه أبو سفيان.

المورد الثامن

وقول المرأة في يوم فتح مكة وهي تحاور زوجها جماس بن قيس بن خالد الدِّيلي: (ألم أنهك عن قتال محمد؟ وقلت لك: ما رأيته يقاتلكم من مرّة إلاّ ظهر عليكم)[1].

فالمرأة هنا تعطي تقريراً مقتضباً عن نتائج حروب قريش مع النبي الأعظم ﷺ في جميع المعارك السابقة فيما بينهما لتؤكد لزوجها أنهم في جميع تلك الحروب قد جانبوا الفلاح والنصر، ليكون محمد ﷺ صاحبهما.

ولو كان ثمة نصر لقريش في واحد من تلك المواطن ـ وأحُد أحداها بطبيعة الحال ـ إذاً لاستثنته ولم تطلق الكلام، ومجيئها بكلمة (من مرة) يؤكد ذلك على أنها عربية تدرك معنى البلاغة وسر الفصاحة والبيان.

المورد التاسع

إن قريشاً بعد الحرب لم تقم الدعاية والإعلام الذي يعبر عن مظاهر الفرح والابتهاج بالنصر، خاصة أن نصراً من هذا النوع يعدّ نصراً ثميناً لا يمكن أن يمر من دون مظاهر وجدانية ترافقه كمجالس الأفراح وحفلات المنتصرين.

واحسب أن قريشاً لو كانت تَعدّ أُحداً لصالحها أو نصراً لها، لأقامت الدنيا وما أقعدتها، مع ملاحظة أن محمداً ﷺ عدوَّهم الأول

(١) المغازي ٢: ٨٢٧، عنه في شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٦.

والشديد، وأن لهم ثاراً بل ثارات عنده، وأن طباعهم وأحوالهم في الجاهلية توجب عليهم إقامة محافل الأنس والشعر والطرب، والخمر في الليالي الحمراء، ليكرعون فيها نخب النصر حتى يقرع رؤوسهم فأس السكر... ويلوي عنانهم النعاس في بواكير الصباح.

ولكن لم نسمع بهذا كله، سوى استشفاء مطعم بن جبير في مقتل حمزة ﵇ عم النبي ﷺ، وتلذذ هند بنفس المسألة بحيث أعطت وحشياً حُلِيّها وثمناً بخساً دراهم معدودة، للتعبير عن رضاها بمغامرة وحشي وفرحها بمقتل حمزة ﵇ ليس إلاّ.

وواضح أن هذين المظهرين وغيرهما لا يعبران عن معالم الانتصار ولا عن إعلام لكسب الحرب، بل هي وغيرها يعبرن بنظر الناظر، عن روح حاقدة موتورة تطلب السكون والقرار حتى ولو بالخروج عن كل الأعراف والقيم، ولو بالتمثيل وبأبشع صورة بقتلى المسلمين، وهذا ما حصل فعلاً لحمزة ﵇ وإخوانه الشهداء.

وإذا أردنا الدقة والانصاف، فإن سلوك مطعم وهند وفرحهما يعبران عن ارتياحهما لقتل حمزة ﵇ ولأسباب معلومة وحسب، وليس لانتصار ما في المعركة الضارية... أحد.

فلو كانوا قد سجلوا نصراً على المسلمين لكان حجم فرحهم المحتمل بقدر حزنهم المؤلم في أعقاب بدر؛ لهزيمتهم وكثرة ونوعية قتلاهم فيها على أقل تقدير، لا أن يكون الأمر بارداً إلى هذا الحد، وباهتاً بهذا المستوى، مما يشير إشارة واضحة أن قريش ما كانت تشعر بلذّة الغلبة، ولا تتمتع بنشوة النصر.

ويقودنا هذا الحديث بطبعه إلى نتائج حرب أُحُد، وما الذي يمكن أن نستقصيه من مواقف نظرية، وعملية، وأخلاقية، تَمَكَّن الرسول ﷺ من تسجيلها في قاموس الانتصار.

ولكن....

بعد أن نقدم لكم البحث الذي أوعدناكم به أولاً وهو: (هل استعجل أبو سفيان في اطلاق موعد للقتال)؟؟.

ومن ثم نعود الى النتائج الأُحُدية.

هل استعجل أبو سفيان في إطلاق موعد القتال؟

كانت غزوة بدر الصفراء على أنقاض معركة أُحُد، فقد أراد أبو سفيان ذلك منادياً عند منصرفه من ميدان معركة احد: (موعدٌ بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقي فيه فنقتتل)[1].

وفعلاً كما عرفنا أن الرسول ﷺ تجهز للقتال وذهب إلى موضع النزال، ولم يجد للقوم أثراً ولم يسمع لهم خبراً.

ولدينا هنا سؤال هو:

هل أن أبا سفيان قد استعجل في إطلاق هذا النداء وجاء من جملة إرهاصات المعركة دون تخطيط وتثبّت؟ أم أنه أراد أن يقول للمسلمين: الويل الدائم لكم من قريش؟ ويجعل هذا النداء رسالة مفتوحة بين يدي المسلمين للتحذير من قريش والإنذار منها.

وباعتقادي أن أبا سفيان على ما لديه من خصائص القيادة، قد غلبه الموقف هنا وسار وفقاً لتوتره العصبي الآنيّ، ولزهو الالتفاف الذي حققه خالد، ظاناً من خلاله بالمسلمين ضعفاً وفي جيشهم انكساراً، ويعتقد أنهم سيكونون أكثر من ذلك في المستقبل مع كونهم فقدوا فرساناً لا يُلوى لهم عنان ولا يُشَقُّ لهم غباراً.

---

(١) المغازي ١: ٣٨٤.

فأطلق ندائه العاجل الذي عاد عليه بالحسرة تجرّ الحسرة.

أما لماذا كان مستعجلاً مخطئاً في هذا الموقف؟ فلما يلي:

السبب الأول:

إطلاق موعد القتال يدل دلالة واضحة على عدم نيل المقصود، وهو أخذ الثأر، وعلى عدم بلوغ الأهداف المرسومة، وإلاّ لماذا ضرب موعد جديد للقتال وقد نال مآربه وحقق مقاصده؟ ولماذا ضرب الموعد وقد انتصر؟ فوجود الميعاد دلالة على عدم شعوره بالنصر في حدث أُحُد القتالي، وهذا وحده يُعدّ خطئاً تكتيكياً تاريخياً.

السبب الثاني:

إن إتيان المسلمين بدعوى موعد للقتال يُهيىء المسلمين للقتال ويجعلهم على حذر عالي ويقظة تامّة، وطاعة مطلقة للرسول الأعظم ﷺ لكي لا يتكرر منهم ما كان في معركة أُحُد، فلماذا تنبيه المسلمين على أمر يمكن الاستفادة منه في حال عدم تنبيههم عليه؟.

السبب الثالث:

إن المسلمين بعد أُحُد أصبحوا موتورين بقتلاهم، ومنهم العِظام جداً كحمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عُمير، وأمثالهما ممن تُثقَل الأرض بهيبته، وشدّة وطأته، وجهاده، وعبادته، فضرب الموعد مع المسلمين معناه تهيئة فرصة زمنية لهم، لكي يكونوا هم صاحبي الثار هذه المرة ويأتون بكامل ثقتهم وحماستهم وثقلهم، لا يهمهم سوى الثار لإخوانهم، وفعلاً إذا كانوا قد خرجوا لأُحُد بـ ٦٥٠ نفراً من المسلمين مع الخوف على المدينة والخذال البعض فقد خرجوا إلى بدر للقتال وعددهم ١٥٠٠ نفر مع الاطمئنان على المدينة وعدم الخذال واحد منهم.

السبب الرابع:

إعطاء موعد قتالي مجازفة غير محسوبة في مقاييس الأقدار باتجاه الحسابات السياسية، أو باتجاه الحسابات الطبيعية.

فمن الجانب السياسي، قد يوالي الرسول ﷺ قوم ويحالفه آخرون وقد يوادعه غيرهم في غضون هذه السنة.

وقد يحدث لقريش عكس ما كانت عليه من مواقف سياسية فقد، يخذلها أصحاب الأحلاف، وقد تنفصم بعض العُرى المعتَمدة في قريش، وقد تجرها الأحداث إلى حروب جانبية داخلية أو خارجية، مما يصعب معها تحقيق موعد للقتال.

وأما من جهة الأمور الطبيعية: فما يُدري أبو سفيان ماذا سوف يحدث خلال هذا العام لأهل مكّة؟ فرُبَّ سنة مجدِبة تحطّ كلاكلها على كاهل قريش فتذيقهم مُر الوهن وتريهم شبح الجفاف.

ورُبَّ آفةٍ تأتي على نباتاتهم، ورُبَّ وباءٍ يدبّ في نعمهم ومواشيهم، فيكونوا أقل ناصراً وأضعف جُنداً، فيتحقق منهم الخُلْف كما زعموا ذلك متذرعين به.

السبب الخامس:

ثم ما يُدري أبو سفيان أن لقاه المسلمين في بدر الصفراء أو بدر الثانية سيكون محسوم النتائج له؟ والحال هو يتكلم بلغة من يريد إيقاع السيف برؤوس الخائفين منه، ليقتلهم ويأتي على آخرهم، ومن قال إن جنوده بهذا القدر من الشجاعة التي عليها المسلمون؟

إن الذي يتكلم بلغة التهديد يجب أن يعلم علم اليقين أنه عند تهديده، وأنه لا محالة منتصراً في الجولة، ومنتقماً من عدوه شر انتقام، وإلاّ فما قيمة التهديد إذن؟

صحيح أن أبا سفيان قائد عسكري، ولكن خانه هذه المرة التخطيط البعيد، فوقع متخبطاً، مطلِقاً أعنّة الكلام دون سداد وتوازن.

ولقد أسعفه صفوان بن أميّة لو كان ينفع متخبطاً إسعاف، ولقد ذكّره في طريقه إلى بدر الصفراء بكلمته تلك: (قد والله نهيتك يومئذٍ أن تعِدَ القوم وقد اجترأوا علينا ورأوا أنْ قد أخلفناهم، وإنما خلّفنا الضعف عنهم)[1].

ولقد وقع أبو سفيان وجيشه وجميع المشركين في ذلك التخبط، ولعَمري أنهم وقعوا في هزيمة نفسية مُـرَّة لا أظن أن أبا سفيان نسيَ مرارتها طوال عمره، وإنْ كثرت إلتواءاته، ومهاراته الإفتعالية في تفادي النتائج، ووضعها في حسابات شيطانية على طريقة (ضرب عصفورين بحجارةٍ واحدة) وعاد وهو يحتسي كأس الخيـبة، وينطح رأسه بدّن السَفاهة ليسمع طنين الخواء. والآن لنعد بك عزيزي القارئ الكريم إلى سياق مباحثنا في هذا الاتجاه لنقراء سوية المبحث الرابع مستطلعين به نتائج حرب احد.

---

(١) المغازي ١: ٣٨٩.

المبحث الرابع

نتائج الحرب في معركة أحُد

لقد افرزت حرب أُحُد عدَّة نتائج تعتبر من الاهمية بمكان لذا من الضروري أن نتصفح ما يمكن تصفحه.

النتيجة الأولى:

عودة قريش من حيث أتت لم تنلْ هدفاً تاماً من جيش المسلمين، بل عادت وهي مليئة بكلوم الحرب، وأحزان الراحلين من أبطالها، امثال طلحة بن أبي طلحة الذي سُرَّ الرسول ﷺ بمقتله: (فلما قُتل طلحة سُرَّ رسول الله ﷺ وأظهر التكبير)[1].

ولانشك أن الرسول ﷺ انما سُر وفرح بمقتله؛ لأن مقتله يعني التقليل من سفك الدماء، واستمرار وجوده يعني وجود مانع أمام تطبيق المنهج السلمي لرسول الله ﷺ.

ومقتل عثمان بن أبي طلحة الذي حمل اللواء بعد طلحة بن أبي طلحة، ومقتل سعد بن أبي طلحة، ثم مُسافع بن طلحة بن أبي طلحة، وكِلاب بن أبي طلحة، وبعده الجُلاس بن طلحة بن أبي طلحة، وشريح بن فارظ وغلامه صُؤاب.

وهؤلاء من تناوبوا على حمل لواء المشركين، ومعلوم أن اللواء لا يحمله إلاّ أجرأ القوم وأشجعهم؛ لأن اللواء يعني كل شيء في العسكر،

---

(١) المغازي ١:٢٢٦، الطبقات الكبرى ٢: ٤٠، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٩٤.

فإذا سقط انهزم وإذا ارتفع بقي الجيش يخوض الحرب ويطارد ويجهز الفرسان.

كانت الأهداف التي رسمتها قريش أن تثأر لقتلاها في بدر، أن لم نقل جاءت لتستأصل المسلمين، والثأر للقتلى لايعني قتل أنفار من المسلمين - وإن كانوا من عظمائهم - بل يعني أن تبيد قرش المسلمين طراً، حتى لايبقى مصدر الخطر قائماً على كل حال، فإذا كان الثأر في قتل جماعة من المسلمين فقط، فقد قتل المسلمون جماعة من المشركين، وقد قال ﷻ: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[1].

فالجرح ناشب في بدن الطرفين، ونازفٌ في كلتا الجبهتين، فلا فرق في الأذى والقتل والنيل لكلٍّ من الآخر.

وسوف يأتي بعض الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

النتيجة الثانية:

لم تكن هزيمة قريش في أُحد مجرد هزيمة، إنما هزيمة متصفة بالعار، إذ لم يعهد في حروب العرب أن المرأة تحمل لواء الجيش المحطم والمعفر بتراب الهزيمة على أرض النكسة.

ولهذا الأمر دلالة إما على عدم وجود الشجعان في ذلك الجيش أو على فقدهم أثناء الحرب، أو يأسهم من فائدة حمل الشجاع اللواء حيث سيكون مصيره الموت المحتم بضربةٍ علويةٍ حيدريةٍ لا محالة، أو بسيوف أبطال المهاجرين والأنصار.

إذن بقيت مثلبة على عرب قريش في حرب اُحُد أنهم لم يتمكنوا من منع اللواء، بل من منع النساء التي هي غاية ما تجب المحافظة عليها والدفع

---

(١) النساء: ١٠٤.

عنها عند العرب.

ولكن نلاحظ أنهم تركوا نسائهم في حومة الوغى حائرات، وتطايروا عنهن منهزمين حتى لأخذ إحداهن أسهل من مسك حجارة، (والله إني لأنظر إلى هند وصواحبها منهزمات، ما دون أخذهن شيء لمن أراد ذلك)[١].

بل قال نِسطاس ـ وهو مولى صفوان بن أمية أحد زعماء جيش المشركين، وكان قد أسر في بادئ الأمر وقد كانت همته وباقي الغلمان حفظ رحال قريش حيث خلفوهم عليه ـ وهو يحدثنا عن مجريات الهزيمة النكراء التي حلّت بهم:

(وقد ولى أصحابنا ويئسنا منهم، والحاش[١] النساء، فهنّ في حجرهنّ سَلْمٌ لِمَن أرادهنّ)[٢].

بهذا المقدار من العار ذهب المشركون المنهزمون في أول وهلة، وها هو التاريخ ونحن في القرن الخامس عشر من الهجرة نقرأ تلك السُّبّة منهم، ونعتبر ذلك بفعل النصر الإسلامي العظيم عليهم في الجولة الأولى من شروع الحرب.

تلك الهجمة الظافرة من المسلمين التي أنست المشركين نسائهم وأعراضهم وهنّ نهباً بيد الأقدار، وأنستهم وجوب حفظ الأدبار وتأمين الودائع، وخابت ظنون النساء التي كنّ قبل قليل يقلن:

---

(١) المغازي ١: ٢٢٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٩.

(١) الحاش النساء: أي نفرن (القاموس المحيط ٢: ٢٧٠).

(٢) المغازي ١: ٢٣١، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٤٢.

ضرباً بني عبـد الدارْ   ضربـاً حُماة الأدْبـارْ

ضربـاً بـكلّ بَــتّـارْ

والحال قد نُكّس كلُّ صارم بتّار، وفرّ بنو عبد الدار، فلا حامٍ ولا منجد لتلكم الأدبار، إلاّ خلق الرسول اللطيف ﷺ، ومنـزعه الشريف.

وسيأتي بعض الكلام في موضع آخر إن شاء الله عن ما له علاقة بهذا الموضوع.

النتيجة الثالثة:

إلتزام المسلمين بعدم مخالفة رسول الله ﷺ وتطبيق أوامره في المستقبل؛ لِما عرفوا من أن مخالفة الرسول ﷺ كانت سبباً في التراجع.

وفي الحقيقة أنّ درساً قاسياً من هذا النوع، ومهماً بهذا القدر تهبه أحُد للمسلمين يجب أن لا يُنسى ما دامت الدنيا باقية، لِما تحمل مخالفته ﷺ من مخلّفات خطيرة جداً في الدنيا والآخرة.

ولو قلنا إن كل الذي أصاب المسلمين في يوم أحد كان بسبب تلك الثغرة، وذلك الخطأ، وتلك المخالفة، لما جانبنا الصواب في شيء، ولنلاحظ هذه الرواية المهمة في المقام:

عن الواقدي: (فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون، يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم[1] عن العسكر، ووقفوا ينتهبون العسكر، قال بعض الرماة لبعض:

أَلَـم تعلموا أن رسول الله ﷺ قال لكم: «احموا ظهورنا فلا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا

---

(١) اجهضوهم: أي غلبوهم ونحوهم عنه. (القاموس المحيط ٢: ٣٢٦).

تشاركونا، أحموا ظهورنا».

فقال الآخرون: لم يُرد رسول الله ﷺ هذا، وقد أذلّ الله المشركين وهزمهم، فادخلوا العسكر فانتهبوا مع إخوانكم. فلما اختلفوا خطبهم أميرهم عبد الله بن جُبير ـ وقد كان يومئذٍ مُعْلِماً بثياب بيض ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم أمر بطاعة رسوله ﷺ، وألاّ يُخالَف لرسول الله ﷺ أمرٌ.

فعصوا وانطلقوا، فلم يبقَ من الرماة مع أميرهم عبد الله بن جبير إلاّ نُفَيرٌ ما يبلغون العشرة، فيهم الحارث بن أنس بن رافع، يقول: يا قوم أُذكروا عهد نبيكم إليكم، واطيعوا أميركم.

قال: فأبَوا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون، وخلّوا الجبل وجعلوا ينتهبون، وانتقضت صفوف المشركين واستدارت رجالهم)[1].

وهكذا كان هؤلاء الرماة سبباً في ضياع حدثٍ تاريخي لو قُدّر له أن يتم بحجمه المطلوب لَغيّر احداثاً والغى أخرى، وشكّل التّاريخ بأطر غير التي هي عليها الآن. ولَمّا صار سبباً في تلك المقتلة المؤلمة في صفوف المسلمين بعد نشوة الغلبة تحت أفياء الانتصار.

والحق أن هذه الثغرة بقدر ما أضرت نفعت (ورُبّ ضارةٍ نافعة) حيث صار الإلتزام بأمر الرسول ﷺ أمراً محتماً مطلوباً، ولا يمكن تمييعه تحت عناوين الفهم الخاطئ، والتصور المغاير، وطلب التفسيرات غير المطلوبة له، كما فعلوا ذلك في أُحُد.

وقد حصل هذا الإلتزام والمبادرة والامتثال في غزوة حمراء الأسد

---

(١) المغازي ١: ٢٢٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٩ - ٢٤٠، وانظر سبل الهدى والرشاد ٤: ١٩٥، عيون الأثر ١: ٤١٦، الطبقات الكبرى ٣: ٤٧٥.

حيث هبّوا لنداء الجهاد وجروحهم لما تضمد وهي بعدُ نازفة شاخبة، واستجابوا لداعي الله ﷻ رغم عمق الأسى في النفوس، لفقد الأحبة الذين خلفوهم موسدين ما بين أطباق الثرى.

وامتدح القرآن تلك الإستجابة، وكرّم تلك الاستفادة المباشرة من درس معركة أحُد القاسي بقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾[1]، وأوفر لهم العطاء حيث ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[2].

وفي بعضهم لا يوجد عضو لم يُدم من حد الجراح، حتى نراه ﷺ يأسى على بعضهم، ويتألم لهم، ويدعو لهم (فلمّا نظر رسول الله ﷺ إليهم والجراح فيهم فاشيةٌ قال: اللّهمّ ارحم بني سَلِمَة!)[3].

النتيجة الرابعة

كان فقد مجموعة مهمة من الشهداء في أحُد يمثل جذوة محرقة لنفوس المؤمنين هيّأت نفوسهم لخوض الحروب القادمة بعتاد أكبر وتصميم أشد.

وهذا أيضاً ظاهر في تعجيلهم إلى حرب حمراء الأسد، فعامل الحزن وحب الثأر لإخوانهم الشهداء كان يعتمل بنفوسهم ويدفعهم لطلب القوم.

عن صاحب المغازي: (فلمّا جاء مَعْبَد إلى أبي سفيان قال: هذا معبد وعنده الخبر، ما وراءَك يا معبد؟

---

(١) آل عمران: ١٧٢.

(٢) آل عمران: ١٧٤.

(٣) المغازي ١: ٣٣٥، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٥٥.

قال: تركت محمداً وأصحابه خلفي يتحرقون عليكم بمثل النيران، وقد اجمع معه مَن تخلّف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألاّ يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ولِمَن أصبتم من أشرافهم)[١].

صحيح أن معبد من خزاعة، وخزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ، وأنه كان متعاطفاً مع المسلمين ومحباً لرسول الله ﷺ، مما يعني أن كلامه سيأتي حاملاً لنوع من التهويل الدعائي، والرغبة في ترويع قريش، وإبعادهم عن التفكير في الرجوع لحرب رسول الله ﷺ.

لكن هذا لا يمنع أنه كان يصور حالة واقعية تمثل في نظره سبباً في خروج المسلمين لقتال عدوهم، وهو غضب المسلمين لفقد إخوانهم الشهداء في أحُد.

ويؤيد إمكانية ذلك قول صفوان بن أمية لقومه عندما همّوا بالرجوع لحرب رسول الله ﷺ حيث قال: (يا قوم، لا تفعلوا! فإن القوم قد حزنوا وأخشى أن يجمعوا عليكم مَن تخلّف من الخزرج)[٢].

النتيجة الخامسة:

بيّنت معركة أحُد أهمية خطة الرسول ﷺ الحربية، وعظمته في دقّة الاختيار، وقيادة الأحداث بشكلها المتقن التام الذي لا يرقى إليه تصور آخر بدليل أنهم كانوا منتصرين ما داموا ملتزمين بالخطة ولم يأتهم الفشل إلاّ من ثغرة المخالفة تلك، وإن احتفظوا بموازين النصر حتى النهاية.

ويأتي الحديث مفصلاً عن ذلك لاحقاً إن شاء الله ﷻ.

---

(١) المغازي ١ :٣٣٨، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥ : ٥٨.

(٢) المغازي ١ :٣٣٩، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥ : ٥٩.

النتيجة السادسة:

أثبتت جملة من الأخلاقيات الحسنة والإنسانية المهمة عند رسول الله ﷺ والمسلمين، وثبّتت أخلاقيات مبتذلة هابطة عند قريش.

ولنأخذ مثالاً على ذلك وهو تعامل رسول الله ﷺ مع جثث قتلى قريش فقد عمد ﷺ إلى دفنهم ومواراتهم في الثرى دون أدنى انتهاك لجثة الإنسان الميت، وإن كان معادياً.

بينما تعاملت قريش وتلك الجثث الطواهر الزواكي للمسلمين بالتمثيل الشنيع وبالهتك المفجع لحرمة الإنسان الميت، فهاهم يمثلون بعبد الله بن جحش إلى الحد الذي قال عنه المؤرخون: (ومُثّل به كلّ المثْل ودُفن)[1].

ويطول الحديث عن حمزة بن عبد المطلب عليه السلام عم رسول الله ﷺ،

يقول نِسطاس: (وذكرت هنداً ومالقيت على أبيها وعمها وأخيها، وانكشف عنه أصحابه حين أيقنوا موته ولا يروني فأكرّ عليه فشققت بطنه فأخرجت كبده، فجئت به إلى هند بنت عتبة، فقلت: ما لي إن قتلت قاتل أبيك؟.

قالت: سَلبي!.

فقلت: هذه كبد حمزة.

فمضغتها ثم لفظتها، فلا أدري لم تُسيغها أو قذِرتها. فنزعت ثيابها وحُليّها فأعطتنيه، ثم قالت: إذا جئت مكة فلك عشر دنانير.

ثم قالت: أرني مصرعه!، فأريتها مصرعه، فقطعت مذاكيره،

---

(١) المغازي ١:٢٩١، وعنه في شرح نهج البلاغة ١٥:١٨.

وجدعت أنفه، وقطعت أذنيه، ثم جعلت مَسكَتَين ومِعضَدَين وخدمَتين حتى قدمت بذلك مكة، وقدمت بكبده معها)[1].

فأيّ دنيء ـ مهما كانت دنائته ـ لا يفعل هذه الفعلة بجثة هامدة لا قوى فيها ولا حراك.

ولنأخذ مثالاً آخر لقيمة الرحم عند المسلمين، وذلك في مبارزة عليّ عليه السلام مع طلحة بن أبي طلحة كبش الكتيبة في جيش قريش.

(وحمل عليه عليّ عليه السلام، وعلى طلحة درع مُشمَّرة، فضرب ساقيه فقطع رجليه، ثم اراد أن يذفّف[2] عليه فسأله بالرحم فتركه عليّ عليه السلام فلم يذفّف عليه، حتى مرّ به بعض المسلمين فذفف عليه)[3].

وربما يعترض علينا معترض:

بأن النتيجة واحدة حيث: إن بعض المسلمين ذفف عليه وإن لم يكن علياً عليه السلام!!

والجواب:

١ ـ مَن قال إن ذلك المسلم له رحم معه، حيث أنه سأل علياً عليه السلام بالرحم بينه وبينه، ولم يسأل بسواه.

٢ ـ ثم من قال إنه سأل المسلم كما سأل علياً عليه السلام.

٣ ـ ولكن كلامنا بأمثل القيم التي لا يقوى عليها بعض المسلمين، وليس معنى كلامنا: أنه لابد للمسلمين أن يتمثلوا بها جميعاً.

---

(١) المغازي ١ :٢٨٦، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥ : ١٢، والدرجات الرفيعة: ٦٧.

(٢) (ذففت على الرجل: أي أجهزت عليه) كتاب العين ٨: ١٧٧، (والذف: الإجهاز على الجريح) لسان العرب ٩: ١١٠.

(٣) المغازي ١ :٢٢٦، وانظر شرح نهج البلاغة ١٤ : ٢٣٦.

٤ ـ ثم أن القتل والتذفيف مقبول حتى بين ذوي الرحم في الحرب بمقتضى كونها حرب، فيكون مقبول من غير ذوي الرحم، من باب أولى.

٥ ـ ثم لا ننسى كون المقاتلين ومن كلا العسكرين يمتلكون وشائجاً فيما بينهم، وبدرجات متفاوتة من القرابة، وإذا افترضنا تسرية عدم القتل والتذفيف لذوي القربى فمعنى ذلك أن لايقع قتل ولا قتال، وهذا خلاف المنطق والواقع.

وقد مرّ بنا سابقاً إمكانية أسر النساء من قريش لكن أبى الخلق النبوي إلاّ أن يتركهن لحالهن دون أن يمسهنّ أحد بسوء أو يتخذهنّ سبايا [1].

ولقد كانت الخندق أيضاً من أخطر الغزوات القريشية على الرسول ﷺ، لذلك فضلنا الوقوف على أعتابها، والتأمل في إطار ذكراها وحتى يتبين أهمية ما سينفقه الرسول ﷺ من جهود، ويبديه من تفعيل واستثمار للأحداث، لننظر سويةً في مرآة الأحزاب، وهي ثالث أهم الأحداث ـ بعد بدر وأحد ـ إن لم نقل أهمها على الإطلاق.

---

(١) وسيأتي ما له علاقة بهذا الموضوع في موضع آخر من هذا الجزء.

المبحث الخامس
حرب الأحزاب في المرآة

من المفروغ منه أن حرب الخندق (الأحزاب) مهمة للغاية وذات حساسية وخطورة وذلك من زوايا عديدة، أهمها:

الزاوية الأولى:

إنها قامت على أساس الوجود الإسلامي ومدّه المتعاظم، ونموه المطرد، وتكاثر مؤيديه وأنصاره في أغلب الغزوات إن لم نقل جميعها، وعدم جدوى الحرب الهجومية التي شُنّت عليه، إنما يدل على خطورة هذا المد وقدرته في التأثير واستعداده لأن يكون البديل الطبيعي لكل القواعد والنظم القبلية السائدة آنذاك...

وهذا تهديد خطير وواقع عملي لابدّ من الإعتراف به، والإعتراف بمقدار ما يحمله من خطورةِ النسف، والإلغاء، والقلع، للرموز الحاكمة ولفيفها من القبائل، وما يحمله من بذور التفكيك لكل المناهج المعمول بها في ذلك الوقت بما فيها المناهج الدينية كاليهودية والنصرانية.

الزاوية الثانية:

إنه لا يمكن القضاء على مدّهِ هذا، إلاّ بالاستئصال الجذري وعدم إبقاء أي نوع من القنوات المغذية له، والتي يحتمل مع وجودها استمرار وجوده كدين إسلامي.

فلابدّ إذن من تطويقه، وتطويق آثاره، ومحاولة إلغاء كل ما يحتمل أن

يكون له صلة به، وبهذه الطريقة وحدها يمكن القضاء على فكرة استمرار العقيدة المحمدية.

أي لابد من قتل قطبها الأول، ورأسها المحرك محمد ﷺ ولابدّ من قتل أنصاره ومهاجريه، وإذا لا يمكن ذلك لأمور كثيرة، فإنه من الممكن إلغاء دورهم الإسلامي وإرجاعهم القهقري إلى ما كانوا عليه.

ولابدّ من سبي النساء والذراري، أو العمل معهم بنفس فكرة التقويض المفترضة مع الأنصار، ثم نهب أراضي المسلمين وتركها أثراً بعد عين.

وحتى إن لم تحقق قريش فكرة القتل والإبادة للجميع، أو السلب والنهب لهم، فلابدّ من قهر الجميع على الرضوخ والرجوع إلى دين قريش دين الآباء والزعماء، وتطويعهم على قبول هذه الفكرة بالقهر والأسر والإذلال والأغلال.

الزاوية الثالثة:

إنه لا يمكن تحقيق فكرة الاستئصال هذه، إلاّ بتحشيد كل القوى القبلية بمشركيها ويهودها، صغيرها وكبيرها، نسائها ورجالها، ومن جميع العشائر المحيطة ولابدّ أيضاً من رصد الأموال الطائلة، وتوظيف عجلة الاقتصاد، والإعلام لصالح الحرب، والعمل قدر الإمكان على توحيد القيادة الميدانية وإرجاع الأمور إلى زعامة الحرب الموحدة هذه.

لابد من خلق لحمة الدفاع عن المنهج الإشراكي بين هذه القبائل المختلفة في المشارب، وبين هذه الفئات المتعددة المذاق، والمختلطة النسيج، ويكون هذا الخلق لهذه اللحمة بكل اندفاع وعنف.

وهذا يتطلب أن تدخل قريش، وأسد، وغطفان، وسليم، وأشجع، وفزارة وقبائل أخرى من العرب وأحابيشها، والقوى اليهودية المتبقية في منطقة يثرب وخيبر في حلف عسكري، وإطار تنظيمي جبهوي يساهم في

جمع وتوحيد الطاقات، وتوجيهها كضربة واحدة ثقيلة قاضية على ديار المسلمين وديّاريهم.

الزاوية الرابعة:

وهي عملية التنفيذ الفعلي لهذه النظرية بعد أن أصبحت واضحة من الناحية النظرية، وإخضاع جميع القوات المتحالفة لممارسة الحرب على صعيد القتال.

وبذا وقعت الخندق، ولذا ستكون حاسمة، وبهذا المعيار تكون خطورتها على الإسلام والمسلمين، وبهذا المعيار أيضاً يجب أن يفكر المسلمون ويستعدوا لذلك.

إن الأحزاب كانت تعني إما الوجود وإما عدم الوجود، وكانت تعني إما الإسلام وإما الشرك، وكانت تعني إما قريش وإما الأمّة الإسلامية، بوجودها المصغر والمبارك، وإما الأصنام وإما الله ﷻ.

ومن هذا المنطلق تأتي كلمة الرسول المصطفى ﷺ بحق علي ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[1] لأن الأمور ماضية بهذا الاتجاه، وواقعة له عملياً تحت هذا المقياس، فلا يمكن بعد الأحزاب إلا أن يبقى أحد الحزبين، إما حزب الله وإما حزب الشيطان أبي سفيان، أحد الطرفين دون الآخر.

لأن هذا جاء بكل أثقاله ليستأصل وهذا واقف بكل ثقله لكي يؤصل، فإما يستأصل المشركون المسلمين عملياً وآنياً، أو يستأصل المسلمون المشركين عملياً ولو بعد حين.

---

(١) تأويل الآيات ٢: ٤٥٢، ينابيع المودة لذوي القربى ١: ٢٨١، كشف الغمة ١: ٢٠٥، كشف اليقين: ١٣٢.

وإما أن يتأصل الفكر الديني والعقيدي للإسلام، أو تتأصل الرؤى الإشراكية في ربوع الجزيرة العربية ونواحيها.

ومن هذا المنطلق نفسر قول الرسول الأعظم ﷺ بعد هزيمة المشركين الأحزاب: «اليوم نغزوهم ولا يغزوننا»[1] لأن المعادلة النهائية في الترجيح والبقاء كانت موجودة وواضحة ومتحققة وبكل حيثياتها هناك، فميل أحد الكفتين في ميزان هذه المعادلة يعني بلا جدال رجحان الكفّة الثانية وبقائها راسخة شامخة.

إن تفسير الأحزاب يجب أن يأتي على ضوء كونها أتت تحمل هذه المعاني وهذه التحديات وهذه النوايا.

فهي لم تكن بالحدث العادي ولا الوقعة العابرة ولا الغزوة المشابهة لبقية الغزوات، صحيح أنها تحمل نية العدوان كبقية الغزوات، وصحيح أنها جاءت بالرمح والحرج للمسلمين، وصحيح أنها تريد تثبيت وتشييد معتقدات الجزيرة المشركة، ولكنها تفترق مع بقية الغزوات في أمور فاصلة مهمة.

إنها تتويج لجهاد المسلمين المرير الطويل، وأنها طمس لما وصل إليه المشركون من الذروة في الاستعداد وعلى كافة المستويات والتي لا يسهل بلوغها مرةً أخرى، حيث الاستعداد المتواصل في العدّة والعدد، والتأليب والكيد اليهودي، والإعلام الحربي والرصيد الاقتصادي، والتمكن الفني والتعبوي.

---

(١) المعجم الكبير ٧: ٩٨، وانظر الارشاد ١: ١٠٦، بحار الأنوار ٢٠: ٢٥٨، مسند احمد ٤: ٢٦٢، مسند أبي داود الطيالسي: ١٨٢، تفسير ابن كثير ٣: ٤٨٥، الدر المنثور ٥: ١٩٢، تاريخ الطبري ٢: ٢٥٣.

ومع هذا كله يصادف المسلمين الجدب، وانسحاب يهود بني قريظة من حلفهم مع رسول الله ﷺ بطريقتهم المعهودة الغادرة الماكرة، ويكون التحرك العريض للمنافقين وأبرزه تكذيب مواعيد رسول الله ﷺ بالنصر، والمنافقون طبعاً بجميع تواجدهم في معسكر النبي الأكرم ﷺ وفي خارجه.

وهي الغزوة التي حصل فيها من الخوف للمسلمين ما لم يحصل في غيرها ما قبل فتح مكة، حتى بلغ وصف القرآن الكريم له بأنه ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ﴾[1] وبه نعرف مقدار الذهول والقلق والرعب والعطب الذي حلّ بساحة المسلمين.

كما أنها جاءت على أعقاب بدر الأخرة التي رجع فيها المشركون ومرارة الخذلان تفري شفاههم على أشداقهم.

إن خصائص كثيرة في الخندق جعلتها تمثل خصوصية كبرى في محيطها العسكري، والاجتماعي، والعقيدي، والنفسي، والتاريخي، وليس بنا رغبة في إطلاق عنان القلم في ذلك لأن الحديث فيها يطول.

ولعله يأتي شيء من الكلام منها في فصول أخرى إن شاء الله تعالى.

وحديثنا هنا هو:

كيف استطاع الرسول الأعظم ﷺ أن يحتوي كل تلك الطاقة المشركة المشتركة القوية الهادرة؟... وكيف تمكن من امتصاص هذا الجمع الضخم؟ كيف أفشل اندفاعه ومساعيه؟ وكيف تسنّى له تحطيم نواياه؟.

لابدّ لنا أن نفتش بدقة عن ما فعله الرسول ﷺ في مجال احتواء أكبر الأزمات التي تعرض لها مع المشركين، ولعل قولنا إن استنقاذ الرسول ﷺ

---

(١) الأحزاب: ١٠.

لكل القوى الذاتية والموضوعية وتسخيره في خدمة الموقف القتالي... يمثل مفتاح الحل.

فقد استفرغ الرسول ﷺ وسعه العقلي والذهني والنفسي والعضلي في كل شيء، في التعبئة وفي التخطيط، وفي أخذ الاحتياطات اللازمة للجيش والمدينة، للنساء والذرية، للزمان والمكان، وعمل على استمطار رحمة السماء وبقوة الدعاء ووضع كل شيء في محله.

ليكون هو المنتصر في الجولة الأخيرة.

وإذا كان هناك من شيء يمكن تأكيده هنا كمصداق أتم لهذا الجهد، وكسبب مباشر لاحتواء تلك الأزمة، واحتواء مخططات الظلمة المشركين فيها، فهو حفر الرسول ﷺ للخندق وبالكيفية التي سنعرضها في الأوراق اللاحقة.

المبحث السادس

الخندق... ثغرة الهزيمة والانتصار

الروايات تقول:

إن الرسول ﷺ والمسلمين وعندما حفروا الخندق قبيل مجيء المشركين في معركة الأحزاب غفلوا من أن في الخندق ثغرة فاتهم معالجتها، مما جعلها مصدر قلق وإثارة لمخاوف المسلمين مادامت الأحزاب المشركة موجودة والحرب قائمة.

وكانت هذه الثغرة المغفول عنها مجالاً لعبور فرسان قريش ومجالاً لمحاولات آخرين منهم، مما يعني في أقل مايعنيه أن خطة حفر الخندق ومع سلامتها كخطة إلا أنها لم تكن محكمة.

ونحن في البحث التالي نناقش هذه الثغرة بالتفصيل.

هل علم الرسول ﷺ بوجود ثغرة في الخندق ومنطقة ضيقة؟ أم لم يعلم بها؟

وإذا علم بها ﷺ كيف تركها دون معالجة آنية ميدانية؟ وقد اقتحم منها عمرو بن عبد ود العامري، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، ونوفل، وغيرهم.

أليس في هذا مجالٌ للجدال؟

لابدّ من القول ابتداءاً إن هذا المضيق في الخندق، أو ما نسميه بالثغرة ـ ناظرين في ذلك إلى الحسابات الفنية العسكرية، والأخطاء التعبوية فيها ـ أنها واقعة بين احتمالين:

الاحتمال الأول:

إنها كانت مغفول عنها ولا أحد ملتفت إليها وبقيت على هذه الحال إلى أن وقع القتال، فلم يكن هناك مجال لعلاجها وتلافي الخلل فيها.

وإذا كان الأمر كذلك فلا جدوى في النقاش ولا حاجة بنا إليه، لأن الأمر إنما وقع غفلة والغافل معذور في الجملة، أو قلْ: إن الأمر وقع وانتهى كل شيء.

الاحتمال الثاني:

إن الأمر لم يكن مغفولاً عنه، بل كان وجود الثغرة مقصوداً وإبقاءها على هذه الحال أمراً عمدياً.

ونحن نرجح الاحتمال الثاني والذي يساعد عليه:

أولاً: كون الذي قام بالإشراف على حفر الخندق، وتوزيع المهام في العمل به بين المهاجرين والأنصار، ووضع القياسات المطلوبة لكل جماعة وقبيلة وأفراد، وضمن حسابات رياضية أولية، هو الرسول الأعظم ﷺ، ووجود ثغرة يحتمل منها الضرر يكشف عن سوء إشراف النبي ﷺ - والعياذ بالله - وعدم متابعته التخطيط وإنجازات جنده العملية.

ونسبة هذا الأمر إلى ساحة قدسه وجلال نظره، أمر في غاية البعد بل هو ممتنع، لأنه لا يخلو من الطعن في حكمة النبي ﷺ وقدراته التخطيطية، ومستوى إشرافه، ودقة ملاحظته للأشياء، وخاصة المنظورة والمهمة منها.

وإن لازماً من هذا النوع يؤدي إلى خدش تكامليته ﷺ وأفضليته على باقي العباد، فيجب أن تتجلى فيه خصال القيادة التامة بما في ذلك استشراف الأحداث ومتابعة المهام، والوقوف على كل أمر له مدخلية سلبية، أو إيجابية في سير وتحرك الدعوة الربّانية.

وقضية وجود ثغرة لها هذا المقدار الكبير من التأثير على مسار الأحداث، لا يكشف فقط عن عدم دقة ملاحظة الرسول ﷺ، وانعدام ما ذكرناه من مفردات آنفاً، وإنما يكشف عن احتمال وجود ثغرات في طريقته القيادية ـ والعياذ بالله ـ على المستوى النظري والعملي أي الميداني.

فما المانع أن تكون هناك ثغرة أخرى مغفول عنها، أو ثغرات أو سُبُل مفتوحة يمكن أن ينطلق من خلالها العدو باتجاه المدينة.

وإلى آخره من قائمة التساؤل والتشكيك.

ثانيــاً: إن خطورة الحدث التي يواجهه المسلمون ليس بالهيّن، فهم يريدون من خلاله ـ أي حفر الخندق ـ الحفاظ على عسكرهم، والحفاظ على الودائع والنساء والعرض والشرف، ويريدون المحافظة على الذراري، وإن هؤلاء ـ أي المشركين ـ إذا دخلوا سيهلكون الحرث والنسل بلا أدنى تورع، بل لهم في عمل ذلك دوافع ومبررات، مع أن المسلمين يريدون من خلال الخندق حفظ الرسول ﷺ ورسالته.

وهذا أمر يدعوهم إلى أخذ الحيطة التامة والعمل بكل إتقان، من أن يحصل أمر في خندقهم يساعد عدوهم على الاستفادة منه، ومن ثم تؤول جهودهم في حفر الخندق إلى الضياع وتصبح كالهباء المنثور، فضلاً عن تعرضهم لما لا يريدون التعرض إليه.

فإن حصل المضيق الفلاني أو الثغرة فهو أمر في غاية التقصير، ولعله يعد مساهمة عملية في تسهيل مرور العدو وولوجه إلى المدينة المنوّرة، وتلك هي الخيانة العظمى.

ثـالثـاً: إنّهم كما يقولون إن المسلمين انتهوا من العمل في حفر الخندق بأربعة أيام قبل وصول قوات التحالف المشترك، وهذا معناه أن المسلمين كان بإمكانهم وبسهولة تامة مراجعة حدود الخندق وردم كافة

المواضع المحتمل فيها الخطر، أو يأتي من قبلها جيش السوء، فلماذا إذن لم يلتفتوا إلى ذلك،وكانت المدة كافية في التفحص والنظر والاستقصاء عن كل شيء محتمل؟

إنّا نُبرئ المسلمين من ذلك لوضوحه واهميته وسهولته، فضلاً عن تبرئة رسول الله ﷺ منه من باب أولى.

لماذا إذن تُركت هذه الثغرة؟

إذن لماذا ترك الرسول ﷺ هذه الثغرة مفتوحة، أو مهيأة للدخول بناءاً على كون تركها مقصوداً؟.

وهذا ما يمكن إجابته بالجهات التالية:

الجهة الأولى:

إن هذه الثغرة سوف تساهم في إغراء الشجعان من القوم والفرسان في الهيجاء ـ دون سواهم طبعاً ـ في الطمع بالاقتحام على المسلمين، وهذا الأمر كان يريده الرسول الأعظم ﷺ، حتى يتمكن من امتصاص زخم هجومهم الشامل الذي كانوا يريدون.

فوجود ثغرة من هذا النوع يحول غضبهم العارم، ورغبتهم الهالجة في حرب المسلمين وقتلهم إلى الاقتحام الفوري المحدد، والذي لا يمكن أن تخوضه إلاّ فرسانهم الشجعان، وعيون القوات، وأهل النجدة فيهم.

وهذا بعد أن قطع الرسول ﷺ عليهم الطريق في تنفيذ خطة الهجوم الشامل وإحباطه بحفر الخندق، وحول أنظارهم إلى الهجمات الفردية والمبارزة الشخصية، فيكون عبورهم دخولاً في مهلكة الموت المحققة، إذ لا قبل للفرد بجيش مُعَد بكامل أهبته، وهذا يعني امتصاص زخم الجيش بقتل فرسانه المقدمين، وإنهاء طليعته المعتمدة فيه ولو واحداً تلو الآخر.

وقد حصل هذا بعبور بعض أفرادهم الشجعان والذي تناوشتهم سيوف المسلمين وجندلتهم همم المقاتلين.

الجهة الثانية:

وإن هذا القتل سيدخل الفزع والجزع على القوم، ويبقي صورة مرعبة تستفز خيالهم، وتعتصر قلوبهم.

لأن قتل فارس يعد بألف فارس من شأنه أن يترك النائحة في معسكر العدو مدويّة بالويل والثبور، وعلى قلوبهم غيضاً وجمراً، يستهلك مشاعرهم، ويمزق عواطفهم، ويثير أعصابهم.

عن بحار الأنوار: قال حذيفة: فقال النبي ﷺ:

«أبشر يا عليّ فلو وزن اليوم عملك بعمل أمة محمد، لرجح عملك بعملهم، وذلك أنه لم يبقَ بيت من بيوت المشركين إلاّ وقد دخله وهنٌ بقتل عمرو، ولم يبقَ بيت من بيوت المسلمين إلاّ وقد دخله عزٌّ بقتل عمرو»[١].

فما الذي يفعله الجيش المشرك بعد مقتل عمرو بن عبد ود العامري؟

فأما أن يعبر غيره ومن نفس الثغرة فيكون مصيره كمصير صاحبه أو أصحابه، أو يَكبتوا أنفسهم على غائلة الحزن ونائرة الضيم، وهذا هو إرغام الأنوف.

فإن أشق شيء على النفس عندما تريد أخذ الثأر وهي موتورة لأجله وتزحف لتحقيقه وهو قريب منها، لكنه في غاية الصعوبة، والبعد عن المنال، إذ من دونه أهوال الخندق وسيوف الموت.

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ٢٠٥ وج ١٠٨: ٢٨٦، شواهد التنزيل ٢: ١٢، تفسير مجمع البيان ٨: ٤٥٢.

الجهة الثالثة:

وإن هذا القتل من شأنه أن يشحذ همّة المؤمنين ويصوّر لهم الرغبة في القتال، ويمنحهم زهواً وتألقاً، وفرحاً مستجداً، وانغماراً في الشكر على النصر، والتأهب لصناعة الملاحم، ويدفعهم خطوة أو خطوات نحو النصر المؤزر، بل قد يحسم الحدث بقضّه وقضيضه، ويرجعهم إلى قواعدهم في المدينة سالمين آمنين.

إنها الأشياء المحسوبة أو غير المحسوبة التي لها تلك القدرة في إلغاء الحرب بأكملها، واستنـزال النصر برونقه، أو جلب الرحمة الإلهية في غضون لحظة واحدة، إذ إن الله غفور رحيم في موضع العفو والرحمة، ولعل موقفاً واحداً من تلك المواقف استحقّ به المسلمون الرحمة واللطف الإلهي، فحالفهم النصر الأكيد، وعادوا بالروح والفتح والفرج.

عن الحسن بن عليّ عليه السلام: «إن عليّـاً لما قتل عمرو، احتـزّ رأسه، وحمله فألقاه بين يدي رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر فقبلا رأسه، ووجه رسول الله ﷺ يتهلل، فقال ﷺ: هذا النصر. أو قال: هذا أول النصر[1]. إلى الدرجة التي كان يقرأ عبد الله بن مسعود: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بعليّ»[2].

الجهة الرابعة:

إن يُظهر الرسول الأعظم ﷺ مهارات أفراده وشجاعة فرسانه في

---

(١) شرح النهج ١٩: ٦٢، مجمع البيان ٨: ٥٣٩، بحار الأنوار ٣٩: ٤، وانظر رسائل المرتضى ٤: ١١٩.

(٢) تأويل الآيات الظاهرة: ٤٤٣، تفسير التبيان ٨: ٣٣١، خصائص الوحي المبين: ٢٢٠، وانظر مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٢٣.

المقابلات الفردية، والمنازلات البطولية، فيكون إبرازاً لشأنهم، وتعريفاً جديداً بعظمة وقائعهم، فيُدخل العزّة والنصر والبشرى على المؤمنين، والمذلة والوهن في صفوف المشركين.

فإذا كان عمرو بن عبد ودّ العامري ـ وهو الذي يعد بألف فارس ـ قد قُضيَ عليه بضربة واحدة من سيف عليّ عليه السلام جدّلته صريعاً يخور بدمه، فمَ الذي سيفعله عليٌّ عليه السلام بفرسان قريش مِمَّن لا يعدّ أحدهم بعمرو في شيء؟

ألم ترَ كلمة النبي الأكرم ﷺ في حق عليّ عليه السلام كأنها توحي في تفسير هذه النقاط الثلاث وما بعدها، وتلم هذه الأطراف بجملة تعتبر من روائع ما قاله رسول الله ﷺ بحق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ضربة عليّ يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»[1].

الجهة الخامسة:

إنّ عبور فرسان من هذه الثغرة تدعو إلى تنشيط أصحابه ﷺ وتحفزهم للاستعداد، وتوقع الملاقاة للعدو في كل حين، وهذا يقضي على الغفلة المحتملة أو التراخي الذي يحصل في معارك طويلة الأمد من هذا النوع بالنسبة للعربي الذي اعتاد أن يحسم المعركة ميدانياً في ساعة واحدة.

ولا يحتج علينا أحد بالمعارك الطويلة الأمد في التاريخ العربي القديم، كداحس والغبراء، إذ أنا نقول: الحسم الميداني وليس المقصود إطالة أمد الحرب، وإلاّ فالمسلمون أمدهم الحربي ـ أي حالة الحرب بينهم

---

(١) ينابيع المودة لذوي القربى للقندوزي ١: ٤١٢، مجمع الفائدة للأردبيلي ٣: ٢١٦، وانظر الطرائف: ٦٠ و٥١٤، بحار الأنوار ٣٩: ١، مستدرك الحاكم ٣: ٣٢، كنز العمال ١١: ٦٢٣.

وبين المشركين ـ كانت طويلة ومعلنة، واستغرقت سنوات طوال حتى فتح مكة، أو ما قبل صُلح الحديبية.

كما أنه يساعد في مراقبة العدو من كل الجهات، فالذي يدخل من ثغرة يمكنه أن يدخل من ثغرة أخرى يحاول خلقها بنفسه.

الجهة السادسة:

ولعل عدم وجود ثغرة فعلاً قد يدعو العدو إلى التفكير الجديّ في ردم الخندق ولو من بعض جهاته، ولو كلفه ذلك، الجهد والزمن والصعوبات الشاقة، لكنه قد يفلح في النهاية في اجتياز المانع بتعطيل فاعليته.

ولكن وجود ثغرة من هذا النوع يصرف تفكير العدو إليها دون سواها من الأفكار والخطط، وفي هذه المسألة من الحكمة ما لا يخفى على عاقل، في تعطيل الرسول الأعظم ﷺ لأفكار عدوه، وشلّه لقدراته العقلية، وتمرير عامل الزمن عليه بدون شعوره ودرايته، حتى انتهت الحرب وهم لا يرون للخندق حلاً.

ومن هنا كان لخطة حفر الخندق معطيات هامة نعرضها لك عزيزي القارئ الكريم في المبحث الآتي وهو المبحث السابع.

المبحث السابع
معطيات من خطة حفر الخندق

بكل تأكيد أن فكرة حفر الخندق خرجت بنتائج باهرة على الصعيد التاريخي وعلى الصعيد الآني.

فأما على الصعيد التاريخي فيكفينا القول بإنه لولا ما حصل في تلك الحرب من أحداث ارتكزت بجملتها على فكرة وجود الخندق، لما بقيَ للإسلام رسم ولا اسم، حيث لا مؤذن يؤذن، ولا رسول يذكر، ولا مستقبل ولا أمل، ولا حيَّ على خير العمل.

أما على الصعيد الآني في زمن الرسول ﷺ ومن حوله، فلها مالها وإليك بعض الفوائد:

الفائدة الأولى:

إن وجود الخندق فلجأ العدو، ولعنصر المفاجأة هذا تأثير على روحية الجيش واندفاعه النفسي، وعلى مخططاته المرسومة للقضاء على المسلمين، فبكل تأكيد أن المشركين جاءوا يحملون معهم أمل القضاء على المسلمين.

حيث إن العشرة آلاف فارس فقط من قريش وأحابيشها، وغطفان، وسليم، ما سوى فزارة، وأشجع، وغيرهما، قادرة أن تدك حصون المدينة، وأن تفعل فعلاً فاصلاً ينهي أزمة الجزيرة العربية برمّتها ويعيد لها غرورها الجاهلي الذي كان.

فالمسلمون أمام هذا الحشد الهائل والسلاح الكثير ليس لهم أكثر من

ثلاث خيارات:

الخيارالأول: أن يتحصنوا في المدينة كما أرادوا ذلك من قبل في أحُد، وقريش عليمة بهذا الأمر، ولديها القابلية في مواجهة هذه الخطة؛ إذ الأمر يختلف عن أحُد ـ على الأقل ـ من جهة العدة والعدد.

الخيارالثاني: أن يقاتلوا وبشكل مباشر، كحالهم السابق في باقي المعارك، وهذا ما تريده قريش وقد أعدت نفسها له، حتى وإن كلفها الشيء الكثير، فهي لا تريد تمام القضاء على المسلمين ـ وإن كان شعارها هذا ـ بل يكفيها لتمثيل فكرة الاستئصال أن يقضوا على الرسول ﷺ وآله وصحبه المتمسكين به أشدّ التمسك، أما البقية الباقية، فلهم شأن آخر وحسابٌ ثانٍ.

والمسلمون بطبيعة الحال لا يمكن أن يلقوا بأنفسهم في مثل هذه المواجهة الخاسرة من الناحية العسكرية، لأنها عين التدمير والقضاء المبرم عليهم، كما أنها عين الحماقة إلاّ إذا لم يجدوا خياراً، إلاّ الصمود والوقوف والثبات والذود عن الحياض، فتكون آنئذٍ نعمت الجولة وليكن ما يكن، وإن للبيت ربّاً يحميه، وإن الله ناصر دينه وجنده من بعد.

الخيار الثالث: أن يستسلم المسلمون جميعاً، ويلقون بأيديهم لقريش وزعيم الشرك أبي سفيان وحلفائه، ويرمون أسلحتهم في ساحة المعركة كعلامة لإعلان الهزيمة وطلب الأمان، وهذا الاحتمال لا أعتقد أن أبا سفيان وقومه وحلفائه كانوا يرجونه أو يتمنونه، فهو بعيد المنال جداً، خاصة مع رجال خبروا نقيبتهم في الحرب وعرفوا صلابتهم ساعة اللقاء، فهو احتمال ملحق باللاممكنات.

وإذا بقيَ احتمال المواجهة المفتوحة والمباشرة، أو المواجهة مع التحصن في المدينة، فهذا مما لا يخفى على أهل الضرب والحرب، وأهل التجربة

السابقة مع المسلمين، فكل شيء حسابه موضوع.

أما أن يرى المشركون أن هناك خندقاً يلف الجهة المفتوحة من المدينة، ومن المكان الذي يحتمل منه دخول المسلمين في الصراع المسلح، والذي يبيح للعدو إيقاع الحرب بكل ثقلها، فهذا أمرٌ طوى لديهم خطة الحرب وأركانها في زاوية منسية، وأبدلها بقلق يساور النفوس، كيف نتغلب على الخندق؟ وقد حطّم محمد ﷺ خططها وزهوها بالعشرة آلاف فارس مع مئات الخيل والجمال، مع جمع شمل ولم كلمة، يعسر أن يجتمع مرّة أخرى بهذه الكيفية.

ووضعهم النبي ﷺ في دوامة فكرية لا يمكن فك لغزها بسهولة، أو تجاوز محنتها بيسر، فهذا التحطيم لهذا التفكير يعتبر انتصاراً على صعيد خطة الحرب، التي هي واحدة من الأساسيات في المواجهة والقتال.

الفائدة الثانية:

إن نفس الخندق والذي مثل مانعاً صناعياً عن اختراق العدو، كان يمثل استثماراً لعنصر الزمن، وعدم إتاحة الفرصة لشن هجوم شامل كما هو المخطط له، والتي ساعدت عليه انتشارات قواتهم، بشكل يساعد على تنفيذ خطة الهجوم الشامل المزعوم من نقاط متعددة مختلفة.

ذكرت مصادر التاريخ: (وكان القوم جميعاً الذين وافوا الخندق من قريش، وسليم، وغطفان، وأسد عشرة آلاف، فهي عساكر ثلاثة، وعناج الأمر إلى أبي سفيان، فأقبلوا فنزلت قريش برُومة ووادي العتيق في أحابيشها، ومن انضوى إليها من العرب، وأقبلت غطفان في قادتها حتى نزلوا في الزغابة إلى جانب أحُد...)[1].

---

(١) المغازي ٢: ٤٤٤، وانظر عيون الأثر ٢: ٣٥، الطبقات الكبرى ٢: ٦٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٦٤.

وإن جيشاً بهذه الكثافة وعساكر بهذا التنوع القبلي، من شأنه أن يتمركز في أكثر من نقطة حتى لو لم يكن لخطة مدروسة، لأن العرب حين أعطت قيادها لأبي سفيان لا يعني هذا أنها فقدت خصوصياتها.

نعم الأمر والنهي، والحرب والسلم، والتقدم والانسحاب لأبي سفيان، أما كل معسكر محتفظ بسماته القبلية ورئيسه الخاص، أو قادته المعروفين، ومكانه المميز، وأكله، وميرته، وغير ذلك.

نضيف إلى ذلك اليهود من بني قريظة الذين كان خطرهم لا يقل عن خطورة هذه الجيوش إن لم يكن أكثر، ولا ننسى خطورة ما اسميناه سابقاً (الطابور الخامس) داخل مدينة الرسول ﷺ من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وممَّن تعودنا منهم وعلى مرِّ المواقف، الخيانات، والصفقات، وهم على هذا المنوال سادرون.

إذن الجبهات عديدة بحق، والجهد المطلوب جهد خيالي حقاً، وهذا جميعاً تساعده عملية الانطباق على المسلمين بسهولة، وقد تحولت الحرب من خطة شاملة إلى ممارسات محدودة، أحادية، فردية، قد تحصل وقد لا تحصل، وفي حال حصولها فإنها لا تشكل عبئاً جدّياً على المسلمين.

فما قيمة أفراد أمام جيش كامل، يغزونهم ويعبرون أسوار مدينتهم، وهم في داخلها يدافعون عنها، وحتى هذا العبور الفردي يجعل المقاتل منقطعاً عن جيشه يائساً من نصرة أهل النجدة فيه، فشتان بين من يبارز مبارزة فردية يستظهر ورائه ظهيراً قوياً، وجيشاً كاملاً ينتظر منهم المدد، وحمل جنازته عند الموت، والثأر له بعد القتل، وبين من يعبر الخندق ولا يرى ذلك كله، إنه سوف يتعثر في عبوره كما حصل لأشجع شجعانهم عندما عبروا، فإنهم لم يستطيعوا استنقاذ جثته، وساوموا النبي الأعظم ﷺ عليها بالأموال ورفض النبي الكريم ﷺ أخذ الأموال على جيفة نتنة نجسة، تكرماً وترفعاً وتعففاً.

جاء في البحار، والكلام حول مقتل نوفل بن عبد العزى ـ وهو في جوف الخندق ـ: (فجعلوا يرمونه بالحجارة فقال[1] لهم: قتله أجمل من هذه، ينـزل بعضكم أقاتله، فقتله الزبير بن العوام، وذكر ابن إسحاق أن عليّـاً ؑ طعنه في ترقوته حتى أخرجها من مراقه، فمات في الخندق، وبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف، فقال النبي ﷺ: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى»)[2].

وفي المغازي: (وأرسلت بنو مخزوم إلى النبي ﷺ يطلبون جيفة نوفل ابن عبد الله يشترونها بالدية، فقال رسول الله ﷺ: «إنما هي جيفة حمار» وكره ثمنه)[3].

الفائدة الثالثـة:

وهذا يجعل المسلمين في مأمن من مواجهة الخطر المباشر، مما يحدوهم إلى رصّ صفهم أكثر وشحذ هممهم، واستثمار الزمن في تنظيم أمورهم، وتوجيه ما يريدون توجيهه بالوجه الصحيح، وهم أهل مدينة وزاد وماء، لا يضرهم تقادم الزمن وإن طال نسبياً.

بينما المشركون وبالإضافة إلى كون نفسية العنصر العربي تميل إلى حسم الأمور بسرعة وعدم إطالة الانتظار حولها، سوف يفقدون الكثير من مقومات البقاء ويتعرضون حتماً لخسائر قد تجبرهم على التراجع وتحملهم على العودة، دون إنجاز يذكر، بل لعل خسارتهم تكون فادحة، وهزيمتهم ساحقة كما حصل فعلاً.

---

(١) أي نوفل.

(٢) بحار الأنوار ٢٠: ٢٠٥، مجمع البيان ٨: ١٣٣، وانظر البداية والنهاية ٤: ١٢٢، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٢٠٥.

(٣) المغازي ٢: ٤٧٤.

الفائدة الرابعة:

تعطي المسلمين بعداً فنياً في التعامل مع الحروب، تجعلهم في أفق رحب في تعاطي مفهوم التكتيك، وقلب موازين الحروب بأفكار إبداعية جديدة، وهذا من شأنه أن يودع في نفوسهم خفقة النجاح وفي أرواحهم لهيب الحماس، وفي جيشهم عموماً القدرة على مواجهة التحولات.

إن الرسول ﷺ في خطته الحربية هذه أثبت بشكل منقطع النظير، أن الاستفادة من الظواهر الطبيعية، وغير الطبيعية ـ الموانع الصناعية ـ محققة بشكل كامل وتام في خططه الحربية، ومنظورة بكل وعي ودراية في تحركاته القتالية.

الفائدة الخامسة:

إن فكرة حفر الخندق بما هي فكرة ـ على القول بأنها إشارة من سلمان، أو من الرسول ﷺ وتأكيد من سلمان ـ كانت كفيلة أن تساهم في تحصين الصحابة بحصانة المسؤولية وضرورة التفكير الجدّي بشأن مصيرهم، وإبداء أقصى حالات المحافظة على كيانهم، وذلك بإشراك كل القوى الفكرية والنفسية والشعورية، بالإضافة إلى اللياقات العسكرية، التي تعتبر الشجاعة، وقوة القلب، والبناء الجسدي، أهم مفرداتها البنّاءة ولدينا في هذا المضمون كلام يأتي بمشيئة المولى تبارك شأنه.

الفائدة السادسة:

ويضاف إلى هذا كله أن فكرة حفر الخندق تقلل فزع النساء ورعب الأطفال والآمنين ومرضى المسلمين، الذين يحتملون أن المدينة أصبحت مشرعة الأبواب أمام قوات التحالف، فلولا الله ﷻ ورسوله ﷺ وهذا الخندق الميمون الذي حفظ الثغور لما ردّ العدو مدحوراً.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أنه كان يمثل إغاظة للمنافقين وأهل الشر والتمرد، ومن يريدون لغصن الإسلام الانكسار والذواء.

الفائدة السابعة:

وأخيراً ساهم ـ في ما لا مجال فيه للشك ـ في قبر أحلام المتحالفين، وإنهاء طموحاتهم العليلة، وإرجاعهم، خائبين لم ينالوا خيراً، فقد كان الخندق خندقاً حقيقياً لِوأد تلك النوايا وإلى الأبد ولِوأد مكانة اليهود وإلى الأبد، وإلى خنق اطماع المنافقين وإلى الأبد.

وإذا كان للمسلمين بداية واضحة المعالم من حيث الانطلاق مع الاطمئنان على دينهم، ومشخصة المشاهد مع كونهم منتصرين لا منهزمين، إنما جاءت ببركة هذا الخندق، طبعاً ليس الخندق بما هو حفر في الأرض، بل بما رافقه من أحداث وما لازمه من مواقف غاية في الأهمية، والنفع العام على عالم الإسلام وعالميته.

وبهذا نكون قد تمكنّا من إدراك نكتة قلص بها الرسول الأكرم ﷺ جهود المشركين، بل وألغاها، بل وحولها إلى هزيمة منكرة لا يتحقق أمثالها في تاريخ المسلمين.

بل حوّل الأحزاب، أو حرب الخندق إلى نصر باهر وفتح عظيم عاد بعده أصحابه مكللين بغار الزهو وآس الكبرياء، بعد أن عثرت قريش وكل القبائل التي حولها بعار النكبة وكبت لتقع على حر وجهها في ثغرة الإحتواء النبوية الذكية.

وسنعرض لك أخي القارئ المحترم جنبة اخرى من اوجه البراعة القيادية عند النبي الأكرم ﷺ وذلك فيما يتعلق بسياسته بازاء الصلح مع قريش في موقف الحديبية.

المبحث الثامن
أهمية صلح الحديبية

ومن الممارسات القيادية المهمة التي مثلت براعة قيادة الرسول الأعظم ﷺ وحكمة تخططه هي: تلك الحالة التي خاضها مع المشركين في الحديبية، حيث ذهب صلوات الله عليه وعلى آله للاعتمار بالبيت الحرام فصده المشركون، فحوّل ﷺ أكبر الأزمات الى أكبر الفتوحات التاريخية، أو إلى بداية للفتح النهائي.

وذلك كله عن طريق عقد صلح مع المشركين في الحديبية، وعن أهمية هذا الصلح ودوره المؤثر في الأحداث اللاحقة، وعن مقدار كشفه لما يحمله الرسول الأعظم ﷺ من لياقات عالية جداً، نتحدث عن جميع ذلك في هذه الدراسة المختصرة.

كيف يكون الصلح فتحاً عظيماً؟

ماذا يمكن أن يقوله الإنسان الباحث في حقيقة أحداث التاريخ في حدث سماه القرآن فتحاً مبيناً؟ فصلح الحديبية في الواقع ختم مراحل سابقة وطواها، واستفاد من آثارها ونتائجها، أو هو كان من نتائجها الحتمية.

فصار بداية لمرحلة جديدة، مرحلة خاصة بكل سماتها وميزانها من الجهة المكانية والزمانية، ومن جهة بلوغ الأهداف وقطعها لأشواط مهمة جداً، ما كانت تقطعها لولا أن تتكئ على مساعٍ حثيثة ودؤبة لرسول الله ﷺ وصحبه الأبرار كانت تلحق الليل بالنهار عَملاً وجهاداً وتحرر كل شيء

في النفس طاقةً جهادية لمواجهة المعضلات، والجيوش، والأزمات الطارئة والمستديمة.

فيتكلل ذلك الجد والجهد والجهاد والعمل الدؤوب من أجل الرسالة السماوية إلى فتح مبين، وبشارات متلاحقة عظيمة.

إن صلح الحديبية كان فتحاً تاريخياً على كل الأصعدة، ويمكن تدعيم هذه الدعوى بالأمور التالية:

الأمر الأول:

لقد كان صلح الحديبية اعترافاً صريحاً من قريش بمحمد ﷺ، محمد الدولة، ومحمد الجيش، والقائد، والشخص الذي لابد من الاعتراف بأهمية الحوار معه.

ومجرد أن يخلق الرسول الأكرم ﷺ لدى قريش هذه القناعة الأولية يعتبر في مقام تأدية الأهداف، إيجابياً للغاية، بعد أن كان شأنه في قريش واستحقاقه منهم الطرد والملاحقة والتعذيب، وهذه النقطة على درجة من الأهمية البالغة على الصعيد الدبلوماسي الإسلامي، والسياسي في المواقف القادمة.

فنرى قريش ترسل الوفود والشخصيات المهمة لديها حتى تفاوض محمداً ﷺ وتجلس معه على بساط البحث، مع كونه نداً، وخصماً، وشخصاً يحمل أفكار لا تتزعزع في ضرورة تهديم ما تؤمن به قريش وتعتقده.

فقد بعثت له عروة بن مسعود، وكان من حديثه مع قومه بعد أن رجع إليهم من مقابلة الرسول الأعظم ﷺ كما جاء عن المغازي: (فروا

رأيكم، وإياكم وإضجاع الرأي[1]، وقد عرض عليكم خطةً فمادّوه! يا قوم، اقبلوا ما عرض فإني لكم ناصح، مع إني أخاف ألاّ تُنصروا عليه!، رجلٌ أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدي ينحره وينصرف.

فقالت قريش: لا تكلّم بهذا يا أبا يعفور! لو غيرك تكلم بهذا لَلُمناه، ولكن نردّه عن البيت في عامنا هذا ويرجع إلى قابل)[2].

وفاوضه ﷺ مِكرز بن حفص بن الأخيف، وفاوضه ﷺ الحليس بن علقَمة سيد الأحابيش، حتى جاء دور سهيل بن عمرو، وكانت كتابة الصحيفة للصلح بين الفريقين في نهاية المطاف، وقد أمضى الحضور تلك الصحيفة واتفقوا عليها وطبقوا بنودها للتو.

وهنا ربّ سائل يسأل: إنّي لم أعرف كيف يكون هذا كله اعترافاً بمحمد ﷺ؟

وللجواب نقول: إنه اعتراف بلحاظ ما يلي من المسائل:

١. إن قريش قبلت مع الرسول ﷺ الصلح، أو هي التي عرضته عليه بعد أن كانت لغتهم معه ﷺ: (السيف أصدق أنباءاً من الكتب).

٢. قبلوا بمكاتبته ومن قبل لم يطيقوا سمعاً لكلامه ﷺ فضلاً عن مكاتبته.

٣. قبلوا بشروطه ﷺ ومن قبل لا يَمر في خيالهم أن محمداً ﷺ سيشترط عليهم في يومٍ ما.

٤. خاطبوه ﷺ بكنيته الشريفة (أبو القاسم) بعد أن كان خطابهم له ﷺ، (الكاذب، الساحر، المجنون، الشاعر... إلخ).

٥. أحلوا مكة بعد عام حسب الاشتراط بعد أن كانت محرمة عليه وهو ﷺ

---

(١) أي الوهن في الرأي (القاموس المحيط ٣:٥٥).

(٢) المغازي ٢ : ٥٩٩، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥ : ٤٥ .

ابنها.

٦. رضيت قريش بالتنازل عن موقعيتها بين العرب بالصلح مع النبي الأعظم ﷺ، حيث كانت ترفضه رفضاً قطعياً وتعلن الحرب ضده، وأصبحت الآن تمهد لرجوع محمد ﷺ وأصحابه إلى مكة ولو مرحلياً، وتُطَبّع معه العلاقات.

وهذا يعني خسارتها تلك المكانة الاستعلائية التي لا تعرف من خلالها إلاّ لغة الحرب وطريق الردع والمناوشة لا غير، ولا تعرفها العرب إلاّ بها.

والآن صارت مَرنة لينة تخلت عن مواقف الماضي وصارت تطمع بمهادنة محمد ﷺ، وطلب الأمن من خطره والخوف من أن يدخل عليها مكة فيتشمت بها الحلفاء جميعاً.

إن التخلي عن سياسة العين الحمراء، والأنياب القاطعة إلى خفض الجناح مع مهب الرياح، اعتراف بكل تأكيد.

الأمر الثاني:

كان تمهيداً أولياً لفتح مكة، وخطوة هامة على طريق التحرير التام لبيت الله الحرام، والرجوع إلى الديار والوطن، ولكن هذا التحرير وذلك الرجوع سوف لا يكون كباقي الوقائع والأحداث.

إنه حدث من نوع خاص جداً، إنه تحرير دون حد السيف، ونحر الرقاب وهذه خصوصية أولدها صلح الحديبية، ولولا ذلك الصلح لما كان هذا الفتح وبهذه الصيغة: «اليوم يوم المرحمة»[1].

---

(١) شجرة طوبى٢: ٣٠٣، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٢، كنز العمل١٠: ٥١٣، عيون الأثر ابن سيد الناس٢: ١٩٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢١، الأنوار العلوية: ٢٠١.

إن فتح مكة بالحقيقة بدء بصلح الحديبية مع وقف التنفيذ بانتظار الزمن المناسب والظرف الناضج والحالة المثلى له، وفي الحقيقة هي بشارة القرآن الكريم والتي تمت عملياً عبر هذه الآلية الفنية على أرض الواقع.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1].

وقد عاد المهاجرون بعدما اقتربوا من أطلال مكة ومن ظِلال ديارهم فيها بأرواح ملتاعة لرؤية الأهل وأنفس يعتلج فيها الشوق والحنين إلى ضعون الأحبة، ومراثي الأمس، وشموس الحي وأفياءه، وعاودتهم الصبابة لأيام الصبا، وقصص الجهاد.

وعاد الأنصار ولهفتهم لا تنقضي لزيارة البيت العتيق، والتلهف للطواف حوله.

الأمر الثالث:

شعرت العرب وقريش بالذات بخطورة الوضع الإسلامي الجديد، وبنظر آخر هو ليس النظر السابق، حيث كانت قريش تحتمل رد خطر محمد ﷺ بمحاولات قتالية، وتعرضات حربية.

اليوم بات الأمر مختلفاً تماماً، فلا القوة بنافعة وقد حطم محمد ﷺ منطقها، ولا هي ممكنة بعد غزوة الخندق، حيث رد الله ﷻ الأحزاب وشتتهم لم ولن ينالوا خيراً.

وقد سئمت قريش الحرب، وأنهكتها المعارك، وأتت على رجالها

---

(١) الفتح: ٢٧.

وصناديدها وأخذت منهم أموالاً طائلة وممتلكات مهمة، وأثّرت فيهم أيّما تأثير[١]، وهي الآن لا تدري ما سيحدث لها مستقبلاً، وما الذي يحمله الزمن لها من مجاهيل.

هذا والمسلمون مفعمون بالقوة ومترّسون بالعقيدة، مندفعون بصلابة الإيمان، ومعتقدون بهدي محمد ﷺ، وهم لا زالوا في أول الطريق وعلى كمال عافيتهم فيه.

الأمر الرابع:

فتح الأمل للمسلمين الذين أسروا ـ وقد قيدهم القوم وحبسوهم ـ بأن الإسلام أخذ بعداً دولياً ونشاطاً واسعاً يشيع بالنفس الطمأنينة، ويملئها بقوة الولاء وأشواق اللقاء، وجديّة التمسك بالإسلام أكثر من ذي قبل.

وقد وصلتهم تباشير رسول الله ﷺ بقرب نصر الله ﷻ لهم والإفراج عنهم، ورأى المسلمون المحاصرون في بيوت المشركين أن وصول رسول الله ﷺ إلى الحديبية يعني أنه سيصل إلى مكة لا محالة، ولا مانع من ذلك إلاّ الزمن، ويُروى أن عثمان بن عفان قال: (ثم كنت أدخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء ومستضعفين فأقول: إن رسول الله ﷺ يبشركم بالفتح ويقول: «**أظلكم حتى لا يستخفي بمكة الإيمان**»، فقد كنت أرى الرجل منهم والمرأة تنتحب حتى أظن أنه يموت فرحاً بما خبرته، فيسأل عن رسول الله ﷺ فيخفي المسألة، ويشتد ذلك على أنفسهم، ويقولون:
إقرأ على رسول الله ﷺ منا السلام، إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة)[٢].

---

(١) وقد قال الرسول ﷺ في تقييم وضعهم لركب خزاعة حيث أناخوا عنده: «وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب ونهكتهم» (المغازي ٢:٥٩٣).

(٢) المغازي ٢:٦٠١، تاريخ مدينة دمشق ٣٩: ٧٩.

الأمر الخامس:

كان صلح الحديبية فرصة ليستقطب الإسلام الناس تحت غطاء المصالحة وشرط عدم الاعتداء على المنتمين الجدد، وبهذا يزول مانع الخوف الذي قد يكون عائقاً أمام إيمان كثير من الناس الراغبين بالدخول في الدين الجديد.

وفعلاً دخل في دين الله ﷻ الجديد من الناس ما لم يدخله في الفترة السابقة، وبأعداد كبيرة تفوق عدد المسلمين الفعلي والذي جاء بعد جهود مضنية وزمن ليس بالقليل.

فقد جاء: (كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وآمن الناس بعضهم بعضاً.

فلم يكن أحد تكلم بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل في الإسلام، حتى دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب، عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباهٌ لهم.

وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهراً، دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب)[1].

وكان الصلح أيضاً فرصة أخرى لتكوين الأحلاف والتوسع في العلاقات وتكوين محيط معاملاتي جديد، فدخلت خزاعة في حلف الرسول ﷺ، وحيث انتهى رسول الله المصطفى ﷺ من كتابة ورقة الصلح وميثاق الأمن المشترك.

---

(١) المغازي ٢: ٦٢٤.

جاء في المغازي: (وثبت من هناك خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ونحن على مَن ورائنا من قومنا)[١].

الأمر السادس:

أظهر ـ أي صلح الحديبية ـ الرسول ﷺ ـ كما هو الواقع ـ رجلاً لا يريد الحرب ولا يسعى إليها، إنما يريد أن يؤدي شعائر الله ﷻ المفروضة عليه، ويدعو الله ﷻ، ويعظم حرمة البيت الحرام.

وهو ﷺ بهذا المعنى رجل سلام وموادعة، لا يقيم الحرب إلاّ بمقدار كون الحرب تمثل عنده رداً أوْحَداً للظلم ودرء الفتنة.

وهذا الكلام واضح من كلام الرسول ﷺ لبديل بن ورقاء لما جاءه يستفهم رأيه، حيث قال بديل لرسول الله ﷺ:

جئناك من عند قومك، كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العُوذُ المطافيك ـ النساء والصبيان ـ يقسمون بالله لا يَخلون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم[٢].

فقال رسول الله ﷺ: «**إنّا لم نأتِ لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدّنا عنه قاتلناه، وقريش قوم قد أضرّت بهم الحرب ونهكتهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة يأمنون فيها، ويُخلّون فيما بيننا وبين الناس، والناس أكثر منهم، فإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا، فيما دخل الناس، أو يقاتلوا وقد جمعوا!، والله لأجتهدن في**

---

(١) المغازي ٢: ٦١٢، وانظر تفسير القمي ٢: ٣١٤، بحار الأنوار ٢٠: ٣٥٣، زاد المسير ٣: ٢٧٢، الطبقات الكبرى ٢: ٩٨، فتوح البلدان ١: ٤١.

(٢) خضراؤهم: أي جماعتهم (الفائق في غريب الحديث: ١٧٥).

أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو يُنفِذ الله أمره»[1].

وهذه النقطة ـ أي نقطة كونه ﷺ قاصداً البيت الحرام ـ جعلت قريش في انعطافة حرجة، فهي:

١ ـ إما أن تسمح له ﷺ أن يؤدي الشعائر فيُظهر تعظيمه للبيت الحرام وبنسك إسلامية نظيفة ومقدسة وصحيحة، وبروحية دينية، وتلبية ربّانية، وهيبة محمدية، فتكون قد أعطته فرصة ليظهر بها بين العرب بهذه الحسنة وبهذه الفضيلة، وهذا ما لا تريده قريش بطبيعة الحال؛ لأن هذا يعني أن تمنحه ﷺ دعاية مجانية، وتبليغاً لنفسه الشريفة ودينه الحنيف دون مقابل، ومعلوم كم سوف يكون تأثيره ﷺ لو كان قد طاف البيت الحرام في ذلك العام، وهذا الحشد الكبير من المسلمين الذين كانوا معه.

٢ ـ وإما أن تمنعه فتُؤاخَذ بانها منعت أناساً أرادوا تعظيم بيت ربهم لا غير، فتكون مُدانة من هذه الجنبة، فهي التي تستقبل الحجيج وتدّعي خدمتهم وتطعم الطعام وتقدم لهم الماء، والآن تقف بوجوههم فتحرم عليهم الدخول، والبيت مباح لدخول الجميع.

ثم إن الرسول ﷺ كان مشبعاً بروح السلام «إنّما جئنا لنطوف بهذا البيت» وحريصاً على استمرار حالة اللاحرب بينه وبين قومه، « فإن شاءوا ماددتهم مدّة يأمنون فيها» فكيف بامكانهم ان يردّوا على هذه الروحية الخصبة، والنبل العظيم، والمنطق السليم.

وإذا عرفنا أن خيار المواجهة المسلحة ممتنع أمام قريش لعدّة أسباب

---

(١) المغازي ٢: ٥٩٣، سبل الهدى والرشاد ٥: ٤٣، وانظر قريباً منه في المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٥١٣، كنز العمال ١٠: ٤٩٠.

أهمها: رصانة هذا المنطق النبوي الشريف، علمنا قدرة الرسول ﷺ في سوق الأحداث لترجمة رغبته بالوصول إلى الصلح، وفرض حالة السلام، وهو البديل الراجح.

الأمر السابع:

إن الرسول ﷺ جاء لتأدية العمرة فعلاً، وهي شعيرة إسلامية مباركة، ومسألة إسلامية معتبرة، من المناسب أن يُلفِت الرسول ﷺ نظر المسلمين لها ولأهميتها.

ولذلك حصل على تأدية طقوسه الدينية وممارسته العبادية في السنة التالية بمقتضى الاتفاق، وكان من حديث حويطب: (ولما قدم رسول الله ﷺ لعمرة القضية وخرجت قريش عن مكة، كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو، لأن لخرج رسول الله ﷺ إذا مضى الوقت وهو ثلاث فلما انقضت الثلاث، أقبلتُ أنا وسهيل بن عمرو فقلنا:

قد مضى شرطك فاخرج من بلدنا فصاح ﷺ: «يا بلال لا تغب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا»)[1].

فلم يكن البيت الحرام وزيارته ذريعة مشروعة للوفود إلى مكة وحتى في الديانات السابقة والأعراف القديمة، فيكون الرسول ﷺ قد استثمرها لصالحه فحسب، بل إن ممارسته هذه توحي للمؤمنين به وغير المؤمنين وبعد أجيال وتاريخ إلى أهمية فريضة الطواف حول البيت الحرام الذي يتحقق بالحج والعمرة.

ولعل كلمة رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء كانت مشعرة بذلك حين

---

(١) المنتخب من ذيل المذيل للطبري: ٢٢، تاريخ مدينة دمشق ١٥: ٣٦٢، تهذيب الكمال ٧: ٤٦، مستدرك الحاكم ٣: ٤٩٢ – ٤٩٣.

قال ﷺ: «إنما جئنا لنطوف بهذا البيت» ولم يقل ﷺ: لنعتمر.

فالطواف هو ملاك المجيء مع صرف النظر من كون ذلك الطواف حجاً، أو عمرة، وهذا يحمل معنى التعظيم لفريضة الحج أو العمرة.

ومن هذا يمكن أن نستفيد أن الرسول ﷺ أراد أن يقول للمسلمين أجمع: تمسكوا بهذه الفريضة لما فيها من مظهر عبوديتكم لله ﷻ، ومظهر توحيدكم له ﷻ وحده واعتباره ﷻ محوراً للجميع يدورون حوله ولا ينحرفون عنه ﷻ.

كما أن الطواف بالبيت مظهر لوحدتكم، ومعسكر للتشاور بينكم والاطلاع على أمور بعضكم البعض، وهو محطة روحية تلتقي عندها مذاهب الأرواح، ولجج النفوس على اختلاف نهجها الشخصي، ومشربها القبلي، ومنهلها الفكري.

الأمر الثامن:

إنه ـ أي الصلح ـ سيحقق الهدنة المؤقتة التي تعطي الرسول ﷺ فرصة جمع الإمكانات، وتهيئة المستلزمات لخوض مرحلة ما بعد الهدنة والصلح، ثم يمنح أصحابه راحةً بعد تعب وأمناً بعد قلق، ومندوحةً في التوجه إلى أمور أخرى ما كانت تحصل بسهولة ما دامت قريش مانعاً صلباً وعقبةَ عِثارٍ في طريقه.

أما وقد تحقق الصلح فيمكن تحقيق تلك المطامح مع الأمن من ضرر قريش، كما حصل فعلاً في مكاتبة الرسول ﷺ للرؤساء والملوك ودعوتهم للإسلام والسلام.

الأمر التاسع:

أعطت المسلمين فرصة التواجد عن كثب من قريش، وهي أول محاولة تقريباً يخرج بها المسلمون إلى نقطة بعيدة عن ديارهم بهذا المقدار

ولحو قريش بالضبط.

وهذه المحاولة أعطت المسلمين مجالاً لاكتشاف أنفسهم وفي مثل هذه السفرة المطولة، وفرصة معرفة الطريق، واستخبار القوم والإشراف على ديارهم، وهذا بحد ذاته يشجع النفس ويطمعها في التغلب على عدوها، إذ يشعر الإنسان وهو قريب من ديار عدوه، أنه ليس بينه وبين الفتح، إلاّ أن يصبر قليلاً في اقتحام أسوار المدينة، واجتياز سيوف أهلها ببسالة وجرأة.

الأمر العاشر:

كان صلح الحديبية بمثابة قطع لعلاقات قريش مع يهود خيبر، وهذا الأمر مهم حيث كان يحتاج الرسول ﷺ إلى إفراد اليهود لوحدهم في ساحة عنادهم وعدوانهم وظلمهم وغدرهم؛ ليتمكن من القضاء عليهم وقد سحق نفوسهم بكسب الجولة مع قريش على الصعيد السياسي والإعلامي، بل على كل الأصعدة، وأصبحت اليهود معزولة عن النصرة الخارجية والإمداد القريشي.

وهذا ما حصل في معركة خيبر المهمة والفاصلة فعلاً.

الأمر الحادي عشر:

كان من أهمية الصلح مع قريش أن تخرج قريش من الحوار وبساط الاتفاق وقد فُتَّ في عضدها، وخسرت بعض أتباعها واختلف رجالها، وانفرط عقدها.

وخرج البعض من ولائها ناقماً كالحُلَيس وأحابيشه، ولعل هذا يكون ظاهراً في قوله لهم عندما بعثوه وفداً إلى النبي محمد ﷺ: (فبعثوا الحُلَيس بن علقمة ـ وهو يومئذٍ سيد الأحابيش ـ فلما طلع الحليس، قال

رسول الله ﷺ: **«هذا من قوم يعظمون الهدي ويتألّهون[1] ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه».**

فبعثوا الهدي، فلما نظر إلى الهدي يسيل[2] في الوادي عليه القلائد، قد أكل أوْبارَه يرجّع الحنين، واستقبله القوم في وجهه يُلبُّون، قد أقاموا نصف شهر قد تفلوا[3] وشَعِثوا.

رجع ولم يصل إلى النبي ﷺ إعظاماً لما رأى، حتى رجع إلى قريش فقال: إني قد رأيت ما لا يحلُّ صَدُّه، رأيت الهدي في قلائده قد أكل أوباره، معكوفاً على محلّه، والرجال قد تفِلوا وقَمِلوا أن يطوّفوا بهذا البيت!

أما والله ما على هذا حالفناكم، ولا عاقدناكم على أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً لحرمته مؤدياً لحقّه، وساق الهدي معكوفاً أن يبلغ محله، والذي نفسي بيده لتَخلُنّ بينه وبين ما جاء به، أو لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد)[4].

ومنه يعرف أن الرأي العام سيكون ضد قريش بعد الصلح؛ لما كان منها في منع النبي الأكرم ﷺ وصحبه من الطواف ببيت الله الحرام.

الأمر الثاني عشر:

كان الصلح مناسبة جديدة أخرى لإدخال الصحابة في ميدان اختبار فعلي يُجلي الرسول الأكرم ﷺ من خلاله نفوسهم ويُخرج أصحاب النوايا الدفينة غير الصالحة منهم.

---

(١) التأله: التعبد والتنسك (القاموس المحيط ٤: ٢٨٠).

(٢) يسيل: أي يسرع (شرح أبي ذر: ٢٤١).

(٣) التفل: ترك استعمال الطيب (النهاية: ١١٦).

(٤) المغازي ٢: ٥٩٩، سبل الهدى والرشاد ٥: ٤٥.

كما حصل في امتناع عمر من قبول الصلح بدعوى غيرته الفائضة على الدين، والتي تزيد على غيرة سيد المرسلين ﷺ، كما هو ظاهر الحال من سلوكيته الداعية حقاً للاستغراب والاستفضاع.

وكما في عدم استجابة بعض المسلمين في ذبح الهدي عندما أمرهم رسول الله ﷺ بذلك على فرض صحة رواية عدم الذبح هذه، ولا يبعد أن يكون هذا البعض متأثراً بدعاية عمر ومساعيه وتشكيكه بنبوة الرسول الأعظم ﷺ، كما صرّح به هو حيث قال:

وفيه منافع بعيدة الغور، مهمة الأثر.

جاء في شرح مسلم: (قال البلاذري ﷺ، قال العلماء: والمصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح، ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده الظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون، ولا يتظاهر عندهم أمر رسول الله ﷺ كما هو، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة.

فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوهم، وسمعوا منهم أقوال النبي ﷺ مفصلة بجزئياتها، ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك.

فمالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بدر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم؛ لما تمهد لهم من الميل، وكانت العرب في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلمّا أسلمت قريش

أسلمت العرب في البوادي)[1].

وقال الزهري: (فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة.

فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على ما قاله الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة رجل في قول جابر، ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف) [2].

بل غزوة الحديبية ذهاباً وإياباً بما تضمنته من مصالحة وهدنة مع قريش فيها من المصالح والأمور الكثيرة التي يمكن عدّها على نحو الفوائد العامة، والتي منها ما رأى المسلمون من معاجز وكرامات للنبي الأكرم ﷺ، ومنها استجابتهم لرسول الله ﷺ فمنهم طليعة للجيش، ومنهم الحراس على هذا الزحف النبوي المعتمر، ومنهم غير ذلك.

ومنها المناوشات التي حصلت بين القوم والأُسارى الذين تمكن منهم المسلمون قبل أسرهم، والمفاوضات التي حصلت بسبب ذلك والتي أظهرت دبلوماسية الرسول المصطفى ﷺ وحلوله المنصفة مع القوم، ومنها تأثر الكثير به وتعاطفهم معه، وغير ذلك...

---

(١) شرح مسلم ١٢: ١٤٠، سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٥: ٨٠.

(٢) سيرة النبي لابن هشام ٣: ٧٨٦ ـ ٧٨٧، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٣٢٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٦٤، جامع البيان ٢٦: ١٤٠، تاريخ الطبري ٢: ١٤٠و ٢٨٣، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣٥، البداية والنهاية لابن كثير ٤: ١٩٤.

الأمر الثالث عشر:

ويجب أن لا ننسى أن صلح الحديبية قد أظهر لنا رأي الإسلام في الصلح مع العدو، وأفادنا في كتابة دستوراً دقيقاً منظماً، يمثل حفظ الحقوق، ويصلح كقاعدة قانونية في التعامل العالمي، ويستند إليه في كيفية التعامل مع العدو واحتواء أزماته، وتحويل توجهاته العدوانية إلى الرضى بالحل السلمي، مع المحافظة على عدالة الموقف وعدم التخلي عن المباني العقائدية الحقّة.

وكيف يوجه الإنسان موقفه بحيث يكون الأمر النهائي من صالحه دون ارتياب، حتى وإن ظهر التحسس من وجود نوع من الخسارة في أول وهلة.

وأخيراً...

إذا درسنا بنود إتفاقية الصلح في الحديبية نرى أن كل البنود كانت لصالح المسلمين، وهذا وحده بحاجة إلى دراسة شاملة تحليلية، ليصل الباحث بعدها إلى نتيجة حتمية وهي أن صلح الحديبية هو الفتح المبين الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[1].

وفي نهاية هذا الموضوع نكون قد ختمنا الأنجاه الثاني المختص باحتواء الرسول الأكرم ﷺ لمخططات المشركين لنشرع في الأنجاة الثالث والمختص في احتواء الرسول المصطفى ﷺ لمخططات اليهود.

---

(١) الفتح: ١



الاتجاه الثالث: احتواؤه ﷺ لمخططات اليهود

وفي هذاالاتجاه ندرس عدة بحوث حول المخططات التي قادها النبي الأكرم ﷺ لكي يتمكن أن يقبر التطلعات اليهودية الرامية لخنق الاسلام والفتك به ومحاولاتهم الشنيعة العديدة لاحباط مخطط الرسول السلمي الذي اراد ﷺ من خلاله توفير حالة الاستقرار النفسي والاجتماعي للمجتمع البشري باسره.

المبحث الأول

لماذا سلب الرسول ﷺ بني قينقاع سلاحهم وأموالهم؟

من المعلوم أن الرسول ﷺ أجلى يهود بني قينقاع الى اذرعات الشام بعد أن غدروا به ﷺ وبالمسلمين فتجاوزوا على الحرمات ونقضوا العهود والمواثيق، وذلك بعد أن حاصرهم في صياصيهم وأخرجهم راغمين، ولكن لم يخرجهم من المدينة ألا وقد سلبهم أسلحتهم جميعاً

ومن هنا نتسائل: لماذا سلب الرسول الأكرم ﷺ سلاح يهود بني قينقاع وأموالهم؟

إن الرسول الأعظم ﷺ - باعتقادي - لم يسلب اليهود جميع أسلحتهم وأموالهم على فرض أنها غنيمة حرب فقط، وإن الغالب المنتصر يأخذ أموال المهزوم المندحر بلا إشكال عرفاً وعقلاً.

وإنما هناك أسباب أخرى دعته ﷺ لأن يسلبهم ذلك، والاّ فبمقدوره ﷺ أن يهبها لهم، أو يعطيهم قسماً منها.

وإنما سلبهم الرسول ﷺ للأسباب التالية:

السبب الأول:

ليكون لهم جزاءاً لإعلانهم الحرب ونكالاً لما نقضوه من العهود، وعصيان الرسول ﷺ، ومخالفتهم الميثاق الوطني المشترك الذي عقده الرسول الأكرم ﷺ بينه وبين يهود بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير.

وإلاّ فالرسول ﷺ لم يذهب إلى بني النضير ويحاصرهم ـ إلى الآن ـ ولم يذهب لبني قريظة كذلك ـ طبعاً إلى الآن ـ لأن لم يكن منهم نقض ولا خيانة ولا قطع ونبذ لعهد مشترك بين الطرفين.

فقد سلبهم الرسول ﷺ لهذه الخصوصيات دون خصوصية إعلان الحرب فقط، أو لخصوصية إعلان الحرب بما تمثله من إلغاء لجميع تلك الالتزامات القَبلـيّة.

السبب الثاني:

كي يستثمرها الرسول ﷺ لجنده ومقاتليه الذين لا زال تسليحهم الفعلي ضعيفاً، خصوصاً أنه ﷺ قد لاقى حرباً وكيداً من قريش ومن حولها، ومن يهود ومن حولهم.

السبب الثالث:

لكي لا يتمكن اليهود أن يستخدموها في حال كونهم يفكرون بالكرّ على المدينة، إنما تركهم عزّل لا يقوون على التفكير بالحرب مادام هذا حالهم.

مع كون طرد وإجلاء اليهود من بني قنيقاع له أثر كبير على ما سوف يأتي من الأحداث وخصوصاً مع اليهود، بل سنرى ذلك بوضوح في معركة خيبر.

فلو لم يكن الرسول ﷺ قد جردهم منها إذاً لشهروها بوجهه ووجه أصحابه، ولناجزوهم بها الحرب.

السبب الرابع:

ثم إن هذا السلب للجنبة التسليحية يكون خطوة أولى لتدعيم السلام المحمدي، فحرمانهم من السلاح يعني اجبارهم على قبول فكرة السلام، واجبارهم على ترك الإرهاب وإراقة الدماء، وإذا كان تحقيق السلام لايتم إلا بثلم السيف أو كسره فلا ضير في ذلك ولابأس، خاصة أن الذي يستخدمه متهور فوضوي لايتمسك بحدود ولايقف عند عرف.

ورُبَّ قائلٍ يقول: إذا كانت القضية قضية سيوف ورماح، فالأمر سهل إذ يمكنهم أن يشتروا تلك المعدات ولا مشكلة.

وجوابه سهل: إن الرسول ﷺ سلبهم الأموال كذلك، فسحب منهم فكرة إمكانية التجهيز لقتاله.

ثم أمعن في إجلائهم إلى اذرعات الشام، فيضمن بطول المسافة، صعوبة البلوغ، وقدرة المسلمين على الاستعداد في حال وقوعه، ويصعب مدهم من اليهود القريبين من المدينة ـ لبعدهم عنهم ـ كما يصعب ذلك على يهود مكة ـ وهم قليلون ـ ومن حولها من باب أولى.

ومن حقنا هنا أن نسجل بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولى:

إن انتصار الرسول ﷺ عليهم كان انتصاراً عقائدياً، فقد كانت في المدينة عقيدة أخرى غير الإسلام، وهذه العقيدة سماوية، ولديها كتاب اسمه التوراة، وعندها أحبار، وتطمع أن تسود الدنيا بدينها، وهي ذات تاريخ قديم.

قد جاءها عيسى عليه السلام بمسيحيته ناسخاً لها فلم يقبلوا منه ذلك، وقاومت الديانة النصرانية التي تفككت بدورها، وبقي اليهود يمثلون تمحوراً نسبياً حول عقيدتهم، رغم بعض النـزاعات القبلية بينهم، حيث كانوا ـ مثلاً ـ بني النضير في جبهة وأحلاف للأوس، وبني قنيقاع في جبهة وأحلاف للخزرج، ومعلوم كم هو النـزاع والصراع بين الجبهتين والقبيلتين آنذاك.

أما الآن فقد بقي الإسلام العقيدة الوحيدة في يثرب، دون منازع عقائدي، بعد أن طرد النبي ﷺ بني قنيقاع وأجلاهم، إلى أذرعات الشام، ثم يقال ماتوا هناك بعد عام.

وصار الدين الرسمي، والدين الحاكم، والدين الذي لايوجد معه منافس، هو الدين المحمدي، والعقيدة الإسلامية.

مما يعني بلا شك أن هذه العقيدة، نالت انتصاراً باهراً وحققت فوزاً فكرياً ساحقاً، فلا يهودية تذكر في مدينة رسول الله ﷺ، ولا يهودي من بني قنيقاع بين ظهرانيها [١].

الملاحظة الثانية:

إن انتصار الرسول ﷺ عليهم كان إنتصاراً عسكرياً، باعتبار أن ذهاب فئة مناوئة كانت تهدد معسكر الرسول ﷺ باحتمال شن الهجمات عليه، أو تعويق حركة فتوحاته وغزواته التحريرية، يُعَدُّ نصراً لذلك المعسكر.

---

(١) طبعاً هذا الانتصار العقائدي صحيح أنه تام على مستوى المدينة المنورة، إلاّ أنه نسبي بملاحظة ما سوى المدينة أي أن هناك وجوداً لليهودية في خارج المدينة حيث يوجد يهود كثير.

ثم أن استيلاء المعسكر الإسلامي على أسلحة ومعدات وأموال ترفد عجلته العسكرية، يُعَدُّ نصراً عسكرياً.

كما أن تطبيق أسلوب المحاصرة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، يعني تطبيق لمبادئ عسكرية بدقة وإمعان وصبر، إلى أن جاءت النتيجة موفقة، مع كون المسلمين يجب عليهم ـ والحال هذه ـ أن يسدوا جميع الثغور عليهم، أو كما يسمونه إحكام قبضة الحصار، والحساب للمضاعفات المحتملة.

فقد يثأر لهم ابن أُبيّ بحميته الجاهلية، ونعرته النفاقية، وهم حلفاؤه، وقد يتسللوا من حصنهم إلى خارجه لضرب المسلمين، وقد يدخل لهم واحد من المنافقين.

جاء في المغازي: (وقد كان ابن أُبيّ أمرهم أن يتحصنوا، وزعم أنه سيدخل معهم، فخذلهم ولم يدخل معهم، ولزموا حصنهم، وما رموا بسهم ولا قاتلوا حتى نزلوا على صلح رسول الله ﷺ وحكمه)[١].

أو قد تأتي قوة خارجية لنصرهم، فلابدّ من يقظة عسكرية، ومراقبة لشريط حدود يثرب وإلى يهودها في الخارج المجاور القريب.

فنجاح المسلمين من جهة المراصد والعيون، ومن جهة السيطرة على الحصون، ومن جهة إدامة الموقف بهذا النفس ولمدة غير قليلة، بحق انتصار عسكري كبير.

الملاحظة الثالثة:

إن انتصار الرسول ﷺ كان انتصاراً سياسياً، حيث من المؤكد أن هذا الحدث هزّ اليهود أجمع، وهزّ بقوة قناة قريش، وشكل قمعاً حاداً

---

(١) المغازي ١ :١٧٨.

لشوكة المنافقين في المدينة، بذهاب حلفائهم بني القينقاع إلى خارج المدينة.

وقد أجلاهم رسول الله ﷺ بعد أن حاصرهم، فأصابهم الرعب وتملكهم الخوف، من قدرة الرسول ﷺ في الهيمنة عليهم، ولم يتمكن أحد أن يدفع قرار الرسول ﷺ بحقهم، فرأوا بأعينهم انتصار الرسول ﷺ على الجبهة السياسية.

حيث لا يتمكنوا أن يدفعوا عن حليفهم العظيم ابن أُبيّ الضربة التي شدخت رأسه فخرج منه الدم، وهي من مسلم واحد، بعد أن كانوا يصولون ويجولون في المدينة، وينفروا بوجه جميع المسلمين دون اكتراث، وها هُم الآن مع حليفهم القوي الوقح ابن أُبيّ وكلهم وَهن وفقدان إرادة، وقد صَفّرهم الرسول ﷺ سياسياً.

روى الواقدي: (فجاء ابن أُبيّ بحلفائه معه، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يقرّهم في ديارهم، فيجد على باب النبي ﷺ عُوَيم بن ساعدة، فذهب ليدخل، فردّه عُويم وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ لك.

فدفعه ابن أُبيّ، فغلَظ عليه عُويم حتى جحش وجهه ابن أُبيّ الجدار فسال الدم، فتصايح حلفاؤه من يهود، فقالوا: أبا الحُباب، لا نقيم أبداً بدارٍ أصاب وجهك فيها هذا، لا نقدر أن نغيره.

فجعل ابن أُبيّ يصيح عليهم، وهو يمسح الدم من وجهه، يقول: ويحكم قرّوا! فجعلوا يتصايحون: لا نقيم أبداً بدارٍ أصاب وجهك فيها هذا، لا نستطيع له غيراً)[1].

وكما ذكرنا سابقاً إن ابن أُبيّ وعدهم النصر، ولكنه لمّا رأى انفلات

---

(١) المغازي ١:١٧٨.

الموقف من الناحية السياسية، لم يدخل معهم الحصن ولم ينصرهم بقيد أنملة، ولم يُغنِ عنهم من الله شيئاً.

الملاحظة الرابعة:

إن انتصار الرسول ﷺ كان انتصاراً أخلاقياً، فإن الثأر للدين أخلاق، والثأر لتصحيح الأخلاق أخلاق، كما أن النهوض من أجل الشرف والعرض والكرامة فيه دلالة تامة على غنى أخلاق الناهض بتلك القيم التي ضيّعها اليهود.

وأن يوقف مجازر القيم المهدورة من غدرٍ وقتلٍ وفتكٍ، والعمل بالشهوات، والتلبس بالنـزوات، والتطاير مع الشذوذ زنىً كان أو غيره، ومن قبل اليهود، يدل على انتصار العقيدة الإسلامية في فرض أخلاقها الجديدة، وفضائلها الحسنة.

الملاحظة الخامسة:

إن انتصار الرسول محمد ﷺ كان انتصاراً تاريخياً، وهذا ما سيتوضح في طيّات بحوث كتابنا القادم (الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء) إن شاء الله.

وبعد أن حاولنا الإجابة على السؤال المطروح في المبحث الأول نتابع تآمر اليهود من بني النضير على النبي الأكرم ﷺ وطريقة تخلصه ﷺ منهم في المبحث الثاني.

المبحث الثاني

لماذا لم يُخبر الرسول ﷺ أصحابه بتآمر يهود بني النضير ونجى بنفسه دونهم؟

ومع يهود بني النضير حيث ذهب ﷺ مع بعض أصحابه إليهم لأمر يتضح في ثنايا هذا البحث، ولكنهم ـ وبدل أن يكرموا قدومه ويعظموا شأنه ـ تآمروا عليه، وكانت خطتهم تُفضي باسقاط حجر ثقيل على كيانه الشريف عن طريق أحدهم ومن على سطح البناء الذي كان الرسول ﷺ جالساً تحته.

فلما أحس النبي الأكرم ﷺ بذلك ذهب عنهم منصرفاً مُظهراً لعذر آني ولكن من دون أن يخبر جماعته، فالروايات تقول إن الرسول ﷺ لمّا عرف تآمر اليهود وإرادة قتله، (فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد حاجة، وتوجه إلى المدينة وجلس أصحابه يتحدثون وهم يظنون أنه قام يقضي حاجة)[1].

وهذا يعني أنه تركهم والموقف مشحون بالغموض، دون أن يحاول إنقاذهم معه، وهم صحابته، والذين آمنوا به، وجاءوا يفاوضون اليهود معه ويحمونه من شرورهم المحتملة.

فهل يصح هذا منه ﷺ؟ وإذا صَحَّ فما وجه القبول لذلك؟

---

(١) المغازي ١: ٣٦٥، وعنه في سبل الهدى والرشاد ٤: ٣١٨.

والجواب على ذلك:

أما كونه صحيحاً فهذا مما لا نقاش فيه، وأما كيف فبالعلل التالية:

العلة الأولى

إنه ﷺ لو أخبرهم بما ينويه العدو اليهودي، وبما ينويه هو بالمقابل، فقد يقترن ذلك بردود فعل سريعة من بعض أصحابه المتشكل منهم الوفد، ويقوم بالرد مثلاً على اليهود، إما قولاً وإما فعلاً فينكشف أمر محاولة الرسول الأعظم ﷺ للنجاة، أو أمر إنقاذ الرسول ﷺ ونيته بالتخلص من التآمر اليهودي القبيح، ومن ثم يتعرض إلى خطر الإبادة العاجلة، والقتل السريع، وإفشال خطة التخلص هذه بأسرع من البرق.

لا بل حتى الجماعة التي معه تباد أيضاً خصوصاً أنها جماعة قليلة، وفيها من يرى في نفسه أهلية التصرف دون إذن الرسول ﷺ، ويرى أنه بإمكانه الاستقلال عنه ﷺ، مما يؤكد خطر تعرض الرسول ﷺ للموت المحتم، بسبب تصرفات من يرى في نفسه الأهلية والاستقلالية وحق الرد السريع، دون أن يراجع الرسول ﷺ، إذ قد يكون تصرفه ورد فعله ـ وإن كان بريئاً غير مقصود ـ ذا نتائج وخيمة جداً على الرسول ﷺ والجماعة المؤمنة.

وإذا حصل أن فَهِمَت اليهود أن الرسول ﷺ فَهِمَ ما أرادوا، فهم بين احتمالين:

١ ـ إما تركه وأصحابه كي يؤكدوا حسن النية، وعدم الإقدام على الرزية، وهذا يجعلهم عرضة للهلاك والموت المحقق، إذ أن الرسول ﷺ عَلِم وكفى، وسيكون هذا التصرف منهم بحكم نقض العهد أو نقضه بصريح العبارة، وما بعد النقض إلاّ الانقضاض عليهم، بنص الوثيقة المشتركة الموقعة من الطرفين.

٢ ـ أو قتله ﷺ والسرعة في مبادرته بذلك، وتحقيق أمنيتهم الغالية، (فاطرحوا عليه حجارةً من فوق هذا البيت الذي هو تحته فاقتلوه فلن تجدوه أخلى منه الساعة! فإنّه إن قُتل تفرق أصحابه، فلحق من كان معه من قريش بحرمهم، وبقي من ها هنا من الأوس والخزرج حلفائهم، فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن)[1]، فلو تحقق لهم قتله ﷺ فتلك أمنية ما بعدها أمنية.

وكلا الاحتمالين نتيجته واحدة وهو قتل الرسول ﷺ والمبادرة لإبادته ﷺ، وبهذا يكون التصرف النبوي الأمثل هو في عدم الإخبار.

العلة الثانية

قد لا يكون له قدرة الإبلاغ هذه، باعتبار أن الحُضّار لم يكونوا فقط من جماعته المؤمنين ممَن جاء معه ﷺ، بل كان البعض الآخر من أكابر اليهود، وخصوصاً أن الرسول ﷺ ـ في بعض الروايات ـ ذهب إلى ناديهم (ثم جاء بني النضير فوجدهم في ناديهم فجلس رسول الله ﷺ وأصحابه)[2].

وخصوصاً أنهم كانوا وباعتبار ما هم فيه، يراقبون الحدث بدقة خشية انكشاف الأمر وتأزم الموقف.

وخصوصاً ـ ثالثة ـ هو أن اليهود عُرفوا بإجادة سُبُل التفنن بالمكر، والحِيَل، والخديعة، والالتواء، وهذه مفردات تقتضي من صاحبه قدراً عالياً من الحذر، والاحتياط من الوقوع في المغالطة والتناقض.

ولذلك كله لم ينبس الرسول الأعظم ﷺ ببنت شفة، وتحفظ من

---

(١) المغازي ١ : ٣٦٤، وعنه في سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣١٨.

(٢) المغازي ١ : ٣٦٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣١٨.

الإشارة فضلاً عن العبارة، وقام كأنه يريد قضاء الحاجة.

العلة الثالثة

لعل الوحي الأمين عليه السلام الذي بلغه بالمؤامرة، وتواطؤ الخبث اليهودي على قتله ﷺ، هو الذي رسم له خطة الخروج بهذه الكيفية الموفقة الناجحة، وأن يخرج دون الإشارة والعبارة، ودون اللحظ واللفظ مع أصحابه الذين كانوا معه، فيكون ﷺ ملزماً بالاتّباع لأن الحكمة المطلقة أوحت له ذلك.

فعن المغازي: (وقد هيأ ـ عمرو بن جحش اليهودي ـ الصخرة ليُرسلها على رسول الله ﷺ ويحدرها، فلما أشرف بها جاء رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما همّوا به، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً كأنه يريد الحاجة وتوجه إلى المدينة)[1] .

العلة الرابعة

إن فضح اليهود بما فعلوه من دنائة وتخطيط لإهلاك ضيفهم الذي حلّ بدارهم، هو وجماعته، لا يكون تاماً إلاّ بهذه الطريقة؛ فقد يتحول اليهود من بني النضير إلى أناس مظلومين، تداعى عليهم الخطر في موقف غامض، ولديهم القدرة الإعلامية والمالية لقلب الموقف دعائياً ضد الرسول ﷺ وأصحابه مع افتراض أنه قد يهجم بعض أصحاب الرسول ﷺ عليهم؛ فيكون الموقف الخارجي الإعلامي، أن الرسول ﷺ ومعه رهط من المؤمنين، ذهبوا لليهود وغدروا بهم ونقضوا العهد، واستدرجوهم للقتال.

وبنفس الوقت قد يُحاصر اليهود وهم جمعٌ كبير الرسول ﷺ وأصحابه

---

(١) المغازي ١ :٣٦٥.

وينتقمون منه ﷺ ومن معه سوية، فينتهي خبرهم دون معرفة حقيقة الأمر، وما كان يدور من حوار ما بين الطرفين.

ولكن إذا خرج الرسول ﷺ وترك صحبه دون معرفة ما حصل له، فإن ذلك إثبات عملي على أن اليهود غدروا بالرسول ﷺ فأحسّ ذلك واقتضى الأمر أن يترك أصحابه بينهم ويمضي خارجاً منهم، استثماراً للزمن، وضبطاً للأمن.

العلة الخامسة

إن موقف وحالة الصحابة من بعد الرسول ﷺ وعلى أية حال ستكون أمينة؛ لأن اليهود وبعد خروجه ﷺ أيضاً على احتمالين من ردود الأفعال:

١ ـ أن يبادروا إلى قتل الصحابة من بعده وهذا موقف في غاية الغباء، والحرج واللامسؤولية باتجاه نفوسهم وأعراضهم وممتلكاتهم، إذ أن محمداً ﷺ قد خرج، وخروجه يعني سلامته، والتحاقه بمدينته وجيشه، فإذا قتلوا أصحابه فإنهم لم يصيبوا محمداً ﷺ أولاً وهو المراد، وسوف يقتص ﷺ منهم لأصحابه وقتلاه شرّ قصاص، فيهجم عليهم ويُنـزل بهم شر البلاء، على ما صنعته أيديهم، وأقدمت عليه نفوسهم ثانية.

٢ ـ أن يبقوهم، وبهذا يحافظون على خيط العلاقة المحتمل البقاء، والذي قد يحتفظ لهم ببعض ماء الوجه، لأنهم للآن لم يُقدموا على شيء واضح السوء مشخص الخيانة، إذ لم يحصل قتل ولو أرادوا الخيانة ونقض العهد لقتلوا أصحاب محمد ﷺ، وعدم حصول الخيانة حاصل بهذا المقدار في رأيهم طبعاً، وإلاّ فأمر الخيانة في الواقع حاصل عندما همّوا بقتل الرسول ﷺ.

ومع هذا فإنه يوجد احتمال ثالث ضعيف عند اليهود، وهو بعيد عقلاً، وإن كان ممكناً؛ وهو أن محمداً ﷺ سيعود مرة ثانية، فحتى يكون مطمئناً لليهود يجب أن لا يجدهم قد جندلوا أصحابه، فيأخذ مكانه، ويطمئن لهم، ويعاودوا تنفيذ خطة التآمر بهدوء وأمان.

أما إذا وجدهم مقتولين فقد لا يتم لليهود تحقيقهم الغاية بيُسر.

العلة السادسة

إن عدم دراية الصحابة الواقعية، توفر الحماية التامة لخروج الرسول ﷺ، والغطاء الطبيعي لضمان سلامة وصوله ﷺ، لأن عدم درايتهم بأمر يجعلهم يتصرفون وطبعهم، وعفويتهم في مواجهة مثل هذا الموقف، أما درايتهم فتجعل منهم يتصرفون بتصنع وافتعال، وقد تكشف اليهود ذلك ولأول وهلة، فيتمكنون من إدراك النبي ﷺ وقتله.

وإن افتراض إمكانية الصحابة على المحافظة على السرية وصون الأمر فرض بعيد، وإن كان ممكناً، لأن بعض الأشياء كإمارات الوجل والخوف والتردد، وعلائم الاضطراب، هي من الأمور التكوينية الخارجة عن إرادة الإنسان، والتي يسهل من خلالها اكتشافه واستفزازه واستدراجه.

لذا أراد الرسول ﷺ في عدم إخبار أصحابه بنيته أن يقطع دابر ذلك كله، ويقبر أكبر محاولة تآمريّة لليهود لو كُتِب لها النجاح لغيرت مسار التاريخ برمّته.

العلة السابعة

وإن تصرفاً من هذا النوع سوف يكبت اليهود بغيضهم وحسرتهم وحيرتهم، فما الذي يفعلونه بعد انكشاف أمرهم، أيخرجون وراءه وقد بلغ المدينة، ولا تطال أيديهم ذلك، ولا غدرهم، وإن كانوا أبالسة الدهر.

وكيف يكون حالهم وقد علموا أن خروج الرسول ﷺ كان بسبب إحساسه بمكرهم، ونقض ميثاقهم (ميثاق التعايش السلمي والأمني)، وكم يكون ذلك مُرّاً في مذاقهم إذا عرفوا أنه ﷺ عرف غدرهم، وقُبح تواطئهم، وخِسّة طبعهم.

أم أنهم لا يخرجون ويعيشون دوامة القلق والتفكير في ماذا سيحصل لهم كنتيجة لهذا التصرف المُشين، والسلوك الغادر، والعاري من الحياء.

إنه ذكاء الرسول ﷺ وحكمته، بأن يوجه لهم ضربة نفسية مُدمرة، تربك وضعهم، وتزرع الرعب في بطون حصنهم وبين أركان قلاعهم، والتي ظنوا أنها مانعتهم من أمر الله، وليكن هذا الخوف والهلع خطوة أولى لتحطيمهم قبل الإقدام عليهم بجند الله.

العلة الثامنة

وحتى لو افترضنا ـ تنزلاً ـ أنه سيصيب أصحابه من بعده سوء ويُقتلون بأسياف اليهود، وستلدغهم أنياب أفاعيهم، بأطراف الرماح، فذلك أمرٌ هيّن في جنب الله تعالى، فبقاؤه ﷺ في دنيا الرسالة، وخدمة الدين، أهم من بقائهم، بل بقائهم مرهون ببقاء رسول الله ﷺ.

وكان الغرض من مجيئهم على بعض الوجوه حمايته ﷺ، وهذا واحد من أنواع الحماية.

ثم ما قيمة وجودهم من دون وجوده ﷺ، إنما كسبوا تلك القيمة في الوجود من خلاله ﷺ، وإذا كان ولابدّ أن يموتوا، فهي الشهادة، ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾[1].

---

(١) الحديد: ١٩.

العلة التاسعة

وإن أبيت هذا كله أو بعضه فنضيف لك أنه:

ما يدريك لعل الرسول ﷺ أشار لهم وفهموا إشارته ﷺ، وكان كلامهم الأخير في الاستغراب من تأخر صاحبهم الرسول الأكرم ﷺ، واستئذانهم في الذهاب بكل هدوء وروية، إنما كان من قبيل حسن التخلص من معشر اليهود، واتقاناً للتغطية المطلوبة في مثل هذه المواقف، إن كان ذلك مقدوراً طبعاً[1].

وأخيراً أقول: إن اكتشاف اليهود سوء تصرفهم، كان أول النتائج المهمة لانتهاج الرسول ﷺ ذلك السلوك، وأهم الدلائل على نجاحه الكامل فيه، وصار أول إنذار خطر بين اليهود.

وأول قدحة خلاف وتلاوم بينهم، والبحث عن حلول، وقبول ما يطرحه من أمر في أعقاب مؤامراتهم المخجلة؛ ولنرى:

عن المغازي: (فقال حُيَيّ[2]: عجل أبو القاسم! قد كنّا نريد أن نقضي حاجته ونغديه، وندمت اليهود على ما صنعوا، فقال لهم كِنانة بن صُويراء: هل تدرون لِمَ قام محمد؟ قالوا: لا واللهِ، ما ندري وما تدري أنت!

قال: بلى والتوراة، إني أدري، قد أُخبر محمد ما هممتُم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله، وما قام إلاّ أنه أُخبر بما هممتُم به، وإنه لآخر الأنبياء، كنتم تطمعون أن يكون من بني هارون فجعله الله حيث شاء.

---

(١) راجع العلة السادسة.

(٢) حُيَيّ بن اخطب احد زعماء بني النضير.

وإن كتُبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تُغيّـر ولم تُبدل أنَّ مولده بمكة ودار هجرته يثرب، وصِفتُه بعينها ما تُخالف حرفاً مما في كتبنا، وما يأتيكُم به أولى من محاربته إيّاكم، ولكأني أنظرُ إليكم ظاعنين، يتضاغى[١] صبيانكم، قد تركتم دوركم خلوفاً وأموالكم، وإنما هي شرفكم)[٢].

وهكذا استسلموا نظرياً وبفعل شططهم وخُبث أنفسهم، وحكمة النبي الأقدس ﷺ، قبل استسلامهم العملي.

ووقفة ثانية:

ترى أما كان بمقدور النبي الأعظم ﷺ أن يبعث بمندوب عنه إلى بني النضير فيختزل تلك التقاطعات، ويقضي الحاجة بأقل جهد وأيسر سبيل، هذا وإن لديه من أهل المنطق والحكمة والشجاعة ما لا يعوزهم أن يكونوا ممثلي رسول الله ﷺ في مهمات صعبة وخطيرة؟

وللإجابة يمكن أن نقول:

الجواب الأول:

أراد ﷺ أن يقف بنفسه الشريفة على استمرار العهد، ويعززه بأخذ الدية، أو القرض منهم لبني عامر، وإن ذهاب القائد الأعلى بمهمة ما يعطي تلك المهمة أهمية خاصة.

فأراد الرسول ﷺ إظهار أهمية وقيمة خاصة للاتفاق المُبرم بينه ﷺ والأطراف الأخرى، وضرورة الالتزام به، والعمل لإدامة مفعوله باعتباره يشكل صيغة تعايش تعكس حضارية الفهم للعلاقات الإنسانية والتي يمتلكها الإسلام، إلى الحد الذي يستوجب أن يكون الرسول الأكرم ﷺ

---

(١) التضاغي: الصياح.

(٢) المغازي ١: ٣٦٦، وعنه في سبل الهدى والرشاد ٤: ٣١٩.

متابعاً لإجراءاته التنفيذية في بعض الأحوال، كما في الأمر الذي نحن بصدده، على القول بوجود فقرة ملزمة لهم بدفع الدية في بنود الاتفاق طبعاً، وعلى القول بعدم وجود ذلك، فتكون المعاني المذكورة لها قيمة أيضاً من جنبة العلاقات الاجتماعية والإنسانية العامة.

الجواب الثاني:

ذهاب الرسول المصطفى ﷺ يعتبر بمثابة المحك لهم، أو وضعهم على المحك، ويمكن أن يجلي نواياهم، ويستخبر دخائلهم، هل فيها شيء من الصلاح، أو يعشعش في داخلها شيطان رجيم.

ومعلوم مثل هذه النيّة لا تبدوا ولا تظهر مع بقية أصحاب الرسول ﷺ حتى مع أرفعهم شأناً وأجلهم مقاماً، لأنهم غير مقصودين من اليهود ولا يستهدف اليهود غيره ﷺ إلاّ بالتبع.

الجواب الثالث:

لكي تكون الموارد جاهزة لرسول الله ﷺ، حاضرة بين يديه، فلا إشكال ولا شبهة أنّه يمكن أن ترد من سوء نقل، أو عدم القدرة على التوصيل.

فربما بعث النبي ﷺ أحد أصحابه وأجابوه بإجابة ما، ولكنهم يميلون عنها إذا جد الجد، ويتنصلون بدعوى أنهم لم يقولوا ذلك.

أو قالوا غيره ولم يفهم الناقل ما قلنا، وما إلى ذلك من تبريرات اليهود، وطرق التوائهم المعروف.

ولقالوا لو كنت أتيتنا عرفت بنفسك قولنا، وفهمت مرادنا أفضل من سواك، أما مجيئه، بنفسه فقاطع للّجاج، ودافع للتمحل.

الجواب الرابع:

فيه إشعار باحترام الإسلام لأهل الملل الأخرى، وحفظه لحقوقهم، وإعطاء الاعتبار لهم، لا لأن اليهود بما هم عليه من الانحراف، والخروج عن السنن الإلهية محترمون، إنما اليهودية باعتبارها دين الله عزّ وجل، وسِفر موسى ﷺ، له في نظر الرسول ﷺ قدسية وتكريم، وإذا لاحظنا هذه الجَنَبَة فسيكون تآمرهم في الدرجة القصوى من البشاعة والإثارة.

فالرسول الأعظم ﷺ إنسان يحترمهم لدينهم وعقيدتهم، ويأتي ﷺ بنفسه الشريفة لتذكيرهم بالعهد واحترام بنوده، ولإشراكهم في فقرة اجتماعية تدلل على حسن المعاملة، وتقدير الجوار، وهم يحاولون معه هذه المحاولة الغادرة اللئيمة.

وهذا دليل على ما تنطوي عليه نفوسهم من أخبث الأغراض، وأسوء الأخلاق بما لا يمكن التعامل معه، وبعد هذا كله ألا يحق الدفاع عن النفس، والرد بالقوة عليهم، فآخر الدواء الكَيّ، وآخر السُبُل مع اليهود الاستئصا ل بالسيف، ما دام هذا الإقدام يمتلك هذا الرصيد الهائل من المشروعية والصحة.

الجواب الخامس:

إن وجوده ﷺ الشريف يعني حضور أكابر اليهود وأصحاب الرأي فيهم، ومن البعيد أن لا يحضروا، لأن الوفد القادم رفيع القدر فهو بزعامة النبي ﷺ، وإن لم يكن بنبي في نظرهم، فهو مرجع المدينة وقائدها، ومن دانت له الأنصار والمهاجرون.

وهو بعد قائد حرب وفارس ميدان، قد رَكَّعَ كبرياء قريش على أقدامه في معركة بدر، وكاد يحطم غرورها إلى آخر الأمر في معركة أُحُد، لولا ثغرة القدر التي نهبت منه قيادات وطاقات عظيمة، وهو الـمُصيرّ إلى الآن على

المواصلة وعدم الانحناء للرياح العاتية الغاضبة، فكم هو عظيم.

إذن لابدّ من استقباله بأكابر القوم، مع كونه ﷺ أول مرة يطرق عليهم بابهم، هو وبرفقته وفد من أصحابه، بعضه ممن له شأن عظيم وشأوٌ كبير.

وحضور أكبر القوم له أهمية من بعض الجهات، فسوف يقف الرسول ﷺ على كلامهم جميعاً، ويكون مهيمناً على استقرار النوايا منهم كافة، ولعل ذهابه ﷺ إلى ناديهم دون الدخول في بيوت أحدهم لتحقيق هذا الغرض، وإن كانت هناك أغراض أخرى لا تخفى.

فقد كان حُيَيّ بن أخطَب وهو زعيمهم ورأسهم حاضراً، وكذا كان سلام بن مشكم الذي لا يقل عن صاحبه أهمية، وهو ـ أي حُيَيّ ـ الذي قصده أبو سفيان قبيل غزوة السويق ورفض استقباله، واستقبله سلام بن مشكم وضيّفه وسارّه، وساهم في إيذاء المسلمين من خلاله، وكنانة بن صُوَيْراء وعمرو بن جحاش والذي أُنيطت به مهمة تنفيذ المشروع اليهودي العدواني على رسول الله ﷺ بإلقاء الصخرة عليه.

وثالثة أخرى:

قد عرفنا أن الرسول ﷺ سار إلى بني النضير من اليهود الذين حول المدينة وممن عقد معهم الرسول ﷺ تلك الاتفاقية المشتركة.

ولكن السؤال هنا هو:

لماذا لم يمض الرسول ﷺ إلى بني قريظة من اليهود الذين حول المدينة، ويطالبهم بما طالب به ﷺ بني النضير لاشتراكهم في نفس الملاك، أي كلاهما عليه أن يشترك في دفع الدّية لرسول الله ﷺ، ليعطيها إلى

عشيرة المقتولين من بني عامر قبيلة أبي البراء[1]

وللإجابة عليه:

الإجابة الأولى:

ربما كان تسارُع الأحداث وتواليها بدون فاصلة زمنية، لم يترك للرسول الأكرم ﷺ فرصة كافية في مواصلة مشروعه في اختبار النوايا لليهود جميعاً.

إذ بمجرد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة راجعاً من يهود بني النضير، وجّه محمد بن سلمة ليخبرهم بتهديد الرسول ﷺ لهم بالخروج من بلاده وبسرعة، وأقصى أيام السماح لهم في الإقامة بحصونهم كانت عشرة أيام وهذه العشرة أيام، أيام ترقب وحذر من تآمر اليهود ومداهمتهم المدينة، أو قيامهم بأعمال قد تؤدي إلى الاضطراب والخلل الأمني فيها.

خصوصاً أن المنافق التقليدي عبد الله بن أُبيّ بن أبي سلول بعث إليهم يطمئنهم على الموقف ويدعوهم لعصيان أمر الرسول ﷺ في خروجهم، وأنه ناصر لهم، وداخل معهم في حصنهم، وذابٌّ عنهم قتالاً ضرباً بالسيف وطعناً بالرمح.

روى صاحب المغازي: (فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول إبن أُبيّ، أتاهم سويد وداعس فقالا: يقول عبد الله بن أُبيّ: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي

---

(١) وأمر الدية هذا كان مترتباً على قتل عمرو بن أمية وهو من المسلمين لاثنين من قبيلة بني عامر، وكان زعيمهم قد عقد اتفاقيية بينه وبين الرسول الأعظم ﷺ تقضي ببعض بنودها معالجة حالة من هذا النوع وهو القتل بأخذ الدية من القتلة، ووفقاً لهذا المبدء وداهم رسول الله ﷺ.

وغيرهم من العرب، يدخلون معكم حصنكم فيموتون من آخرهم قبل أن يُوصل إليكم، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم، ويمدكم حلفائكم من غطفان)[1] ، فالحال السائد هو حالة الطوارئ.

وللطوارئ أحكامها الخاصة وقوانينها المحددة والمختلفة نسبياً عن باقي الشؤون والأحوال.

أنظر كم عجل الرسول ﷺ في اتخاذ القرار، وعدم إعطاء أي فرصة زمنية لليهود، بإمكانهم أن يستغلوها استغلالاً أمثل، ليصنعوا من خلالها موقفاً يربك ما يريده الرسول ﷺ ويخطط له.

وروى أيضاً: (فلما انتهى أصحابه إليه وجدوه قد أرسل إلى محمد بن مَسْلَمَة[2] يدعوه، فقال أبو بكر: يا رسول الله، قُمتَ ولم نشعر، فقل ﷺ: «هَمَّت اليهود بالغدر بي، فأخبرني الله بذلك فقمتُ».

وجاء محمد بن مسلمة فقال ﷺ: إذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: «إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده، إلى أن قال: إن رسول الله أرسلني إليكم يقول لكم: قد نقضتم العهد الذي جُعِلت لكم بما هممتم من الغدر بي! وأخبرهم بما كانوا ارتأوا من الرأي وظهور عمرو بن جحش على البيت يطرح الصخرة»، فأسكتوا فلم يقولوا حرفاً.

ويقول: «اخرجوا من بلدي، فقد أجلتكم عشراً فمن رُئِيَ بعد

---

(١) المغازي ١ :٣٦٨، وعنه في سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٢٠.

(٢) وطبعاً محمد بن مسلمة كان أنصارياً أوسيًّا، وفي ذلك نكتة لا تخفى على ذي لب، لأن الأوس كانت حليفة ليهود بني النضير، ولأن محمد هو نفسه التي أجلى بني قنيقاع حلفاء الخزرج بأمر رسول الله ﷺ وهذا فيه من المعاني ما فيه.

ذلك ضُربت عنقه!»

قالوا: يا محمد ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس.

قال محمد: تغيرت القلوب»[1].

وهذه الوتيرة من الأحداث واضحة التوتر والشدّة والانشداد.

الإجابة الثانية:

وربما عرف الرسول المصطفى ﷺ أنه إذا سالمهم مع كونه سالَ بني النضير، وعرفوا ردهم فسوف يقفون موقفاً سلبياً، مما يعرقل مشروع الرسول ﷺ في الرد على بني النضير، إذ يوحدهم حينها الحقد المعلن، والهدف المشترك، وتكون نتيجتهم هذه المرة أشد من باقي المرات، لأن بعد القضاء على بني قنيقاع، وفكرة القضاء على يهود بني النضير، سوف ينفرد الرسول ﷺ بيهود بني قريظة في المستقبل.

وهذ الأمر يخيف يهود بني قريظة بشكل كبير جداً، فلو فرضنا أنه ﷺ لا يلقاهم بسوء، ولا يتعرض لهم بأذى ـ كما هي أخلاق الرسول ﷺ ـ فهم لا أقل من أن يكونوا ضعفاء أمامه، وفي عموم المنطقة ـ وهي منطقة ساخنة بالأحداث المحتدمة، وهي نقطة صراع ودائرة توتر على العموم دائماً ـ وسيحرجون أمام أي مشروع مع المشركين أو من المشركين، مع كونه يطابق نواياهم ورغبتهم في القضاء على محمد النبي ﷺ، ويحرمهم من أي ممارسة سرية أو علنية من هذا النوع.

ولا يعترض أحد، بأن خلاف يهود بني قريظة مع يهود بني النضير يُضعف هذا الاحتمال المذكور، إذ أنهم ـ أي يهود بني قريظة ـ سيفرحون

---

(١) المغازي ١: ٣٦٦ و٣٦٧، وانظر تاريخ الطبري ١: ٢٢٤، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

لقضاء الرسول ﷺ على يهود بني النضير.

وذلك لأن الوحدة العقائدية غير مسلوبة من الطرفين، ومواجهة المصير الواحد، عامل توحيد قوي بينهما، كما شخّص ذلك رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ بن سلول بقوله السابق الذكر: (وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم) ـ ولن تفيد النفي التأبيدي إذا دخلت على الفعل المضارع وفق قواعد اللغة العربية ـ أي أنه مطمئن لهذه النصرة من بني قريظة ليهود بني النضير.

ولعلها تحصل لولا سياسة الرسول ﷺ الدقيقة، ولولا خذلان ابن أُبيّ ليهود بني النضير التي خيبت مساعيهم، وسيتضح المزيد من الدلالة على هذا في البحوث القادمة إن شاء الله.

الإجابة الثالثة:

إن واعز الرسول ﷺ في المطالبة والذهاب إلى بني النضير، هو تخوفه ﷺ من عدم سلامة نواياهم، في وقت هو فيه مثقل بما أصاب أصحابه من القتل والموت والتنكيل والتمثيل في واقعة بئر معونة، وفي قضية الرجيع، وذهاب فئة صالحة أخذت الكثير من جهد الرسول ﷺ، ومن جِدّه حتى تصل إلى مستوى الأمل، ثم ذهبت في ليلة وضحاها، ممزقة الأشلاء بين سيوف الأعداء.

ومثقل بما تنوي له القبائل الأخرى، وبما تشعره من أن موقف النبي ﷺ بات ضعيفاً في المدينة.

وبالإضافة إلى هذا فهناك قضيتان رئيسيتان لهما تأثير على واقع العلاقة مع يهود بني النضير بالذات.

القضية الأولى: هي مقتل كعب بن الأشرف وهو من كبار اليهود، ومن عناصرهم المهمة ومن دبلوماسييهم، إضافة إلى كونه شاعراً متعصباً،

وقد قتله أبناء الإسلام وأنصاره بتوجيه من الرسول الأكرم ﷺ، وأدخل قتله على يهود بني النضير خوفاً وحزناً عظيماً.

القضية الثانية: هي اشتراكهم في التآمر على الإسلام والمسلمين في قضية استضافتهم لشيطان قريش أبي سفيان قبيل غزوة السويق، والجلوس معه على بساط التفاهم والتنسيق لتوجيه ضربة إلى مدينة الرسول الأعظم ﷺ، وهذه ورقة إدانة جاهزة لا يمكن الانحياز عنها.

وفي المقابل كانت بنو قريظة أشبه بالحريصين أو أظهروا الحرص على اتفاقية الأمن والتعايش السلمي بينهم وبين الرسول ﷺ، وهذا يظهر من خلال مجيء حُيَيّ بن أخطب بعد إجلاء بني النضير وحواره مع زعيم بني قريظة، وكيف كان رده على حُيَيّ بن أخطب بأنه لم يرَ من الرسول المصطفى ﷺ إلاّ الوفاء والصدق.

وخلاصة القول إن التشكيك بنوايا يهود بني النضير له وجهٌ وجيه.

الإجابة الرابعة:

ولعل الرسول ﷺ أرسل إليهم في ذلك، ولعلهم أجابوه بالإيجاب وهو المطلوب، أو السلب لكنه السلب المبرر، فسكت عنه الرسول ﷺ.

أو كان عندهم أمر ما استوجب سقوط ذلك عنهم، لكن هذه الأمور لم ينقلها التاريخ، لا لعدم وجودها (فعدم الوجدان لايعني عدم الوجود)، ولكن غفلها أو تغافلها كما صُنِع مع الكثير من الأحداث.

الإجابة الخامسة:

إن فكرة التعويضات والديات لم تكن موجودة أصلاً في الاتفاقية، وإنما سار الرسول الأكرم ﷺ إلى بني النضير لغرض الاقتراض لا أكثر.

وهناك دليل آخر على صحة هذه المسألة هو كون اليهود بطوائفهم

الثلاث اتفقوا مع الرسول ﷺ في أمور لم يكن مورد التعويض وإعطاء الدية داخلاً فيها.

كما جاء في إعلام الورى بأعلام الهدى للطبرسي: (فقالوا: قد سمعنا ما تقول، وقد جئناك لنطلب منك الهدنة، على أن لا نكون لا لك ولا عليك، ولا نعين عليك أحداً، ولا نتعرض لأحد من أصحابك، ولا تتعرض لنا، ولا لأحد من أصحابنا، حتى ننظر إلى ما يصير أمرك وأمر قومك)[1].

وإذا كان الأمر كذلك فسوف يخرج يهود بني قريظة من الموضوع تخصصاً، وهذا المرجح عندنا وعند الله العلم.

واتماماً للفائدة في توضيح السياسة التآمرية على النبي الأكرم ﷺ من قبل اليهود نوضح أمراً هاماً في المبحث اللاحق ونتكلم حول مسألة حساسة ومعقدة الا وهي مسألة قتل النبي ﷺ لبني قريضة من اليهود.

هل كان ذلك أمراً حقاً أم اسطورة أنشأتها أيدي الغواة وأفكار الدخلاء؟!.

---

(١) إعلام الورى بأعلام الهدى ١: ١٥٨، بحار الأنوار للعلامة المجلسي ١٩: ١١٠، وانظر قصص الأنبياء للراوندي: ٣٣٥.

المبحث الثالث

اسطورة قتل يهود بني قريظة

قد ورد في كتب التاريخ أنّه وبعد فراغه ﷺ من حرب الأحزاب توّجه لمقاتلة بني قريظة، وفعلاً حاصرهم مدة من الزمن، ومن ثم أسر الرجال، وقضى عليهم جميعاً دون أدنى مراجعة لهذا الموقف، أو التوقف في تحليله من الناحية التاريخية.

ومن المعلوم أن يهود بني قريظة آخر من تبقى من اليهود الذين في المدينة أو حولها، ولهم موقع مهم في حدود المدينة، كما أنّ لهم مع رسول الله ﷺ معاهدة نقضوها في يوم الأحزاب، وأعانوا قريش وأحلافها على رسول الله ﷺ، حتى قال المسلمون ـ كما جاء عن المغازي ـ: (كان خوفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشدّ من خوفنا من قريش! حتى فرج الله ذلك)[1].

وفيه أيضاً: (أنّ بني واقف جعلوا ذراريهم ونسائهم في أُطمهم، وكانوا مع النبي ﷺ، وكانوا يتعاهدون أهليهم بأنصاف النهار بإذن النبي ﷺ، فينهاهم النبي ﷺ، فإذا ألحّوا امرهم أن يأخذوا السلاح خوفاً عليهم من بني قُرَيظة)[2].

وإن قتلهم بعد محاصرتهم كان على أنقاض ذلك النقض، وركام

---

(١) المغازي ٢: ٤٦٨.

(٢) المغازي ٢: ٤٥١.

تلك المشاركة لأعداء الله ورسوله والغدر بالمسلمين.

ولأن الحاجة في البحث تستدعي إيراد مقاطع مهمة من النص التاريخي كما جاء عن المغازي نذكرها هنا أولاً: (قالوا: لما انصرف المشركون عن الخندق، وخافت بنو قريظة خوفاً يؤمر بقتالهم حتى جاء جبرئيل عليه السلام. وكانت امرأة نباش بن قيس قد رأت والمسلمون في حصار الخندق.

قالت: أرى الخندق ليس به أحد، وأرى الناس تحولوا إلينا ونحن في حصوننا قد ذبحنا (ذبح) الغنم. فذكرت ذلك لزوجها، فخرج زوجها فذكرها للزبير بن باطا، فقال الزبير: ما لها لا نامت عينها، تولّى قريش ويحصرنا محمدا والتوراة، ولما بعد الحصار أشد منه).

وروى: (وأتاه ﷺ جبريل على بغلة عليها رحالة وعليها قطيفة، على ثناياه النقع، فوقف عند موضع الجنائز فنادى: عذيرك من محارب! قال: فخرج رسول الله ﷺ فزعاً فقال: ألا أراك وضعت اللّأمَة ولم تضعها الملائكة بعد؟ لقد طردناهم إلى حمراء الأسد؛ إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم).

ومضى ناقلاً: (فحدثني ابن أبي سبرة، عن أسيد بن أبي أسيد، عن أبي قتادة، قال: انتهينا إليهم فلما رأونا أيقنوا بالشر، وغرز علي عليه السلام الراية عند أصل الحصن، فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه.

قال أبو قتادة: وسكتنا وقلنا: السيف بيننا وبينكم! وطلع رسول الله ﷺ فلما رآه علي عليه السلام رجع إلى رسول الله ﷺ وأمرني أن ألزم اللواء فلزمته، وكره أن يسمع رسول الله ﷺ أذاهم وشتمهم. فسار رسول الله ﷺ إليهم وتقدمه أسيد بن حضير فقال: يا أعداء الله، لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعاً. إنما أنتم بمنـزلة ثعلب في حجر.

قالوا: يا ابن الحضير، نحن مواليكم دون الخزرج! وخاروا، وقال: لا عهد بيني وبينكم ولا إلٌ. ودنا رسول الله ﷺ منهم، وترسنا عنه، فقال: «يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطواغيت! أتشتمونني؟»

قال: فجعلوا يحلفون بالتوراة التي أنزلت على موسى: ما فعلنا! ويقولون: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً! ثم قدم رسول الله ﷺ الرماة من أصحابه.

فحدثني فروة بن زبيد، عن عائشة بنت سعد، عن أبيها، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا سعد! تقدم فارمهم!» فتقدمت حيث تبلغهم نبلي، ومعي نيف على الخمسين، فرميناهم ساعة وكأن نبلنا مثل جراد، فانجحروا فلم يطلع منهم أحد. وأشفقنا على نبلنا أن يذهب، فجعلنا نرمي بعضها ونمسك البعض. فكان كعب بن عمرو المازني ـ وكان رامياً ـ يقول: رميت يومئذ بما في كنانتي، حتى أمسكنا عنهم بعد أن ذهبت ساعة من الليل.

قال: وقد رمونا ورسول الله ﷺ واقف على فرسه عليه السلاح، وأصحاب الخيل حوله، ثم أمرنا رسول الله ﷺ فانصرفنا إلى منزلنا وعسكرنا فبتنا).

وأضاف: (ثم غدونا عليهم بسُحْرَة، فقدم رسول الله ﷺ الرماة، وعبأ أصحابه فأحاطوا بحصونهم من كل ناحية، فجعل المسلمون يرامونهم بالنبل والحجارة، وجعل المسلمون يعتقبون فيعقب بعضهم بعضاً، فما برح رسول الله ﷺ يراميهم حتى أيقنوا بالهلكة.

فحدثني الضحاك بن عثمان، عن نافع، عن بن عمر، قال: كانوا يراموننا من حصونهم بالنبل والحجارة أشد الرمي، وكنا نقوم حيث تبلغهم نبلنا.

فحدثني الضحاك بن عثمان، عن جعفر بن محمود، قال: قال محمد ابن مسلمة: حصرناهم أشد الحصار، فلقد رأيتنا يوم غدونا عليهم قبل الفجر، فجعلنا ندنوا من الحصن ونرميهم من كَثَب، ولزمنا حصونهم فلم نفارقها حتى أمسينا، وحضّنا رسول الله ﷺ على الجهاد والصبر.

ثم بتنا على حصونهم، ما رجعنا إلى معسكرنا حتى تركوا قتالنا وأمسكوا عنه وقالوا: نكلمك. فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

فأنزلوا نباش بن قيس، فكلّم رسول الله ﷺ ساعة وقال: يا محمد، ننـزل على ما نزلت عليه بنو النضير؛ لك الأموال والحلقة وتحقن دمائنا؛ ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة. فأبى رسول الله ﷺ فقالوا: فتحقن دمائنا وتسلم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل.

فقال رسول الله ﷺ: «لا، إلا أن تنـزلوا على حكمي». فرجع نباش إلى أصحابه بمقالة رسول الله ﷺ فقال كعب بن أسد: يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أنّ محمداً نبي الله، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب، حيث لم يكن نبينا من بني إسرائيل فهو حيث جعله الله، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد والعقد، ولكن البلاء وشؤم هذا الجالس[1] علينا وعلى قومه، وقومه كانوا أسوأ منا.

لا يستبقي محمد رجلاً واحداً إلا من تبعه، أتذكرون ما قال لكم ابن خِراش حين قدم عليكم فقال: تركت الخمر والخمير والتأمير، وجئت إلى السقاء والتمر والشعير؟

قالوا: وما ذلك؟

قال: يخرج من هذه القرية نبي، فإن خرج وأنا حي اتبعته ونصرته.

---

(١) يعني حيي بن أخطب.

وإن خرج بعدي فإياكم أن تخدعوا عنه، فاتبعوه وكونوا أنصاره وأولياءه، وقد آمنتم بالكتابين كليهما الأول والآخر.

قال كعب: فتعالوا فلنتابعه ولنصدقه ولنؤمن به، فنأمن على دمائنا وأبنائنا ونسائنا وأموالنا، فنكون بمنـزلة من معه.

قالوا: لا نكون تبعاً لغيرنا، نحن أهل الكتاب والنبوة، ونكون تبعاً لغيرنا؟ فجعل كعب يرد عليهم الكلام بالنصيحة لهم قالوا: لا نفارق التوراة ولا ندع ما كنا عليه من أمر موسى.

قال: فهلم فلنقتل أبنائنا ونسائنا، ثم نخرج في أيدينا السيوف إلى محمد وأصحابه، فإن قُتلنا قُتلنا وما ورائنا أمر نهم به، وإن ظفرنا فلعمري لتتخذن النساء والأبناء، فتضاحك حي بن أخطب ثم قال: ما ذنب هؤلاء المساكين؟ وقالت رؤساء اليهود، الزبير بن باطا وذووه: ما في العيش خير بعد هولاء.

قال: فواحدة قد بقيت من الرأي لم يبق غيرها، فإن لم تقبلوها فأنتم بنو إستها.

قالوا: ما هي؟ قال: الليلة السبت، وبالحريّ أن يكون محمد وأصحابه آمنين لنا فيها أن نقاتله، فنخرج فلعلنا أن نصيب منه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا، وقد عرفت ما أصابنا فيه؟

قال حي: قد دعوتك إلى هذا وقريش وغطفان حضور فأبيت أن تكسر السبت، فإن أطاعتني اليهود فعلوا، فصاحت اليهود: لا نكسر السبت.

قال نباش بن قيس: وكيف نصيب منهم غرة وأنت ترى أن أمرهم كل يوم يشتد، كانوا أول ما يحاصروننا إنما يقاتلون بالنهار ويرجعون الليل، فكان هذا لك قولاً «لو بيتناهم». فهم الآن يُبيّتون الليل ويظلون النهار، فأي غِرةٍ نصيب منهم؟ هي ملحمة وبلاء كتب علينا، فاختلفوا وسقط في أيديهم، وندموا على ما صنعوا، ورقُّوا على النساء والصبيان،

وذلك أن النساء والصبيان لما رأوا ضَعف أنفهسم هلكوا، فبكى النساء والصبيان، فرقُّوا عليهم.

فحدثني صالح بن جعفر، عن محمد بن عقبة، عن ثعلبة بن أبي مالك، قال: قال ثعلبة واسَيد ابنا سَعِيّة، وأسد بن عبيد عمّهم:

يا معشر بني قريظة، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأن صفته عندنا، حدثنا بها علماؤنا وعلماء بني النضير. هذا أولهم - يعني حيي بن أخطب - مع جبير بن الهَيِّبان أصدقُ الناس عندنا، هو خبّرنا بصفته عند موته.

قالوا: لا نفارق التوراة! فلمّا رأى هؤلاء النفر إبائهم، نزلوا في الليلة التي في صُبْحِها نزلت قريظة، فأسلموا فأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

فحدثني الضحاك بن عثمان، عن محمد بن يحيى بن حبان، قال عمرو ابن سُعْدَى، وهو رجل منهم:

يا معشر اليهود، إنكم قد حالفتم محمداً على ما حالفتموه عليه، ألا تنصروا عليه أحداً من عدوه، وأن تنصروه ممن دهمه؛ فنقضتم ذلك العهد الذي كان بينكم وبينه، فلم ادخل فيه ولم أشرككم في غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري يقبلها أم لا.

قالوا: نحن لا نقر للعرب بخَرْج في رقابنا يأخذوننا به، القتل خير من ذلك! قال: فإني برئ منكم، وخرج في تلك الليلة مع بني سَعِيَّة فمرَّ بحرس النبي ﷺ محمد بن مسلمة، فقال محمد بن مسلمة: من هذا؟

فقال: عمرو بن سُعدَى، فقال محمد: مر، اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام[1].

---

(١) ولدينا تعليق حول هذا الكلام تجدوه في كتاب: (الرسول المصطفى ﷺ قراءة الدائرة الحمراء).

فخلى سبيلَه وخرج حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح، فلمّا أصبح غدا فلم يدرَ أين هو حتى الساعة، فسُئِل رسول الله ﷺ عنه فقال: ذلك رجل نجّاه اللهُ بوفائه.

ويقال إنه لم يطلع أحدٌ منهم ولم يبادر للقتال، في روايتنا).

ويُكمل ماوراه: (قالوا: فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، فحدثني ربيعة بن الحارث، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن السائب بن أبي لبابة بن عبد المنذر، عن أبيه.

قال: لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يُرسلني إليهم، دعاني رسول الله ﷺ فقال: «أذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس».

قال: فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم الحصار، فبَهَشوا[1] إلي وقالوا: يا أبا لبابة، نحن مواليك دون الناس كلهم، فقام كعب بن أسد فقال: أبا بشير، قد علمت ما صنعنا في أمرك وأمر قومك يوم الحدائق وبعاث، وكل حرب كنتم فيها، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد يأبى يفارق حصننا حتى ننـزل على حكمه. فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولم نطأ له حَرا أبداً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً.

قال أبو لبابة: أما ما كان هذا معكم، فلا يدع هلاككم، وأشرت إلى حييّ بن أخطب.

قال كعب: هو والله أوردني ثم لم يُصدرني، فقال حييّ: فما أصنع؟ كنت أطمع في أمره، فلما أخطأني آسيتك بنفسي، يصيبني ما أصابك.

---

(١) بهشوا إلي: أسرعوا إلي. (النهاية ١: ٢٢٢)

قال كعب: وما حاجني إلى أن أقتل أنا وأنت وتسبى ذراريّنا؟

قال حييّ: ملحمة وبلاء كتب علينا، ثم قال كعب: ما ترى، فإنا قد اخترناك على غيرك؟ إن محمداً قد أبى إلا أن ننزل على حكمه، أفننزل؟

قال: نعم، فانزلوا وأومأ إلى حلقه، هو الذبح.

قال: فندمت فاسترجعت، فقال لي كعب: ما لك يا أبا لُبابة؟

فقلت: خنت الله ورسوله، فنزلت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع، والناس ينتظرون رجوعي إليهم، حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً آخر حتى جئت إلى المسجد فارتبطت، فكان ارتباطي إلى الأسطوانة المُخَلَّقَة[1] التي تقال أسطوانة التوبة، ويقال ليس تلك، إنما ارتبط إلى أسطوانة كانت وجاه المنبر عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ، وهذا أثبت القولين وبلغ رسول الله ﷺ، ذهابي وما صنعت فقال ﷺ: **«دعوه حتى يحدث الله فيه ما يشاء، لو كان جاءني استغفرت له؛ فأمّا إذ لم يأتني وذهب فدعوه!»**

قال أبو لبابة: فكنت في أمر عظيم خمس عشرة ليلة، وأذكر رؤيا رأيتها...)

ويُضيف: (قالوا: ولما جهدهم الحصار ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ أمر رسول الله بأسراهم فكتفوا رباطاً، وجُعل على كِتافهم محمد بن مسلَمة، ونُحُّوا ناحية، وأخرجوا النساء والذريّة من الحصون فكانوا ناحية، واستعمل رسول الله ﷺ عبد الله بن سلام، وأمر رسول الله ﷺ بجمع أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب.

فحدثني ابن أبي سَبْرَة، عن المِسوَر بن رفاعة، قال: وجد فيها ألف

---

(١) أي التي طليت بالخلوق، وهو ما يخلق به من الطيب (شرح على المواهب اللدنية ١: ١٥٨)

وخمسمائة سيف، وثلثمائة درع، وألفاً رمح، وألف وخمسمائة ترس وحَجَفَة. وأخرجوا أثاثاً كثيراً، وآنية كثيرة، ووجدوا خمراً وجرار سكر، فهريق ذلك كله ولم يخمس، ووجدوا من الجمال النواضح علة، ومن الماشية، فجمع هذا كله.

حدثني عمر بن محمد، عن أبي سعيد، عن جابر بن عبد الله قال: أنا كنت ممن كسر جرار السكر يومئذ.

حدثني خارجة بن عبد الله، عن داود بن الحُصَين، عن أبي سفيان، عن محمد بن مسلمة، قال: وتنحى رسول الله ﷺ فجلس، ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، حلفاؤنا دون الخزرج، وقد رأيت ما صنعت ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أبي، وهبت له ثلثمائة حاسر وأربعمائة دارع، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نقضهم العهد، فهَبهُم لنا. ورسول الله ﷺ ساكت، لا يتكلم حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها، فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟»

قالوا: بلى.

قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ». وسعد يومئذ في المسجد في خيمة كعيبة بنت عتبة، وكانت تداوي الجرحى، وتلمّ الشَّعَث، وتقوم على الضائع والذي لا أحد له، وكان لها خيمة في المسجد، وكان رسول الله ﷺ جعل سعداً فيها.

فلما جعل رسول الله ﷺ الحكم إلى سعد بن معاذ خرجت الأوس حتى جاءوه فحملوه على حمار بشَنَذَة[1] من ليف، وعلى الحمار قطيفة فوق الشنذة وخطامه حبل من ليف، فخرجوا حوله يقولون: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحسن فيهم فأحسن، فقد رأيت ابن أبي

(١) والشنذة: شبه أكاف يجعل لمقدمته حنو (النهاية ٢: ٢٣٨).

وما صنع في حلفائه.

والضحاك بن خليفة يقول: يا أبا عمرو، مواليك، مواليك! قد منعوك في المواطن كلها، واختاروك على من سواك ورجوا عِياذَك، ولهم جمل وعدد، وقا ل سلمة بن سلامة بن وقش: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك وحلفائك، إن رسول الله ﷺ يحب البقيَّةَ! نصروك يوم البعاث والحدائق والمواطن، ولا تكن شراً من ابن أبيّ.

قال إبراهيم بن جعفر، عن أبيه: وجعل قائلهم يقول: يا أبا عمرو، وإنا والله قاتلنا بهم فقتلنا، وعازَزنا بهم فعززنا! قالوا: وسعد لا يتكلم، حتى إذا أكثروا عليه قال سعد: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

فقال الضحاك بن خليفة: واقوماه! ثم رجع الضُّحَّاك إلى الأوس فنعى لهم بني قريظة، وقال معتب بن قشير: واسوءَ صباحاه! وقال حاطب بن أمية الظفري: ذهب قومي آخر الدهر.

وأقبل سعد إلى رسول الله ﷺ، والناس حول رسول الله ﷺ جلوس، فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم!».

فكان رجال من بني عبد الأشهل يقولون: فقمنا له على أرجلنا صفين، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وقائل يقول: إنما عنى رسول الله ﷺ بقوله: «قوموا إلى سيدكم!» يعني به الأنصار دون قريش.

قالت الأوس الذين بقوا عند رسول الله ﷺ لسعد: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد ولاك الحكم، فأحسن فيهم واذكر بلائهم عندك، فقال سعد بن معاذ: أترضون بحكمي لبني قريظة؟

قالوا: نعم، قد رضينا بحكمك وأنت غائب عنا، اختياراً منا لك ورجاء أن تمن علينا كما فعله غيرك في حلفائه من قينقاع، وأثرنا عندك

أثرنا، وأحوج ما كنا اليوم إلى مجازاتك، فقال سعد: لا آلوكم جهداً فقالوا: ما يعني بقوله هذا؟ ثم قال: عليكم عهد الله وميثاقه أن الحكم فيكم ما حكمت؟

قالوا: نعم، فقال سعد للناحية الأخرى التي فيها رسول ﷺ وهو معرض عنها إجلالاً لرسول الله ﷺ: وعلى من هاهنا مثل ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ ومن معه: «نعم».

قال سعد: فإني أحكم فيهم أن يقتل من جرت عليه الموسى، وتسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد حكمت بحكم الله عزوجل من فوق سبعة أرقعة»**.

وكان سعد بن معاذ في الليلة التي في صبحها نزلت قريظة على حكم رسول الله ﷺ قد دعا فقال: اللهم، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أقاتل من قوم كذبوا رسول الله، وأذوه وأخرجوه! وإن كانت الحرب قد وضعت أوزارها عنّا وعنهم فأجعله لي شهادة، ولا تُمتني حتى تقر عيني من بني قريظة! فأقر الله عينه منهم.

فأمر بالسبي فسيقوا إلى دار أسامة بن زيد، والنساء والذرية إلى دار ابنة الحارث وأمر رسول الله ﷺ بأحمال التمر فنثرت عليهم، فباتوا يكدمونها كدم الحُمُرِ، وجعلوا ليلتهم يدرسون التوراة، وأمر بعضهم بعضاً بالثبات على دينه ولزوم التوراة، وأمر رسول الله ﷺ بالسلاح والأثاث والمتاع والثياب، فحمل إلى دار بنت الحارث؛ وأمر بالإبل والغنم، فتركت هناك ترعى في الشجر.

قالوا: ثم غدا رسول الله ﷺ إلى السوق، فأمر بخدود فخدت في السوق ما بين موضع دار أبي جهم العدويْ إلى أحجار الزيت بالسوق، فكان أصحابه يحفرون هناك، وجلس رسول الله ﷺ ومعه عِلّيه أصحابه،

ودعا برجال بني قريظة، فكانوا يخرجون رسلاً رسلاً، تضرب أعناقهم، فقالوا لكعب بن أسد: ما ترى محمداً ما يصنع بنا؟

قال: ما يسوؤكم وما ينوؤكم، ويلكم! على كل حال لا تعقلون! ألا ترون أنّ الداعي لا ينـزع، وأنه من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله السيف، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم!

قالوا: ليس هذا بحين عتاب، لولا أنا كرهنا أن نُزرى برأيك ما دخلنا في نقض العهد الذي كان بيننا وبين محمد.

قال حييّ: اتركوا ما ترون من التلاوم فإنه لا يرد عنكم شيئاً، واصبروا للسيف، فلم يزالوا يقتلون بين يدي رسول الله ﷺ، وكان الذين يَلون قتلهم علي والزبير، ثم أتي بحيي بن أخطب مجموعة يداه إلى عُنُقه، عليه حُلَّة شَقْحيَّة[1] قد لبسها للقتل، ثم عمد إليها فشقها أُنْمُلَةً لئلا يسلبه إياها أحد، وقد قال له رسول الله ﷺ حين طلع: «ألم يُمكِّن الله منك يا عدو الله؟».

قال: بلى والله، ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولقد التمستُ العز في مكانه، وأبى الله إلا أن يمكنك مني، ولقد قلقلت كل مقلقل، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، لا باس بأمر الله! قدر وكتاب، ملحمة كتبت على بني إسرائيل! ثم أمر به فضرب عنقه، ثم أتي بغَزَّال بن سَمَوْأل فقال ﷺ: «ألم يمكن الله منك؟»

قال: بلى يا أبا القاسم، فأمر به النبي ﷺ فضرب عنقه، ثم أتي بنبّاش بن قيس، وقد جابذ[2] الذي جاء به حتى قاتله فدقّ الذي جاء به أنفه فأرعفه، فقال رسول الله ﷺ للذي جاء به: «لم صنعت به هذا؟» أما

---

(١) حلة شقحية: أي حمراء (النهاية ٢: ٢٢٩).

(٢) جابذ: مقلوب جاذب.

كان في السيف كفاية؟ فقال: يا رسول الله، جابذني لأن يهرب، فقال: كذب والتوراة يا أبا القاسم، ولو خلاني ما تأخرت عن موطن قُتل فيه قومي حتى أكون كأحدهم.

قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «أحسنوا إسارهم، وقيِّلوهم، وأسقوهم حتى يُبردوا فتقتلوا من بقي، لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح وكان يوماً صائفاً، فقيّلوهم وأسقوهم وأطعموهم»، فلما أبردوا راح رسول الله ﷺ يقتل من بقي، ونظر رسول الله ﷺ إلى سلمى بنت قيس، وكانت إحدى خالاته، وكانت قد صلّت القِبلَتين وبايعته، وكان رفاعة بن سموأل له انقطاع إليها وإلى أخيها سليط بن قيس وأهل الدار، وكان حين حبس أرسل إليها أن كلّمي محمداً في تركي، فإن لي بكم حرمة، وأنت إحدى أمّهاته، فتكون لكم عندي يداً إلى يوم القيامة.

فقال رسول الله ﷺ: «ما لك يا أم المنذر؟»

قالت: يا رسول الله، رفاعة بن سموأل كان يغشانا وله بنا حرمة فهبه لي، وقد رآه رسول الله ﷺ يلوذ بها، فقال رسول الله ﷺ: «نعم، هو لك». ثم قالت: يا رسول الله، إنه سيُصلّي ويأكل لحم الجمل، فتبسم النبي ﷺ، ثم قال: «إن يُصلِّ فهو خير له، وإن يثبت على دينه فهو شر له».

قالت: فأسلم، فكان يقال له مولى أم المنذر، فشق ذلك عليه واجتنب الدار، حتى بلغ أم المنذر ذلك فأرسلت إليه: إني والله ما أنا لك بمولاة، ولكني كلمت رسول الله فوهبك لي، فحقنت دمك وأنت على نسبك فكان بعد يغشاها، وعاد إلى الدار.

وجاء سعد بن عبادة، والحباب بن المنذر فقالا: يا رسول الله، إن الأوس كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله ﷺ، ما كرهه من الأوس من فيه خير، فمن كرهه من الأوس لا أرضاه الله! فقام

أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله، لا تبقين داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها، فمن سخط ذلك فلا يُرغم الله إلا أنفه، فابعث إلى داري أول دورهم.

فبعث إلى بني عبد الأشهل باثنين، فضرب أسيد بن حضير رقبة أحدهما، وضرب أبو نائلة الآخر، وبعث إلى بني حارثة باثنين، فضرب أبو بُردة بن النِّيار رقبة أحدهما، وذفف عليه محيصة، وضرب الآخر أبو عبس بن جبر، ذفف عليه ظهير بن رافع، وبعث إلى بني ظفر بأسيرين.

فحدثني يعقوب بن محمد، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال: قتل أحدهما قتادة بن النعمان، وقتل الآخر نضر بن الحارث، قال عاصم: وحدثني أيوب بن بشير المعاوي قال: أرسل إلينا ـ بني معاوية ـ باسيرين، فقتل أحدهما جبر بن عتيك، وقتل الآخر نعمان بن عصر، حليف لهم من بَلِيّ.

قالوا: وأرسل إلأى بني عمرو بن عوف بأسيرين، عقبة بن زيد وأخيه وهب بن زيد، فقتل أحدهما عويم بن ساعدة، والآخر سالم بن عمير، وأرسل إلى بني أمية بن زيد، وأُتي رسول الله ﷺ بكعب ابن أسد مجموعة يداه إلى عنقه، وكان حسن الوجه، فقال رسول الله ﷺ: «كعب بن أسد؟»

قال كعب: نعم يا أبا القاسم.

قال: «وما انتفعتم بنصح ابن خراش وكان مصدقاً بي، أما أمركم بأتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟»

قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لا تبعتك، ولكني على دين اليهود.

قال رسول الله ﷺ: «قدمه فاضرب عنقه، » فقدمه فضرب عنقه.

فحدثني عتبة بن جبيرة، عن الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قال: لما قتل رسول الله ﷺ حيي بن أخطب، ونباش بن قيس، وغَزَّال بن سموال، وكعب بن أسد وقام، قال لسعد بن معاذ: «عليك بمن بقي»، فكان سعد يخرجهم رسلاً رسلاً يقتلهم.

قالوا: وكانت امرأة من بني النضير يقال لها نباتة، وكانت تحت رجل من بني قريظة فكان يحبها وتحبه، فلما اشتد عليهم الحصار بكت إليه وقالت: إنك لمفارقي، فقال: هو والتوراة ما ترين، وأنت امرأة فدلي عليهم هذه الرَّحَى، فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد، وأنت امرأة، وإن يظهر محمد علينا لا يقتل النساء، وإنما كان يكره أن تسبى، فأحب أن تقتل بجرمها، وكانت في حصن الزبير بن باطا، فدلت رحى فوق الحصن، وكان المسلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فَيْئه، فأطلعت الرحى، فلما رآها القوم انفضوا، وتدرك خلاد بن سويد فتشدخ رأسه فحذر المسلمون أصل الحصن.

فلما كان اليوم الذي أمر رسول الله ﷺ أن يقتلوا، دخلت على عائشة فجعلت تضحك ظهراً لبطن وهي تقول: سراة بنى قريظة يقتلون! إذ سمعت صوت قائل يقول: يا نباتة.

قالت: أنا والله التي أدعى.

قالت عائشة: ولم؟

وقالت: قتلني زوجي وكانت جارية حلوة الكلام، فقالت عائشة: وكيف قتلك زوجك؟

قالت: كنت في حصن الزبير بن باطا، فأمرني فدليت رحى على أصحاب محمد فشدخت رأس رجل منهم فمات وأنا أقتل به، فامر رسول الله ﷺ بها فقتلت بخلاد بن سويد.

قالت عائشة: لا أنسى طيب نفس نباتة وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل، فكانت عائشة تقول: قتلت بنو قريظة يومهم حتى قتلوا بالليل على شعل السُّعَف.

حدثني إبراهيم بن ثمامة، عن المسور بن رفاعة عن محمد بن كعب القرظي.

قال: قتلوا إلى أن غاب الشُّفَق، ثم رد عليهم التراب في الخندق، وكان من شُكَّ فيه منهم أن يكون بلغ نظر إلى مؤتزره، إن كان أنبت قتل، وإن كان لم ينبت طرح في السبى.

فحدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: كانوا ستمائة إلا عمرو بن السُّعدى وجدت رِمَّتُه ونجا.

قال ابن واقد: خروجه من الحصن أثبت.

وحدثني موسى بن عبيدة عن محمد بن المنكدر، قال: كانوا ما بين ستمائة إلىسبعمائة، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كانوا سبعمائة وخمسين.

قالوا: وكان نساء بني قريظة حين تحولوا في دار رملة بنت الحارث وفي دار أسامة يقلن: عسى محمد أن يمن على رجالنا أو يقبل منهم فديه.

فلما أصبحن وعلمن بقتل رجالهن صحن وشققن الجيوب، ونشرن الشعور، وضربن الخدود على رجالهن، فملأن المدينة.

قال، يقول الزبير بن باطا: اسكتن؛ فأنتن أول من سبى من نساء بني إسرائيل منذ كانت الدنيا؟

ولا يرفع السبي عنهم حتى نلتقي نحن وأنتن، وإن كان في رجالكن خير فَدَوكن، فالزمن دين اليهود فعليه نموت وعليه نَحيى.

فحدثني عبد الحميد بن جعفر، عن محمد بن يحيى بن حبان، وحدثني

ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين، وكل قد حدّثني من هذا الحديث بطائفة.

قالا: كان الزبير بن باطا مَنَّ على ثابت بن قيس يوم بعاث، فأتى ثابت الزبير فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟

قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟

قال ثابت: إن لك عندي يداً، وقد أردت أن أجزيك بها.

قال الزبير: إن الكريم يجزى الكريم، وأحوج ما كنت إليه اليوم، فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه كان للزبير عندى يد، جز ناصيتى يوم بعاث فقال: أذكر هذه النعمة عندك، وقد أحببت أن أجزيه بها فهبه لى، فقال رسول الله ﷺ: «فهو لك» فأتاه فقال: إن رسول الله قد وهبك لى.

قال الزبير: شيخ كبير، لا أهل ولا ولد ولا مال بيثرب، ما يصنع بالحياة؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! أعطنى ولده.

فأعطاه ولده فقال: يا رسول الله، أعطني ماله وأهله، فأعطاه رسول الله ﷺ ماله وولده وأهله، فرجع إلى الزبير فقال: إن رسول الله قد أعطاني ولدك وأهلك ومالك، فقال الزبير: يا ثابت، أما أنت فقد كافأتني وقضيت بالذي عليك، يا ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية تتراءى عذارى الحي في وجهه كعب بن أسد؟

قال: قتل.

قال: فما فعل سيد الحاضر والبادى؛ سيد الحيين كليهما، يحملهم في الحرب ويطعمهم في المَحل حيي بن أخطب؟

قال: قتل.

قال: فما فعل أول غادية اليهود إذا حملوا، وحاميتهم إذا ولوا غَزَّال بن سموأل؟

قال: قتل.

قال: فما فعل الحول القلب الذي لا يؤم جماعة إلا فضَّها، ولا عقدة إلا حلها نباش بن قيس؟

قال: قتل.

قال: فما فعل لواء اليهود في الزحف وهب بن زيد؟

قال: قتل.

قال: فما فعل والي رفادة اليهود وأبو الأيتام والأرامل من اليهود عقبة بن زيد؟

قال: قتل.

قال: فما فعل العمران اللذان كانا يلتقيان بدارسة التوراة؟

قال: قتلا.

قال: يا ثابت، فما خير في العيش بعد هؤلاء! أأرجع إلى دار كانوا فيها حلولاً فأخلد فيها بعدهم؟ لا حاجة لي في ذلك، فإني أسألك بيدي عندك إلا قدمتني إلى هذا القتَّال الذي يقتل سراة بني قريظة ثم يُقدّمني إلى مصارع قومي، وخذ سيفي فإنه صارم فاضربني به ضربة وأجهز، وارفع يدك عن الطعام، والصق بالرأس واخفض عن الدماغ، فإنه أحسن للجسد أن يبقى فيه العنق، يا ثابت، لا أصبر إفراغ دلو من نضح حتى ألقى الأحبة.

قال أبو بكر، وهو يسمع قوله: ويحك يا ابن باطا، إنه ليس إفراغ دلو، ولكنه عذاب أبدي.

قال: يا ثابت، قدمني فاقتلني!

قال ثابت: ما كنت لأقتلك.

قال الزبير: ما كنت أبالي من قتلني! ولكن يا ثابت، انظر إلى امرأتى وولدي فإنهم جزعوا من الموت، فاطلب إلى صاحبك أنّ يطلقهم وأن يرد إليهم أموالهم، وأدناه إلى الزبير بن العوام، فقدمه فضرب عنقه.

وطلب ثابت إلى رسول الله ﷺ في أهله وماله وولده، فرد رسول الله ﷺ كل ما كان من ذلك على ولده، وترك امرأته من السّبا، ورد عليهم الأموال من النخل والإبل والرِّثَّة إلا الحلقة، فإنه لم يردها عليهم، فكانوا مع آل ثابت بن قيس بن شماس)[1].

ومِن هنا يأتي سؤالنا:

هل حقاً قتل الرسول الأكرم ﷺ بني قريظة جميعا؟

نحن في مسألة قتل بني قريظة بين فرضين:

الفرض الأول: أن نقبل بأن الرسول ﷺ قتلهم، وبهذا العدد الكثير والجمع الضخم.

الفرض الثاني: أن لا نقبل ذلك ونرده.

وعلى صحة البناء على الفرض الأول فإننا نقول:

١. إن عمل بني قريظة لم يكن بالعمل الهيّن، فإنه من قبيل الخيانة التاريخية والعمل التآمري في وقت الحرب، وعمل إجرامي ضخم من هذا النوع يكون القتل استحقاقه الطبيعي، خاصة أن المقصود منه القضاء على رسول الله ﷺ، واكتساح مدينته.

---

(١) المغازي ٢: ٤٦٩ ـ ٥٢٠.

وعلى هذا الأساس من التشاور والتفاوض مع أعدائه، وبكل تفاصيل العمل الحربي ضد المدينة، وتشكيل قوى عسكرية ثلاث يساعد بعضها البعض؛ للظفر بالرسول الأعظم ﷺ ودحر معسكره واقتلاع أرومته.

وهذه المعسكرات هي معسكر قريش ومن لفّ لفها، والمعسكر الثاني لغطفان ومن لفّ لفها، والمعسكر الثالث هو معسكر اليهود المنضمين إلى الحرب مؤخراً.

والانضمام ـ وبهذا النوع ـ للتحالف المشترك من شأنه أن يروع المسلمين، ويهبط من معنوياتهم، ويعرضهم للخطر الحقيقي وتقليل فرص النجاح في رد عدوّهم، ومن ثم يتعاظم عندهم احتمال الانقضاض عليهم من هذه القوى جميعاً.

٢. إنهم أمدوا المشركين وجيوشهم اقتصادياً، وهذه خيانة أخرى أرادوا من خلالها إشعار قريش وحلفائها بالتعاطف معهم وشد أزرهم، وقبولهم لعروض التحالف والحرب المشتركة، بل الدخول فيها وتقوية أودهم في وقت كان قد دَبَّ في قلوبهم اليأس من الفلاح، والقنوط من النصر.

وقد استحوذ المسلمون على القافلة اليهودية ذات العشرين حمولة من الجمال والطعام التي كانت في طريقها لمساعدة المشركين.

٣. إن الرسول ﷺ فاوضهم من خلال هيئة مكونة من أصحابه المعتمدين، وأشخاصه الموثوقين وأراد لهم أن يرعووا إلى الحق، ويثوبوا إلى الرشد، ويحافظوا على عهدهم الذي كانوا عليه موادعين، فلم يلقَ وفده ﷺ إلاّ السباب والشتيمة والقذف لعرض الرسول ﷺ وزوجاته، والكلام الفاحش على رجاله.

فقالوا للوفد المفاوض لهم: (إنّكم والله ما لقيتم أحداً يحسن القتال ولا يعرفه، نحن والله نحسن قتالكم! ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح

الكلام، وشتموا سعد بن عبادة شتماً قبيحاً حتى أغضبوه، فقال سعد بن معاذ: دعهم فإنّا لم نأتِ لهذا، مابيننا أشد من المشاتمة)[1].

ولم نذكر تمام الرواية لورود كلمات فيها يقبح ذكرها قد تفوه بها اليهود على سعد بن عبادة، وعلى سعد بن معاذ، وقد كرروا ذلك الأسلوب الفاحش والخطاب البذيء مرّةً أخرى عندما رأوا الإمام عليّاً عليه السلام عند حصنهم.

جاء في مصادر التاريخ: (وغرز عليّ عليه السلام الراية عند أصل الحصن، فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه، قال ابو قتادة: وسكتنا وقلنا: السيف بيننا وبينكم!...)[2].

وهذا معناه أنهم مندفعون بشدة لرفض العهد والميثاق، وملتجئون بشدة في الارتماء بأحضان قريش، ولهم في ذلك مطامع معروفة مفضوحة، مُضافاً إلى كون موقفهم يعبّر عن اعتقادهم بحلول نهاية الرسول ﷺ على أيدي الأحزاب، وحتمية ذلك.

٤. إنهم لم يتراجعوا عن موقفهم الخياني ويعتذروا عنه، إنما بارزوا المسلمين بالنبال وإعلان القتال حتى والمفاوضات مستمرة، وهذا يعني أنهم عازمون على المواجهة والتصدّي ودفع المسلمين بالتي هي أسوء، حتى حسم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بإعلانه وقسمه باقتحام الحصن، فهابوا وخافوا وارتجفوا وطلبوا التفاوض مع الرسول ﷺ.

٥. ثم إن قضية القتل للمقاتِلة ـ على فرض صحة الروايات ـ كانت

---

(١) المغازي ٢: ٤٩٦.

(٢) المغازي ٢: ٤٩٩، تاريخ مدينة دمشق ٩: ٩٢، سبل الهدى والرشاد ٥: ٥، وانظر امتاع الأسماع ١: ٢٤٥، والسيرة النبوية لدحلان ٢: ١٤.

معروفة عند اليهود لما جرى بها الكلام وتناقلته الألسن آنذاك، فهو إذن أمر طبيعي لا جديد فيه مع بني قريظة ولا بدعة ـ راجع بدقة ما كتبناه حول المسألة الخامسة والتي سوف تأتي: (وإذا قال القائل: أنهم كانوا يحتملون العفو عنهم...) لتقرأ الجواب بأكمله هناك ـ.

٦. وفوق هذا كله إن قتلهم ـ على فرض وقوعه ـ إنما كان وفق إمضائهم على ميثاق الرسول ﷺ، واليهود في المصالحة المعروفة، والتي تقضي كما ذكرنا في الأسباب أن اليهود مسؤولة عن خرق هذه الاتفاقية بعرضهم على السيف، وسبي، الذرية ومصادرة الأموال في حال الخيانة، وقد أقرّوا ذلك ووقّعوا عليه.

فبالحقيقة إن قتلهم إنما هو لحكمهم على أنفسهم قبل حكم سعد بن معاذ ـ رحمة الله عليه ـ وخضوع قهري لشرطٍ الزموا أنفسهم به، فهل بعد ذلك من معتب؟.

٧. إن الرسول ﷺ عرض عليهم الإسلام كخيار لحقن دمائهم، وقد كلمهم كعب بن أسد في ذلك فرفضوا، ولم يكن الإسلام في مقام الإجبار لهم على الاعتناق وتغيير العقيدة، إنما هو الخيار الأوحد في مقام دفع الموت باعتبار من يُسلم يحفظ ماله، ودمه، وعرضه من الهدر، ولكنهم لم يستفيدوا من هذا العرض، وأبوا وأصروا واستكبروا استكباراً.

٨. إنما رفضوا وقبلوا بحكم سعد بن معاذ ونفاذه فيهم، وكان الذي جرى على فرض أنه جرى فعلاً، فذلك لاختيارهم ونزولهم على هذا الخيار.

روى ابن هشام: (أن عليّ بن أبي طالب عليه السلام صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان، وتقدم هو والزبير ابن العوام، وقال: والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة، أو لأفتحنّ حصنهم.

فقالوا: يا محمد، ننـزل على حكم سعد بن معاذ)[1].

وعلى هذا فقد اختاروا مصيرهم بأيديهم من جهة اختيار الحَكَم ورضاهم به، وبالتالي القبول بحُكمه، لأن القبول بالشيء يتضمن القبول بلوازمه، ولازم القبول بحاكمية سعد، القبول والتسليم لِحكمه الذي يحكم به.

أما الفرض الثاني (فرض عدم القبول)، فسنناقشه على أساس هذا الحديث المطوّل في المبحث الرابع والذي نكتبه تحت عنوان:

---

(١) سيرة ابن هشام ٣: ٧٢١، السيرة النبوية ٣: ٢٣٢، البداية والنهاية ٤: ١٣٩، وكذا في السيرة النبوية للدحلان ٢: ٩٣، جواهر المطالب في مناقب الامام علي عليه السلام لابن الدمشقي ١: ٢٦٦، ذخائر العقبى: ٩٩.

المبحث الرابع
وقفة مع غزوة بني قريظة

مَن كتَبَ تاريخ الغزوة؟

لا يعدو الصواب إذا احتمل الذي يقرأ غزوة بني قريظة إن كتّابها يهود ولا نقصد أن الواقدي، وزيني دحلان، وابن هشام وغيرهم من كتّاب السِّيَر كانوا من بني إسرائيل، وإنما نقصد أن اليد الإسرائيلية، واللوبي اليهودي القديم له مسحات واضحة، وتأسيسات مهمة، وصياغة بيِّنة في كتابة هذه الغزوة، وذلك للأسباب التالية:

السبب الأول:

إن الروايات فيها مضطربة غاية الاضطراب مما لا يطمئن إليه أحد بسهولة، فَمِن قائل بأن عدد القتلى اليهود (٣٠٠) إلى قائل بالألف، ومن يراجع كتب التاريخ يجد ذلك واضحاً.

السبب الثاني:

إن قتلهم جميعاً لا يوافق نص القرآن الذي وثّق الحدث: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾[1]، فإذا كان الكل قد قُتلوا فأين من أُسروا؟

---

(١) الأحزاب: ٢٦.

وإذا افترضنا أنهم النساء والولدان، فهم داخلون في السبايا لا في الأسرى.

السبب الثالث:

إن بعض الروايات تقول بأنهم حَكَموا بالقتل على من حزّب من الأحزاب أي ناصرهم، وأيدهم، وحرضهم، وأعانهم، ووقف بجنبهم ضد رسول الله ﷺ، وهذا رأي معقول ولائق.

قال السيد العاملي: (وقد اختلفت كلمات المؤرخين في عدد من قُتِل منهم، فبلغت ثلاثة عشرة قولاً، تتراوح ما بين الثلاثمئة رجل، والألف، ويظهر من النصوص: أن بني قريظة لم يقتلوا كلهم، بل قتل منهم خصوص من حزّب على النبي والمسلمين)[١].

السبب الرابع:

إن وجود جماعة معترضة على أصل الإقدام على فكرة الغدر في يهود بني قريظة يؤكد عدم اشتراك الجميع في ذلك، فلا يكونون جميعاً قد خانوا العهد المشترك.

وبعبارة أخرى لا يمكن أن نقتنع أن جميع اليهود، والذي يبلغ عدد الرجال فيهم الألف[٢] وكلهم كانوا داخل الحصن، كلهم قد وافقوا على فكرة الغدر بمحمد ﷺ ولم يخرج منهم ولو واحد رافض، أو معتوه، أو لا شأن له بالحل والعقد ولا يدري في ما يدور من نقض وإبرام.

خصوصاً مع خروج جماعة مستنكرة لموقف اليهود من الحصن قبل ليلة التنفيذ.

---

(١) الصحيح من السيرة ١١: ١٢.

(٢) على رواية العدد الأقصى.

فما ذنب هذا الواحد أن يتعرض للقتل ولم تكن له يدٌ في شيء، ولايستثنيه الحكم الصادر بالقتل، إنه واحد من أوجه وقوع الظلم، إلاّ إن نقول أن قتلهم بالأصل جائز، وبمجرد الاتفاق يكون ناجزاً على الجميع حتى الرافضين منهم للغدر، ما دام وجودهم معهم، ولا أعتقد أن إمكانية قبول هذا سهلة.

السبب الخامس:

إن العدد الموجود من اليهود وبهذا الحجم يعتبر كبيراً جداً، وإذا كان لديهم ألف رجل مسلح، وذراري قادرة على الدفاع ونساء متمكنة من إعانة المقاتلين فما المانع الذي صدّهم من الخروج للرسول ﷺ والحرب معه أقصد ضده ﷺ، وخصوصاً أن اليهود من حيث الموقع أقوى من المسلمين فهم محصنون، هذا من جهة، وأن نسائهم وصبيانهم معهم مما يعني أنهم يقومون بدور مهم في المواجهة [1].

وإنهم أهل راحة وعافية من البلاء سابقاً، وميرة كافية، ولم يفلّهم تعب ولم يصبهم برد ولا نَصَب، وكما يزعمون لا تعوزهم الهمّة والشجاعة فلِمَ لم يخرجوا إلى جيش لم يحط أوزار الحرب بعد، ولم يلمس نعمة الدفء ـ على فرض الشتاء ـ.

وهم كما يدعون أهل حرب دون غيرهم من العرب فما الذي أبطأهم عن حرب المسلمين ومواجهتهم وهم لا يزيدونهم في العدّة والعدد، وهذا وحده كافٍ أن يجعلنا نشك بأن يكون عددهم بهذا المقدار الضخم، لا وحتى نصفه أو ثلثه أو حتى ربعه.

إنهم كانوا أقلية أو يجب أن نفترض ذلك، حتى يكون الحدث

---

(١) وسنناقش ذلك بالتفصيل في المسألة الثالثة ص٢٤٢.

مقبولاً من الجهة العقلية، أو نفترض أنهم كانوا أجبن من عليها.

السبب السادس:

إن أمر قتل هذا العدد أمر مضن إذا قام فيه شخصان فقط، فهلاً رحم الرسول ﷺ علياً عليه السلام والزبير وجعل لهما من يساعدهما، وعلى فرض توزيع البعض من اليهود على البعض من ديار الأنصار وبالذات الأوس، لِيُقتلوا هناك فان مجموعهم ما كان يتجاوز عدد الأصابع.

وهذا لايقلل من نسبة العدد العام في شيء، ولماذا هذا الحكر في ثواب القتل فقط على يد عليٍّ عليه السلام والزبير؟ وهل كان المسلمون قاصرين، أو مستغنين عن تلك المثوبة؟ أو يحتمل خيانتهم، وعطب أيديهم ساعة الضرب والقتل.

أم إنها جريرة يراد إلحاق آثارها برسول الله ﷺ خاصة عن طريق لصقها بأهل بيته ـ علي عليه السلام أخيه [1] والزبير ابن عمته صفيّة ـ، فيكون بالنهاية هو المنفذ لهذه المجزرة الدموية ـ كما يسميها أهل الغرب ـ.

ولا أستبعد أبداً أن يكون الرسول ﷺ وأهل بيته هم المقصودين في هذه الدراما التي قد تبدو متقنة الفصول في بعض الجهات.

السبب السابع:

ويقولون في رواياتهم: إن السبايا الذين لا يقل عددهم عن السبعمائة والخمسين ذهبوا في بيت بنت الحارث، وهل بيت بنت الحارث هذا ملعب لكرة القدم من نوع الصالات الحديثة المغلقة، أم هو من قبيل بيوت المدينة

---

(١) خاصة أن بعض الروايات تحصر القتل لهم بعلي عليه السلام، وتأتي بالزبير معه على نحو القيل، وهذا كما هو معلوم تضعيف لمشاركته أي مشاركة الزبير علياً عليه السلام في القتل وإلاّ لما قالوا: قيل.

المتواضعة في المساحة، والكيف البنائي، والذي لا يستوعب إلاّ عدداً محدوداً.

ثم كيف يكون عدد السبايا والذراري سبعمائة وخمسون، والمفترض أن يكون أكثر أو أضعاف هذا الأكثر بالنظر والمقايسة إلى الرجال المقتولين، وحتى عدد الأسرى فكيف يكونون جميعاً في بيت زيد وهم مئات.

السبب الثامن:

إظهار الرسول محمد ﷺ وصحبه الأبرار وكأنهم أناس متوحشون، قتلة، مجرمون، لا يأبهون بالدماء، ولا يكترثون بالذرية والنساء، ويحاسبون من غير جرم، ولا يقبلون إلاّ بما تفرضه عليهم الأمزجة والنـزوات.

فقد قتلوا في يومٍ واحد على اختلاف الروايات من ثلاثمائة إلى ألف يهودي كان يقطن في حصن بني قريظة، وقد عرضوهم على السلاح بلا رحمة، أو رأفة تذكر، ولم يرضَ النبي ﷺ منهم بأي خيار سوى القتل والأسر والسلب والنهب، وقد عُرِّضَت هذه الجموع للقتل في منظر منه ﷺ ومسمع، وهذا يوحي إليك بأن هذا أشفى لنفسه ﷺ وأرضى لغيظه ﷺ.

والحال إنه ﷺ يُدعى رحمة للعالمين، وأي رحمة في قلع الرؤوس من الأبدان وعدم العفو عنهم، رغم مظهر الضعف والخزي والخذلان على الرؤوس والأرواح والأبدان ـ وسنناقش ذلك في المسألة الثانية.

السبب التاسع:

إنها تظهر اليهود، وهم أهل رجولة، وشمم، وعظمة، وتَمَسُّك بقيم ومبادئ لا يتنازلون عنها، ولو كلفهم الأمر أن يجلسوا للنطع والسيف والقتل صبراً، ويضحون بأملاكهم ونسائهم وذريتهم، ودنياهم العريضة وشرفهم الباذخ، في سبيل عقيدتهم.

وإنهم يقابلون الموت برجولة ينعدم مثيلها، وبإباء عن التنازل لا يرقى إليه أحد، وهم بَعْدُ أهل سماحةٍ وشجاعةٍ وأنفة وعز، وهذا ظاهر من

تدوين كلام بعضهم عن الحوار الدائر بين الرسول الأعظم ﷺ وبين أهم المحرضين والداخلين مع الأحزاب من رؤساء اليهود، ككعب بن أسد، وحُيَيّ بن أخطب، وعزّال وغيرهم، بل أنهم يرفضون الحيلة حتى مع إيهابها لهم.[1]

وإنهم كان يصبّر بعضهم بعضاً على الملحمة المكتوبة عليهم، والقدر النازل بهم، والكتاب الماضي فيهم، ويتلون التوراة كل ذلك في عشية الموت وحتى صباحها النازف، وإلى الشفق الدامي في غروب اليوم التالي.

السبب العاشر:

إنها تظهر رفض المسلمين، وخصوصاً الرسول ﷺ، بعروضهم السلمية الرحيمة، ويظهرون هم ـ أي اليهود ـ أهل سلم، ومسالمة، وإنسانية، ورعاية لقداسة العيش والحياة.

والإنسان المسالم المحبّ لغيره، والمحبّ لأن يكون غيره ذا حياة كريمة، هو أحق بالبقاء وقيادة الحياة، والاستئثار بمواقع الحكم؛ لأهمية الخصائص الإنسانية في مواقع القيادة ودسة الحكم، وفي شخصية من يتبؤه.

وإن المسالمة دون الدموية لأهم الخصال فيمن يريد أن يحكم، وبهذا يكون اليهود دون غيرهم لهم لياقة البقاء في الحياة، ولياقة تسنّم المواقع القيادية لها، وهذا هدف بعيد.

السبب الحادي عشر:

إن من بقي منهم، بقي محافظاً على دينه، ولم يتنازل للمسلمين طرفة عين، إلاّ في بعض الموارد وعن قناعة لا عن ضعف، وترهل، وخوف مستتر

---

(١) كما في الزبير بن باطا، انظر بحار الأنوار ٢٠: ٢٧٧، السنن الكبرى ٩: ٦٦، تفسير القرطبي ١٤: ١٤١، تاريخ الطبري ٢: ٢٥١، البداية والنهاية ٤: ١٤٣، سيرة ابن هشام ٣: ٧٢٣، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٢٤٠.

في النفوس. وهذا يعني انهم ليس بالافراد الماديين وهي محاولة يائسة لمنحهم مجداً مزيفاً.

السبب الثاني عشر:

وإنه ﷺ كان يكشف عن الولدان عوراتهم حتى يلحقوا بالقتل مع البلوغ الذي علامته الإنبات على ما يزعمون، أو بالسبايا إذا لم ينبت.

وبهذه الطريقة لم يسلم من الرسول ﷺ حتى الصغار ومن لم يحمل السلاح ولا علاقة له بجرم الخيانة، ولا يتعلق بذمته تخطيط، أو معاهدة، أو دور قتالي لطفولته، وصغر عقله، وقلّة احتماله، وإناطة القرارات المهمة بغيره إنما هو تابع.

ومن المعلوم قرآنياً ﴿ولا تَزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرَى﴾[1]، ولكن المسلمين خرقوا كل مبدأ إنساني، أو قاعدة أخلاقية، وحتى أحكام دينهم ليأتوا على الصبية والأحداث، ومن ليس لهم شأن بما كان، فيكون قتلهم لمجرد أنهم يهود.

وهذا يظهر حرب الرسول ﷺ للعقائد والأفكار المجاورة، وللقناعات الإنسانية، ولا أدل على هذا من قتل كل من أنبت، وكأنه المسؤول عن الخيانة، والعصيان، والتآمر، وفعل السوء، وغير هذا لمن يفتش في تاريخ الغزوة الكثير.

السبب الثالث عشر:

إظهار اليهود أمام التاريخ أنهم مظلومون، والعالم المتحضر يقف دائماً مع المظلوم، كما فعلوا في قلب الحقائق التاريخية في عصرنا هذا في القصة المزعومة في ألمانيا والتي فضحها الدكتور المحقق الفرنسي جارودي

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

مؤخراً في كتابه الشهير (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)[1].

كل ذلك في حسن سباكة، وتلطف في التعبير، وخيال واسع في حبك الفصول، مع تناقض كثير ظاهر واضح.

كل ذلك وغيره يجعلنا نذهب إلى كون الواقعة مكتوبة بيد غير مسلمة، وقلم غير مؤمن متدين، وإذا كان لابدّ من قبول كونها كتبت بيد مسلمة، فلا يمكن قبول كتابتها إلاّ بإرادة غير إسلامية ومعلوم أن العقود تابعة للقصود.

والمرجّح عندنا أنهم عرضوا على القتل، وأُخذوا بجريرتهم، ونالوا استحقاقاً كان لابدّ من نيله، كل هذا لا مناص عنه، إلاّ أمراً واحداً لا يمكن قبوله بحال، وهو أن يعرض الرسول الأعظم ﷺ هذا الكَم الهائل، والرقم الكبير جميعه لحرّ السيف وحتى الأطفال ومن لم يكن له أي دور في الجناية.

أجل قد عرض بعضهم من أكابر المتمردين، وقادة المؤامرة، ومُبرمجي الخيانة، وأصحاب التخطيط للفتك بالرسول ﷺ والمساعدة على دكّ المدينة وتحطيم خريطتها، وهؤلاء لا يصلح معهم إلاّ السيف، وهم كانوا أفراد وإلاّ فعشرات لا يمكن أن يزيد عددهم على ذلك.

وإنما نقبل هذا وفاقاً للنصّ القرآني، ووفاقاً لمنطق العقل، وروايات النقل، ونحن مع هذا جميعاً لا نرى في الأمر مؤاخذه إذا صدر من نبي يعمل وفق منطق ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[2]، ونراه سديداً لو كان ذاك حاصلاً فعلاً ولكن لا نرى إثباته سهلاً، إذ أن أدلته قاصرة، بل قد تكون مدسوسة على نحو ما كان ينقله تميم الداري، وكعب الأحبار، وغيرهما من مقنني السياسة، وكتّاب التاريخ القديم.

---

(١) طباعة : بيروت ـ لبنان / دار عطية للنشر.

(٢) الصافات: ١٠٢.

وأيضاً لا نريد أن ندفع هذا عن الرسول ﷺ إذا كان صادراً منه حقاً، لأنه لانرى في الرسول ﷺ وتصرفاته وأحكامه ضعفاً ـ نعوذ بالله ـ ولا خطئاً، ولا جوراً، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(١).

ولْيقل بعد ذلك أهل الغرب والشرق ما يقولون فما يقولون إلاّ إفكاً وزوراً.

إنما كل مرادنا أن نقرّب الصحيح إلى الذهن، والحق إلى الميزان، فإن وفقّنا وأصبنا فللّه المنّة، وإلاّ فالعصمة لأهلها، لا ندّعيها في شيء قط.

تحليل أبعاد الحدث

وإذا أردنا أن نعمق هذه الدراسة، ونستفيض في بيان حقائقها فإننا نؤكد هنا عدة مسائل:

المسألة الأولى:

من المعقول أن نتساءل بأي الملاكات قتل الرسول الأكرم ﷺ بني قريظة بالمقايسة إلى بقية اليهود، أو بقية أعدائه من المشركين، فهنا يمكن افتراض عدّة ملاكات تصلح لمناقشة الموضوع:

أولاً: إذا كان الملاك هو النقض (نقض العهد) فقد نقض من قبلهم يهود بني قينقاع، وأخرجهم الرسول الأكرم ﷺ، واكتفى بذلك الإخراج والجلاء، ولم يقتل منهم أحداً يذكر رغم أن خطورتهم تكاد تكون أشد من خطر بني قريظة لكونهم:

١. كانوا ـ أي بني قينقاع ـ في داخل المدينة وخطرهم بهذا القرب يكون

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

أقوى على رسول الله ﷺ ومدينته؛ لما هو معروف من تأثير الأقرب مكاناً من الأبعد في مقام العداء.

٢. لوجود اتفاقية بين يهود بني قينقاع وبين عبد الله بن أبيّ، وهذه الإتفاقية سارية المفعول، بل حصل ما يؤكد هذا التضامن بقوة، ووقف ابن أبيّ بجنبهم في آخر المطاف ذاباً مدافعاً.

٣. لوجود حلفاء ليهود بني قينقاع من الخزرج من أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره في المدينة، وقد ينــزع بعضهم إلى الرابطة القديمة، والعلائق السالفة، فيطالب لهم بمطالب رغبةً في إحياء الحلف.

والقوم جديدوا العهد بالإيمان، ولا يخلوا جمعهم من حمئة النفاق، وفيهم أنصار لابن أبيّ منهم قومه، ونشوب مثل هذه الحالات قد تؤدي إلى الفتنة التي يبتعد عنها الرسول ﷺ ويحذر وقوعها.

٤. لما ينقل ويقال من أنهم ـ أي يهود بني قينقاع ـ أشد اليهود وأشجعهم (ولقد كانوا أشجع يهود)[1]، فالتهيب والتحفظ منهم يكون أشد من غيرهم.

٥. إن يهود بني قينقاع لم يندموا على فعلهم، بينما بنو قريظة ندموا، وهذا مصرّح به من قبل الأوس، (وقد ندم حلفائنا على ما كان من نقضهم العهد فهبهم لنا)[2].

ثانياً: وإذا كان الملاك هو الخيانة والغدر بالإضافة إلى النقض لا فقط نقض العهد باعتبار أن بني قريظة خانوا وغدروا بالإضافة إلى نقضهم، فقد نقض وغدر وخان قبلهم قوم من بني عامر فقتلوا أصحاب رسول الله ﷺ في

---

(١) المغازي ١:١٧٨.

(٢) المغازي ٢:٥١٠.

بئر معونة، وغدر عَضَل والقَارة ـ وهما حيّان إلى خزيمة ـ بأصحاب رسول الله ﷺ حتى قُتِلوا بالرجيع.

وغدر وخان من قبل بني قريظة من اليهود يهود بني النضير، فلم يقتلهم الرسول ﷺ ولم يضعهم على المجازر وينحرهم بالسيوف، ولعل خيانة وغدر بني النضير كانت أشد من غدر وخيانة بني قريظة لأسباب منها:

١. إن بني النضير عَرّضوا حياة رسول الله ﷺ لخطر القتل والإبادة، وأن قتل الرسول ﷺ يعني نهاية كل شيء، فمسألة مناصرة جيش، أو زمرة ما لجيش ضد المسلمين، كما فعل يهود بني قريظة ـ وإن كان المسلمون في أشد حالات الخطورة ـ قد لا تأتي بثمارها كما حصل فعلاً في حرب الأحزاب، كما أنها أصبحت مكشوفة يمكن تدبر الحال بإزائها ولو نسبياً.

أما قتل الرسول الأكرم ﷺ فأمر لا يمكن تصوره إذا حصل فعلاً، ولعل قائلاً يقول في فعل بني قريظة إنه يؤول إلى قتل الرسول ﷺ فيما بعد، لأنّ نية الأحزاب في حرب الخندق ـ كما قلنا ـ هي الاستئصال ولا يتحقق مفهومه إلاّ بقتل النبي الأكرم ﷺ.

فنقول:

وإن آل الأمر إلى ذلك إلاّ أنه بات أمراً معلناً، وغدراً مكشوفاً، وخيانةً مفضوحةً، ومقابلة الجيوش ومواجهة الصفوف مسألة تعتمد على المقاومة، والمواجهة، والنضال، وشدة الاستبسال في القتال.

أما مع بني النضير فهو محض غدر وخيانة ودسيسة، وإخفاء لذلك الغدر تحت شعار الاستقبال وبرقع الاهتمام، فهو باعتقادنا أشد من محاولة بني قريظة على كل حال.

٢. إن بني النضير لهم مواقف سيئة مع رسول الله ﷺ لما كان من سلوك كعب بن الأشرف[1] وسلوكهم مع قريش الغادر الخفيّ أيضاً في غزوة السويق، بل حتى غزوة أو حرب الأحزاب كانت بتحريك من عقول نضيرية، بينما بنو قريظة لم يغدروا في غير هذا الموقف، بل أعلنوا كون الرسول ﷺ وفياً صادقاً.

وإنهم ساهموا في إعطاء الرسول ﷺ المعاول والمكاتل عند طلبه لها قبيل حفر الخندق في مواجهة الأحزاب، وكان صاحبهم كعب بن أسد دائم الرفض لفكرة الغدر بمحمد ﷺ[2] إلى أن أغراه شيطان اليهود حييّ بن

---

(١) كان كعب بن الأشرف اليهودي أحد بني النضير قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء، وقدم على قريش فاستعان بهم عليه.

فقال أبو سفيان بن حرب: أناشدك، أديننا أحبّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه، وأننا هدى في رأيك وأقرب إلى الحق، فإنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن، ونطعم ما هبت الشمال.

قال: أنتم أهدى منهم سبيلاً، ثم خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ معلناً بعداوته وهجائه.

فقال رسول الله ﷺ: من لنا من ابن الأشرف، قد استعلن بعداوتنا وهجائنا، وقد خرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا، وقد أخبرني الله بذلك. (تاريخ المدينة لابن شبة النميري ٢:٤٥٤ ـ ٤٥٥، وانظر عيون الأثر ١: ٣٩٢ ـ ٣٩٣).

(٢) (وأرسل ابن أُبيّ إلى كعب بن أسد يكلمه أن يُمدّ أصحابه، فقال: لا ينقض من بني قريظة رجلٌ واحدٌ العهد). (المغازي ١:٣٦٨، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٢٠).

وفي موضع آخر يوثق لنا الواقدي هذا الأمر على لسان سلام بن مشكم أحد زعماء يهود بني النضير، وهو يحدث حُيَيّ بن أخطب مؤنباً له في موقفه من عداء محمد

أخطب في ذلك بعد جهد وعناء.

فهم من حيث الخلفية التاريخية للأحداث على خلاف بني النضير ـ كما عرفت ـ.

٣. علماً أن بني النضير كانوا أخطر من سواهم من اليهود من جهة وجود شخصية متمحضة بعداوة رسول الله ﷺ عندهم، وذو موقع هام فيهم، نعم إنه يوجد عند جميع اليهود أشخاص معادون لكن لا نظير فيهم لحُييّ بن أخطب النضيري، بل نجد فيهم أشخاصاً يمكن أن يصالحوا ويسالموا، بل ويقبلوا حتى بفكرة اعتناق الدين الإسلامي كما صرّح بذلك سلام بن مشكم، وكعب بن أسد، وغيرهم، ولكن كان حُييّ بن أخطب عقبةً مانعةً قويةً، أمام الجميع، وبقي كذلك حتى النفس الأخير.

روى صاحب المغازي: (ثم أُتي بحييّ بن أخطب مجموعةً يداه إلى عُنُقه عليه حلّة شُقْحيّة [1] قد لبسها للقتل، ثم عمد إليها فشقّها أَنْمُلَةً لئلاّ يسلبه إيّاها أحد، وقد قال له رسول الله ﷺ حين طلع: «ألم يمكّن الله منك ياعدوّ الله؟»

قال: بلى والله، ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولقد التمستُ العزّ في مكانه، وأبى الله إلاّ أن يُمكّنك منّي، ولقد قلقلت كل مُقَلْقَل [2]، ولكنه

يقول: قد أراد أي ابن أبيّ بن سلول من كعب بن أسد النصر، فأبى كعب وقال: لا ينقض العهد رجلٌ من بني قريظة وأنا حيٌّ. (المغازي ١: ٣٦٩، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٢١، وانظر تاريخ الطبري ٢: ٢٢٥.).

(١) حلة شقحية: أي حمراء. (النهاية ٢: ٢٢٩).

(٢) أي ذهبت في كل وجهٍ في البلاد. (أساس البلاغة: ٧٨٨).

من يخذل الله يُخذل)[1].

وهو لم يكتفِ أن يقود قومه بني النضير لموقف خطير ومجازفة حادّة، وإنما كان هو السبب المحرّك لهلكة بني قريظة، وهذا يعني أن هذه الشخصية أثرت في رسم وتشكيل أحداث بالنسبة للمجتمع اليهودي من الناحية القيادية وبالتالي يجعل قومه ـ بني النضير ـ أخطر من سواهم، وضرورة القضاء عليهم أكثر من ضرورة القضاء على غيرهم؛ لوجوده فيهم.

وفوق هذا كله، نلاحظ أن الرسول المصطفى ﷺ اتخذ قرار تهجيرهم وطردهم وإجلائهم، وأمهلهم مدة عشرة أيام وأخذوا معهم ستمائة بعير محملة، وسمح لهم أن يستوفوا ديونهم من المسلمين.

وقبل ذلك فعل مع يهود بني قينقاع وأمهلهم ثلاثاً، ليسترجعوا أموالهم وقروضهم التي أعطوها الآخرين، بينما لم يمهل بني قريظة ساعة واحدة من نهار، كما يدعي النص التاريخي الذي نشك فيه.

ثالثاً: وإذا كان الملاك كثرة العدوان بالإضافة إلى النقض، والغدر، والخيانة، فلا أعتقد أن أحداً يختلف معنا في أن قريشاً كانت أكثر الناس عدواناً وتأليباً على رسول الله ﷺ، فقد قادت العساكر، وعذّبت الأصحاب، ووضعت الخطط، وأرهبت الحمى، وقتلت الأبطال من أنصار الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار.

ولم تطرف لها عين، ولم يهدأ لها بال عن مهمة إيذاء واستفزاز ومتابعة الرسول ﷺ ومحاولة الوقيعة به، وآخرها غدرها بالرسول ﷺ في نقضها لصلح الحديبية وقتلها لرجال من بني خزاعة، ومن قبل غدرت به كثيراً

---

(١) المغازي ٢: ٥١٣ ـ ٥١٤، سبل الهدى والرشاد ٥: ١٢، وانظر الفايق في غريب الحديث ٢: ٢١٢.

لتقتله ﷺ وأصحابه فلم تفلح.

ولا نضيف شيئاً جديداً إذا قلنا إن الذي فعلته قريش لم يفعله أحد مع الرسول الأكرم ﷺ، بل يمكننا الادعاء أنه لولا مواقف قريش العدوانية الشيطانية لما جَرُأ أحدٌ على رسول الله ﷺ، وما كانت خيانات اليهود، ولا نقضهم للعهود، ولا غدرهم برسول الله ﷺ لتنبت إلاّ في مناخات عفنة ملوثة كانت قريش السبب الرئيسي في تهيئتها بل إيجادها.

وإن كان هذا الكلام لا يدفع عن اليهود طباعهم النفسية الراسخة في الغدر، والحيلة، والنقض، والعدوان، وإرادة الشرّ برسول الله ﷺ بل يثبتها، لما عرفناه من سلوكياتهم المريضة الغادرة.

لكن رغم كل ما ذكرناه بخصوص قريش ومما لم نذكره... ما نعرفه ومما لم نعرفه، جاءهم الرسول ﷺ فاتحاً صافحاً مصافحاً لم يعذب أحداً منهم، ولم يقتل أحداً منهم، وحتى الذين قتلهم خالد بن الوليد اعتذر عن قتلهم عند رسول الله ﷺ؛ بكونهم بدءوه بالقتال فرد عليهم.

وإلاّ فالرسول ﷺ غمد سيفه رغم تاريخهم الأسود وبكل أدوار الدعوة الإسلامية، وأعلن العفو العام عنهم، ولم يعاقب أحداً فيهم رغم إن في مكة من الشخصيات التي تمثل القمة في الخبث، والتآمر، وقيادة الخطوط السلبية المعادية لرسول الله ﷺ وإلى آخر عمرها حتى مع دخولها الإسلام.

ورغم أن قريش بقيت مواجهةً للرسول المصطفى ﷺ بالسيف وإلى آخر لحظة من لحظات شركها، فلماذا لم يعاقبهم الرسول الأكرم ﷺ على العدوان الذي بدءوه معه ﷺ في أول لحظات الإعلان عن الدعوة الإلهية ودعوتهم إليها، وإلى آخر لحظة من شركهم كما قلنا آنفاً؟.

لماذا لم يعاقبهم على تآمرهم الذي بدء بأول لحظة من لحظات الدعوة إلى آخر ساعة من يوم الفتح؟ علماً أن قريش ذهبت إلى قبائل وعشائر،

ومدن بعيدة وقريبة، لِتُنهي فاعلية الرسول الأعظم ﷺ.

ومراجعة سريعة لتآمر قريش على رسول الله ﷺ في ليلة الهجرة من أجل قتله واغتياله تكفينا مثالاً على ذلك الجهد، خصوصاً إذا عرفنا أن أربعين قبيلة اشتركت في تنفيذ أو محاولة تنفيذ تلك المؤامرة الفاشلة.

فقريش ذهبت إلى من تعرف، وإلى من لم تعرف حتى وصل تأثيرها إلى ملك الحبشة، وملك الروم، وإلى كل بقعة تمكنت من الوصول إليها، واستخدمت كل الوسائل لدفع الرسول ﷺ عن دعوته، وإرباك عمله، وخنق أنفاس أنصاره ﷺ.

واستفادت من كل الأقليات، والقوميات، والديانات من اليهود بكافة قواهم ومحاورهم... بني النضير... بني قينقاع... بني قريظة... يهود خيبر، في خارج المدينة وفي داخلها، استفادت من العرب، والروم، والأقباط، وغيرهم... وأخيراً عفا عنهم الرسول ﷺ!!.

لماذا لم يعاقبهم على غدرهم بحلفائه من بني خزاعة؟ ولِمَ لَم يحفر لهم خندقاً يضع على شفيره رؤوس الألوف منهم، ليفصلها بحد السيف عن أجساد الأعداء المشركين؟ وله ﷺ في ذلك عذرٌ واضح ومسلك راجح.

لماذا لم يفعل معهم ذلك كما فعل مع بني قريظة الذين هم في المقياس العام لم يفعلوا معشار ما فعله المشركون من أهل مكة، وغيرها.

لقد كان في مكة مجرموا حرب لا يقلون جرماً وأهميةً عن حُيَيِّ بن أخطب، وعن سلام بن مشكم، وعن كعب بن أسد القرظي، وغيرهم من اليهود.

مثل أبي سفيان، الذي عفا عنه رسول الله ﷺ.

وصفوان بن أميّة، الذي عفا عنه رسول الله ﷺ.

وعكرمة بن أبي جهل، الذي عفا عنه رسول الله ﷺ.

وسهيل بن عمرو، الذي عفا عنه رسول الله ﷺ.

ووحشيّ، الذي عفا عنه رسول الله ﷺ.

وهند، التي عفا عنها رسول الله ﷺ.

وشخصيات أخرى كثيرة، والتي كان لها الدور القيادي الأول في جمع القبائل، وجمع اليهود، وغيرهم على عداء رسول الله ﷺ، وكان لهم دور قيادي بارز في بدر، والسويق، وأحُد، والخندق، وكل الجبهات القتالية في المعارك الأخرى.

إنه ﷺ عفا عنهم مع علمه أنهم قتلة لأمثال، ياسر (والد عمار)، وسميّة، وحمزة، ومصعب، وعبد الله بن حرام ﷺ ومجموعة القراء، والشخصيات التي فقدها الرسول ﷺ في تلك الحروب الطاحنة.

بل مع علمه ﷺ أن مستقبلهم لا يقل سوءاً ـ من جهة الخطورة، وافتراس تاريخ الأمة، ورسم أحداث بفعل جرائم ومساوئ ستصدر منهم لاحقاً لها أكبر الضرر على كيان الأمة ـ من ماضيهم، ولو أردنا شرح تاريخ كل شخصية لطال بنا المقام وخرجنا عن المرام.

بل عفا ﷺ عن هند التي تآمرت مع وحشي لقتل حمزة سيد الشهداء ولاكت في ما بعد كبده، ووضعت أجزاءاً من جسمه الزاكي خلاخلَ لها بعد التمثيل به سلام الله عليه.

لم يفعل بهم شيئاً حتى ولو أدنى عقوبة بل رحمهم، ورحم حالهم، وأعطاهم من نفسه الكثير وقال ﷺ لهم: **«إذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

إنه محمد ﷺ ترْجمان الرحمة، ومُجَسمة الكَمال، ورَتاج أبواب الهدى والعفو الإلهي.

والفرق بين مشركي قريش وبين يهود بني قريظة كبير منه:

١. إنهم ـ أي مشركوا قريش ـ بدءوا الرسول ﷺ بالعدوان، وختموا به في تاريخ طويل وسجل ليس له مثيل.

٢. إنهم المنشأ الرئيسي والسبب الأول في إثارة الفتنة، والتآمر على رسول الله ﷺ ـ كما ألمحنا إليه سابقاً ـ مما يجعل سلوك اليهود سوءةً من سوءات قريش، وقبحاً، مترتباً عليه، ومتفرعاً منه.

٣. إنهم أهله وعشيرته وعاقلته ﷺ له عليهم حق النصرة، بخلاف الغرباء الأباعد، والحال ليس فقط أنهم لم ينصروه، وإنما فعلوا معه ما فعلوا.

٤. إنهم فعلاً قتلوا من المسلمين وأراقوا الدماء الغالية في كثير من مواقع العمل الجهادي، واللقاءات الحربية، بينما بنو قريظة وإن ساعدوا على العدوان، وساهموا بإشاعة التخريب في أدوار حساسة وخطرة جداً من حياة الدعوة الدينية الإلهية المحمدية، إلاّ إنهم لم يقتلوا أحداً.

نعم، كانوا سبباً في إدامة عدوان الأحزاب على رسول الله ﷺ إلاّ إنه لم يُقتل في الأحزاب من جيش رسول الله ﷺ إلاّ ستة نفر، وإنهم قتلوا خلاد بن سويد حيث دلّت عليه نُباتة رحىً فشدخت رأسه فمات، ومن ثم قُتلت به، وكان ذلك في غزوة الرسول ﷺ لهم، إلاّ إن هذا كله لا يصل إلى ما أراقته قريش وغيرها من دماء المسلمين.

رابعاً: وإذا كان الملاك لمجرد كونهم يهوداً، فإن هناك من اليهود من سبقهم إلى نفس الفعلة ـ كما عرفنا ـ وهم بنو قينقاع وبنو النضير، ولكن لم يُجر عليهم رسول الله ﷺ حد المرهف البتار، بل سمح لضعون بني النضير أن تمر في المدينة، ونسائهم تضرب الدفوف، وبكامل زينتها وحليّها، وسمح لهم أن يأخذوا ما يتمكنون من حمله على الإبل، وسمح في توديعهم حيث ودعهم المنافقون من أهل المدينة دون أن يُمَسّ أحدهم بأذىً يذكر.

ثم ليس في قاموس الرسول ﷺ محاربة الأديان وإهلاك أهلها، وأدلّة المقام كثيرة جداً خصوصاً مع اليهود، حيث اكتفى ﷺ منهم بدفع الضريبة المالية (الجزية) وهي حق الدولة الطبيعي في مقابل الكثير من الأعمال التي تقوم بها في حفظ كياناتهم دون أن يساهموا في ذلك الحفظ.

خامساً: وإذا كان الملاك وجود من دافع عن اليهود مثلاً في بعض الحالات، ودفع بذلك عنهم شبح الموت، وشفرة الذبح، كما حصل في مطالبة عبد الله بن أُبيّ بن سلول الرسول ﷺ في عدم معاقبة حلفائه من يهود بني قينقاع، ونال بتلك المطالبة ـ على فرض صحة الرواية ـ العفو النبوي عنهم.

فقد حصل هذا مع يهود بني قريظة فقد طالبَ بهم حلفائهم من الأوس وألحوا كثيراً على رسول الله ﷺ حتى جعل الحكم بيد سعد بن معاذ؛ فضاً للفتنة، وتحاشياً للخلاف.

ويمكن أن نلتفت هنا إلى أمور:

١. إن الـمُطالِب في العفو عن يهود بني قينقاع هو نفرٌ واحد منافق اسمه عبد الله بن أُبيّ، بينما المطالبون هنا كثيرون.

٢. المطالب هناك مُتَحَدٍ لرسول الله ﷺ، والمطالبون هنا راجون من رسول الله ﷺ، ملتمسون منه.

٣. المطالب هناك لم يسبق بحادثة تبين له إمكانية قبول رسول الله ﷺ كل ذلك، وهنا المطالبون لديهم ورقة مسبقة تؤكد أن الرسول ﷺ عفا عن يهود بني قينقاع، فإمكانية عفوه عن بني قريظة هنا محتملة.

٤. إن المطالب في قضية يهود بني قينقاع لم يهدأ، ولم يستقر حتى آخر الأمر، فهو غير مُسَلِّم لحكم الله ﷻ ورسوله ﷺ، والمطالبون هنا مُسَلِّمون ـ ولو ظاهراً ـ لحكم رسول الله ﷺ، فيكون العفو عن يهود

بني قريظة أرجح بالنظر إلى وجود هذه اللحاظات.

فلماذا لم يعفُ عنهم رسول الله ﷺ مع وحدة الملاك، بل ورجاحته في ميزان بني قريظة؟.

سادساً: وإذا كان الملاك حجم الجريمة، فقد كان مَن هو أكبر منهم حجماً في جريمته كما تَوَضَّحَ ذلك من البحث بمجموعه المكوّر.

وبهذا تسقط الملاكات التالية:

١. نقض العهد؛ لنقض غيرهم العهود.

٢. الخيانة والغدر؛ لكون غيرهم قد غدر وخان.

٣. العدوان؛ لعدوان غيرهم على الرسول ﷺ وبشكل أبشع.

٤. اليهودية؛ لكون غيرهم يهود أيضاً.

٥. وجود المدافع؛ لوجود من دافع عنهم، أو طالب لهم.

٦. حجم الجريمة؛ لكبر حجم جرائم الآخرين.

فما الذي يجعل الرسول الأكرم ﷺ يقتل من يجري عليه الموسى منهم، بعد سقوط هذه الملاكات جميعاً؟

نعم يقتل ﷺ من تجرأ على رسول الله ﷺ، فحزّب الأحزاب عليه وأعانها، وكان مجرم حرب وبنفس هذه الملاكات، فهذا ممكن ولعله مطلوب فضلاً عن كونه مشروعاً.

فقد قتل الرسول الأعظم ﷺ كعب بن الأشرف، وقتل بعض اليهود من بني النضير[1] وغيرهم من اليهود وأباح دم أنفار من المشركين: (ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وعبد الله

---

(١) المغازي ٢: ٨٢٥.

بن سعد بن أبي سَرح، ومِقيَس بن صُبابة الليثي، والحويرث بن نُقَيذ، وعبد الله بن هلال بن خَطَل الأدْرَمي، وهند بنت عتبة بن ربيعة، وسارة مولاة عمرو بن هشام، وقينتين لأبي خَطَل: قرَينا وقُريبة، ويُقال: فرتَنا وارنَبة)[1].

وكانت نية قتلهم بنفس هذه الملاكات أو بعض منها، وهذا إذا أمكن تصوره فإنه يمكن على بعض الأفراد من يهود بني قريظة دون الجميع[2].

اللّهم إلاّ أن يكون هذا ـ أي القتل ـ ثابت بحق الجميع وبسبب تلك الملاكات أو بعضها فيكون استحقاقهم الطبيعي، وإنما كان الأمر لرسول الله ﷺ إن شاء عفا وإن شاء عاقب، فعاقب حيناً وعفا أحياناً.

وهذا وإن كان احتمال صحته وارداً، إلاّ أنه يُرَد عن طريق ما أقمناه من مرجحات استدلالية توجب أن يكون العقاب في الآخرين دون بني قريظة من اليهود، أو فيهم جميعاً.

فهل ترى أنه ﷺ يَستحسن العفو مع أكثر الناس ظلماً، وغدراً، وخيانةً، وجرماً دون أقلهم ممارسة لتلك المفردات، وإن صدق عليهم الظلم، والعدوان، والغدر، والخيانة ونقض العهود؟.

---

(١) المغازي ٢:٨٢٥، وعنه في شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٥، الطبقات الكبرى ٢: ١٣٥، وهو في فتح الباري ٨: ٩، وعيون الأثر ٢: ١٩٤، بدون هند بنت عتبة بن ربيعة

(٢) لأنه لا يمكن أن نفترض أن المؤلّبين على الحرب والساعين لإدامة القتال مع رسول الله ﷺ في مجتمع تعدادهم سبعمائة وخمسون رجلاً أو أكثر، فهذا فرض بعيد للغاية جداً حيث رؤوس القوم ومقرروا قراراتهم عادةً القلة وهم المؤلبون لا غيرهم بمقياس كونهم أصحاب القرار، أما إذا كان الكل قادة فلا أدري من يقودون؟!.

ثم إذا كنت لا ترى ذلك حسناً، فهل تعتقد أن الرسول ﷺ يقدم على غير الحسن (القبيح) ويترك الحسن؟ وهو الذي ما بدهه أمران إلاّ نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه، ثم ألا يقبح معاقبة الأقل ظلماً دون الأكثر منه في ذلك؟.

المسألة الثانية:

ثم إن الحقيقة المعلنة والتصور الواقعي السائد عن رسول الله ﷺ هو كونه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] واليهود داخلون في هذا (العالمين)، من جهة.

ومن جهة أخرى، أنه ﷺ ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2] وأن الرحمة، والشفقة، والتسامح، والإحسان واحد من مظاهر (الخلق العظيم) ومن امتيازات عظماء الأخلاق.

فكيف نستطيع أن نغيّب عن رسول الله ﷺ مفهومي ﴿رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ و ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾؟ لنقول إنه ﷺ أقدم على قتل مجتمع معدل عدد الرجال فيه سبعمائة وخمسون نفراً، ليقضي عليهم صبراً في ساعة واحدة، مما ينافي ذينك المفهومين.

ومن تاريخه ﷺ أنه اعتدى عليه أناس فسامحهم، وأنه ﷺ كان لا يرعب أحداً، ولا يحب التهيب منه ﷺ، كما قال لرجل ركع له ﷺ بين يديه متأثراً بهيبته ناهياً له:

«هون عليك! فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) القلم: ٤.

القديد»[1].

فكيف يرضى ﷺ أن يرعب هؤلاء ويعرضهم لمآسي القتل وفضاعة الانتقام؟ وبعضهم يرى بعضهم الآخر، ومسيل الدماء بين أرجلهم المرتجفة من خوف القتل.

إلتفاتات مهمة!!

الالتفاتة الأولى:

أرجو أن لا يعترض أحد، بأن الله ﷻ مع كونه مطلق الرحمة إلاّ أنه يعذب المجرمين فلا يعترض على ذاك ولا يقال إنه مطلق الرحمة، فكيف يعذب وينتقم؟ سيما أن الرسول ﷺ كما أنه مظهر لرحمة الله ﷻ، كذلك هو مظهرٌ لعذابه.

إذ إنه صحيح أن الله أرحم الراحمين وهو مع ذلك يعذب المجرمين بجهنم التي ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[2].

إلاّ أنه ﷻ (أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين

---

(١) كنز العمال ٦:٨٨، البداية والنهاية ٤:٣٣٥، الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض:١٣٣، السيرة النبوية لابن كثير ٣:٥٥٦، سبل الهدى والرشاد ٧:٤٠، وذكرها الشيخ باقر شريف القرشي في كتاب حياة الإمام الحسين عليه السلام ١:٢٩٠، العهود المحمدية للشعراني:٥٤٠، المعجم الأوسط للطبراني ٢:٦٤، جزء الحميري:٣٧، وذكرها الشيخ الري شهري في ميزان الحكمة ٤:٣٢٢٦، ونسبها إلى سنن ابن ماجة.

(٢) الملك: ٧ ـ ٨.

في موضع النكال والنقمة)[1].

وقد مرّ بنا من خلال جميع الاستدلالات الماضية، إن الموضع بما هو هو موضع نكال ونقمة، ولكن بالقياس لغيره لم يكن كذلك ـ لقصد لا يستحق هذا القدر من النكال والنقمة ـ من قبل رسول الله ﷺ حيث بان أن غيرهم أسوء منهم، وفعلهم أقبح من فعلهم، ولم ينتقم الرسول المصطفى ﷺ.

الالتفاتة الثانية:

أرجو أن لا يعترض أحد في أن الله ﷻ يعذب العصاة يوم القيامة، وهذا العذاب يمثل مظهراً من مظاهر رحمته ﷻ من قبيل أنه يريد أن يطهرهم من دنس المعصية لكي يكونوا مؤهلين لدخول الجنة التي لا تصلح إلاّ للطاهرين الأنقياء، ومن هذا المنطلق يعذب الرسول ﷺ هؤلاء ويهلكهم حتى ينالوا الرحمة في الآخرة؛ لأنه:

١. لا أدري مقدار ثبوت كون العذاب فعلاً مظهراً للرحمة، وإذا كان كذلك فما هو مظهر النقمة الإلهية، فكما أن الله رحمان رحيم كذلك هو منتقم جبّار.

وإذا افترضنا أن الرحمة كامنة في العقوبة في بعض أوجهها فهذا يعني اللغوية من تسمية الله ﷻ بالمنتقم، وبالرحمن، وكلّ على حِدة، حيث إن الرحمة داخلة في النقمة في بعض الحالات ولا يمكن الفصل بينهما بحال، والظاهر أن الاستقلالية في النقمة عن الرحمة وفق هذا التفسير للنقمة والرحمة وفرض الفصل بينهما، فرضٌ لا يخلو من خلط وتشويش.

---

(١) مقطع من دعاء الإفتتاح المروي عن الإمام صاحب الأمر والزمان الحجة بن الحسن (عج)، أنظر في مصباح المتهجد.

٢. إن أحكام الآخرة تختلف عن أحكام الدنيا، فليس بالضرورة أن تتطابق الأحكام في الدارين، إنما لكلٍ حاله وقانونه وطريقة التعامل فيه، وإن استند إحداهما على الآخر في جهة من الجهات.

الالتفاتة الثالثة:

وإن كان الإعتراض أنه يعذبهم في الدنيا ليرحمهم في الآخرة، لا أن يعذبهم في الآخرة حتى يرحمهم فيها، فجوابه:

١. مَن القائل إن ملاك التعذيب في الدنيا هو الرحمة في الآخرة؟.

فلعله:

أ: يكون الاستحقاق الطبيعي للإنسان المذنب أن يعذبه الله ﷻ في الدنيا ويبتليه فيها جزاءاً وفاقاً لذنبه، فبعض الذنوب يؤاخذ عليها الإنسان في الدنيا والآخرة معاً، وهناك آيات تدل على ذلك منها:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي

---

(١) البقرة: ١١٤.

الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

---

(١) المائدة: ٤١.

(٢) التوبة: ٧٤.

(٣) يونس: ٧٠.

(٤) الحج: ٩.

(٥) النور: ١٩.

(٦) النور: ٢٣.

وأعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾[1].

كما أن هناك آيات تدل على أن الإنسان يثاب على عمله في الدنيا والآخرة...

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ولأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والْكِتَابَ وآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

ب: ولعل الملاك إرادة الله ﷻ في تقويض الشر، وتهديم أركانه، وإيقاف أهله عن الاستمرار في ممارسته.

جـ: ولعل الملاك هو إرادة في هداية الإنسان إلى التوبة والاستقامة، أو يعض به غيره فتسعد الدنيا، وتزهر الحياة بالصلاح والهدى.

---

(١) الأحزاب: ٥٧.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) النحل: ٤١.

(٤) النحل: ١٢٢.

(٥) العنكبوت: ٢٧.

د: كما ويحتمل أن يكون الملاك هو الرحمة في الآخرة، أو غير ذلك من الملاكات المحتملة، فبأي لحاظ نقدم إحدى الملاكات على الأخرى.

١ـ وإن تأبى ذلك وترده ولا تقبل به، فليكن الجواب:

إن هذا الأمر ـ على فرض المفروغية من صحته ـ مختص بأهل ملّة الإيمان الذي أراد الله ﷻ لهم الجنان، بل خلقها لهم دون غيرهم من العباد.

فهو ﷻ يبتليهم في الدنيا ليكون قد أفرغ ذمتهم من تبعات الآخرة وعقاباتها على تلك المآثم التي عملوها في الدنيا، فيذهبون طاهرين من الملوثات، خالصين من الشوائب، فيستحقون بذلك الجنة.

وهذا يمكن قبوله وبهذا الشرط.

أما اليهود الذين حرّفوا كتابهم السماوي وعاندوا وجحدوا واستكبروا، وعلموا الحق ورفضوه، فهم أهل كفر ونفاق، وهم محكومون بالنار بحكم القرآن الكريم، فبأي وجه تكون طهارتهم، ثم استحقاقهم الجنة وقد خصّها الله ﷻ لمن آمن بنبيه ممن أدركه في زمنه ﷺ، وإن كانت مأوى للمؤمنين بأنبيائهم ورسلهم المبعوثين من الله، ووفق شروط كانوا ملزمين في العمل بها في تلك الأزمان وقبل بعثة نبينا الأكرم محمد ﷺ.

الالتفاتة الرابعة:

أرجو أن لا يعترض أحد بأنه ﷺ لم يعاقب قريش لأنهم أهله وقرابته، ومسقط رأسه وموضع رجله، إذ يرده:

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[1].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[2].

---

(١) الانعام: ١٥٢.

(٢) النساء: ٥٨.

وغيرها من الآيات الكثيرة.

كما أنه يلزم منه (القبح العقلي) حيث إن الإنسان في حال كونه يعاقب فرداً لجريمة، ويعفو عن آخر ارتكب نفس الجريمة لرحمه وقرابته، يلزم منه وقوع الظلم وإشاعة الفساد والاغراء بالباطل، كما يلزم منه تعطيل حدود الله ﷻ، وهذا مع حرمته شرعاً فهو مستقبح عقلاً، وما أرفع الرسول ﷺ عن ذلك وأجلّه.

فيكون هذا الاعتراض مردوداً قرآناً ونقلاً وعقلاً.

الالتفاتة الخامسة:

وإن قيل إن الأمر ليس لهذه الملاكات المذكورة، بل لمحض إرادة الله ﷻ فيهم، فهذا أمرٌ ليس لنا طاقةٌ في إثباته بالأدلة العلمية المتيسرة، أما إذا خرجت الأمور من الميسور إلى المعسور فلابدّ من الاعتراف بالعجز حينئذٍ.

وإن كنّا غير مقتنعين بهذا المنحى من الاستدلال وهو أن نُرجِعَ الأمور إلى الغيب مع علمنا أن الأشياء في دائرة النقاش تخضع للاستدلالات العلمية المبرهنة.

اللّهم إلاّ أن تقول: الإرجاع للغيب هو بحد ذاته استدلالٌ علميٌّ!!.

ومن هذه المنطلقات جميعاً لا نرى بوضوح ما يسوّغ قبول فكرة قتل بني قريظة وبتلك الصورة المنقولة في كتب التاريخ.

ومن نفس هذه المنطلقات أيضاً يتعزز في نفسنا الشك، ويتجذر بقوة في صحة ما يُروى وينقل في صفحات التاريخ من إقدام الرسول ﷺ على هذه المقتلة في غزوة بني قريظة، بل ولنفس المنطلقات ندعو إلى تقييم الواقعة تاريخياً تقييماً واقعياً موضوعياً تحقيقياً دقيقاً؛ كي تكون الصورة الروائية المعبرة عن وقائع جهاد رسول الله ﷺ صادقة أمينة متجانسة مع روحه ﷺ

وفكره ورسالته وأخلاقه وسيرته المثلى، أو مع الحقيقة على الأقل.

هذا مع القول إن الشك الذي أثرناه بقوة في هذه الحادثة، ليؤهلنا إلى مرتبة عالية من الظن المتاخم للعلم واليقين بأن مذهبنا في تفسير الرواية، والتماس حقائق الواقعة هو الصحيح، والله العالم.

المسألة الثالثة:

ووالله لا أدري لماذا رضي بنو قريظة بهذا الاستسلام الذليل المخجل، والموت تحت بارقة السيف صبراً، دون حركة وامتناعٍ ودفعٍ للموت الذليل، ولو بسيف عاثر، ورمحٍ خائر.

ولا أدري كيف يجيبون التاريخ عن مسألة منطقية في عالم المواجهة مع الأعداء؟ وهي أن اليهود في تلك الساعة أمام احتمالين لا ثالث لهما:

إما قبول حكم رسول الله ﷺ، أو قُلْ حكم سعد بن معاذ ﷺ، وإما عدم القبول.

وفي حال القبول، فقد عرفت ـ مما يقولون وينقلون ـ أنه القتل للمقاتلة، وسبي النساء والذريّة، والقبول بهذا يعني بالطبع منتهى العجز والفشل والجبُن والخزي المقيت المر.

فسوف تُقطع رقابهم بسيفٍ باردٍ سليط، ويُتَمَتَّع بنسائهم من بعدهم، ويُتَلَذَّذ بها، وتُستخدم ذراريهم، أو تُباع وتُشترى كسبايا، وهم سيجرون إلى الموت مذعنين، مع علمهم أن الذي بعدهم سيموت بنفس الطريقة، وأن النساء والذريّة تنتظر ما تنتظر وفق المعلوم من الحكم.

وفي حال الرفض فإنهم سيواجهون حرباً وقتالاً أسوء ما تصل فيه الأمور أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وهي نفس النتيجة السابقة في الاحتمال الأول ـ مع افتراض أسوء الأحوال ـ إلاّ أنّ فيها فروقاً محتملة يمكن

معها تغيير هذه النتيجة، ولصالح اليهود.

والفروق المحتملة هي:

١. إن هذا الضراب وإن كانت لا تحتمله اليهود ـ على الفرض ـ إلاّ أنه أنجع للقلب وأشفى للنفس، فهم لم يستسلموا للموت، إلاّ بعد أن أعجزهم القدر وخانتهم أو استنفذت القدرة، والموت مع الإعذار هو ليس كالموت بدونه.

٢. لعلهم في هذه المقابلة قادرون على قتل عدد كبير من أعدائهم المسلمين مقتلة مهمة يكون معها الخطب أخفّ على اليهود، وربما تترشح الأمور إلى درجة دحر المسلمين، فليس هناك قِلّة فاحشة في عدد اليهود على فرض القِلّة، وليس هناك كثرة عظيمة في عدد المسلمين على فرض الكثرة وكم من قلة غلبت كثرة.

٣. خصوصاً أن اليهود من حيث الموقع أقوى من المسلمين فهم داخل حصون محصنة تساعدهم على التحصن واختيار طريقة القتال، واستشراف القوم بالسهام والنبال، وأن نسائهم معهم والمسلمون لا نساء معهم، وأن اليهود صبيانهم معهم والمسلمون لا صبيان معهم، مما يعني أنهم يقومون بدور مهم في المواجهة، كما قامت به نباتة في قتل خلاد بن سويد، كمثال لأهمية دور النساء في ذلك.

٤. ولعله يصل الأمر إلى المصالحة والقبول بحلول أخرى يمكن أن يكون للرأي اليهودي فيها مجالٌ.

٥. وهذا يجعل تاريخهم المستقبلي أمام من يتبقى منهم، وأمام اليهود، بل والعالم أجمع، تاريخاً نظيفاً مشرّفاً على صعيد المواجهة والتحدي، وإثبات الموقف الرجولي الشجاع، والمنازلة الجسورة.

٦. كما أنّ ذلك يعطي نسمة أمل لهذه الذرية المنكوبة، والنساء الجازعات؛

لاحتمال دفع البلاء، وإنقاذ النفس، والخلاص من ذل الأسر، وغل السبي.

٧. كما أن المواجهة الحربية مع المسلمين تدفع عنهم ريح الشماتة، وغبار التشفي؛ إذ أن الذي يُقتل تحت ظلال الرماح والسيوف لا يلام بعد أن بذل المجهود، واستفرغ الطاقة، وحتى مع افتراض وجود الشماتة فهي ليست كالتي تكون في نتائج الخيار الأول، وهو الرضا بموت الذلة دون موت السِلة.

٨. أمّا رقّوا لحال الذرية والنسوة التي ستسبى، فيثاروا لها ما دام فيهم رمقٌ قبل أن تفتقد الثائر لحقها، والحامي الكفيل لها؟ أمّا ثارت فيهم الغيرة لهنّ، وهزتهم سحنة الرجال على الاستخفاف بملاقة الأبطال؟ وهنّ أعراضهم، ولا زلنَ يندبن بوجههم ويستغِثْن بهم.

٩. لا أدري كيف قبل اليهود الموت مطأطئي الرأس، منحني الهامة دون الموت مرفوعي الرأس، منتصبي القامة، خاصةً أنهم يدّعون أهل كتابٍ بليغ ودين، والدين يرفض الذلة، ويدّعون أنهم أهل بأسٍ وشجاعة، إذن أين هما؟

ويدّعون أنها قدرٌ وملحمةٌ، إذن لماذا لم يجعلوها ملحمة حمراء صاخبةً، تُنتزَع فيها النفس انتزاعاً بعد اعتراكٍ واشتجار، لا ملحمة خرقاء تُستَل فيها النفس استلالاً بعد إسارٍ وقياد.

١٠. ثم لماذا استسلموا سريعاً؟ وكان عندهم ما يقيتهم في أيام الحصار، وما كان لهم أن ينتظروا النزول إلى نفاذ الغذاء والماء؛ ليكون هناك مجالٌ لعذرهم في القدوم على خندق الموت، ولو كان ذلك القبول لذلك العذر يمثل احتمالاً ضعيفاً جداً، لكنه أفضل من العدم.

وبعد هذا كله بماذا يجيبون التاريخ في سبب قبولهم بحكم الرسول ﷺ،

والحال أنّ الاحتمال الثاني ـ عدم القبول ـ كان في صالحهم.

المسألة الرابعة:

ونحن نتسائل من جديد:

أ: أليس فيهم رجل شجاع واحد، واحد فقط انتفض على قرار الاستسلام وفضّل المواجهة العنيدة ولو بمفرده؟.

ب: أليس فيهم رجل ذكي استقرأ الموقف وعرف النتيجة اللاهبة الدامية، وهتف بهم كما هتف (جحدل) بقومه من قبل في مواجهة خالد لهم في يوم بني جذيمة؟.

مع الاحتفاظ بالفارق الكبير الذي يحتّم على اليهود أن يصلوا إلى هذه النتيجة بأسرع من وصول جحدل إليها[1].

جـ: أم كانت أسلحتهم قليلة؟ وقد جاء في التاريخ أن حصنهم ممتلئ بالسلاح والغذاء والعدد الحياتية الأخرى: (وجد فيها ألف وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفا رمح، وألف وخمسمائة تُرْس وحَجَفَة[2]. وأخرجوا أثاثاً كثيراً، وآنيةً كثيرة، ووجدوا خمراً وجِرار سَكَر، فهريق ذلك كله ولم يُخمّس، ووجدوا من الجمال النواضح عدّة، ومن الماشية، فجُمع هذا كله)[3].

---

(١) راجع موضوع عبقرية خالد بن الوليد... إلى أين؟ في كتابنا (الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء).

(٢) الحجفة: التُرس إذا كان من جلود ليس فيه خشب ولا عقب. (الصحاح: ١٣٤١).

(٣) المغازي ٢: ٥١٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ١٠، وانظر الطبقات الكبرى ٢: ٧٤، عيون الأثر ٢: ٥٥.

فلمن هذا الخزين من السلاح؟ أوَ ليست هذه ساعته؟ أم إنهم ينتظرون تسليمه للمسلمين فيما بعد الحصار؟.

د: واحتمال كونهم أجبن الجبناء، يتعارض أيضاً مع ثورة النفس على العطب في ساعة الحسم، وأي حسم هو، إنه ملاقاة الموت فالنفوس مهما كانت ذلتها إذا أيقنت المصير فإنها سوف تنشط للدفاع عن ذاتها، ويستيقظ فيها صدى الشهامة والرفض، والغيرة على ذاتها في لحظة يُراد بها الانتقام منها.

فلا أعتقد أن إنساناً يُقاد إلى الموت مع قدرته على الذبّ والدفع ويرضى بالسكون والركوع والركون، وكأنه يدعى إلى مأدبة الأثرياء التي فيها ما لذّ وطاب في غداءٍ أوعشاء.

وإذا كان هذا الأمر ممكناً فلابدّ أن يكون إمكانه في أفراد، وليكونوا عشرات، أمّا افتراضه في سبعمائة وخمسين نفراً، أو يزيدون فرضٌ بعيد جداً، وهذا معلومٌ بالوجدان.

هـ: وحتى بعد قيادتهم للقتل، أما كان بمقدورهم أن يتظاهروا بالرفض، ويعلنوا الشجب بكل ما أُوتوا من قوّة، فإذا افترضنا أن المسلمين قد أحكموا القبضة عليهم وأوثقوهم كتافاً، أفلا يستطيعون الذبّ عن أنفسهم بالصراخ والهتاف بعد أن اكتشفوا أن الذاهبين منهم إنما يذهبون إلى الموت لا غير فما بال ألسنتهم كلّت كما كلّت من قبل اذرعهم.

جاء في كتاب المغازي: (وجلس رسول الله ﷺ ومعه عليّة أصحابه، ودعا برجال بني قريظة، فكانوا يخرجون رَسْلاً رَسْلاً، تُضرَب أعناقهم. فقالوا لكعب بن أسد: ما ترى محمداً ما يصنع بنا؟

قال: ما يسوؤكم وينوؤكم، ويلكم! على كل حال لا تعقلون! ألا

ترون أن الداعي لا ينـزع؟ وأنه من ذهب منكم لايرجع؟ هو والله السيف، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم)[١].

إذن هل كُمّت أفواههم عن النطق، فلماذا لم نسمع منهم ما يعبر عن اعتراضهم، وإدانتهم للمسلمين، وإطلاق الصرخات بوجوههم، فوجود الكلام مع العجز عن الفعل خيرٌ من عدم وجوده.

وإن كنّا نعتقد أنهم ـ وإن كانوا بمثل هذه الحال ـ قادرون على فعل شيءٍ ما.

وقد أحسن الشاعر حيث قال:

لا خيل عنـدك تعطيـها ولا مالُ   فلْيُسعف النطق إن لم تُسعف الحالُ

المسألة الخامسة:

وإذا قال قائل: إنهم كانوا يحتملون العفو عنهم أو التخفيف من شدة العقوبة المفروضة عليهم لذلك لم يقاتلوا المسلمين.

نقول:

أولاً: إن هذا يبقى مجرد احتمال لا أكثر قد يحصل وقد لا يحصل، مع كون عدم حصوله أرجح عقلاً، فلماذا يُعَوّل على احتمال العفو، وهو احتمال ضعيف مع أن الاحتمال المقابل له ـ أي القتل ـ هو احتمال غير ضعيف، بل قوي.

ثانياً: إنهم قد علموا بأن الحكم النهائي هو قتلهم من خلال كلام رسول الله ﷺ مع مفاوضهم معه ﷺ نبّاش بن قيس، حيث قال كما في

---

(١) المغازي ٢: ٥١٣، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ١٢.

كتاب المغازي: (يا محمد، ننـزل على ما نزلت عليه بنو النضير، لك الأموال والحلقة وتحقن دمائنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري، ولنا ما حملت من الإبل إلاّ الحلقة، فأبى رسول الله ﷺ، فقالوا: فتحقن دمائنا وتسلم لنا النساء والذرية، ولاحاجة لنا فيما حملت الإبل.

فقال رسول الله ﷺ: «لا، إلاّ أن تنـزلوا على حكمي»)[1].

فرفض الرسول ﷺ لهذه الخيارات، لايبقي إلاّ شيئاً واحداً يعرضهم عليه، وهو قتلهم، وهذا الاستنتاج لا يحتاج إلى كلفة في التفكير ومشقّة في الفهم، فهو واضح غاية الوضوح بقوله ﷺ: «لا، إلاّ أن تنـزلوا على حكمي».

وهل النـزول على الحكم إلاّ القبول بالموت الذي لم يبقَ خيارٌ غيره.

ثالثاً: قد علموا أن الحكم النهائي هو قتلهم حتى بدون علمهم بحكم رسول الله ﷺ فيهم، أو حكم سعد بن معاذ؛ لأنهم كانوا ملزمين بالعمل وفق الميثاق الاتفاقي المشترك، والذي يقضي بالموت عليهم في حال غدرهم وخيانتهم.

رابعاً: إنهم علموا ذلك من خلال مشاورتهم لأبي لبابة، الذي أشار لهم بوضوح أن النـزول على حكم الرسول ﷺ معناه الرضى بالموت الذي لابدّ منه.

روى الواقدي: (ثم قال له كعب: ما ترى، فإنّا قد اخترناك على غيرك؟ إن محمداً قد أبى إلاّ أن ننـزل على حكمه، أفننـزل؟!.

قال: نعم، فانزلوا ـ وأومأ إلى حلقه ـ هو الذبح)[2].

---

(١) المغازي ٢: ٥٠١، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٦.

(٢) المغازي ٢: ٥٠٦، كتاب التوابين: ١٠٣، سبل الهدى والرشاد ٥: ٨.

خامساً: إنهم كانوا يتوقعون هذه النتيجة حتى قبل الحكم عليهم بها.

عن المغازي: (قال كعب: هو والله أوردني ثم لم يُصْدرني.

فقال حُيَيّ: فما أصنع؟ كنت أطمع في أمره، فلما أخطأني آسيتك بنفسي، يصيبني ما أصابك.

قال كعب: وما حاجتي إلى أن أُقتَل أنا وأنت[1]، وتسبى ذرارينا؟.
قال حُيَيّ: ملحمة وبلاء كُتب علينا)[2].

سادساً: وهم يتوقعون هذه النتيجة من خلال ما صرّح بها غيرهم عند محاصرة الرسول ﷺ لليهود من قَبْلهم، فقد قال سلام بن مشكم عند محاصرته ﷺ يهود بني النضير: (وإنّ محمداً إن سار إلينا فحصرنا في هذه الصياصي يوماً واحداً، ثم عَرَضْنا عليه ما أرسلَ به إلينا، لم يقبله وأبى علينا)[3].

ومعلوم ما الذي أرسل به رسول الله ﷺ سابقاً إليهم، وهو (أن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم:

«قد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي!»، وأخبرهم[4] بما كانوا ارتأوا من الرأي وظهور عمرو بن جحاش على البيت يطرح الصخرة، فأسكتوا فلم يقولوا حرفاً.

ويقول: «أخرجوا من بلدي فقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد

---

(١) لعل إشعاراً واضحاً في هذا الكلام فيه دلالة على عدم قتل الجميع.

(٢) المغازي ٢:٥٠٦.

(٣) المغازي ١:٣٦٩، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٢١.

(٤) أي محمد بن مَسْلَمة مبعوث رسول الله ﷺ إليهم.

ذلك ضربت عنقه!»[1].

فبدون الخروج والنزول على حكم رسول الله ﷺ ستضرب أعناقهم، ولا خيار آخر غيره، وإنما كان خروجهم أحياءاً بعدما تصالح معهم رسول الله ﷺ أن يأخذ المال والحلقة، ويحقن دمائهم مع بقاء النساء والذراري، وبدون هذه المصالحة تقطع أعناقهم وفق نص التبليغ والتحذير.

وذُكر ذلك في الحوار الأخر بين سلام بن مشكم وحُيَيّ بن أخطب.

ذكر الواقدي: (قال حُيَيّ: تأبى نفسي إلاّ عداوة محمد وإلاّ قتاله.

قال سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا، وذهاب شرفنا، أو سباه ذرارينا مع قتل مقاتلينا[2])[3].

وفي موضع آخر من حوارهما عند محاصرة بني النضير أيضاً. (فقال رسول الله ﷺ: «لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها ولكم ما حملت الإبل إلاّ الحلقة».

فقال سلام: إقبل ويحك، قبل أن تقبل شرّاً من هذا!.

فقال حُيَيّ: ما يكون شرّاً من هذا؟.

قال سلام: يسبي الذرية ويقتل المقاتلة مع الأموال، فالأموال اليوم أهون علينا، وإذا لحمنا هذا الأمر من القتل والسباء)[4].

وشاهدٌ آخر: (فلما رأى ذلك يامين بن عُمَير، وأبو سعد بن وَهب، قال أحدهما لصاحبه: وإنك لتعلم أنه لرسول الله ﷺ، فما تنتظر أن

---

(١) المغازي ١ :٣٦٧، سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٢٠.

(٢) أليس في هذا الكلام دلالة على أن قتل المقاتلة فقط حكم عرفي.

(٣) المغازي ١ :٣٦٩، سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٢١

(٤) المغازي ١ :٣٧٣، سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٢٣.

نُسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا)[1]. وكلها تصريحات ظاهرة في المطلوب.

وشاهد مهم آخر هو قول ابن أُبيّ عند محاصرة الرسول ﷺ ليهود بني قينقاع: (يا محمد أحسن في مواليّ)، فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان، متغيّر الوجه، فقال: «ويلك أرسلني».

فقال: لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربع مائة دارع وثلثمائة حاسر، منعوني يوم الحدائق، ويوم بعاث من الأحمر والأسود، تريد أن تحصدهم في غداة واحدة)[2].

هذا على رأي الموافقين لهذه الروايات، والقائلين بها، مما يعني معلومية النتيجة سلفاً، فاحتمال بني قريظة بالعفو دون القتل احتمال ضعيف لا يعوّل عليه في مثل هذه المواطن.

سابعاً: ثم لماذا لم يحكموا القبضة على نتيجة الحكم، فإذا كان العفو أو التخفيف نزلوا، وإن كان الموت رفضوا وأبوا وواجهوا المصير بحماس وعنف، واعتنقوا الموت بإباءٍ وكبرياء وشرف.

وفي المحصلة النهائية للبحث في هذا القسم، الذي بنيناه على توجيه سؤال لبني قريظة هو: لماذا اخترتم القتل دون المواجهة؟ لعمري ما سوف يكون جوابهم بعدما أوضحنا أن قبول احتمال المواجهة له ما يرجحه بقوّة، ويضعه في معيار الأولوية عند الاختيار والاضطرار، بل ويجعله المنظور دون غيره.

إذن لماذا نزلوا على حكم القتل؟

---

(١) المغازي ١ :٣٧٣، سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٢٣.

(٢) المغازي ١ :١٧٧، وانظر تفسير بن كثير ٢ : ٧٢، تاريخ الطبري ٢ : ١٧٣، البداية والنهاية ٤ : ٥، سيرة ابن هشام ٢ : ٥٦٢، السيرة النبوية لابن كثير ٣ : ٦ – ٧، سبل الهدى والرشاد ٤ : ١٨٠.

أليس هذا التساؤل وإجابته تغرس في نفوسنا شكّاً جديداً في أصل الحادثة بالكيفية المنقولة من كتب التاريخ، وتقربنا والقارئ الكريم من القول إنما كان القتل مختصاً فقط في الأعيان منهم، والمحرضين على رسول الله ﷺ، والمؤلّبين للحرب عليه، وإلاّ كيف نردّ على هذا الكلام الاستدلالي الطويل.

وهذا الكلام أيضاً بأجمعه الذي جاء الحديث فيه تحت عنوان (هل حقّاً قتل الرسول الأكرم ﷺ بني قريظة جميعاً؟) إنما يدعم الفرض الثاني بقوّة، ويؤهله للقبول دون الفرض الأوّل.

ولنستعين ببعض الدلائل المفيدة في المقام عبر المبحث الخامس.

المبحث الخامس

بعض الدلائل الأخرى
في كون اللّوبي اليهودي مؤثراً في كتابة التاريخ!!

ولدينا هنا بعض الأمور التي تؤكد وجود اليد اليهودية الخبيثة وآثارها اللعينة، على الأطر التاريخية العامة، وبعض تفاصيلها المهمة.

والتي قلنا سابقاً:

إنه وبسببها أصبح تاريخنا ولو في بعض مفاصله مشوهاً مشوشاً، والتي منها:

١ ـ وجود التناقض الكثير في إطار نقل التاريخ، وتكاد بعضها تكذب بعضاً، بل تكذبه.

فلو كان التاريخ قد كُتِبَ بأيدٍ أمينة، مخلصة، لما كان فيه هذا الاختلاف الكبير.

إن المسلم المؤمن يُفترض فيه الخوف من الله ﷻ من الوضع، والكذب، والنقل للروايات الضعيفة، ويُفترض فيه الحرص على الدقة في نقل الأحداث، ليس فقط من جهة كونه يجب أن يكون أميناً في النقل من الجهة العلمية والأخلاقية، بل من جهة كونه حريصاً على تاريخه كمسلم وهذا الحرص يجعله في منأى عن التخبط والخوض في ما لا معقولية ولا أهمية فيه، ولا مصداقية تاريخية له من جهة الواقع.

مما يعني أن المؤرخين استلموا أحداثاً مشوهة، مبتورة، ضبابية، جعلتهم ـ

مع فرض أمانتهم ـ يكتبون التاريخ على عواهنه، تاركين للمحققين والباحثين استنباط الحقيقة، والكشف عن الحق، ورد الباطل والتزوير، وغير ذلك، إن أمكنهم بطبيعة الحال.

صحيح أن هذا الرأي سوف لا يجعلنا نطمئن بسهولة لكل ما جاء في التاريخ، وكتب فيه عن الأوائل، إلاّ أن الذي يهوّن الخطب هو أن ميزان المصالح تختلف كفتاه من حادثة إلى أخرى، وما يكون مرتبطاً باليهود سيكون في الكفة المنظورة على صعيد الاهتمام العالي، والعناية المركزة.

فنحن وإن حصلنا على الطمأنينة النسبية في توثيق بعض الأحداث مما ليس لليهود بها كبير مصلحة، إلاّ أن أي نوع من الطمأنينة، سوف لا يكون الحصول عليها سهلاً، مع افتراض وجود عناصر متلاعبة بتاريخ الإسلام ـ وخصوصاً بما يتعلق بمواقف اليهود ـ، ومن خارج دائرة الإسلام الفكرية، أو من داخلها ومن دائرته الفكرية بالظاهر، ولكن مع أعدائه الألدّاء في الباطن.

وعندنا هذا واحد من عوامل الاضطراب في النقل والاختلاف المفرط في الأحاديث.

٢ ـ المسألة الثانية هي منع تدوين الحديث النبوي الشريف، الذي من شأنه أن يوضح الحقائق بعد تثبيتها وتوثيقها.

ونحن بصرف النظر عن نوايا منّاع الحديث وتدوينه، إلاّ أنه لا يمكن الإغماض في كون هذه السياسة، قد تكون بتأثير عناصر يهودية لها نفوذ وتأثير على مصادر القرار في الهيئة الحاكمة للأمّة الإسلامية آنذاك.

خصوصاً إذا ما لاحظنا منع المحدثين والإسلاميين من إذاعة أحاديث

رسول الله ﷺ وبشتى الدعاوى، والمبررات ـ المردودة طبعاً ـ[1].

والسماح للآخرين ممن لهم أصول يهودية ببث أحاديثهم بين جموع الناس، ومباركة القائمين على السلطة آنذاك، لهؤلاء اليهود بعروقهم وشعورهم، وإن كانوا منتسبين للإسلام بظاهر أفعالهم[2].

إن هذه العملية وحدها تكشف أن اليهود توغلوا في عمق الدائرة الإسلامية، وأثروا على فاعلية الدولة الإسلامية، وعلى صياغة قراراتها بشكل ملفت للعجب.

وقد تلاعبوا وغيّروا بعض المفردات في القاموس المعرفي لهذه الأمّـة، وأخذوا يستمرون في لعب هذه الأدوار، حتى كان لهم مجال الإفتاء والنظر في مجالس الخلفاء، باعتبارهم من أكابر الأمّـة ومن جهابذة مجتهديها.

وإلاّ كيف نسوّغ ذلك الوجود الاجتماعي والحديثي لكعب الأحبار اليهودي، ولتميم الداري النصراني، ووهب بن منبه النصراني، وعبد الله بن سلام اليهودي، وغيرهم من الذين كانوا يسطّرون الأساطير والخرافات القديمة على مسامع المسلمين بما يلهيهم عن أمجادهم التاريخية، ويجعلهم في منأى عن الوضع الراهن، والمرحلة التي يعيشون[3].

إنها سياسة جديدة، لا نتهم أحداً بأنه كان متعاطفاً معها، أو يريدها بشكل مباشر، لكن لا نتوقف في القول إنه سار معها، أو تقاذفته أمواجها

---

(١) أو حتى إن لم تكن مجالاً لتاثير اليهود عليها، إلاّ أن مجرد المنع يكون بمثابة الفرصة الذهبية لِمَن يبادر اليهود في إملائه وفق أهوائهم وأغراضهم وبما يتناسب وعمق الروح الحاقدة فيهم على الإسلام، وبما يتناسب وطموحهم في كتابة التاريخ الذي يجعل من اليهود أبداً ودوماً شعب الله المختار.

(٢) يراجع كتاب (بحوث في الملل والنحل) للشيخ جعفر السبحاني ١ : ٦٠.

(٣) وسيأتي الكلام عن ذلك في كتابنا: (الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء).

بشكل أو بآخر.

٣ ـ إنك تلاحظ أن هناك إقصاءاً مقصوداً، في جملة الأحداث التاريخية المهمة لبعض الشخصيات التي كان لهم موقف رائد وحاسم مع بني اليهود، وفي جميع معاركهم.

فتلاحظ ان علياً عليه السلام ما هو إلاّ إنسان عادي كبقية المسلمين، وفرد لا دور له ولا أهمية في صناعة أحداث الدولة، أو الدخول مع أقطابها بشكل مباشر.

وهنا لا نريد ـ على الإطلاق ـ الانتقاص من شأن أي مسلم، إذ المسلم عند الله عزّ وجل من العزّة والكرامة والمكانة بمكان.

ولكن نقول أين ذلك التكثيف العظيم من الأقوال والأفعال النبوية تجاه عليّ عليه السلام، بما يجعلنا نطمئن إلى وجود ميزة خاصة له، ومكانة رفيعة لا يبلغها أحد.

وأين تلك الأعمال العظيمة التي انجزها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في حروبه، وفي أخلاقه، وجهاده، وبقية أدوار حياته.

ولماذا هذا التعتيم على شخصيته عليه السلام، وتقديم سواه عليه مع كونه لا يصل إليه درجةً، ورتبةً، ومكانة؟

ومن ثم لماذا هذه الدعوة المستمرة، دعوة كون الأخرين أفضل منه ثم سلبه الحق الطبيعي له، وجعله نكرة اجتماعية، بعد أن كان لا يُعرف الأخرون إلاّ به؟

عن البحار: (فقال ﷺ: «معاشر الأنصار اعرضوا أولادكم على محبة علي».

قال جابر بن عبد الله الأنصاري: فكنا نعرض حب علي عليه السلام على

أولادنا فمن أحب علياً علمناه أنه من أولادنا، ومن أبغض علياً انتفينا منه) [1].

أليس لأن علياً عليه السلام مزق سيفه اليهود، وفلق رؤوس أسيادهم؟ أليس لأن ساعده عليه السلام قلع باب خيبر؟ أليس لأن عقله حطم معنوياتهم؟ أليس لأن هيبته غرست الخوف في قلوبهم؛ ومكّن منهم المسلمين، وجعلهم نهب الأقدار، مما يجعل المحصلة النهائية في محاربة عليّ عليه السلام، هي ترجمة لرغبة اليهود في معاقبته على عظمته، وعلى دوره عليه السلام معهم في ما كان.

ولم نتناول علياً عليه السلام إلاّ مثالاً، وإلاّ فإنّ الأعيان من الصحابة الكرام الذين أُخضِعوا للتعتيم، والتعويم، والإبعاد، والإسكات كثيرون.

وربما كان ذنب بعضهم أنه من أتباع الإمام عليّ عليه السلام، ممّا يرشحه لنيل العقوبة اليهودية كذلك!!.

ولهذه الأسباب كلها وما سيأتي نشك في موضوعية النقل التاريخي لقضية بني قريظة، ونقول:

إن كل هذه العوامل التي ذكرناها والتي سوف نشرحها، هي كفيلة لغرس الإعتقاد في أن هناك يداً حاقدة على الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وعلى عظمة الاسلام، هي التي دسّتْ هذه الافتراءات على تاريخ الاسلام المجيد.

وبعد أن اكملنا الدراسة في المورد الأول بكل اتجاهاته ومباحثه نوصل الكلام بقدرة الرسول ﷺ الفكرية والاخلاقية، النفسية والروحية في احتوائه ومعالجته لما يقع به جمع من الاصحاب من لبس وخطأ وخطيئة وذلك خلال ما نطرحه في المورد الثاني.

---

(١) بحار الأنوار ٢٧: ١٥١، عن علل الشرايع



المورد الثاني: احتواؤه ﷺ ومعالجته لأخطاء أصحابه

إن للصحابة ـ كما هو أمر مفترض في كل انسان ـ اخطاء بعضها طفيفة يصرف النظر عنها، وبعضها جسيمة وعنيفة لابد من الوقوف عليها ومعالجتها من قبل النبي ﷺ.

أما كيفية المعالجة فنحن في هذا المورد نناقش هذا الأمر باقتضاب، على اتجاهات:

الاتجاه الأول: الردّ الهادئ

لعل الرسول ﷺ وبصفته نبي الرحمة، ومبعوث اللطف، ومهمته هداية الخلق، تقتضي منه الصبر عليهم وتوجيه أخطائهم وإصلاحها، ولأنه محمد ﷺ الإنسان أي الممثل للذروة الإنسانية والقمة الأخلاقية التي يتأمل للإنسان أن يصلها كمطمع نهائي ونيل غائي، ولأنه يعرف الظروف التي يمر بها أصحابه، ظروف الحرب، وظروف القهر الاخرى وحتى في وقت السلم فهي قطعاً ظروف جهاد مستمرة متعبة، بل يعرف ﷺ خلفيات تكوينهم النفسي والاجتماعي في السابق ومقدار تأثير ذلك على طبيعة سلوكياتهم الاتية.

ولعله ﷺ وبفعل ذلك جميعاً كان يتمتع بكفائة، إدارية عظمى في تقنين النفوس، ومعرفة مواطن الحساسية، ومواطن النقص والحاجة فيها، ويمتلك تلك المهارة المعصومة في فن التعامل مع أصحابه، بل أعداءه وكلٌ ضمن إطاره النفسي وتكوينه الداخلي وضمن ما يريد له الرسول ﷺ، أو ما يريده للأمة من خلاله من صياغة شرعية وضوابط دينية تكون أركان

البناء وأسس النموّ والتفاعل.

فهو ﷺ يعرف كيف ومتى وأين ولماذا يتعامل، وكلها في معاييرها المقررة ومقاييسها المتقنة وبكامل جوانبها التربوية، مع توافر العاطفة الإصلاحية أو المساعدة في الإصلاح مع الانتباه كون تلك العاطفة روحية صادقة، لا إفتعالية مزيفة.

فكان الرد الأبوي الهادئ والانبساط النبوي المملوء بالسكينة يمثل أحد تلك الوجوه التربوية في بناء مفردة الإنسان.

فالرسول الأكرم ﷺ ناظر إلى كون الإنسان مخلوق الله ﷻ، وهذا المخلوق له قدرة عقلية محترمة، كما أن له أعصاباً قد تثور وتتجاوز الحد، وله شعور وعواطف تتحكم ببعض جهاته الشخصية وشخصيته الاجتماعية، كما أن له إرادة يجب أن تأخذ حيّزها الطبيعي في مفاعل الحياة.

مع عدم إغفال مستوى الشخصية ورقيها وتفاوتها مع البعض من جهة التفاضل بالملكات ودرجات الكمال، واستقراء مواضع الضعف فيها بالإضافة إلى مواضع القوة، بل وقراءة مستقبل تلك الشخصية على صعيد الانعكاس والممارسة.

فربما تأتي أساليب الرسول ﷺ لا على أساس الحدث الآني الطارئ، إنما على أساس ما يكشف من أهمية لذلك السلوك إيجاباً وسلباً في المستقبل، وانعكاساته على مصلحة الأمة ودورها الحضاري وحياة أفرادها.

فيأتي رد فعل الرسول ﷺ بهذا المستوى من الفهم العميق لما يستقرءه ﷺ لهذا الفرد وتوجهاته وذاك الفرد وملكاته، ومن هنا يأتي دور النبي الأكرم ﷺ كمربي لهذه الأمة، وأب روحي لها وماسك زمامها الأخلاقي.

هذا كله فضلاً عن مهمة النبي الأولى التي نادى بها الرسول ﷺ لما جاء برسالته المباركة بقوله ﷺ: **«إنما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق»**[١].

لذلك نلاحظ تنوعاً في أسلوب الرسول ﷺ من فرد إلى آخر وفق هذه المطالب: الشخصية... الحدث... أثره المستقبلي... مداه وامتداداته الآنية... وغير ذلك.

فيكون رده ﷺ في بعض الحالات رداً هادئاً، وفي بعضها الآخر حاداً، وفي حالة ثالثة غير ذلك، مع ملاحظة أن كلامنا في دائرة تعامل الرسول ﷺ مع أصحابه فيما يخص مواقف الحرب والمعارك والقتال لا كل حياته الشريفة.

فإن تناول جميع حياته أمرٌ خارج الكتاب ومطالبه أولاً، وليس الأمر بهذه السهولة في استقصاء تلك الحياة الشريفة الممتدة لرسول الله ﷺ ثانياً.

كما أنه كلامٌ على سبيل الاختصار وحتى وهو في دائرة ما يتصل بالحرب، وعليه ننظر إلى أسلوبه ﷺ وفقاً للموارد التي كانت فيما يتعلق بتلك المواقع القتالية، والجهاد العام.

ونحن هنا نتناول أولها وهو الرد الهادئ، وفيه منحيان:

المنحى الأول:

السكوت الذي يؤدي إلى المعالجة بشكل تدريجي

والسكوت كما هو معلوم حكمة، وحنكة وتشريع، أو أحد أبواب التشريع، ولعل مثاله الواضح حينما سكت الرسول ﷺ على موقف المسلمين

---

(١) مكارم الأخلاق: ٨، بحار الأنوار ١٦: ٢١٠ وج ٦٨: ٣٨٢ وج ١٠٨: ٢٢٢، تفسير مجمع البيان ١٠: ٨٦، كشف الخفاء ١: ٢١١ ح ٦٣٨، تفسير نور الثقلين ٥: ٣٩٢ ح ٢٨.

قبيل معركة أحُد فقد كان الرسول ﷺ يرى أنه لابدَّ من التحصن بالمدينة وعدم الخروج منها، وكانت نسبة هامة من الأمة الإسلامية آنذاك تضغط الموقف باتجاه الخروج من المدينة دون البقاء فيها، ولما رأى رسول الله ﷺ إلحاحهم سكت على موقفهم تاركاً لهم اكتشاف الخطأ الذي ارتكبوه بأنفسهم، وإن كان أوضح لهم ما يناسب المقام من بليغ الكلام.

جاء في المغازي: (قال الذين يلحّون على رسول الله ﷺ: ما كان لنا أن نُلِحَّ على رسول الله ﷺ في أمرٍ يهوى خلافه، وندّمهم أهل الرأي الذين كانوا يشيرون بالمقام، فقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نُخالفك فاصنع ما بدا لك، وما كان لنا أن نستكرهك والأمر لله ثم إليك.

فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمَته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»)[1].

فنلاحظ أن سكوت الرسول ﷺ كان المراد منه أن يعالج فيهم عنصر الإلحاح وحالة اللجاجة فيما يخالف رغبة الرسول ﷺ، ولما وصلوا إلى المسألة بأنفسهم رجعوا عن رأيهم السابق.

والموقف الآخر الذي عالج الرسول ﷺ بسكوته أخطاء أصحابه ونقلهم بالتدريج إلى الحق، كان ذلك في غزوة بني قريظة، فقد ألَحّ الأوس على الرسول ﷺ لكي يعفوا عن بني قريظة، والحال هو ضرورة التسليم والقبول بأحكام الرسول ﷺ دون الاقتراح عليه في شيء من ذلك، مع علمنا أن حكمه ﷺ حكم الله ﷻ، ومنطقه ﷺ هو منطق السماء، فما هي الضرورة التي تدفعهم لأنْ يُعطوا آراءاً، والأمر لله ﷻ ورسوله ﷺ.

---

(١) المغازي ١: ٢١٤، انظر شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٢٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ١٨٦.

فأرجع الرسول ﷺ الحكم لسعد وسكت على حالهم دون أن يوبخهم، أو يقدح بهم، وكان هذا الحل ذكياً أخرج الرسول ﷺ من الحرج المتوقع مع قبيلة الأوس من الأنصار، وأخرج الأنصار، أو قبيلة الأوس منهم، أو البعض منها بشكل أدق من تخبطهم ورغباتهم النفسية وميولاتهم العاطفية، وأخرج الأزمة من بقعة التعقيد إلى مدار الحل المرضي.

فإن كان حكم سعد العفو، فقد جاء بما يريدون، وإن حكم عليهم بالقتل، فهو زعيمهم الذي يرجعون له في كل شيء فكيف يعترضون عليه، فإنه القبول لا محالة.

في المغازي أيضاً: (وتنحّى رسول الله ﷺ فجلس ودنت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، حلفاؤنا دون الخزرج وقد رأيت ما صنعنا ببني قينقاع بالأمس حلفاء ابن أُبيّ، وهبت له ثلاثمائة حاسر وأربعمائة دارع، وقد ندم حلفاؤنا على ما كان من نقضهم العهد، فهبهم لنا، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، حتى أكثروا عليه وألحوا ونطقت الأوس كلها.

فقال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟».

قالوا: بلى.

قال ﷺ: «فذلك إلى سعد بن معاذ»)[1].

وهناك مواقف كثيرة سكت عليها رسول الله ﷺ، كموقفه من أبي لبابة في موقفه عندما شاوروه بني قريظة، مكتفياً ﷺ أن يرجع أمره إلى الله ﷻ.

---

(١) المغازي ٢: ٥١٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ١٠، وانظر تفسير القمي ٢: ١٩٠، بحار الأنوار ٢٠: ٢٣٥.

وفي موقف الرسول ﷺ مع الصحابي الجليل أبي ذر ﷺ، لما نصحه الرسول ﷺ بعدم إباحة إيمانه وضرورة التكتم عليه، ثم لَمّا أذاعه واصطدم بالقوم سكت عنه الرسول ﷺ ولم يؤاخذه بشيء[١]. كما سيأتي في كتابنا: (الرسول المصطفى ﷺ قراءة في الدائرة الحمراء) وتحت عنوان: أبو ذر الغفاري من الكلمة الى الكيان.

المنحى الثاني:

إدامة التوضيح

فإن الأمة كانت صاحبة موقف قوي، ورد جارح بأزاء جيش مؤتة لما رجعوا وقد كُسِرَت قناتُهم، بانسحاب سريع من أرض المعركة، كان يمثل هزيمة لذلك الجيش بعد أن قُتِل قادته العِظام جعفر بن أبي طالب، زيد بن الحارثة، وعبد الله بن رواحة ﷺ، ليستقبلهم أهل المدينة عند حدودها باللّوم والاستنكار الاّ يمضوا على ما مضى عليه البدريون، ويقاتلوا كما قُتِل القادة واستشهدوا.

فكان الرسول ﷺ يوضح لهم أنه جيش كرار منتصر، ليرفع معنويات الجيش المهزوم، ويتفائل لهم بالخير، ويعوِّد الأمة على تجاوز العقبات والويلات بترفع نفسي واستعداد جمعي، وأن لا يكونوا أسارى الإحباط والكلام والتخذيل.

جاء في الكتب المعتبرة: (فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فُرّار، أفررتم في سبيل الله؟

---

(١) هذا على فرض خطله في ذلك وإلا فنحن نذهب الى شيء آخر.

فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بفُرّار، ولكنهم كُرّار إن شاء الله»[1].

ويضيف الواقدي في مغازيه مسترسلاً سرد الحال ـ بعد حذف سند الرواية ـ: (ما لقي جيش بعثوا معنا ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقيهم أهل المدينة بالشر حتى إن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له.

يقولون: ألا تقدّمت مع أصحابك؟ فأما من كان كبيراً من أصحاب رسول الله ﷺ فجلس في بيته استحياءاً حتى جعل النبي ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً، يقول: أنتم الكُرّار في سبيل الله)[2].

كما عن المغازي: (كان في ذلك البعث سَلَمة بن هشام بن المغيرة، فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبي ﷺ، فقالت: أمّ سلمة: مالي لا أرى سلمة بن هشام؟ اشتكى شيئاً؟

قالت امرأته: لا والله، ولكنه لا يستطيع الخروج، إذا خرج صاحوا به وبأصحابه: يا فُرّار، أفررتم في سبيل الله؟ حتى قعد في البيت.

فذكرت ذلك أمّ سلمة لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بل، هم الكرّار في سبيل الله، فليخرج». فخرج)[3].

فتجد أن الرسول ﷺ يلحّ على أسلوب واحد متكرر بتكرار الأُسلوب المقابل يريد منه أن يصلح الحال، وينقل أمته إلى رأب الصدع، وانهاء حالة التجريح والمؤاخذة للمشاركين في حرب مؤتة.

---

(١) المغازي ٢:٧٦٥، الطبقات الكبرى ٢: ١٢٩، وانظر إعلام الورى بأعلام الهدى ٢١٥، بحار الأنوار ٢١: ٥٧، مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٧.

(٢) المغازي ٢:٧٦٥، عنه في شرح نهج البلاغة ١٥: ٧١، وبحار الأنوار ٢١: ٦٢.

(٣) المغازي ٢: ٧٦٥.

فهو يوضح للأمة ويديم هذا التوضيح بمناسبات عدّة، دون أن يُقسِ في الـرد علـيها، كما قست هي في الرد على أبنائها في جيش مؤتة، ودون أن يؤاخذ القادمين بالهزيمة، وإنما يتدرج مع الجميع بإسلوبٍ إصلاحي أبوي نبوي، ليصل معهم إلى الغاية الراشدة.

الاتجاه الثاني: الردع الحاد

وفيه منحيان:

المنحى الأول:

القطيعة

فقد يتطلب الموقف ردعاً حاداً لا يكون إلاّ باعلان الجفوة، أو الجفاء، واتخاذ سياسة القطيعة كي يكون الأسلوب أكثر تأثيراً وانسجاماً مع طبيعة الخطأ وشخصية المخطئ.

فإنك تراه ﷺ لم يعذر عمر بن الخطاب على موقفه في صلح الحديبية، بل بقي لا يكلمه ولا يعبأ به حتى شارفوا الوصول إلى المدينة، وعمر تحسس من هذا الموقف وذهبت به الظنون كل مذهب، لكنه كان مناسباً بالقياس إلى حجم الخطيئة، أو الخطأ الذي ارتكبه عمر وبالقياس إلى ما يتوقعه الرسول ﷺ من عمر فيما إذا عبرت هذه الحادثة دون عقوبة، أو توبيخ، أو إنذار.

وكذا كان موقفه ﷺ مع المتخلفين عن الحرب، فقد أعلن المقاطعة العامة لهم، ولعله يأتينا ما يستوعب هذا الموقف إن شاء الله ﷻ.

وموقفه ﷺ مع أبي لبابة حيث لم يكلمه رسول الله ﷺ وهو مربوط قريب منه في اسطوانة المسجد، وأيضاً المواقف كثيرة لو أتينا على سردها وتحليلها لَطال بنا المقام، ولكن هي محاولة في الإشارة إلى بعض الأخطاء

التي ارتكبها الصحابة مما له علاقة بالحرب وأجوائها أو مقدماتها، ولمحة مختصرة لعلاج الرسول ﷺ لها.

المنحى الثاني:

الكلام التأديبي الحاد

فقد عالج الرسول ﷺ بعض مواقف صحابته برد سريع ومؤاخذة حادة، ما كان يسمح بها لهم من ارتكابها مجدداً، أو يوحي للآخرين بأنها قرفٌ لابدّ من اجتنابه.

فنلاحظ موقفه، من عثمان بن عفان حيث سأله في الوجهة التي ذهب بها وغاب فيها ثلاث أيام حيث هرب من معركة أُحد، ولما أجاب الرسول ﷺ عتب عليه وقال ﷺ له: **اذهبت بها عريضة** معلناً شجبه لهذه السلوكية المشينة بالمسلم.

فمع كونه ترك الرسول ﷺ وحده، ومع كونه فرَّ من الزحف، وهو محرّم عليه يعاقب عليه صاحبه بالنار، لأنه أحد الكبائر، فإنه علاوةً على هذا كله ذهب بفراره هذه المسافات الشاسعة التي تطلب منه أن يستغرق مدة ثلاث أيام ذهاباً وإياباً، حتى أصبح محل إدانة الرسول ﷺ وردّه هذا.

وكذا موقفه ﷺ مع خالد بن الوليد في مقاتلته لبني جذيمة، حيث غضب الرسول ﷺ من فعله، بل موقفه ﷺ مع خالد مثالاً لا فقط للكلام الحاد والرد الحاسم، وإنما يصحّ مثالاً لإعلان البراءة من أمثال هذه الأعمال، وستقرأ تفاصيل لها علاقة بهذا الموضوع.

الاتجاه الثالث: اللوم والمناشدة

ففي الروع وشدة الارتياع يتطاير شعاع النفس، ويزول ضابط التميّز فيها، وتنقلب المقاييس خصوصاً عند ضعاف القلوب، وقليلي الثبات عند الخطوب فيكون الإحجام خير من الإقدام، والهروب هو اللغة البديلة عن الاقتحام والهجوم، وتدبير النفس والمحافظة عليها خير من: «يد الله مع الجماعة»[1] أي يصبح هذا المفهوم القيم والذي أطلقه الرسول ﷺ، في عالم النسيان عند اشتداد الباس، وتصبح: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ المفهوم البديل وسريع المفعول في المساحة الأوسع من النفس والتي عطل الخوف كل القوى المنتجة فيها.

وقد قال قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الإبطال ويلك لا تراعي

فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي

وليس من الحكمة والحال هذه مخاطبة تلك النفوس بالجدية والمفاهيم القاسية مما يزيد في تضييق الحصار على فاعليتها، إذ يضيف لها خوفاً على خوف، وليس من الحكمة أيضاً السكوت عليها؛ لأن هذا السكوت يساعدها في التمسك بطريق الهروب، وينفلت زمام التحكم بها ويجعلها

---

(١) المبسوط للسرخسي ١: ١٧٧، بدائع الصنائع ١: ٢٢٥، سنن الترمذي ٣: ٣١٦، مجمع الزوائد ٥: ٢٢١، الفصول في الأصول ٣: ٢٦٥ و٣٠٨، المستصفى للغزالي: ١٣٩، السير الكبير ١: ٣٣ ح ٢٧.

سادرة إلى حيث تريد.

والأفضل من السببين هذين هو إثارة المواضع التي حاصرها الخوف وضيّق دائرتها، وحسر قوى الانطلاق الغيور والشهم فيها، هذا إنما يثار عن طريق لومها على الفعل المشين والقرف المهين بما يجعلها تسترخص النفس من أجل الكرامة التي تكون النفوس أقل أثمانها وإن غلت، ومخاطبتها باللوم والمعاتبة وإثارة النخوة والنجدة فيها، وتذكيرها بالعهود الوثيقة له كامل الأثر في إرجاعها إلى حلبة الصراع، ومقارعة الخطوب بنفسٍ جلدة، وروحٍ صلدة، وكبرياء على المقاومة.

وهذا ما اتجه له الرسول ﷺ في معركة حنين حيث تطاير الأبطال وتتدافع الرجال يرجون سبيلاً للفرار والهروب.

فكان مناديه ﷺ ينادي بهم: (يا أصحاب سورة البقرة! يا أصحاب بيعة الشجرة!) مستنهضاً فيهم النخوة، ومستنفراً فيهم الرجولة، لينسيهم هيبة الخوف وقبضة المخاوف، ويُحيي في أسماعهم ما أنستهم الحرب ذكره.

وهكذا كان تعامل النبي الأقدس ﷺ بتلك العاطفة الأبوية والروح النبيلة والنفس الشجاعة والعقل المملوء بالخلاقية والنبوغ والكمال.

ولنستشرف كل تلك المقرؤات من جديد وبأثواب لطيفة وصبغ رائعة حيث تطالع الدراسة اللاحقة في استفادة الرسول من عنصري الزمان والمكان في مخططاته الحربية وبرامجه السلمية حيث يتجلّى لنا ذلك جميعاً في المورد الثالث الذي بوبناه لهذا الغرض.

المورد الثالث

خطط الرسول ﷺ الحربية في الاستفادة من الزمان والمكان

قام الرسول ﷺ بالاستفادة من عنصري الزمان و المكان وذلك بالالتفات إلى ما يلي:

أولاً: استثمار الرسول ﷺ للموانع الطبيعية.

ثانياً: استثمار الرسول ﷺ للموانع غير الطبيعية.

ثالثاً: استثمار الرسول ﷺ واستفادته القصوى من موارد الطبيعة.

هنا نقسم دراستنا الى اتجاهات توضح لنا الغاية المطلوبة من هذا البحث بشكل تام.

الإتجاه الأول

الجانب الزماني في خطط الرسول ﷺ الحربيّة

لقد كان للزمان أهميته المعروفة في ميادين الحروب، ولا يخفى أن له دوراً واضحاً في إضافة مرجح يساعد على حسم الحرب والإتيان بالنصر لمن يحسن اختيار الزمان، أو يكون سباقاً إليه.

وإذا كان للرجال والعُدَد القتالية، والإرادة الذاتية، والقناعة المبدئية أو

العقائدية، وغير هذه المفردات، المدخلية في صياغة نتائج الحروب، ووضع نهاية محددة لمن يحرز على أكثرها وأفضلها، لتكون تلك النهاية المحددة في صالحه..

فإن الظروف الطبيعية وخصوصاً الجهة الزمانية والمكانية لها ذلك المقدار المميز في إعانة أحد الطرفين على الطرف الآخر، وحصادهُ لسنابل النصر النهائي بمعونتها، بل امكانية القول بإن النصر لمن خدمته الظروف واردة حتى في حال فقدانه لبعض مقومات النصر المطلوبة.

فكم لعبت الرياح، والثلوج والأمطار، والحر والبرد، والأراضي الرملية والجبلية، دوراً في قلب الموازين وتغير الخسارة الفادحة إلى ربح عظيم، والهزيمة المنكرة إلى نصر مؤزر، والعكس بالعكس، ولمن درس الحروب الحديثة يجد لذلك شواهداً عديدة.

وكم أخذ القادة وفي كافة حروب الكون الجوانب المكانية والزمانية ـ يعني الظروف المحيطة للموقف بأكملها ـ في معايير خططهم الحربية، وعولوا عليها في دحر العدو، وفي كسب الجولة القتالية معه.

إن لغة الحرب تتطلب من قادتها إتقان جميع المفردات المؤثرة فيها ولو على المدى البعيد، وإن دراسةً من هذا النوع لا ينفك تلازمها مع عظمة فكر القائد، وخلاقيته وإبداعه، ولا عن قدرته في ملازمة النظر الدقيق والإحاطة المحكمة بملابسات الظروف والأحوال المحتملة الحدوث، فضلاً عن الأحوال والظروف المتيقنة الوجود والحدوث.

وإن ذلك جميعاً لم يكن عازباً عن الذهن الأقدس لرسول الله ﷺ، بل كان اختياره ﷺ موفقاً للمواقف العسكرية والحروب التي خاضها صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الكرام.

ومن جملة الأمور التي كان ﷺ يلاحظها، هي الجنبة الزمانية التي يحققها ﷺ في ملاحظة جملة أمور منها:

١. مبادرة أو محاولة مبادرة العدو قبل هجومه ﷺ دائماً، والحضور أو محاولة الحضور في ساحة القتال قبل حضور العدو فيها.

٢. السير في الليل والكمون في النهار.

٣. الهجوم وقت الصباح عادةً.

٤. عدم بدء الحرب ـ يعني الضربة الأولى ـ إلاّ أن يبدأ العدو بها عادةً.

ولكل واحدة من هذه النقاط أهميتها الخاصة في الحرب، ومع اجتماعهن تجتمع معهن أهميات كثيرة لها معطياتها في ساعة الصولة أو لحظة الحسم، ولها معطياتها في رسم النتائج الأولية، ولها معطياتها على نفسية القائد ونفسية جنده.

ولعله ـ كما قلنا ـ تحسم النهاية على ضوء البداية، فكلما كانت البداية رصينة موفقة كانت خواتيم الأمور كذلك، وكلما كانت البداية ضعيفة فاترة، دارت الدائرة على أصحاب الضعف والفتور، وجعلت خاتمة بدايتهم الهزيمة والفرار.

فإن البحث في نظرات الرسول الأكرم ﷺ لعامل الزمن في الحرب، وعامل المكان والظروف الجوية الأخرى وإدخال ذلك في دراستنا، أمر في غاية الاستحقاق واللياقة، بل وندعو أن تفتح دراسة متخصصة ودقيقة لهذه العوامل المهمة، بعد أن فتحنا بابها نحن هنا في هذا الكتاب وبشكل مقتضب.

فهي حقاً جديرة بالدراسة التفصيلية المعمقة والمتعوب عليها، والمشبعة بحثاً وتحليلاً.

ونحن نتكلم باختصار عن بعض هذه النقاط الأربع المذكورة:

١ ـ لماذا المبادرة؟

نقصد بالمبادرة هنا: هي تهيئة الرسول ﷺ لجيشه المبارك وإرساله، أو الإتيان به إلى ساحة الحرب والعدو لمّا يصلها بعد، فهو قد بادر باستثمار الفرصة الزمنية الأولى واستفاد من تواجده الزمني ذاك في جملة أمور منها:

الأمر الأول:

تمكنه من اختيار الموضع المكاني المناسب، ومعلوم أن الأماكن التي يقاتل عليها الفارس والراجل في عهد الرسول ﷺ - حيث لا حرب أزرار ولا طائرات ولا صواريخ موجهة ولا قواعد ثابتة - تحتاج إلى بعض المواصفات التي تساعد في ثبات سنابك الخيل عليها، وأقدام الرجال المشاة المقاتلين فوقها.

وهذا الاختيار لا يتسنى للرسول الأعظم ﷺ ما لم يكن أول الحضور في ميدان المعركة فيخبر أرضها وينظر فيها ويختار أشدها وأصلبها، وينتخب الوجه المناسب للقتال عليها.

بما يدخل في تقرير الحالة القتالية وتوزيع المقاتلين عليها وفق تلك الحالة، ولعله تبرز أهمية السبق الميداني بصورة جلية وأهمية واضحة في كونها تساعد في اختيار المكان اللازم للقتال والمناسب للمقاتلين قبل بقية الأمور وإن كانت مهمة أيضاً.

وهذا مما تعنى به العرب سابقاً أشد العناية ويتسائلون عن مكان المعركة قبل حصولها، ليروا أهو مكان مهيأ للقتال ومنازلة الرجال؟ أم فيه حزونة وعثار مما يؤذي حوافر الخيل ويهدم انسيابية المواجهة؟.

فقد ذكر لنا التاريخ رأي دريد بن الصمة الشيخ المحنك، والمقاتل المجرّب في وادي أوطاس حيث عسكرت هناك هوازن وثقيف تنتظر قدوم الرسول ﷺ بجيشه.

قال الواقدي: (فلما أجمع مالك المسير بالناس إلى رسول الله ﷺ أمر الناس فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم حتى نزلوا بأوطاس، واجتمع الناس به فعسكروا وأقاموا به، وجعلت الأمداد تأتيهم من كل ناحية.

ودريد بن الصِّمَّة يومئذٍ في شجار [1] يقاد به على بعير، فمكث على

---

(١) الشجار: مركبٌ مكشوف دون الهودج. (النهاية ٢:٢٠٦).

بعيره، فلما نزل الشيخ لمس الأرض بيده، فقال: بأيّ وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نعم مجال الخيل! لا حَزْنٌ ضَرِسٌ[1]، ولا سَهْلٌ دَهِسٌ[2])[3].

أنظر هذا الإمعان والدقة في تقييم المكان الذي يقاتلون عليه، مع العلم أن دريد بن الصمة كان أول سؤال سأله هو سؤاله عن المكان، ولما أخبر بأنه أوطاس فصل الحديث في شأن ذلك المكان وحدد احتياج الحرب إلى ما يتصف به من مواصفات، فهو ليس بالهش اللين الذي لا يُثبت عليه، وليس بالصلب الحاد الذي ينفر منه ويقلق مواضع الواقف عليه.

ونرى هذه الحنكة متجلية في اختيارات الرسول ﷺ المكانية، كما سوف يأتي بعض تفصيل ذلك في الجانب المكاني.

فالسبق الزمني هو الذي نفع المؤمنين في بدر الكبرى، وكاد يحسم الموقف بشكل تام للمسلمين في أحُد، وأثر تأثيراً فنياً عالياً في الخندق، وسحق معنويات المشركين في الحديبية، وشكّل فتحاً تاريخياً عظيماً في فتح مكة، وأدى مختلف الأدوار الفذة والفريدة في مواجهات الرسول ﷺ مع اليهود في كافة المصادمات العسكرية، وخصوصاً في خيبر، وتيماء، ووادي القرى.

الأمر الثاني:

التواجد في الميدان، وتسجيل الأسبقية فيه بالإضافة إلى كونه يُفقد العدو حرية اختيار المكان، كما هو موضح في الأمر الأول، كذلك يرعب مقاتليه، لما يستشعرونه من استعداد الطرف الآخر للحرب وقدومه إليها.

---

(١) الحزن: المرتفع من الأرض، والضرس: الذي فيه حجارة محددة. (شرح أبي ذر: ٣٨٤).

(٢) دهس: أي لين كثير التراب (شرح أبي ذر: ٣٨٤).

(٣) المغازي ٣: ٨٨٧.

وهذا ـ أي القدوم المسبق ـ دلالة النشاط والتخطيط وتصاعد الروح المعنوية، وعدم التذمر والهيبة من الحرب، وبعبارة أخرى الاستعداد العالي للحرب ومواجهتها، وهذا وحده من شأنه أن ينكس الأعداء ويكسر نفوسهم.

فقد لاحظنا فزع اليهود عندما رأوا جيش المسلمين في محاذاة حصن خيبر أو قريباً منه، حيث فزعوا حينها وصاحوا: (محمد والخميس!!) وولوا هاربين من أمامه متحصنين بجحورهم.

وقد رأينا ذلك في فتح مكة وشعورهم بالخيبة، والإحباط، والخوف، والجزع عندما رأوا نيران الجيش الإسلامي لاهبة في الليل، وبيارقه مرفرفة عند غبش القدوم في صبيحة تلك الليلة، ليلة الفتح !!

وسمعنا تصريحات قادة قريش الذين بنيت نفوسهم على الغرور والكبر، وقد أصبحت مرتجفة مذعورة.

جاء في كتاب المغازي: (وقالوا[1]: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه جواراً إلاّ أن ترى رقّةً في أصحابه فآذنهم بالحرب.

فخرج أبو سفيان وحكيم بن حزام، فلقيا بُدَيل بن ورقاء فاستتبعاه فخرج معهما، فلما بلغوا الأراك من مرّ الظهران رأوا الأبنية والنيران، وسمعوا صهيل الخيل ورُغاء الإبل، فأفزعهم ذلك فزعاً شديداً وقالوا:

هؤلاء بنو كعب حاشتها[2] الحرب!.

فقال بديل: هؤلاء أكثر من بني كعب!.

قالوا: فتنجعت هوازن على أرضنا! والله ما نعرف هذا! إن هذا

---

(١) أي قريش لأبي سفيان.

(٢) حاشتها الحرب: جمعتها وساقتها (الصحاح: ١٠٠٣).

العسكر مثل حاجّ الناس)[1].

وقال في موضعٍ آخر: (وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا بالـحَزْوَرة[2]، وهم مولُّون في كلِّ وجهٍ، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق رؤوس الجبال، واتبعهم المسلمون، فجعل أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حِزام يصيحان:

يا معشر قريش، علامَ تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن.

فجعل الناس يقتحمون الدور، ويغلقون عليهم، ويطرحون السلاح في الطُرُق، حتى يأخذها المسلمون)[3].

فنلاحظ الخوف المهيمن على النفوس، والحيرة الطاغية على العقول، والتخبط الذي يأخذ بالأعناق؛ لأن استثمار الرسول الأعظم ﷺ للفرصة الزمنية وللتواجد في ساحة الحرب في الوقت المناسب، أفزعهم فزعاً شديداً، كما تصرِّح به الرواية الأولى، وأصعقهم في ديارهم.

وهم يقتحمون الديار ويقودهم التيه ويلقون كل علامة تدل على إعلان الحرب كطرحهم السلاح في الطرقات طلباً للسلم والنجاة، وهم أشد الناس على الإسلام وأكثرهم عداءاً له، وقد قاتلوه ردحاً غير قليل من الزمن دون كللٍ أو سأم.

والآن وأمام فن الرسول ﷺ وقدرته القيادية يلقون أسلحتهم ويعلنون الاستسلام المهين.

---

(١) المغازي ٢: ٨١٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٢١٤.

(٢) الحزورة: سوق مكة وقد دخلت في المسجد لمّا زيد فيه (معجم البلدان ٣: ٣٧١).

(٣) المغازي ٢: ٨٢٦، وانظر شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٥، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢٨.

الأمر الثالث:

والسبق ينفع من الناحية الإعلامية المستقبلية، فسوف يقول الناس إن المسلمين كانوا سبّاقين إلى ساحة القتال، وينقل الرواة والتجارة والمارة في الطرق أخبارهم على هذا النحو، فيظهر المسلمون أمام أعدائهم بمظهر الهيبة والكِبر والإقدام إلى سوح القدر، فضلاً عن المشتركين في الحرب فعلاً.

مما يلحق الأذى والتخوف منهم في أولئك المعاندين المعادين والذين لم يحضروا ساحة المناجزة وهم كثُر، وقبائلهم متوزعة في بقاع الجزيرة العربية.

فقد فوجئ أهل سوق بدر والقبائل المجتمعة في الموسم هناك بجيش المسلمين الجرار، والقادم وفقاً للموعد المضروب مع قريش، والذي أطلقه أبو سفيان في أحُد، وعلم المجتمعون في السوق أهبة العسكر الإسلامي، والتزامه بموعده، وحضوره قبل قريش قريباً من حياض الموت.

وقد كان أحد المفاجئين بهذا الحضور، واستجابة الرسول ﷺ للتحدي، وإقباله مسرعاً للمنازلة غير مذعور، أو متصنّع للأعذار[١]، مَخشيّ بن عمرو.

جاء في مصادر التاريخ: (وأقبل رجلٌ من بني ضمرة يقال له مخشيٌ ابن عمرو، وهو الذي حالف رسول الله ﷺ على قومه في غزوة رسول الله ﷺ الأولى إلى ودان.

فقال ـ والناس مجتمعون في سوقهم وأصحاب رسول الله ﷺ أكثر أهل ذلك الموسم ـ: يا محمد! لقد أخبرنا أنه لم يبقَ منكم أحد، فما أعلمكم إلاّ أهل الموسم.

---

(١) كما فعل قادة قريش وعلى رأسهم شيطانهم أبو سفيان.

فقال رسول الله ﷺ: «ليرفع ذلك إلى عدوه من قريش، ما أخرجنا إلاّ موعد أبي سفيان وقتال عدوّنا، وإن شئت مع ذلك نبذنا إليك وإلى قومك العهد ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منـزلنا هذا».

فقال الضمري: بل نكفّ أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك.

وسمع بذلك مَعبَد بن أبي معبد الخزاعي فانطلق سريعاً، وكان مقيماً ثمانية أيام، وقد رأى أهل الموسم، ورأى أصحاب رسول الله ﷺ وسمع كلام مخشي، فانطلق حتى قدم مكة، فكان أوّل من قدم بخبر موسم بدر، فسألوه فأخبرهم بكثرة أصحاب محمد، وأنهم أهل ذلك الموسم، وما سمع من قول رسول الله ﷺ للضّمري)[1].

ونضيف هنا أن استثمار الزمن الاستثمار الأمثل كان له دور في إنهاء فاعلية بعض العناصر المعادية والمعلنة الحرب على الإسلام، بل وبعض القبائل قد كان هذا الاستثمار الزمني الرائع قد قطع أنفاسها واجتث صلتها بالحياة وباغتها بالموت المحتم، وأراح منها الدين وأهله، كما مرّ في كثير من سرايا الرسول الأعظم ﷺ إلى القبائل، وإلى أفراد اليهود ككعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق، وغيرهم.

ولولا تلك الاستفادة القصوى من عامل الزمن لأمكن تحول مجريات الأمور، واختلفت الخطوط البيانية للأقدار، وصدق من قال: (إن الزمن سيف إن لم تقطعه قطعك). أما في الحرب فإنه سيوف، إن أخذت بحجزتها أصبت بها عدوّك مجتمعة، وإن أخذ بها عدوك أصابك بها مجتمعة.

فهو ﷺ وبمجرد أن يعرف أن هناك استعداداً حربياً عند أحد القبائل، أو تهيئاً وتجمعاً لملاقاته يعد أصحابه ليسابقوا الريح ويخطفوا الفيافي في تلك الصحارى، ليصلوا عدوهم، وهو بعد لا يدري من أتى

---

(١) المغازي ١ :٣٨٨، وانظر امتاع الاسماع ١: ١٩٤، سبل الهدى والرشاد ٤ : ٣٣٨.

إليه، ويحسب أنه على أتم المجال لمباغتة النبي ﷺ ومدينته.

ولنأخذ مثالاً كبيراً واضحاً ومهماً لعناية الرسول ﷺ بعنصر المباغتة هذا، وكم يشدِّد عليه، ويلزم أصحابه الكرام في توجيه أنظارهم وباهتمام عالٍ إليه، وهذا المثال البارز هو في أحد الأحداث الكبرى والبارزة في تاريخ الإسلام ألا وهو فتح مكة.

وصحيح أن الكلام حول هذا المورد يأتي في خطة الرسول ﷺ في محافظته على السريّة والكتمان، إلاّ أنه يدخل هنا كذلك.

فهو ﷺ قد دعى ربّه ﷻ أن يفوّت على قريش فرصة الإحساس بمجيئه، والمعرفة بقدومه بقوله ﷺ: «**اللّهمّ خذ على قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتةً**، ويقال إنّه ﷺ قال: **اللّهمّ خذ على قريش أبصارهم فلا يروني إلاّ بغتةً، ولا يسمعون بي إلاّ فجأةً**»[1].

فالرسول ﷺ يسعى جاهداً، وبمعونة الغيب، وطلبه الملح عليه أن تكون ورقة الزمن بيده لا بيد عدوّه؛ لعلمه ﷺ بأنها ورقة رابحة إذا استغلت.

وهي إذا فلتت من اليد فسوف تقلب في وجوههم المحن والمحن.

لذلك رتّب النبي الأكرم ﷺ عدّة إجراءات ـ سوف يأتي ذكرها فيما بعد ـ ليحصل على بغيته في مباغتة القوم، وقد أفلح في ذلك كل الفلاح وبدون أدنى شك.

وكان فتح مكة ناتجاً لجملة تحرزات، وجملة خطط، إحداها العناية بعنصر الزمن.

---

(١) المغازي ٢:٧٩٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٥.

وهنا لابد من ذكر ملاحظة:

هي كون الرسول وهو يبادر الى ساحة القتال لايعني أنه يريد البدأ بالقتال، ففرق واضح بين الحضور والبدأ، وليس بالضرورة أن يكونا في معنىً واحد كما لا يخفى.

٢ـ السير في الليل والكمون في النهار:

لقد اعتمد الرسول المصطفى ﷺ على قاعدة ثانية في إطار استثماره للزمن ألا وهي قاعدة السير في الليل، والكمون والسكون في النهار[1]،وهذه القاعدة لها انعكاساتها الإيجابية على مسارات الحرب في ما بعد، لما تحمله من أهمية نبحث عن جزءٍ منها إن شاء الله في أمورٍ عدّة:

الأمر الأول:

إن السير في الليل دون السير في النهار يساعد حتماً في إخفاء القوات العسكرية الإسلامية نسبياً، مما يسهل في إتمام خطتهم الحربية التي يقع بضمنها السرية والكتمان ومباغتة العدو، والتي لا يمكن المساعدة على تحقيقها إلاّ ببعض الأساليب، ومنها السير في الليل والكمون في النهار.

الأمر الثاني:

يقلل من جهد المقاتلين فمسألة المواصلة في المشي أمر مرهق، ويستنزف القدرة الجسدية والطاقة النفسية للمقاتلين، وينهب جزءاً من استعدادهم للحرب، خصوصاً إذا كان المسير بطريقة غير مرتبة.

الأمر الثالث:

لِما يتميز به النهار من الحر وخصوصاً في تلك الصحارى الساخنة

---

(١) وقد عمل بها وأمر سراياه وفصائله للعمل بها، والتزام التنفيذ الدقيق لها.

المفتوحة والشمس العنيدة الحارة، فيكون الكمون في النهار معناه الاحتفاظ بالجهد الذي يمكن أن يضيع في ما لو ساروا نهاراً، ولكن في الليل حيث لا شمس ولا حر، ولا هجير يسعر، يمكنهم السير لمسافات مضاعفة إذا ما قورنت بمسير النهار، وبطاقات مخزونة وأنفس منفتحة غير منزعجة أو متضايقة من حرارة، أو هواء السموم، أو رمل الجزيرة الساخن.

الأمر الرابع:

والمسير في الليل نافع في عدم إثارة الأجواء، والتأثير على السالكين في هذه الطرقات نهاراً، من قوافل تجارية أو أناس يريدون المرور من خلالها إلى مناطق أخرى، أو حتى الساكنين هناك فقد يرهبهم الأمر ويؤذيهم، فيحمل هذا المعنى جنبة إنسانية وأخلاقية.

الأمر الخامس:

فيها دلالة على التخطيط والتنظيم والضبط، فالجيش المنظم والسائر وفق خطة مرسومة يكون بعيداً كل البعد عن العشوائية والتخبط وردم الأمور بجهالة وتعصب.

ملاحظات

الأولى: إننا لا ندّعي هنا أن الرسول ﷺ كان سبّاقاً في كل حروبه، فإن بعض المقتضيات الواقعية فرضت وجود العدو قبله كما في معركة حنين.

الثانية: إن بعض الأماكن المختارة هي من توفيقات الغيب بضرورة مباشرة أي الغيب بمعناه الأخص.

الثالثة: ويمكننا القول إن الرسول ﷺ بما هو رسول اسلام، فإن إصراره على مباغتة الأعداء كان لأجل عدم اراقة الدماء مهما أمكن، ففي

فتح مكة مثلاً، لو كان المشركون يعرفون بمجيء الرسول الأكرم ﷺ الى مكة لكانوا استعدوا له، وحينها ستقع الحرب لامحالة في شوارع وأزقة مكة، أو على مشارفها ولنا أن نقدر بعد ذلك أعداد الذين سيقعون قتلى من الطرفين، أما في حال المباغتة فلم تقع حرب أصلاً، واستولى الرسول ﷺ على مكة وأطلق سراح جميع من فيها؛ لأنه رسول السلام وجهاده حرب لأجل ارساء قواعد السلام.

وسنتحدث فيما بعد عن سبب عدم بدء الرسول في الضربة الأولى في القتال[1].

وإليك بعض التفاصيل لاستثمار عنصري الزمان والمكان في بعض المعارك....

---

(١) وذلك في غضون كلامنا عن استفراغ الرسول الأعظم ﷺ لكامل جهده المبارك في أخذ الاحتياطات الازمة للحرب.

الاتجاه الثاني

الاستفادة من الجهة المكانية والزمانية في معركة بدر

حدثنا القرآن الكريم عن موقع المسلمين القتالي في يوم بدر ويظهر لنا من هذا الاختيار المكاني أهمية تظافر الجنبة المكانية والزمانية في تهيئة أجواء أكثر ملائمة لكسب الحرب.

قال ﷻ: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقد ذهب علماء التفسير في تحديد العدوة الدنيا والعدوة القصوى بأنهما: (﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي نزول بعدوة الوادي القريبة إلى المدينة وهم أي المشركون نزول ﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة...)[2].

---

(١) الأنفال: ٤٢.

(٢) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي٤:٤٧١، تفسير القمي١:٢٧٨، تفسير جوامع الجامع للشيخ الطبرسي ٢:٢٦، تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ٩:٩١، تفسير ابن كثير ٢:٣٢٦، جامع البيان لابن جرير الطبري١٠:١٤، معاني القرآن للنحاس ٣:١٥٩، الدر المنثور لجلال الدين السيوطي٣:١٨٨، فتح القدير للشوكاني ٢:٣١٣.

والعدوة: (شفير الوادي ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ قال شفير الوادي الأدنى وهم بشفير الوادي الأقصى)[١].

وثبّت المؤرخون ذلك: (صفّ رسول الله ﷺ أصحابه قبل أن تنزل قريش، وطلعت قريش ورسول الله ﷺ يصفّهم، وقد أترعوا حوضاً، يَفرُطون فيه من السُّحر، ويقذفون فيه الآنية... ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف، فاستقبل المغرب، وجعل الشمس خلفه، وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس.

فنزل رسول الله ﷺ بالعَدوة الشامية، ونزلوا بالعَدوة اليمانية، عُدوتا النهر والوادي جنبتاه)[٢].

ومن المعقول أن يكون موقع المسلمين في العدوة الدنيا وقد أعطوا ظهورهم المدينة؛ لأنهم يدافعون عنها، والذي يدافع عن شيء لابدّ له أن يقف أمامه، مالم يكن هناك مانع يكون تغيير الأماكن بسببه لصالح عملية الدفاع.

إذن كان موقع جيش المسلمين هو الأقرب للمدينة المنوّرة ويكون بهذه الكيفية قد أعطى ظهره لها؛ لأنه في قبال جيش المشركين الذي هو بالعدوة القصوى، أي في شفير الوادي الأبعد عن المدينة وجيش المسلمين الأقرب إليها، فيكون جيش المشركين على هذا المنوال قد أعطى ظهره مكة واستقبل المدينة.

سيما أن الوقت كان صباحاً وامتدت المعركة حتى بعد ظهيرة ذلك اليوم مما يعني أن الموقع المكاني نفعهم بالاستفادة من زمان طلوع الشمس حتى ارتفاع عمود النهار بارتفاعها في كبد السماء، وهي مسلطة ضوءها على عيون

---

(١) تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ٢: ٢٥٩.

(٢) المغازي ١: ٥٦، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٣.

القوم المشركين دون جيش المسلمين، وهذا التسلط المباشر للشمس له آثار سيئة ضارة على الجندي المقاتل من الناحية النفسية والعضوية.

من الناحية العضوية، فان وقوع أشعة الشمس على العين يمنع العين من النظر أو التدقيق في النظر، وهذا كان سبباً هاماً في التأثير على كافة صفوف الجيش.

فالفارس لا يرى بوضوح بسبب أشعة الشمس مضافاً لحرارتها، والمشاة يعانون من الأمر ذاته، وكذا الرماة فهم يعتمدون على عيونهم في التصويب على أهدافهم كما هو معروف، وحتى الخيول التوت أعنتها لِما جابهته من أمواج الأشعة الشمسية.

وهذا بجملته سيكون له انعكاسات معنوية سيئة إذ إنه سيخلق حالة من التوتر النفسي والاضطراب بين صفوف المقاتلين، ثم خوفهم من أن سهامهم الطائشة ستعود عليهم من المسلمين بضربات مركّزة حيث خدمتهم الشمس بقدر ما أضرت بعدوهم، وهذه ناحية نفسية مهمة.

كما أن الإنسان المواجه للشمس يتضايق منها ليس فقط لأنها تؤثر على نظره، بل لمجرد كونها بوجهه حتى لو لم تؤثر على نظره، ونراه يستخف ثقل الشمس إذا كانت أشعتها ملقاةً على ظهره.

ثم اختار الرسول ﷺ مكاناً لجيشه لا يكون نافعاً له فقط من جهة طلوع الشمس وانتصابها وآثار ذلك على جيشه، بل مكاناً في العدوة الدنيا حيث آبار بدر التي تمكن ﷺ من إغلاقها بعد أن استسقى وجيشه منها، وبعد أن صنع منها حوضاً يراد منه الاحتياط وقت الشدّة.

ويجب أن لا ننسى أن وقوع معركة بدر الكبرى في شهر رمضان يجعلها واقعة في أهم الأزمنة من السنة وأفضلها؛ وذلك لقدسية هذا الشهر عند الله ﷻ، وعليه سيكون إندفاع المسلمين أشد في مقاتلة أعداء

الله ﷻ، ومن الفرار من الزحف أو عمل ما لا يرضي الله ورسوله أبعد.

ثم هو ليس شهراً للصيام فقط وانتعاش الروحية، بل هو شهر الله ﷻ وشهر القرآن الكريم، ولعلّ في تسمية يوم بدر بيوم الفرقان، إشارة إلى ذلك فإنه لا يذهب عن النابه ان القرآن اسمه الفرقان[1] أيضاً، وبذلك يكون انتصار المسلمين في بدر انتصاراً للقرآن الكريم الذي هو الحق، على الشرك الذي هو الباطل فكانت بدر يوم الفرقان.

فشهر رمضان من أرقى الأزمنة التي احتضنت معركة بدر، وانتصف به أهل القرآن الكريم من أعداء الله ﷻ والوحي والرسول ﷺ.

وهذا بدوره له منافع تحرك معادلات الحرب لصالح الرسول ﷺ:

المنفعة الأولى:

تزود المسلمين بالماء ليمكنهم الاستمرار بالحرب والمقاومة.

المنفعة الثانية:

حرمان المشركين منه ليصيبهم العطش عند القتال حين يشتد امداد الحر، وحين تكثر الحاجة إلى الماء عند الكرّ والفر.

المنفعة الثالثة:

ليجعل من هاتين النقطتين عاملاً نفسياً ضاغطاً يقهر نفوس الأعداء،

---

(١) قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١).

وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ٣ ـ ٤).

كما أنه عامل طمأنينة لنفوس المؤمنين المسلمين.وبهذا يحوز الرسول ﷺ الجنبتين المكانية والزمانية، فيكون تأثيره واضحاً في مسير القتال.

الاتجاه الثالث

الجنبة الزمانية والمكانية في معركة أحُد

لقد كانت الاستفادة من الموانع الطبيعية في معركة أحُد أمراً يظهر إحكام الخطة القتالية في تلك المعركة بشكل باهر حقاً.

ومن جانب آخر يظهر لنا المهارة الفذة الفريدة في انتخاب أنسب الأمكنة، أو الذي لا يناسب خوض القتال ـ مع رجاء التحصن والسلامة في الموقف العسكري ـ غيرها، مع ملاحظة قلة المسلمين عدّةً وعدداً، ومع ملاحظة الأهداف التي جاء بها العدو وخطورة تلك الأهداف، ومع ملاحظة نفسية المشركين ومقدار التوتر العالي الذي كان يفتل نفوسهم بقوة.

إن أرض معركة أحد ـ وهي ثاني أهم معركة خاضها المسلمون مع أعدائهم ـ تنبئك عن حكاية الذكاء الحاد والفطنة الصارمة، والفهم الحاضر في أخذ الاحتياطات والتدابير العسكرية اللازمة للرسول الأمجد محمد ﷺ في انتقاء مكان وقوفه على ذلك الموقف وحسن اختياره له.

ونتلمّس من هذه الرواية بعض ما يهم الحال:

روى صاحب المغازي: (وجعل رسول الله ﷺ يصفّ أصحابه، وجعل الرماة خمسين رجلاً على عَيْنين، عليهم عبد الله بن جُبير، وقيل عليهم سعد بن أبي وقاص، قال ابن واقد: والثبت عندنا عبد الله بن جبير.

وجعل رسول الله ﷺ يحثّ أصحابه، فجعل أحُداً خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عَيْنَيْن عن يساره، وأقبل المشركون فاستدبروا المدينة في الوادي

واستقبلوا أحُداً)[1]، والذي نتلمسه هو:

أولاً: إن الرسول ﷺ أحرج المشركين بانتخابه لمكان مرموق وستراتيجي للغاية، وهذا الإحراج منصب في كونهم لا يتمنون أن يحصل محمد ﷺ على نقطة تفوّق حتى على صعيد خدمة الموانع الطبيعية له، وهذا من شأنه أن يودع الحسرة في نفوسهم، ويؤثر عليهم من الجانب المعنوي.

ثانياً: إن اختيار الرسول ﷺ لأن يكون جبل أحُد وراء جيشه يعني وضع مانع طبيعي قاهر لا يتمكن العدو مع وجوده أن يطعن ظهر المسلمين أو يلتف عليهم، حيث لا شيء وراء ظهورهم إلاّ الجبل المكين الثابت.

هذا الاستثمار الأول، والاستثمار الثاني للموانع الطبيعية من قبل الرسول الأعظم ﷺ هو أن جبل أحُد سوف يحمي ظهر الجيش الإسلامي من تسلل الأعداء إليه من الخلف، حيث لا توجد ثغرة هناك، ولكن هل يتمكن أحد أن يحمي جناحي الجيش المسلم.

لذلك عمد الرسول الأعظم ﷺ للاستفادة من جبل عَيْنَيْن الذي هو جبل صغير أو ربوة مرتفعة، وجعل منه الرسول الأكرم ﷺ موقعاً لايضاهى في مسار الحرب مع المشركين.

فالرسول ﷺ أدرك أن القوم قد يتمكنون من الالتفاف على المعسكر وبالضبط من الجناح الأيسر له؛ لأنه ﷺ وضع جناح جيشه الأيمن على منحدر حاد لجبل أحُد مما يعني حصوله، أو استفادته من مانع طبيعي في جهة أخرى من الجيش، وبقي الجيش مكشوفاً من جهة جناحه الأيسر.

ولكن هذه الربوة العنيدة هي التي ستنقذ خطة الرسول وتهبها

---

(١) المغازي ١: ٢٢٠، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣١.

تكاملاً وتناسقاً مذهلاً، فمع احتمال مجيء جيش العدو من الجناح الأيسر للمسلمين كان على الرسول ﷺ أن يفكر باستغلال الربوة.

وفعلاً وضع عليها خمسين رجلاً من رماة المسلمين وكماتهم، لغرض أن تكون هذه المجموعة القتالية من الرماة الظهير الحافظ والمؤمّن لمؤخرة الجيش من التفاف الفرسان عليه وعلى جناحه المكشوف لولاهم.

ولعلمه ﷺ بأهمية هذا الموقع وخطورته في حال تخلي الرماة عنه أو نزولهم عنه، شدد الرسول ﷺ أيّما تشديد على الرماة وحذرهم من النـزول عن الربوة بلا مزيد عليه من التأكيد والتشديد، مظهراً مخاوفه من هذا المكان وقلقه البالغ بشأنه فيما إذا غادره الرماة.

وأمرهم الرسول ﷺ بالثبات في المواقع المعينة لهم على ربوتهم، سواء كانت الحرب له ﷺ أو عليه، وقد ختم مقالته الشريفة معهم بأن أشهَد الله على ما قاله لهم لكي يزدادوا إيماناً وانضباطاً وتسليماً، ثم وجههم في كيفية رشق النبال: (وتقدم رسول الله ﷺ إلى الرماة فقال:

«احموا لنا ظهورنا، فإنّا نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم، حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، اللّهم إنّي اشهدك عليهم! وارشقوا خيلهم بالنَّبل، فإن الخيل لا تُقدِم على النَّبل») [1].

وفي وضع الرماة في مواضعهم يكون الجيش الإسلامي قد تم تحصنه بالتمام فلا يمكن اختراقه من الخلف لوجود جبل أحد، ولا يمكن الهجوم عليه من الجناح الأيمن؛ لأن الرسول ﷺ أعطى جناحه الأيمن لسفح الجبل ولا يمكن اقتحامه من الجناح الأيسر لوجود الرماة الذين سينضحون المهاجمين القادمين من جيش الشرك بالنبل.

---

(١) المغازي ١: ٢٢٤، عنه في شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٣٥.

وبقيت إمكانية المناورة بالجيش بكل صنوفه معطلة بالنسبة لجيش المشركين في هذه الجهات الثلاث، بينما هذه المناورة بقيت مفتوحة بيد جيش المسلمين أن تمكنوا منها، وهذه نتيجة مهمة في سلب قدرة العدو في المناورة على محاور ثلاثة أصبحت ملغاة بالكامل؛ لدقّة التخطيط النبوي الشريف في ميدان المعركة واستثماره الأقصى لموانع الطبيعة.

والدليل القوي على إحكام هذه الخطة، أو عظمتها، هو أن جيش المشركين لم يتمكن من التوغل في صفوف الجيش الإسلامي ما دام الجيش الإسلامي ملتزماً بأوامر الرسول ﷺ في عدم التزحزح عن خطته التي رسمها له.

وفي حال كون الرماة تزحزحوا عن الربوة التي منعهم الرسول النـزول منها وفي أسوء الأحوال «وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا»، في ذلك الحال فقط تزلزل جيش المسلمين وحلّ ما حلّ به.

ففتحُ ثغرة واحدة كفيل أن يترجم صحة مخاوف الرسول الأعظم ﷺ لنا بوضوح «فإنّا نخاف أن نؤتى من ورائنا» وفعلاً تمكن الجناح الأيمن لقريش بقيادة خالد بن الوليد استثمار تلك الثغرة القاتلة ـ والتي حصلت بسبب عصيان من قبل المسلمين ـ والتف من خلالها على جيش المسلمين، وساعده جناحهم الأيسر بقيادة عكرمة بن أبي جهل في تغذية عملية الالتفاف فيما بعد ليجعلها مؤثرة في حركة الميدان القتالية، خصوصاً أن كلا جناحيهم من الفرسان.

روى الواقدي: (قال رافع بن خديج: فلمّا انصرف الرماة وبقي من بقي، نظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلّة أهله، فكرّ بالخيل وتبعه عِكرِمَة في الخيل، فانطلقا إلى بعض الرماة فحملوا عليهم.....)[1]

---

(١) المغازي ١: ٢٣٢.

وفي هذه الجنبة المكانية استثمار آخر له علاقة بزمن وجهة طلوع الشمس، أي له علاقة بالجنبة الزمنية، حيث جعل رسول الله ﷺ الشمس عند ظهور المسلمين، وبالمقابل ستكون عيون المشركين متجهة نحوها كما صنع تماماً في بدر الكبرى، ليأتي الكلام هنا في منفعة ذلك ما جئنا به هناك.

وخلال فترة تشرفنا بحج بيت الله الحرام وزيارة قبر ومسجد الرسول المصطفى ﷺ في سنة ١٤٢١هـ وقفنا في ذلك الموقف المشرف والمشهد المعظم نستحضر مواقف البطولة والإباء، ونشم عطر الشهادة والفداء، ورأينا بأُمّ أعيننا جبل أحد، وربوة الرماة (عينين).

واستوقفنا خزين الذاكرة ليعيدنا إلى مقاطع الزمن الأولى من الدعوة المحمدية المباركة الذي يجد الإنسان نفسه فيها مضطراً للخضوع إجلالاً وإكباراً لجند الإسلام العظام ولعظمة النبي ﷺ بكل أبعاد شخصيته الموقرة الشامخة.

وهناك ندرك أن أبرع المخططين العسكريين وأكثرهم نضجاً واستيعاباً ينحني مهابةً لجلال عقل الرسول الأعظم ﷺ، وخطته القتالية المحكمة التي لا يمكن تصور غيرها في مواجهة الضلال، وأفواج الشرك ـ إذا أمكنه تصورها كما هي ـ.

الاتجاه الرابع

خطة الرسول الأعظم ﷺ في الخندق من الجهة المكانية والزمانية

وهنا صورة مشرقة أخرى عن الاستثمار الأمثل للمكان والذي يتجلّى في ما يلي:

الإستثمار الأول:

بقاء الرسول ﷺ في المدينة والتحصن بها دون أن يخرج منها وهذا يعني أن اختياره المكاني الأولي كان اختياراً موفقاً في قراره المعروف بعدم الخروج من إطار البقعة المكانية التي حددها رسول الله ﷺ في داخل المدينة، وهذا يمكن استقراؤه من نتائج المعركة.

فلو فرضنا أن الرسول الأعظم ﷺ خرج بجيشه من هذه الدائرة المكانية وجعل مواجهته لجيش الأحلاف في خارجها، لما كان موقفه العسكري القتالي في حفظ المدينة والمحافظة على سلامة جيشها بالنحو الذي خرج به الرسول ﷺ في مكانه الذي اتخذه ميداناً للحرب.

الإستثمار الثـانـي:

هذا لوحده سلب المشركين أيضاً قدرة المناورة كما سُلِبَت منهم في أحد من قبل، كما أن هذا السلب أوقع المشركين في حيرة في كيفية تناول

جيش المسلمين ومناوشتهم، كما أنه وبفعل تلك النقطتين قد أثّر على استعدادهم النفسي؛ لأن حرق الأوراق وسلب الخيارات يحرق بدوره أعصاب المقاتلين ويسلبهم رشدهم.

وحيث نستعرض رواية اختيار الرسول ﷺ لمكان جيشه هنا، فسوف نعقبه ببعض التعليقات:

قال الواقدي في مغازيه: (إن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينـزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعَاً [1] خلف ظهره، ويُخندِق من المذاد [2] إلى ذباب إلى راتج [3].

فعمل يومئذٍ في الخندق وندب الناس، فخبرهم بدُنوّ عدوهم، وعسكرهم إلى سفح سلع، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم.... ووكل رسول الله ﷺ بكل جانب من الخندق قوماً يحفرونه.

فكان المهاجرون يحفرون من جانب راتج إلى ذباب، وكانت الأنصار تحفر من ذباب إلى جبل بني عبيد، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان) [4].

فهذا البيان المختصر هو في الواقع بيان وافٍ في توضيح خطة الرسول الأعظم ﷺ في قتاله مع أحزاب الكفر هذه المرة والذي هو جيش جرار وفيه قادة الجزيرة الكبار، ثم لا ننسى أهدافهم والأغراض الخطيرة التي

---

(١) سلع: الجبل المعروف الذي بسوق المدينة (وفاء الوفا ٤: ٤٢٣).

(٢) المذاد: اسم اطم لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح (وفاء الوفا ٢: ٣٧٠).

(٣) راتج: الجبل الذي إلى جنب جبل بني عبيد غربي طوفان (وفاء الوفا ٢: ٣١٠).

(٤) المغازي ٢: ٤٤٥، انظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٦٥.

تحدوهم، ولا ننسى أيضاً حال المسلمين من القلة وبنفس النقطتين المهمتين السابقتين في بدر وأحُد، ألا وهما العَدد والعُدد.

على أية حال، فحديثنا هنا في الجنبة الزمانية والمكانية، ولدينا حولها تعليقات:

التعليقة الأولى:

إن الرسول ﷺ استخدم نفس المانع الطبيعي وسخره لصالحه كما فعل ذلك في أحد، حيث وضع جبل سَلع إلى ظهره في حرب الأحزاب، ليؤدي نفس الغرض الذي أدّاه جبل أحد في معركة أحد سالفة الذكر.

التعليقة الثانية:

إنه ﷺ استفاد من الموانع الاصطناعية، ونقصد من ذلك حفره ﷺ للخندق الذي أدى دوراً مهماً في وقاية المسلمين من هجمات المشركين، وجميع قوى التحالف المشترك آنذاك، بل أدى إلى يأسهم من الهجوم والنيل من المسلمين والتمكن منهم إلى أن أتى أمر الله ﷻ وجرّوا ذيول هزيمتهم خائبين.

التعليقة الثالثة:

إن الرسول الأعظم ﷺ استفاد مرة أخرى من الموانع الطبيعية، أي من الجبال في جعل أطراف الخندق متصلة بتلك الجبال لجبل خربى، وسفح جبل سلع، وسفح جبل المذاد، وجبل راتج إلى جبل بني عبيد وذباب، وهذا يعني التأمين التام على إدخال تلك الموانع الطبيعية في إطار المواجهة مع العدو عن طريق وصل أطراف الخندق بهن.

التعليقة الرابعة:

إنه ﷺ استفاد من الآطام في حفظ الذراري والنساء.

عن المغازي: (ورفع المسلمون النساء والصبيان في الآطام، ورفعت بنو حارثة الذراري في أُطمهم وكان أطماً منيعاً، وكانت عائشة يومئذٍ فيه، ورفع بنو عمرو بن عَوف النساء والذرية في الآطام، وخندق بعضهم حول الآطام بقُباء، وحصّن بنو عمرو بن عوف ولفّها[١]، وخَطْمَة، وبنو أمية، ووائل، وواقف، فكان ذراريهم في آطامهم) [٢].

وقد شدد رسول الله ﷺ على ضرورة إلحاق الذرية إلى الآطام والاستفادة من مانعيتها، (ولكنه لما لحم الأمر أمر من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذراري) [٣].

وبهذه السياسة المحكمة والحنكة في إدارة دفة الحرب، وعلى تلك الموانع الشامخة، إلتَوَت سيوف الأعداء، وانكسرت رؤوس رماحهم على صلابتها وقسوتها، ثم عادوا منها يتلمسون جماجمهم لئلاّ يشدخَها وقع الحجر الجبلي الذي كان ينقله الغلمان والرجال، ويقذفون به رؤوس الأعداء في تلك الأيام العصيبة.

وفي الواقع هذه تعد استفادة أخرى من تلك الجبال الصماء، بالإضافة إلى عنصر الحجارة التي كان المسلمون ينقلونها لغرضين: ليرصفوا بها الخندق ويرصّوا أطرافه، وليرموا بها معسكر الأعداء: (وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رؤوسهم في المكاتل[٤]، وكانوا إذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سَلع... وكانت الحجارة

---

(١) اللّف: القوم المجتمعون (القاموس المحيط ٣:١٩٦).

(٢) المغازي ٢:٤٥١.

(٣) المغازي ٢:٤٥٣.

(٤) المكتل: (كمنبر) زنبيل يحمل فيه التمر أو العنب إلى الجرين وقيل هو شبيه بالزنبيل (يسع خمسة عشر صاعاً) والجمع مكاتل. تاج العروس ٨: ٩٤.

من أعظم سلاحهم يرمونهم بها)[١].

وعليه فكما حاربهم الرسول ﷺ بالغيب، والصبر، والعقيدة، فكذلك حاربهم بالطبيعة، أو سخرها لحربهم، ويصح أن نقول: إن الموانع الطبيعية والعوامل المكانية كان لها الدور المصيري والبارز في حسم معركة الأحزاب لصالح المسلمين ليبلغوا مرتبة النصر الباهر فيها.

---

(١) المغازي ٢:٤٤٦.

الاتجاه الخامس

كلام في خطة الرسول ﷺ في خيبر
في اختيار الزمان والمكان

أولاً: الاختيار الزماني

إن دقة الاختيار لزمان المعركة في غزوة خيبر تثير العجب والانبهار بقدرة الرسول ﷺ التخطيطية، ومستوى نظره العميق.

وليس نحن في مضمار تقييم هذه الشخصية الفذّة الفريدة ـ حاشا وكلاً ـ وهو محمد الرسول المصطفى ﷺ، وإنما في مجال الاستفادة منها من خلال السير معه ﷺ في جريان أحداثه التاريخية، وللوقوف على بعض نقاط العظمة في تخطيطه وقراره صلوات الله عليه وعلى آله.

عندما نلاحظ أن الرسول ﷺ إنما غزى خيبر في هذا المقطع من الزمن دون غيره، نرى ان عامل الزمن كان منظوراً بعناية فائقة في تخطيط الرسول الحربي آنذاك؛ لأمور كانت في ذروة الأهمية والاعتبار، ولو فرضنا أن الرسول ﷺ كان قد غزى خيبر قبل هذا الوقت لوقع في جملة من الإشكالات الستراتيجية من جهة التخطيط.

بينما غزوته لخيبر في هذا الوقت بالذات تمثل حلاً لتلك الإشكالات، أو إلغاءً لها جميعاً.

وهذا الكلام يجرنا إلى التفصيل في بعض الامتيازات التي جعلت الرسول ﷺ يغزو خيبر في الوقت الذي غزاها دون غيره، من الأوقات.

الامتياز الأول:

إنها ـ أي حرب خيبر ـ قد جاءت بعد أن تم الفراغ من مشكلة اليهود بشعبها الثلاث في داخل المدينة وضواحيها، أو بداخل المدينة وعند حدودها، وهم يهود بني قينقاع، ويهود بني النضير، ويهود بني قريظة.

ومع وجود هؤلاء اليهود لا يمكن بحال، التفكير في الزحف إلى حصون خيبر ويهودها، والإقدام على خطوة من هذا النوع لعله يعتبر ضرباً من ضروب الجنون.

أما لو قلنا لماذا؟ فالجواب سوف يكون متمثلاً بالنقاط التالية:

١ ـ لوجود اليهود والمنافقين في داخل المدينة ومن حولها، وهؤلاء سيجدون الفرصة سانحة والأعذار مكتملة للسيطرة على المدينة، والإجهاز على حكومتها.

٢ ـ بُعد المسافة بين المدينة وخيبر.

٣ ـ قلة عدد المسلمين وعدّتهم.

٤ ـ هناك ليس فقط خيبر وإنما خيبر وحلفاؤها، ومنهم قريش التي عزلها الرسول ﷺ أخيراً بميثاق الحديبية.

٥ ـ عدم وجود المبررات الكافية في الغزو، أو لعله لا يوجد أي مبرر يُستَند إليه في موضع الإحتجاج والإحتكام، في لماذا الغزو؟ وغير ذلك.

الامتياز الثاني:

إنها جاءت بعد صلح الحديبية، ولقد رأينا في كلامنا السابق حول

أهمية الصُلح، كم من الآثار الإيجابية التي حملها هذا الصلح، وكم من الألطاف التي صارت ببركته.

وأحد أبرز هذه المنافع لذلك الصُلح:

هو انفكاك الأصرة القوية بين قريش وحلفاءها، مع اليهود في خيبر، فليس بمقدور يهود خيبر أن تستعدي قريش على محمد النبي ﷺ، أو تطالبه بموقف، وإن كان ليناً يُشَمُّ منه ريح النصرة لأهل خيبر.

ولا بمقدور قريش أن تقوم بأي فعل يُفهَم منه تجاوزاً للصلح، أو نقضاً له، فتكون صاحبة الموقف السلبي، الذي قد يعطي لمحمد ﷺ الضوء الأخضر لأن يفعل ما يريده مع قريش، وقريش عالِمة أنها لم تكن قريش السابقة بعد الصُلح ـ وقد تطرقنا لبعض هذه المعاني في بعض أحاديثنا السابقة ـ.

وعلى أية حال أصبحت خيبر بعد الحديبية معزولة سياسياً وعسكرياً وأمنياً، وقريش كذلك تعاني من نفس العزلة الخانقة.

وعلى هذا يكون عزلهم البعض عن البعض الآخر يعني أهمية خاصة في مجال الحسابات العسكرية والخطرة من قبيل الحرب مع خيبر ويهودها، ولو كان ثمة عدم اتفاق بين قريش والمسلمين، لَكان الإقدام على خيبر لا يخلو من خطورة ومجازفة واضحة.

الامتيـاز الثالـث:

لم يعطِ الرسول الأعظم ﷺ فاصلة طويلة بين حدث الحديبية، وبين فتح خيبر وغزوها، تحسباً للاحتمالات الطارئة، والظروف الجانبية التي قد تفسد عليه أمره، فيما إذا حاولت قريش نقض الصلح، أو مجرد أنها تنوي التلويح بذلك.

فلم يمضِ ما يقرب الشهر بين صلح الحديبية وقرار الرسول ﷺ في غزوة يهود خيبر، حتى انقضّ الرسول ﷺ على اليهود ودكّ حصونهم، مستفيداً في ذلك كله من حداثة صلح الحديبية وقربه الزماني الحاصل قبل شهر تقريباً.

الامتياز الرابع:

وكانت غزوته ليهود خيبر في فصل الصيف وليس في فصل الشتاء ـ كما هو منقول في احدى الروايتين ـ وأعتقد أنّه من المعلوم كم من المضار المترتبة عليه ﷺ وعلى جيشه وعسكره، وعلى أهدافه فيما لو هاجم في الشتاء.

فالبرد والهواء والمطر ليس من صالحه ﷺ بالمرّة، وإن كانت مفيدة ليهود خيبر، حيث هم داخل حصونهم آمنون، والطبيعة تحارب عدوهم في خارج الحصون، وتكفيهم أذاه أن تضطره إلى الفرار والهرب.

الامتياز الخامس:

وجاءهم بالوقت الذي لا يحتملون مجيئه من الناحية الكليّة ـ أي في هذه الأيام بالذات ـ ومن الناحية الجزئية، إذ جاءهم في ليل وليس في نهار، إنما صبّحهم بجنوده ﷺ وقد جابهت حصن خيبر.

أما لماذا لا تحتمل اليهود مجيئه وبهذا الوقت؟ فللأسباب التالية:

١ ـ لأنه ﷺ بعيد عنهم، والمسافة البعيدة تحتاج إلى جهد ووقت، ومحمد ﷺ قد عاد قبل أقل من شهر من الحديبية، فهل يُعقل أن يقود جيشه وبهذه السرعة إلى خيبر، فكان عليه أن يُريح جنده بعد سفرة الصلح المتعبة المرهقة، ويبعدهم ولو قليلاً عن ميادين القتال، ليلتقطوا أنفاسهم التي طالما قطعها رهج الحرب، واللهاث وراء الفرسان في سوح المطاردة والصراع.

٢ ـ لأن لهم حصوناً عظيمة فارعة، وقلاعاً تَرَّسَتها الطبيعة، فكانت حامية لهم، مُعَجِّزَة لغيرهم ممن يريد اقتحامها عليهم.

وكان عند اليهود قناعة تامة بأن حصونهم محكمة منيعة لا يمكن أن يمسهم السوء وهم فيها قط: (فأشار عليهم الحارث أبو زينب اليهودي، بأن يعسكروا خارجاً من حصونهم ويبرزوا لجيش المسلمين، فقالت اليهود: إن حصوننا هذه ليست مثل تلك، هذه حصون منيعة في ذرى الجبال، فخالفوه وثبتوا في حصونهم)[١].

٣ ـ لأن لهم دعاية فاعلة من اليهود والمنافقين في أوساط المسلمين هناك بالمدينة، ولهم ألسنة تطلق الدعايات وتحاول إخافة المسلمين، وتروعهم من بطولات اليهود المزعومة، ومن قلاعهم الشامخة، ومن ألوفهم المؤلفة.

عن الواقدي: (وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمنع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرى الجبال، والماء واتن[٢]، إن بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبةً إلاّ بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟

فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ، فيقول أصحاب النبي ﷺ: قد وعدها الله نبيّه أن يُغَـنِّمَهُ إيّاها)[٣].

بل كان اليهود الساكنون في المدينة غاضبين لخروج النبي ﷺ كارهين له، لأنهم عرفوا ما معنى ذهاب رسول الله ﷺ إلى خيبر، وكيف يكون أمر خيبر إذا نزل بساحتهم الرسول ﷺ.

---

(١) المغازي ٢:٦٣٧.

(٢) وتن الماء وغيره: أي دام ولم ينقطع.

(٣) المغازي للواقدي ٢:٦٣٧.

نعم إنهم كانوا موادعين للمسلمين باعتبارهم أنهم من يهود المدينة، إلاّ أن هذا لا ينفي ارتباطاتهم السرّية والعلنية مع يهود خيبر، والأحداث القبلية ـ والتي ذكرنا جملة منها سابقاً ـ كاشفة عن هذه الارتباطات.

بل كان بعضهم يضغط على المسلمين إن كان له دَينٌ في ذمته، أو حقّ عليه فجعلوا يعجّلون المطالبة به، ولا يرضون إلاّ باسترجاعه.

لننظر إلى هذه الرواية المتضمنة لسلوكية اليهود المنحرفة المشبوهة مع المسلمين: (فلما تجهز الناس إلى خيبر شقّ ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعون لرسول الله ﷺ، وعرفوا أنهم إذا دخلوا خيبر أهلك الله أهل خيبر كما أهلك بني قينقاع، والنضير، وقريظة.

قال: فلما تجهزنا لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحدٍ من المسلمين حق إلاّ لَزِمَه، وكان لأبي الشُّحم اليهودي عند عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه.

فقال: أجّلني فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقّك إن شاء الله، إن الله ﷻ قد وعد نبيّه خيبر أن يُغَنِّمَهُ إيّاها[1].

وكان عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا الشُّحم إنا نخرج إلى ريف الحجاز في الطعام والأموال.

فقال أبو الشحم حسداً وبغياً: تحسب أن قتال خيبر مثل ما تلقونه من الأعراب؟ فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل.

قال ابن أبي الحدرد: أي عدو الله! تخوفنا بعدونا وأنت في ذمّتنا وجوارنا؟ والله لأرفعنّك إلى رسول الله)[2].

وحتى نطمئن أن هذا الأسلوب هو أسلوب يهود خيبر، تخويفاً

---

(١) وهذا دليل آخر على أن فتح خيبر كان بوعد إلهي مبارك.

(٢) المغازي للواقدي ٢: ٦٣٤، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ١١٥ ـ ١١٦.

للمسلمين وتثبيطاً لعزائمهم، نلاحظ كلام أحد عيون اليهود من قبيلة أشجع حيث قبض عليه عباد بن بشر، والحوار الذي دار بينهم:

عن المغازي: (وبعث رسول الله عباد بن بشر في فوارس طليعة، فلخذ عيناً لليهود من أشجع، فقال من أنت؟ قال: باغٍ أبتغي أبعِرةً ضلّت لي، أنا على أثرها.

قال له عباد: ألك عِلمٌ بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيمَ تسألني عنه؟ قال: عن اليهود. قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق، وهَوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمر خيبر سنةً، فجاؤا مُعَدّين مُؤَيّدين، بالكراع والسلاح يقودهم عُتبة بن بدر.

ودخلوا معهم في حصونهم، وفيها عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو صبروا لسنين لكفاهم، وماءٌ واتن يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة.

فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات وقال: ما أنت إلاّ عينٌ لهم، أصدُقني وإلاّ ضربت عنقك!

فقال الأعرابي: أفتؤمّني على أن أصدقك؟ قال: نعم.

فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم، خائفون وَجِلون لما قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، وإن يهود يثرب بعثوا ابن عمٍ لي وجدوه بالمدينة، قد قدم بسلعةٍ يبيعها، فبعثوه إلى كنانة بن أبي الحقيق يخبرونه بقلّتكم وقلّة خيلكم وسلاحكم، ويقولون له: فاصدقوهم الضرب ينصرفون عنكم، فإنه لم يلقَ قوماً يحسنون القتال! وقريش والعرب قد سرّوا بمسيره إليكم لما يعلمون من قوّادكم وكثرة عددكم وسلاحكم وجَودة حُصونكم!)[1].

---

(١) المغازي ٢: ٦٤١.

وهذه الرواية واضحة كل الوضوح في كشف تلك العلاقة الاستخباراتية وتلك العواطف الدينية والقومية بين اليهود، وتلك الخدمات التي يقدمها يهود المدينة لأبناء علقتهم يهود خيبر.

وتبين درجة العمالة والجاسوسية التي تلبسوا بها ضد المسلمين، وللتحريض عليهم.

إذن وحدة اللغة والأسلوب في الروايات الثلاث تبين أنها صادرة من بركة واحدة، كما أن هدفها واحد، وتنبئ عن وجود شبكة سريّة للتعامل والتعاون بين يهود خيبر ويهود المدينة، وهي نفس الطريقة المُعقّدة والشائكة التي يتعامل بها يهود العالم وبذلك النمط التعاوني الاستخباراتي والتجسسي في العالم المعاصر.

٤ ـ كثرة أعدادهم وشدّة استعدادهم للمقاتلة، ولهذا المنظار كانوا يسخرون من فكرة أن يغزوهم جيش الرسول الأعظم ﷺ، ومن يكون جيش الرسول ﷺ؟ ألف وأربعمائة مقاتل!!.

وفي الواقع إنهم كانوا يتظاهرون بالسخرية من الجيش الإسلامي، وإلا فالخوف استحكم في قلوبهم منه، كما ذكرنا ذلك في النقطة السابقة.

وكيف يستطيع هؤلاء مواجهة اليهود العشرة آلاف، وحلفائهم من غطفان الأربعة آلاف؟ وهم في العراء مكشوفون ونحن في الحصون المنيعة، والجبال وذراها الرفيعة.

ثم كيف يواجهونا ونحن أهل السيف؟ ومن يكونوا هم؟ وهل وجدوا من قريش ضربنا ليعرفوا من نحن ومن هم؟ كما كان يؤكد ذلك عُيَيْنة بن حصن لسعد بن عُبادة[1]: (فلما انتهى سعد إلى الحصن ناداهم: إني

---

(١) والرواية فيها كلام كما سيأتي.

اريد ان أكلم عُيَـينة بن حصن فأراد عُيَـينة أن يدخله الحصن، فقال مرحب...

فقال عُيَـينة: وإنّا لنعلم ما لك ومن معك بما ها هنا طاقة، هؤلاء قوم أهل حصون منيعة، ورجال عددهم كثير، وسلاح.

إن أقمت هلكت أنت ومن معك، وإن أردت القتال عجلوا عليك بالرجل والسلاح، ولا والله ما هؤلاء كقريش، قوم ساروا إليك، وإن أصابوا غِرة منك فذاك الذي أرادوا وإلاّ انصرفوا، وهؤلاء يماكرونك الحرب ويطاولونك حتى تملّوا)[1].

وتحت غطاء الغرور بالعدة والعدد كانوا يسخرون بمقدم المسلمين، ويعتبرونه لوناً من ألوان المجازفة بالأرواح والمخاطرة بالحياة أجمع: (وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم، لِمَنَعَتِهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، كانوا يُخرِجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: محمد يغزونا؟ هيهات! هيهات!)[2].

٥ - كونهم موتورين بمصائب اليهود في الماضي والحاضر، كما عَبّرَ لهم عن ذلك سلام بن مشكم، فقد وقعت أحداث كثيرة بين المسلمين واليهود كانت كوارث بالنسبة لليهود، وقوارع قاصمة لوجودهم، فكان الحِقد إثر تلك الحوادث والزلازل يتراكم في نفوس من بقيَ من اليهود، فإذا قاتلوا يقاتلون بهذا الخزين من الحقد، وبهذه الكثافة من الكراهية للمسلمين.

وهذا المعنى له تأثير غريب في فضاء النفس إذا تمّت إثارتها وتوجيهها

---

(١) المغازي ٢: ٦٥١، وهذه الرواية الرابعة التي تؤكد على وحدة اللغة والأسلوب في المنهج الاستخباراتي اليهودي.

(٢) المغازي ٢: ٦٣٧، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ١١٨.

باتجاه الخصم، توجيهاً حاداً غاضباً، وقد عبّر العرب آنذاك وفي أكثر من موقف عن هذه الحالة بقولهم: (أنا الموتور الثائر).

فإنه من الممكن أن تلمس التساهل والليونة من أناس، لكنهم في الواقع غير موتورين ولا ثائرين، أما عند هذا النوع من المخلوقين الذين قُتِل لهم أخٌ في معركة، أو أصابتهم نكبة من موقف، فليس للتسامح في قاموسهم من متسع.

وهكذا كان اليهود موتورين بما أصابهم المسلمون في بني قنيقاع، وفي بني النضير، وفي بني قريظة، وفي أسَيْر وجماعته، وفي فدك، وغير ذلك من السرايا التي قتل بعض أشرافهم فيها، ككعب بن الأشرف، وابن أبي الحقيق، وغيرهما.

ثم شعورهم بأنهم آخر من بقي من اليهود، وموتهم يعني لا بقاء لليهودية في جزيرة العرب، كما تنبأ زعيمهم سلام بن مشكم من قبل، وشعورهم أنهم في أدنى الأحوال سيكونون توابع للمسلمين أذلاء بين أيديهم صاغرين، يجعلهم يدافعون عن أنفسهم أشدّ الدفاع، ويتمردون على كل الأطروحات أشدّ التمرد، ويقاومون إلى أقصى حد ممكن، حتى إذا انتهى دفاعهم إلى الفشل ذرفوا دموع التماسيح وصاروا طلاب صلح ورجال سلام، يَستَجدون من يقبلهم ويؤمنهم على أنفسهم ويحقن دمائهم.

وهكذا كان الأمر في بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وبعض يهود خيبر، ويهود تيماء، ويهود فدك، ووادي القرى.

٦ ـ وجود قادة أكفّاء لديهم قابليات قتالية عالية، ومهارات فنية وخصائص نفسية جيدة، أو هكذا كانوا يظنون بأنفسهم، مما يمنحهم ثقة في القدرة على المقاومة، وطرد المسلمين ودحرهم.

وفي الواقع وجود القادة الأكفاء الأشدّاء الشجعان البواسل في المنظار

العام، يعطي الجندي أو الجيش عموماً انطباعاً أنه جيش لا يُقهر، ويجب أن لا يخاف من أحد، الخوف الذي يؤدي إلى الانهزامية والضعف.

ولقد كان جيش اليهود الخيبري يزخر بشخصيات لها نفوذ وقوة، كمرحب والحارث، وأسير، وياسر، وعامر، وغيرهم.

فهذا مرحب يصفه الواقدي: (إن مرحب برز وهو كالفحل الصّؤول)[1] ونعلم شجاعته وقوة بأسه من هذه الرواية الآتية التي تذكر الهجومات المتتالية على حصنه، وهو قد تمكن أن يردّها ويلحق الهزيمة المنكرة بها، إلاّ الهجوم الأخير فقد كان حاسماً فاتحاً.

روى ابن كثير: (وأن أبا بكر أخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع، فأخذها عمر فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ثم رجع، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «لأعطيَنها غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ويُحبُّه الله ورسوله يأخذها عنوة».

وليس ثمَ علي، فتطاولت لها قريش، ورجا كل رجل منهم أن يكون صاحب ذلك.

فأصبح وجاء علي بن أبي طالب على بعير له حتى اناخ وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة بردٍ قطري.

فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قال: رمَدت بعدك.

فقال ﷺ: أدن مني فتفل في عينيه فما وجعها حتى مضى لسبيله، ثم أعطاه الراية فنهض بها وعليه جبّة ارجوان حمراء، قد أخرج خملها، فأتى مدينة خيبر، وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني، وحجر قد

---

(١) المغازي ٢: ٦٥٥.

ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز ويقول:

قد علِمَت خيبر إني مَرحبُ　　شاكٍ سلاحي بطلٌ مجربُ
إذ الليوث أقبلت تلهّبُ　　واحجمت عن صولة المغلبُ

فقال عليّ ﷺ:

أنا الذي سمّتني أمي حَيدرَة　　كليث غاباتٍ شديد القَسورة[1]
أكيلكُم بالصاع كيل السَندرة[2]

قال: فاختلفا ضربتين، فبدره عليّ بضربة فقدّ الحجر والمغفر ورأسه ووقع في الأضراس وأخذ المدينة)[3].

فهذا وأمثاله كان يخيف الفرسان إلاّ أهل الشدّة والثبات، والتنمر في ذات الله ﷻ منهم، كعليّ بن أبي طالب ﷺ فإنه لا يتمكن أن يهزه أو يهزمه.

٧ ـ لأن لهم حلف مع غطفان، وغطفان قبيلة كبيرة حاقدة على الرسول ﷺ حقداً عظيماً، وفيها رجل من أخبث الناس وأشدها لؤماً وأسوئهم خُلقاً،

---

(١) القسورة قيل: القسور والقسورة: الرملة من الصيادين، وقيل هما الأسد، وقيل: كل شديد، (النهاية في غريب الحديث ٤: ٦٣).

(٢) السندرة: الكيل الوافي، (كتاب العين ٧: ٣٤٠)، واكيلكم بالسيف كيل السندرة: أي اقتلكم قتلاً واسعاً ذريعاً. (النهاية في غريب الحديث ٢: ٤٠٨).

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٤: ٢١٣، وشبهه في تاريخ اليعقوبي ٢: ٥٦، ومثله في تاريخ الطبري ٢: ٣٠٠ ـ ٣٠١، وفي الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي ٢: ٢٨، وفي كتاب إعلام الورى بأعلام الهدى للشيخ الطبرسي ١: ٢٠٧، ونهج الإيمان لابن جبير: ٣١٨.

يُقابل الوفاء بالغدر، والعطاء والسماحة باللؤم والقذارة.

حتى كأن الشاعر يخاطبه:

وإنْ أنتَ أكرمْتَ الكريم ملَكتَهُ وإنْ أنت أكرَمْتَ اللّئيم تَمردا

وذلك الرجل هو عُيَيْنة بن حصن الفزاري الغطفاني.

هذا من جهة، وغطفان كقبيلة لوحدها لها ثلاثة بطون:

١ ـ بنو فزارة وزعيمهم عُيَيْنة بن حصن، بل هو زعيم غطفان بأكملها والذي قال فيه النبي ﷺ: «الأحمق المُطاع».

٢ ـ بنو مرّة وصاحبهم الحارث بن عوف.

٣ ـ بنو أشجع وقائدهم معود بن رخيلة.

أما لو قلنا:

لا قيمة لهذا الاحتمال في مجيء رسول الله ﷺ وعدمه، حيث هنا ـ أي عند حصن خيبر ـ لا تنفع المباغتة في شيء لأنهم في حصون محصنة، فما الذي يهمهم، أتى الرسول ﷺ أو لم يات، باغتهم أو لم يباغتهم.

فضلاً عن كونهم عالمين بنوايا الرسول المصطفى ﷺ في التحرك إليهم، وقد أخذوا استعدادات واسعة لمواجهة الجيش القادم.

فيكون الجواب:

لا أعتقد أن المباغتة يكون معناها دائماً أن الجيش ظاهر، سافر، غافل، ويفاجئه العدو بجيشه، بل قد تعني المباغتة في توقيت ساعة الصفر، أي ساعة مباشرة الحرب، والنزول في ساحة السيف.

وقد تعني أنهم كانوا يحتملون أنه يجيئهم على كل حال، ولكن إذا جاءهم فليست هذه ساعة المجيء.

وإذا كنا نحسب للحرب حسابها، فلابدّ للتعامل مع المؤثرات النفسية والمعنوية للمقاتل، فليس من المعقول أن نهتم للمواجهة العسكرية بما هي سيوف فقط، ولا نهتم للمواجهة العسكرية بما هي أيدي تحمل تلك السيوف.

فإن هذه الأيدي مرتبطة بعالم ضخم اسمه عالم النفس، الذي يمكنه التأثير على الأعضاء ومنها اليد طبعاً، فيجعلها تعمل أحياناً وبدقة عالية، وأخرى تعطبها عن العمل وتعطلها عن إجراء الأوامر، وإن كانت قوية.

المباغتة على هذا الصعيد لها تأثير على عالم النفس للمقاتل، ذلك العالم الذي تعزى إليه الآثار في العالم الخارجي.

فاليهود في خيبر كانوا يفكرون بطريقة إبعاد شبح الجيش الإسلامي عن ساحتهم، وكانوا يرددون: (محمد يغزونا؟ هيهات! هيهات!) وقد حفروا خندقاً حول الحصن، وذهبوا إلى حلفائهم بغطفان، وغير ذلك من الأساليب التحوطية لوقوع الحرب.

ولكن كل هذا على نحو الاحتمال أو الظن، كما عبر عنه سلام بن مشكم في حديثه مع قومه، بعد قتل رجالات بني قريظة.

ولكن هناك فرق بين مستعد ويباغت، وبين مستعد ولا يباغت ـ المباغتة على النحو الذي ذكرناه سابقاً ـ.

فالمستعد الأول إنما يعلم بخطوات عدوه، ويحسبها، والمستعد الأول حتماً أنه سيعاني من إرباك إذا أذنت الحرب، واشتعل فتيلها، وهذا ما حصل ليهود خيبر فعلاً، وأصبح مناديهم يصيح (محمد والخميس)[1].

أما المستعد الثاني فإنه لا يرتبك، وإذا كان لابدّ من الإرباك فسوف يكون إرباكاً خفيفاً، ليس له تأثير كبير على وضع الجيش واستعداده.

---

(١) الخميس: الجيش.

روى الواقدي: (فلما نـزل رسول الله ﷺ بسـاحتهم لم يتحركوا تلك الليلة، ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم معهم المساحي والكرازين والمكاتل[1].

فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ قد نـزل بساحتهم قالوا: محمد والخميس! فولّوا هاربين حتى رجعوا إلى حصونهم)[2].

فالأفئدة لا تخفق والنفوس لا ترتاع، إن لم يكن هناك مباغتة بشيء فاجئها، ولم يخرج اليهود وبهذه العفوية إلى عملهم الصباحي إن كانوا متأهبين من جهة اليقظة، أو عارفين بحلول رسول الله ﷺ الآن في ساحتهم.

إذن جاءهم الرسول ﷺ في غرةٍ من أمرهم، حطّم بها سخريتهم من المسلمين، وصعق غرورهم بها.

وقلنا ثانياً: قد تكون المباغتة هذه مانعة من استكمال توافد الحلفاء، أو عدم قدرتهم المجيء بالمرة، فتكون خسارة في مجال الكفة اليهودية، لفقدان غطفان القبيلة الثقيلة المخالفة والظالمة، ولا ننسى أن مجيء الرسول ﷺ ليلاً له أهمية أخرى.

ثانياً: الاختيار المكاني

واختيار المكان هو الآخر يحتل جانباً مهماً كذلك في إدارة المعركة وتوجيه دفتها، وله خصوصية في معركة خيبر مع اليهود.

فقد اختار الرسول ﷺ موقع مروره ونزوله في البقعة التي تمثل مرور

---

(١) الكرازين: جمع كرزن وهو الفأس، والمكاتل: جمع مكتل وهو الزبيل الكبير، (النهاية ٢: ١٥٠، و ج ٤: ٨و ١٤).

(٢) المغازي ٢: ٦٤٢، الطبقات الكبرى ٢: ١٠٦.

غطفان إلى حلفائهم اليهود، وهي الرصع، وبهذا يكون الرسول ﷺ قد قطع عليهم الطريق إلى خيبر: (ثم دعا[١] بالأدلاء فجاء حُسَيل بن خارجة الأشجعي، وعبد الله بن نعيم الأشجعي.

قال: فقال رسول الله ﷺ لحسيل: إمضِ أمامنا حتى تأخذنا صدور الأودية، حتى تأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان)[٢].

فهو ﷺ يريد أن يقطع طريق الإمداد الشمالي من الشام التي فيها اليهود أيضاً، مما علمناه من إجلائه ليهود بني قينقاع، حيث يحتمل بقاء جماعة منهم يعتد بها، ثم يهود بني النضير حيث ذهب منهم جماعة إلى الشام أيضاً، ثم أن فيها يهود تيماء ويهود وادي القرى، أو قطع إمدادات أخرى تأتيهم من غير اليهود.

وهو نافع كما علمنا في منع غطفان عن حلفائهم من اليهود، وهذا له أثر سيئ في نفسية اليهود، فهم كانوا ينتظرون قوة مناصرة، ومدداً عارماً له تأثير في موازين الحرب، ومعادلة القوى المتصارعة.

ولكنهم لم يفكّروا بفعل حجز محمد ﷺ لطريقهم.

ومنفعة أخرى من جهة عدم وصول الإمدادات العسكرية ومنعها من خوض القتال لصالح حليفها اليهودي.

كما أن هناك منفعة ثالثة هو الدعم النفسي والمعنوي الذي سيحصل عليه المسلمون في حال تمكنهم من عرقلة التحاق غطفان بحلفائها اليهود، لأن هذا لوحده يمثل نصراً نفسياً ومعنوياً للمسلمين.

وباجتماع الخسارة النفسية وخسارة الإمدادات العسكرية، الموالية

---

(١) أي رسول الله ﷺ.

(٢) المغازي ٢: ٦٣٩، سبل الهدى والرشاد ٥: ١١٧.

والمتحالفة مع اليهود، ووجود نصر نفسي أولي للمسلمين بهذا الموقف تكون اليهود قد دخلت حرجاً جدياً من هذه المناحي الثلاثة.

إن مناصرة غطفان لهم لن تكون مناصرة نفسية وإعلامية وعسكرية فقط، بل حتماً ستكون مناصرة اقتصادية، لأنه في حال افتقار اليهود للمواد الغذائية وما يحتاجونه من الماء، فبإمكانهم الاستنجاد بغطفان ليمدوهم وقت الحاجة، خصوصاً إذا كان مقاتلو غطفان في وسط المعركة.

بل لعل غطفان تلعب دوراً أكبر وأخطر فيما إذا تفننت عسكرياً، فجعلت قسماً منها يقاتل مع اليهود في داخل الحصن، وآخر خارج الحصن حتى لو كان في نفس قبيلة غطفان.

إلاّ أنه ينفعها في النجدة وتحطيم الحصار المحتمل فرضه من قبل الرسول الأعظم ﷺ على خيبر، أو قد تمارس بنفسها محاصرة الرسول ﷺ فتقوم بخطوة ناجحة في إضعاف المسلمين وتفتيت قواهم.

ويكون لهذا جميعاً الأثر الأكبر في حسم المعركة وإلحاق الهزيمة بالمسلمين، ولكن الرسول الأعظم ﷺ قضى على كل هذه الاطروحات الافتراضية من قبل أن تُطرح في الواقع على صعيد الممارسة قضاءاً مبرماً، عندما نزل وعزل.

وهنا سؤال يطرح نفسه:

وهو ما قيمة نزول الرسول ﷺ بين خيبر وغطفان والحال، ان رواية أخرى تقول إن زعيم غطفان عُيينة بن حصن كان مؤكد الوصول، بل مؤكد الوجود في حصن خيبر وقد فاوض سعد بن عبادة، بعد أن خرج له من حصن اليهود، ولكنه رجع عندما سمع صوتاً يدعوه للعودة.

كذلك روى في المغازي: (فلما قدم رسول الله ﷺ خيبر ارسل إليهم سعد بن عبادة وهم في الحصن، فلما انتهى سعد إلى الحصن ناداهم: إني

أريد أن أُكلم عُيَيْنة بن حصن فأراد عُيَيْنة أن يدخله الحصن، فقال مرحب: لا تُدخِله فيرى خلل حِصننا، ويعرف نواحيه التي يُؤتى منها، ولكن تخرج إليه.

فقال عُيَيْنة: لقد أحببت أن يدخل فيرى حصانته ويرى عدداً كثيراً، فأبى مرحب أن يدخله، فخرج عُيَيْنة إلى باب الحصن فقال سعد: إن رسول الله أرسلني إليك يقول: **إن الله قد وعدني خيبر فارجعوا وكفّوا**[1] **فإن ظهرنا عليكم فلكم تمر خيبر سنة.**

فقال عُيَيْنة: إنّا والله ما كنا لنُسلِم حلفائنا لشيء، وإنّا لنعلم ما لك ومن معك بما ها هنا طاقة....)[2] وهذا الحوار بكل فقراته يدل على أن حدثاً تفاوضياً حدث بين المسلمين وغطفان ممثلة بزعيمها عُيَيْنة بن حصن وكان محل هذا التفاوض هو حصن خيبر، وقد خرج عُيَيْنة من داخله بعد رد مرحب عليه.

بينما الرواية الأخرى تقول: إن غطفان لم تدخل الحصن (وهذه الرواية الأولى).

والجـواب:

هناك أربعة احتمالات بخصوص الروايتين:

الاحتمال الأول: إن كلتا الروايتين موضوعة ولا أصل لصحتهما.

الاحتمال الثاني: أن إحدى الروايتين صحيحة والأخرى مكذوبة.

الاحتمال الثالث: إن كلتيهما صحيحتان وهذا يلزم منه التناقض الممنوع.

---

(١) وهذه الرواية دليل آخر على كون الله وعد الرسول ﷺ خيبراً.

(٢) المغازي ٢: ٦٥٠.

الاحتمال الرابع: أن كلتاهما صحيحتان ولكن على نحو آخر ففي الرواية الأولى نزل الرسول ﷺ وجاء عُيينة بن حصن فعلاً باتجاه الحصن سائراً، ولكن في الرواية الثانية لم يصح أنه دخل في الحصن وإنما نقبل منها مقدار ما حصل منها من التفاوض بين الطرفين الذي يمكن جمعه مع الرواية الأولى.

بأن جاء عُيينة بن حصن وجيشه، ولكن في طريقه إلى الحصن فاوض سعد بن عبادة عن رسول الله، ليرجع وله تمر خيبر سنة، ولكنه رفض وعند ذلك سمع صوتاً من جهة قبيلته، وصائحاً يصيح بالويل والثبور، فرجع ولم يبلغ الحصن، وعلى هذا تقبل الرواية، ولكن لا على اطلاقها كما عرفت.

وبما إن الاحتمال الثاني قد يكون وارداً أيضاً ومقبولاً حيث يمكن قبول أن احدى الروايتين صحيحة والثانية غير صحيحة ـ طبعاً الرفض على وجه الاطلاق ـ مع الالتفات ان تكذيب رواية أصل المجيء يستلزم تكذيب رواية الدخول في الحصن إذ لا مجيء في الأصل، والوجود في الأصل مترتب على أصل المجيء.

ولكن تكذيب الرواية الثانية لا يستلزم تكذيب الأولى، إذ لا ملازمة، أي يمكن أن يكون أصل المجيء موجوداً ولكن لا وجود لغطفان في الحصن اليهودي أصلاً.

لذلك سنعمل بينهما بحثاً ترجيحياً لنقول:

إن احتمال كون رواية المجيء، ورواية التفاوض مع عدم الدخول في الحصن أرجح باعتقادنا من رواية المجيء، ورواية عدم الدخول في الحصن المتضمنة عدم التفاوض لأسباب منها:

١) إن وجودهم بالحصن يجعلهم بعيدين عن قبيلتهم فلا يسمعون الصوت بسهولة كما تدعي الرواية.

٢) إن وجودهم بالحصن يعني صعوبة الخروج منه، لأن كونهم في الحصن معناه أنهم رجال حرب، وأصحاب جريمة في الاشتراك بها، مما يعني تعرضهم بعد الخروج من الحصن إلى مناوشات المسلمين، وذلك ما لم يذكره أحد من المؤرخين.

٣) ثم في مقام اعتذارهم من اليهود على معاندهم في عدم مضرهم بأن قالوا لهم: سمعنا صوتاً قال: كذا وكذا.. فرجعنا ولو كان هذا الأمر حاصلاً فعلاً، لسمعه اليهود أيضاً وهم في الحصن، فلا يكون داعياً لسؤالهم بعد ذلك، إذ يكون محض لغو، أو تحصيل حاصل بلا طائل، وحتى إن لم يكونوا سمعوه، لكنهم علموا بسبب خروج غطفان حتماً، فلماذا هذا التساؤل بعد المعرفة؟

٤) ولكان خروجهم من الحصن صعباً أيضاً من باب ما سوف تسببه اليهود من ضغط نفسي عليهم لغرض عدم الخروج من حصنهم.

٥) كما تذكر مصادر أخرى أن بني غطفان سمعوا صوتاً في الطريق يأتي من جهة قبيلتهم فرجعوا قبل أن يدخلوا الحصن كما في البداية والنهاية: (ثم أقبلَ ـ يعني الرسول ﷺ ـ بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغني أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِساً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلوا بين رسول الله وخيبر)[1].

٦) إن المصادر تقول إن الرسول ﷺ فعلاً نزل على كل حال، فإذا كانت

---

(١) البداية والنهاية ٤:٢٠٧، وانظر تاريخ الطبري ٢: ٢٩٨، سيرة ابن هشام ٣: ٧٩٣، عيون الأثر ٢: ١٣٥، السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٣٤٥.

غطفان واصلة إلى الحصن وداخلة فيه، فما قيمة نزوله إذن؟

إلاّ على التفسير الآتي:

إنه لو قلنا تنـزلاً أنهم كانوا معهم في الحصن، فإن هناك فائدة تتحقق من وجود الرسول ﷺ ونزوله بين خيبر وغطفان في قطع استمرار الامدادات المحتملة من غطفان إلى حصن خيبر.

أو أن الذين وصلوا من غطفان لم يكونوا كاملي العدد والعدّة، وينتظرون لهم إخواناً لم يأتوا بعد، فحال الرسول ﷺ بينهم وبين ما كانوا ينتظرون.

الاتجاه السادس

الجنبة المكانية والزمانية في فتح مكة

وفيه مبحثان:

المبحث الأول

لماذا الدخول من كل الفجاج في فتح مكة؟

قد ورد في التاريخ ما يؤكد أن الجيش الإسلامي، وبأمر من رسول الله ﷺ قد دخل مكة في الفتح المبارك من جهات عدة، وأنجز بالفعل هذا الدخول ومن الناحية المكانية التي حددها رسول الله ﷺ بدقة من قبل قادة تلك الفصائل الفاتحة.

في المغازي: (ثم أمر رسول الله ﷺ الزبير بن العوام أن يدخل من كُدى[1]، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من اللِّيط[2]، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل من كداء، والراية مع ابنه قيس، ومضى رسول الله ﷺ فدخل من أذاخِر)[3].

وسقنا الرواية هنا؛ لنبين وجه العناية عند الرسول الأكرم ﷺ بالجنبة

---

(١) كدى: جبل قريب من كداء (معجم ما استعجم:٤٦٩).

(٢) الليط: موضع بأسفل مكة (معجم ما استعجم:٤٩٩).

(٣) المغازي ٢:٨٢٥، الطبقات الكبرى ٢: ١٣٥ ـ ١٣٦، وانظر شرح نهج البلاغة ١٧ : ٢٧٤.

المكانية في ضوء خطته الحربية، أو خطة فتحه لمكة المكرمة، وبالواقع إن هذا التوزيع الجغرافي للمقاتلين كانت له دلائل رائعة في التخطيط النبوي الشريف من الناحية الفعلية كممارسة، وله أهمية في وجوب وضع خطط رسول الله ﷺ في مقدمة البحوث العلمية والعسكرية التي تستحق البحث والدراسة في كونها معبرة عن ذهن قائد يتفتق عقله إبداعاً وفناً.

وله أهمية في تناول شخصية الرسول المصطفى ﷺ في كونه ألمع الموجودات البشرية من الناحية الإنسانية، والمقدم على نوعه في كل النواحي الأخلاقية الرفيعة، والجوانب النفسية المتينة السامية.

وله أهمية من جهات أخرى لعلها غير مقصودة في بحثنا هذا، والذي يهمنا في الموضوع هو: ما هي دلالة خطة رسول الله ﷺ في توظيف أماكن عدة في دخول الجيش الفاتح على أهل مكة المشرفة دون أن يدخلها من جهة واحدة؟.

والدلالات في ما يبدو لنا هي ما يلي:

الدلالة الأولى:

كي تتوزع قوى المشركين وتسهل مقاتلتهم ـ طبعاً في حال نشوب حرب بين قريش والجيش الإسلامي ـ فمن المعلوم أن قريش لما ترى الألوية والرايات وقد دخلت عليها من أكثر من مكان سوف تضطر ـ في حال كونها تريد دفع المسلمين بالسيف ـ أن توزع مقاتليها على تلك الفجاج.

وهذا من شأنه أن يفتت الجيش المشرك من جهة الكم والتأثير العسكري، فتكون قدرتهم في المواجهة ضعيفة، ليس كما لو كان هذا الجيش يقاتل في جهةٍ واحدة، حيث يحفظ تماسكه ووحدته وقواه القتالية في جبهةٍ واحدة، تساعده على الاستمرار في المقاومة والضغط على الجيش

الإسلامي الموحد.

ويساعدهم بذات الوقت من الناحية النفسية حيث إن بقية ثغور مكة لا يوجد عليها ـ أو فيها ـ تعرض عسكري قد يشغلهم عن عدوهم المقاتلين له، وهذه الطمأنينة النفسية الناشئة من عدم وجود القلق الذي يقسِّم النفس بدوره ويشطرها إلى أشلاء موزعة، هو بحد ذاته نقطة قوة لقريش لو حصل.

أما وقد سلبهم الرسول ﷺ هذا العنصر من القوة، فذلك يعني بالضرورة حصول المحاذير السلبية المترتبة عليه والتي أدت مفعولها في جيش قريش، وأهل مكة جميعاً كما لا يخفى.

الدلالة الثانية:

كي يحاصرهم الرسول الأعظم ﷺ من كل جهة يحتمل هروبهم منها في حال كونهم استسلموا للجيش الإسلامي، وفرّوا هاربين منه بعد أن استولى عليهم اليأس من الانتصار عليه ﷺ.

فدخول مكة من أربع جهات يعني في أقل ما يعنيه أن هناك مداخل أربعة متباعدة ومهمة ولكنها مغلقة، فلا يمكن أن يمر منها أحد إلاّ ويقع في قبضة جيش التوحيد، فيصير الهروب أو مجرد التفكير به أمراً لا يخلو من صعوبة، وإن كان لا يمنع بالمرّة هروب بعض الأفراد كما حصل فعلاً لبعضهم.

وبهذا يكون أهل مكة في شبه حصار لا يمكن الانفلات منه دون المرور بعقبات صعبة، اسمها الرقابة العسكرية لثغور مكة وفجاجها.

الدلالة الثالثة:

كي يدخل الرعب في نفوسهم؛ لأن الدخول على بلدةٍ ما من قبل جيش ما ومن جهات عدّة، يعني كثرة ذلك الجيش واستعداده العالي

للمقاتلة على كل تلك الجبهات التي فتحها وجاء منها.

كما يعني أن ذلك الجيش يعمل معهم ضمن خطة يراد منها المحاصرة والاستنزاف، وأنه بهذه القوة قادر على كبح القوى جميعاً لتلك البلدة، ولعله من هذا المنطلق كان مجيء الرسول ﷺ نحو القوم وبالشكل السالف، لتنهار معنوياتهم بشدّة أمام سيل عسكره ﷺ.

عن الواقدي: (فكان رجل من بني الدِّيل يقال له: حماس بن قيس بن خالد الدِّيلي، لمّا سمع برسول الله ﷺ جلس يصلح سلاحه، فقالت له امرأته: لمن تُعِدّ هذا؟

قال: لمحمد وأصحابه فإني أرجو أن أخدمك منهم خادماً فإنك إليه محتاجة.

قالت: ويحك، لا تفعل ولا تقاتل محمداً! والله ليضلّنّ هذا عنك لو رأيت محمداً وأصحابه. قال: سترين)[1].

وفعلاً عاد لزوجته وقد طار صوابه، لا يصدق أن الباب ستغلق من ورائه بسرعة طلباً للأمان، وزوجته تهزء به وتبكته: (وأقبل حماس بن خالد منهزماً حتى أتى بيته، فدقّه ففتحت له امرأته فدخل، وقد ذهبت روحه.

فقالت: أين الخادم الذي وعدتني؟ وما زلت منتظرتك منذ اليوم تسخر بها!

قال: دعي عنك، أغلقي بابي! فإنه من أغلق بابه فهو آمن!.

قالت: ويحك! ألم أنهاك عن قتال محمد؟ وقلت لك: ما رأيته يقاتلكم

---

(١) المغازي ٢:٨٢٣، عنه في شرح نهج البلاغة ١٧:٢٧٣، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢٨.

من مرة إلاَّ ظهر عليكم، وما بابنا؟

قال: إنه لا يُفتح على أحد بابُه)[1].

هذا الرجل كان مفعماً بالقوة والأمل في تحصيل خادم يخدم به امرأته بإشارة منه إلى سهولة تحصيل ذلك، وهل يكون محمد ﷺ ورجاله إلاَّ حفنة سيكونون الغداة في قبضة قريش، وقد سعوا بأنفسهم إليها.

ولكن يرجع وحصاده الفزع وضياع الطريق، وهمه غلق الباب، ولعله لما رأى هذا التكتيك الحربي وهذا الاندفاع المذهل من جيش رسول الله ﷺ وهو يتدفق بهم من كل ناحية.

الدلالة الرابعة:

ليجعلها الرسول الأكرم ﷺ قضية مدوية في ذلك العالم القديم، على قدرة الرسول ﷺ ومستوى تخطيطه وفنّه، وكثرة جيشه، مما يضيف إلى رصيده من الهيبة في نفوس أعدائه الآخرين رقماً آخراً.

ولا زالت خطة فتح مكة تخلب اللّب إعجاباً بتدبير صاحبها، ورصانة فكره، وقدرته على سَوق الأحداث.

ولا زالت مؤشرات عظمة وقوة وقدرة الإسلام في تعامله مع محيطه وتمكنه من ابتكار الأساليب التي تؤمن له ما يطمح له ويريد الوصول إليه، فضلاً عن الإقرار بلياقته الباهرة.

الدلالة الخامسة:

ونقول: لقد عزّ على المشركين أن يدخلوا مدينة رسول الله ﷺ في حرب الأحزاب في محاولتهم الدخول عليها من أكثر من جهة، رغم كثرة

---

(١) المغازي ٢: ٨٢٧، عنه في شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٦، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢٨.

جيشهم، وحسن استعدادهم، ومساعدة اليهود لهم.

ورغم كون جيش الشرك كان جيش الأحلاف والقوى المشتركة والكثيرة، ورغم كونه جاء بدافع الحقد المزمن على رسول الله ﷺ، وبعد جملة عوامل جعلت ذلك الحقد مستعراً، ورغم الخطة في فتح أكثر من جبهة عليه ﷺ لكن خابت جميع آمالهم، وانكفئت الأقدار عليهم، كما انكفئت قدورهم من شدة الريح ثم ولوا خائبين.

وقد رأوا في فتح مكة من كل الجهات بأم أعينهم ان دُخِل عليهم من كل الجهات، فيكون بمثابة الرد النبوي الغيبي على مخططهم السابق وإلحاق الحسرة في نفوسهم، إنهم أرادوا أن يفعلوا ذلك بالمسلمين فلم يتمكنوا، وقد أمكن الله ﷻ منهم الآن وبنفس خطتهم الفاشلة تلك.

الدلالة السادسة:

وحتى يتمكنوا من أن يقتلوا أي تجمع محتمل في داخل مكة حيث سيكون ذلك التجمع أمام حرب ومن كل الجهات مما يؤدي إلى عجزه وخذلانه ويأسه.

روى في المغازي: (فلما دخل خالد بن الوليد وجد جمعاً من قريش وأحابيشها قد جمعوا له، فيهم صفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، فمنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموا النبل.

وقالوا: لا تدخلها عنوة أبداً!.

فصاح خالد بن الوليد في أصحابه وقاتلهم، فقتل منهم أربعة وعشرين رجلاً من قريش، وأربعة من هذيل، وانهزموا أقبح الانهزام حتى قتلوا

بالخَزْوَرة وهم مولّون في كل وجه)[1].

فهم لا يتمكنون من مواجهة جند الإسلام إلاّ بهذه الطريقة وهذه الطريقة قلنا عنها: إنها حتماً تضعف قوتهم، فلي جبهة يقاتلون بها الإسلام بمجموعة من قوات الشرك سيفتح عليهم جند الله ﷻ الجبهة الأخرى وهكذا.

فيكون مصير من أراد الحرب واستخدام السيف، كمصائر هذه المجموعة التي لا ترى لها مهرباً، إلاّ على رؤوس الجبال والتي تبعهم المسلمون إليها في نهاية المطاف.

---

(١) المغازي٢: ٨٢٥ ـ ٨٢٦، عنه في شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٧٥، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٢٨.

المبحث الثاني

الناحية الزمانية في دخول الرسول ﷺ مكة

لقد كان فتح مكة عاكساً آخر لروعة اختيار الرسول ﷺ الزمني لذلك الفتح، والنظر إلى الزمن في فتح مكة كمثل النظر في «منظار» يقرب إليك النقط القصيّة البعيدة، واحسب أن الرسول الأكرم ﷺ كان ينظر إلى فتح مكة في زمانه وخصوصاً بعد هجرته وتوالي أحداث القتال عليه بهذه الكيفية.

إنه ﷺ يعلم أنه سوف يفتح مكة ولكنه يعلم أنه لا زال محتاجاً إلى منظار ليرى تلك النقطة البعيدة التي يستدعي الوصول إليها جملة من نقاط التوقف ومحطات العبور.

وبهذه النظرة الفاحصة البعيدة كان يعد الرسول ﷺ لفتح مكة، وهو ﷺ يعلم أنه كلما يحصل حدث ويحط بساحته أمر، قبل أن يفتح مكة، يقترب بقدر ذلك العدد الحاصل إلى فتح مكة.

ويعلم ﷺ أنه لا يمكنه القفز على الأحداث ليفتح مكة دون المرور بتلك الأحداث التي لابد من المرور بها، والتي قد تكون لها علاقة بتحطيم الأمل عند قريش في الانتصار على محمد ﷺ، وإنعاش الأمل عند أصحابه في إمكان الوصول إلى أُس الشرك وأساسه والداعي له والمدافع عنه (قريش!!).

إن ذلك المنظار الذي ينظر به الرسول ﷺ كقائد يستشرف الأحداث

ويهضمها بنظرة واحدة يريه من البداية نقطة الوصول ويطمئنه على ذلك ويجعل الزمن في يده ورقة مكشوفة، يناور بها في الوقت المناسب والذي يقرر اختياره بنفسه الشريفة.

هكذا أخال مسألة فتح مكة بالنسبة للرسول الأعظم ﷺ: مسألة زمن وتكدس أحداث، وتوالي معارك، وتعاقب كوارث، صحيح أنها مُرّة ومؤذية لكن حصيلتها ستكون أحلى من العسل.. إنها فتح مكة.

لذا ترى أن الرسول ﷺ لاحظ جملة من الأمور تخدمه زمنياً في سياق تلك الأحداث وضمن ما يراه بعصمته وحنكته في تلك الورقة المكشوفة بيده والتي سبق ذكرها قبل قليل.

ومن هذه الأمور التي ربما لاحظها ﷺ:

الأمر الأول:

استثماره ﷺ للفترة الزمنية التي نقضت قريش فيها الصلح بمشاركتها في الهجوم على بني خزاعة ومقاتلتهم،وهي فترة زمنية خصبة وظروفها ملائمة جداً للتحرك على قريش ودون إعطاء فرصة، للتأخير أو التراخي، أو هدر الزمن، حتى عجّل الرسول ﷺ باستحضاراته الأولية للسفر بشكل سريع واهتمام عالٍ.

الأمر الثاني:

استثمر الرسول ﷺ الطلب المُلِح من بني خزاعة لنصرتهم بمقتضى العقد المبرم بينهم والذي جاء بعد صلح الحديبية كواحد من نتائجه المهمة.

فقد جاءت خزاعة للنبي الأكرم ﷺ بقيادة زعيمها تطالب الرسول ﷺ في الفصل بأحداث مكة التي دارت رحاها على بني خزاعة (وخرج عمرو

بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم وما ظاهرت عليه قريش فأعانوهم بالرجل والسلاح والكراع)(١).

ولعلاً استجاب ﷺ لذلك الطلب بكل سرعة ووثوق واستعداد (قام رسول الله ﷺ وهو يجرّ طرف ردائه، وهو يقول: «لا نُصِرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصُر منه نفسي»)(٢).

هذا مع العلم أن من حق الرسول ﷺ أن يتدخل في الأمر ويبطش بقريش حتى مع عدم طلب بني خزاعة ذلك منه؛ لأنهم حلفاؤه وقد نص اتفاق الحديبية بعدم التعرض من قبل أحد الطرفين لحلفاء الطرف الآخر.

وهذا يؤيده كلامهم فيما بينهم:(وجاء الحارث بن هشام وابن أبي ربيعة إلى صفوان بن أمية، وإلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلاموهم فيما صنعوا من عونهم بني بكر، وأن بينكم وبين محمد مُدّة، وهذا نقض لها)(٣).

وفي موضع آخر قال الواقدي: (وأصبحت خزاعة مُقَتَّلين على باب بُدَيل - ورافع مولى لخزاعة - وتنحت قريش وندموا على ما صنعوا، وعرفوا أن هذا الذي صنعوا نقضٌ للمدة والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ)(٤).

وهذا الكلام يتفرع عليه كلام لا يقل أهمية عنه، أو إنه يتفرع على

---

(١) المغازي ٢: ٧٨٤، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠٢، وانظر الطبقات الكبرى ٢: ١٣٤.

(٢) المغازي ٢: ٧٨٤، الطبقات الكبرى ٢: ١٣٤.

(٣) المغازي ٢: ٧٨٤، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢٠١.

(٤) المغازي ٢: ٧٨٤، وانظر قريباً منه في الطبقات الكبرى ٢: ١٣٤.

النقطة الأولى والثانية بالواقع، وهو أن الرسول ﷺ لم يقاتل قريش ولم يسعَ في فتح مكة إلاّ وكانت الحجة بيده مكتملة قوية، وأيدي قريش خالية من آية حجة، بل هي ـ أي قريش ـ واقفةً في قفص الاتهام، وبانتظار صدور الحكم وبشكل بات ونهائي.

وإن تفقد عدوك أي دليل، فيه فائدة جمّة لا تخفى، إحداها انطلاقك بقوة عليه وضعفه أمام هذا الانطلاق، وثانيها انهزاميته النفسية أمام المد العسكري القادم؛ لأنه لا يرى نفسه محقاً في شيء يدافع عنه بل يرى نفسه مبطلاً.

وهذا على كل حال لا يخلو من الأهمية.

الأمر الثالث:

إنه ﷺ لم يقاتلهم، إلاّ وقد انتهى من يهود خيبر أصحاب القِلاع الضاربة، والحصون العتيدة الجبارة، ومن يُحتمل فيهم النصرة العاجلة والمؤكدة لقريش.

وبهذا يلعب اليهود دوراً خطيراً لو كانوا على ما كانوا عليه في خيبر قبل فتحها، فتأخير فتح مكة إلى هذا التاريخ كان مناسباً جداً من جهة تعطيل جهود اليهود تعطيلاً تاماً.

الأمر الرابع:

باغتهم الرسول ﷺ زمنياً، بحيث أخرجهم عن رشدهم بتلك المباغتة وأخذ على أيديهم، وظلت عقولهم في معرفة من هو القادم عليهم فلا يتمكنون من تشخيص من الآتي إلاّ والرسول ﷺ بين أوساطهم وعند ثناياهم، وما راعهم إلاّ والمنادي ينادي:

من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن... إلخ.

وقد مر بنا كيف كان يتحفظ الرسول المصطفى ﷺ من فقدان زمام المبادرة من الناحية الزمنية، فكتم أمره وورى على الناس ودعا الله ﷻ في ذلك لتحقيق هذه البغية.

الأمر الخامس:

جعل مكة آخر القلاع التي تُحرر، وآخر الحصون التي تفتح بعد أن خلع القط من مخالبه.

وأسلمت جميع القبائل الموالية لقريش تقريباً، والتي لعبت دوراً مهماً في المعارك السابقة وعلى مستوى التحضير واستقبال قريش وإعانتها في ذلك، بل والاشتراك مع جيشها في الهجوم على المسلمين كما في يوم الأحزاب.

والآن يوجه الرسول الأكرم ﷺ تلك القبائل كقوة ضاربة في فتح مكة بدخولها تحت زعامة الرسول ﷺ ضد قريش (فلما أبان رسول الله ﷺ الغزو، أرسل أهل البادية والى من حولهم من المسلمين، يقول لهم: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَحضر رمضان بالمدينة».

وبعث رسولاً في كل ناحية حتى قدموا على رسول الله ﷺ أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، وبعث إلى بني سليم، فأما بنو سليم فلقيته بقُدَيد، وأما سائر العرب فخرجوا من المدينة)[1].

ومعلوم كيف كان موقف هذه القبائل ـ أو على الأقل بعضها ـ من الإسلام والمسلمين من قبل، وموقفهم الآن ضمن التحولات التي قاد برنامجها الرسول الأكرم ﷺ، فهم الآن في الصف الإسلامي يقاتلون قريش بسيفٍ واحد ويطعنونها برمح واحد.

---

(١) المغازي ٢:٧٩٩، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٢١١.

الأمر السادس:

ومعلوم أن فتح مكة كان في رمضان وهذا اختيار موفق ضمن إطار الجنبة الزمنية، حيث المسلمون في أوج النشاط الروحي والنمو المعنوي المتصاعد، والرغبة العارمة في القربى إلى الله ﷻ.

ولا نُعيد ما ذكرناه مراراً بأهمية الجانب المعنوي في خوض المواقف الصعبة والتي تكون الحرب أتم مصاديقها.

الأمر السابع:

ثم استثمر الرسول الأكرم ﷺ واحداً من الأوقات المهمة في اليوم، ألا وهو وقت الليل ليوظفه هو الآخر في خدمة الحدث الجديد، والفتح القادم.

حيث شعل الرسول الأكرم ﷺ في ليلة الفتح آلاف المشاعل، لأسباب سوف نذكرها إن شاء الله، ثم دخل عليهم عند الصباح حيث لم يزل منظر المشاعل لصيقاً بمخيلتهم، لم يفارقوه بعد.

في المغازي: (فلما نزل رسول الله ﷺ مرّ الظهران عِشاءاً، أمر أصحابه أن يوقدوا النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار)[1].

وفتح مكة يكتسب قدراً مهماً في المعيار السياسي والعسكري والتاريخي.

فقريش كانت:

١. قبيلة رسول الله ﷺ ومهد جهاده الأول.

---

(١) المغازي ٢:٨١٤، وانظر شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٨، الطبقات الكبرى ٢: ١٣٥، سبل الهدى والرشاد ٥: ٢١٤.

٢. الزعيمة الأولى لقبائل العرب.

٣. صاحبة البيت الحرام.

٤. صاحبة الأحلاف والمعاهدات مع القبائل العربية ومع اليهود.

٥. المتصدية الكبرى والعقبة الصلبة في طريق الرسول ﷺ ودعوته المباركة.

ومن خلال هذه النقاط الخمس أو الأكثر منها، نعلم أن أحداث فتح مكة حتماً ستمثل نقلة نوعية في مسيرة أحداث الرسالة المحمدية.

فعلى الصعيد السياسي أصبح الرسول ﷺ تلك القوة العارمة، وعلى جغرافية مساحتها العظيمة تمتد من مكة إلى المدينة محتوية لجميع أجنحة خارطة الجزيرة، ما سوى ثقيف، وهوازن، وقبائل متناثرة لم يحسب لها حساب، أو هي في طريق الأسلمة.

وإن خارطة الرسول ﷺ تحتوي في نقاط قوتها أنها تضمنت مكة بكل ما يذكر لها من أهمية، وإن مسألة مواجهة الرسول ﷺ في المستقبل سوف تأخذ إطاراً آخر من الحسابات في أروقة صنع القرار، وإصدار الأوامر.

وعلى الصعيد العسكري أضيف لجيش المدينة جيش مكة وإلى وجوده المحدد بالمدينة وتوابعه، عمقاً سوقياً، وعمقاً جغرافياً، وعمقاً شعبياً اسمه مكة، مكة بتاريخها، وحرمها، وشعابها، وأسواقها، وكل شيء فيها.

وتاريخياً، لأنها عرضت الرسول ﷺ بتلك المناقبية العملاقة وتلك الروح السمحة الكريمة، وعرضت ذلك الحدث الذي كان من المتوقع لها أن تكون ملحمة حمراء وقد أصبحت فجنةً مرحمةً خضراء فإنها بدل أن تكون يوم الملحمة كما كان البعض يتوقع لها كانت يوم المرحمة.

إن فتح مكة إنعطافة حقيقية في تاريخ المسلمين، بل في تاريخ العالم، وهو بداية للانطلاق نحو العالم، وبعدما تجاوزت الجزيرة العربية عقبة قريش، تحطمت تلك العقبة على صخرة الصمود النبوي، والصبر الإسلامي العظيم الذي عاشه الرسول ﷺ والمسلمون.

وهذا ما كان يراه الرسول ﷺ في منظاره للأحداث في المدينة، والذي قلنا عنه أن فتح مكة يتعلق أمره بالزمن، وفعلاً وصل الرسول ﷺ تلك النقطة البعيدة التي كان ﷺ يراها «بمنظاره»، وصار الآن يراها أقرب نقطة إليه بلا منظار، وهو الذي لا يحتاج أساساً إلى منظار.

ولا نبوح سراً هنا إذا قلنا إن المنظار الذي كان الرسول ﷺ يرى به مكة، إنما كان ـ بالإضافة إلى عظمة الرسول ﷺ كقائد عسكري وسياسي وتاريخي ـ منظاراً غيبياً، نظر به الأحداث يوم خرج من مكة مهاجراً، وقد استلمه من يد الغيب وسمعه من صوت السماء وهي تصدح:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[1].

---

(١) القصص: ٨٥.

الاتجاه السابع

خطة الرسول ﷺ في حُنين من الناحية الزمانية

هناك إلماحة جميلة في الجنبة الزمانية بالنسبة لمعركة حُنين، وهذه الإلماحة هي في تقدير الرسول الأعظم ﷺ لبعض الأمور التي يجب مراعاة الزمن فيها.

مع ملاحظة أن حرب حُنين لها ما يميزها عن باقي حروب الرسول ﷺ في ما يلي:

الميزة الأولى:

تعتبر أول حرب وبهذه السعة مع ثقيف، وهوازن، وغيرهما، ولم تكن للمسلمين من قبل تجربة قتال معهما بالشكل الذي كان في حنين.

الميزة الثانية:

كون هذه المعركة جاءت بتحرك أولي وجدّي من هوازن، وثقيف، دون أن يُعَرِّض بهم الرسول ﷺ ولو بالشيء القليل، وضمن تخطيط المبادرة.

الميزة الثالثة:

كون قبيلتي ثقيف وهوازن آخر قِلاع الشرك في تهامة، أو في الجزيرة العربية.

الميزة الرابعة:

جاءت بعد فتح مكة أي مع اليأس من قريش ونصرتها من حلفائها.

الميزة الخامسة:

إن ثقيف، وهوازن بالذات جاءت بجيء يائس من البقاء إن لم يُقضَ على محمد ﷺ، لذلك أخرجت كل ما لديها من نعم وأموال، ونساء وأطفال، كما هو معلوم، وكما سيأتي.

الميزة السادسة:

إن ثقيف، وهوازن لهما مواقف سلبية من قريش، وإن قريش كانت تحذرها حذراً شديداً، لذلك نرى قريش لما رأت جيش رسول الله ﷺ من بعيد في فتح مكة، ظنته جيش هوازن جاء منتجعاً.

الميزة السابعة:

إن ثقيف، وهوازن كانوا كثيرين، وجيشهم ذو عدد هام، والعدد ـ على أي حال ـ له تأثير على معادلات الحرب.

الميزة الثامنة:

وإن هذا الجيش العريض يقوده شاب ممتلئ غروراً، واستبداداً، وحباً للمغامرة، وهو في قمة عنفوانه وشبابه واندفاعه، إلى الحد الذي وصلته ثلاثة تحذيرات مهمة في التخلي عن الحرب، إلاّ أنه كان يرى في ذلك جُبناً، وعاراً، وخوفاً من أقدار الموت، فخاض الغمار وجازف بالألوف، وكذلك يجازف بالأعراض والأموال وكل ما لديه، ثم ألقاها جميعاً في أرض المعركة، وفرّ منهزماً لا يلوي على شيء.

إنه: مالك بن عوف النصري.

والتحذيرات التي جاءته مرّة من:

١ ـ دريد بن الصمة: (قال: يا معشر هوازن، أمعكم من بني كلاب بن ربيعة أحد؟

قالوا: لا.

قال: فمعكم من بني كعب بن ربيعة أحد؟

قالوا: لا.

قال: فمن بني هلال بن عامر أحد؟

قالوا: لا.

قال دريد: لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه، ولو كان ذِكراً أو شرفاً ما تخلفوا عنه، فأطيعوني يا معشر هوازن، وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء!.

فأبوا عليه)[1].

٢ ـ العيون التي بعثها مالك بن عوف في المرة الأولى وهم ثلاثة انفار وقد رجعوا إليه، لا تثبت لهم قدم من الخوف، ولا يهدأ لهم عرق من شدة الخفقان فَرَقاً[2] مما رأوا.

روى الواقدي: (وبعث مالك بن عوف رجالاً من هوازن ينظرون محمداً وأصحابه ـ ثلاثة نفر ـ وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم.

فقال: ما شأنكم ويلكم.

قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلقٍ[3]، فوالله ما تماسكنا أن

---

(١) المغازي ٣:٨٨٧، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٢٤٠، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣١٢ للصالحي الشامي.

(٢) فَرَقاً: خوفاً.

(٣) قال ابن سيده: البلق والبلقة مصدر الأبلق ارتفاع التحجيل إلى الفخذين، تاج العروس ٦: ٢٩٨.

أصابنا ما ترى!.

وقالوا له: ما نقاتل أهل الأرض، إن نقاتل إلا أهل السماوات ـ وإن افئدة عيونه تخفق ـ وإن أطعتنا رجعت بقومك، فإن الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا.

قال: أفٍ لكم! بل أنتم قوم أجبن أهل العسكر)[1].

٣ ـ وبدل أن يسمع كلامهم باعتبارهم عيونه ورجاله المقربين حبسهم وذهب يبحث عن رجل شجاع يوفيه الأخبار: (دلوني على رجلٍ شجاع، فأجمعوا له على رجلٍ، فخرج ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم.

فقال: ما رأيت؟

قال: رأيت رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْقٍ، ما يطاق النظر إليهم، فوالله ما تماسكت أن أصابني ما ترى!.

فلم يثنه ذلك عن وجهه)[2].

فكم هو صلف هذا الشاب، وكم لديه من روح المخاطرة وطموح النفس بحيث لا توقفه هذه التحذيرات الثلاثة، مع كونها عبرت عن بالغ الخطورة في الموقف.

وإنها حتماً كانت على ألسُن شخصيات منتقاة مختارة ولها مواصفات حسنة جيدة، أقلها أنها شجاعة كي لا تكبّر الأمور ولا تصغّرها بمقتضى الخوف والجبن، وكونها أمينة لكي يكون نقلها مُصاناً، وكونها دقيقة كي تحقق عنوان المهمة المبعوث من أجلها.

---

(١) المغازي ٣: ٨٩٢، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣١٦.

(٢) المغازي ٣: ٨٩٢، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣١٦.

ونعود الى بداية الحديث في التفاتة الرسول الأعظم ﷺ إلى الجنبة الزمنية في معركة حُنين، فنلاحظ أنه ﷺ أمسك بزمام ثلاثة أمور إن لم نقل أكثر.

الأمر الأول:

المبادرة في الخروج من مكة قبل وصول العدو إليها، فوصول القوات المعادية المشتركة من قبيلة هوازن بقضها وقضيضها، وثقيف بشقيها الأحلاف، وعامر إلى مكة حيث كان النبي ﷺ، وكما كانوا يخططون يعني في ما يعنيه إمكانية محاصرة مكة، ووضع الرسول ﷺ في موقف محرج من الناحية العسكرية، ثم أن هذا الموقف لوحده كفيل بأن يخطف بريق النصر العظيم الذي حققه الرسول ﷺ في مكة.

ويمكن إحراجه حتى مع عدم الحصار، فمع فرض الهجوم عليه سيكون موقفه مدافعاً، والموقف المدافع سوف لا يكون أقل ضعفاً من موقف المحاصرة، ـ وعلى أي حال ـ اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، والمهاجم أقوى من المدافع، ولذلك قيل في العرف العسكري (الهجوم خير وسيلة للدفاع).

وقلنا: هكذا كانوا يخططون أن يباغتوا النبي ﷺ على غير دراية منه ﷺ واستحضار، أو على دراية منه ولكن مع عدم السماح له بالوثوب عليهم والمجيء إليهم، فيكون موقفهم كموقف الرسول الأعظم ﷺ مع قريش في فتح مكة.

فلتكن ساحة القتال في خارج أرض هوازن، وثقيف، إن منعتها الأقدار من الكون في أرض مكة، وكان هذا منطقهم المعلن وبلسان قائدهم مالك بن

عوف النصري: (فاجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم)[١].

فلما خرج لهم رسول الله ﷺ بجيشه سلبهم هذا الشعار، وحوله إلى رماد حملته ريح الهزيمة العاتية لتلقيه ما بين النجود (وكان رسول الله ﷺ قد سمى خيله خيل الله، وجعل شعار المهاجرين بني عبد الرحمن، وجعل شعار الأوس بني عبيد الله.

فكرّت الأنصار، ووقفت هوازن قدر حَلْب ناقةٍ فَتوح[٢]، ثم كانت إيّاها، فوالله ما رأيت هزيمة كانت مثلها، ذهبوا في كل وجه)[٣].

فلولا هذه الحركة المسددة من قبل الرسول ﷺ، ولولا هذه الحنكة في اصطياد الفرص، لوقع النبي الأكرم ﷺ، وجيشه، وأصحابه بالمحذور، مع ملاحظة أن الرسول ﷺ في مكة وليس في المدينة، وأن أهل مكة حديثو الإيمان جداً وفيهم من يخاف منه من جهات عدة كما لا يخفى على اللبيب المنتبه.

الأمر الثاني:

استثمار الرسول الأكرم ﷺ للفترة الزمنية الأولى من وجوده في مكة حيث نشوة الانتصار في نفوس المؤمنين، وقوة الاندفاع عند المسلمين بدافع تلك النشوة العظيمة وهي فتح مكة، الذي حوّل الأحداث، وغيّر مجرياتها، ورسم للعالم تاريخاً جديداً.

إذن سوف يندفع المسلمون بسببين:

الأول: كونهم مسلمين عليهم مسؤولية الدفاع عن الدين.

---

(١) المغازي ٣:٨٨٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ٤٨٥.

(٢) الفتوح من النوق: الواسعة الإحليل (الصحاح:٣٨٩).

(٣) المغازي ٣:٩٠٣.

الثاني: كونهم منتصرين عليهم مسؤولية المحافظة على لواء ذلك الفتح مرفوعاً وراية ذلك النصر خفاقة.

كما أن نفسية المنتصر مشحونة بالقوة والحماس والركض وراء النصر الثاني، أو الانتصارات التالية الأخرى، لذلك نرى المدة مختزلة جداً بين فتح مكة والخروج إلى حُنين حيث آخر حروب الجزيرة مع رسول الله ﷺ.

قد وثق التاريخ: (وكان فتح مكة يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان، فأقام رسول الله ﷺ خمس عشرة يصلي ركعتين، ثم غدا يوم السبت لست ليالٍ خلون من شوال، واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد يصلي بهم، ومعاذ بن جبل يعلّمهم السُنن والفِقه[1].

وقالوا: خرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف من المدينة وألفين من أهل مكة)[2].

خمسة عشر يوم لا غيرها هي المُدّة الفاصلة بين أهم حدثين فاصلين، فتح مكة وفتح حنين، وهي مدة قصيرة بالقياس إلى أهمية الحدثين، ولكن هذا القصر في المدة الزمنية له أهمية من الناحية الزمنية، وله أهمية من الناحية النفسية والمعنوية على المقاتلين.

الأمر الثالث:

وإن هذا الاختيار الزمني، أو الفترة الزمنية تكون صالحة جداً لاختبار تلك القوات المسلمة حديثاً ومقدار تمسكها بالإسلام، وهل هو تمسك الخوف من القتل، أو تمسك الرجاء في القبول عند الله بقناعة إيمان، وتصميم عقيدة.

---

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٢١: ١٤٣.

(٢) المغازي ٣: ٨٨٩.

وهذا يمكن تشخيصه من مجرد مشاركتهم فضلاً عن ثباتهم، كما دل ذلك بوضوح من خلال فرار بني سليم، واعتزال جملة من قلة قريش المخلوعين عن القتال، وثبات البعض الآخر، كأبي سفيان بن الحارث، أخ الرسول ﷺ من الرضاعة وابن عمه (فلما تحدرنا في الوادي، فبينا نحن فيه غَلَسَ الصبح، إن شعرنا إلاّ بالكتائب قد خرجت علينا من مضيق الوادي وشعبه، فحملوا حملةً واحدةً، فانكشف أوّل الخيل ـ خيل سُلَيم ـ موليةً فولّوا، فتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء)[1].

هذا والتاريخ يوثق لنا أحداثاً أخرى مهمة في هذه الغزوة، وكأنه يفسر لنا فرار خيل سُلَيم وقريش أول الناس.

عن المغازي: (وخرج رجال من مكة مع النبي ﷺ فلم يغادر منهم أحداً ـ على غير دين ـ ركباناً ومشاةً، ينظرون لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم، ولا يكرهون أن تكون الصدمة لمحمد ﷺ وأصحابه.

وخرج أبو سفيان بن حرب في أثر العسكر، كلما مرّ بترس ساقط، أو رمح، أو متاع من متاع النبي ﷺ حمله، والأزلام في كنانته، حتى أوقر جمله)[2].

ثم هناك شخصيات مهمة من قريش خرجت بهذا العنوان، وإن كانت قد أعلنت إسلامها فرَقاً ونفاقاً.

نعم، هناك موقف فردي جليل وشجاع لأبي سفيان بن الحارث (لما كان يوم حُنين التقى المسلمون والمشركون، فولّى المسلمون يومئذٍ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلاّ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذاً

---

(١) المغازي ٣: ٨٩٧.

(٢) المغازي ٣: ٨٩٥، سبل الهدى والرشاد ٥: ٣١٤.

بثغر بغلة رسول الله ﷺ والنبي ﷺ لا يألو ما أسرع نحو المشركين)[1].

وهذا يساهم بوضوح في معرفة الشخصيات ومعرفة حال قريش ليس فقط للرسول ﷺ من الناحية العملية، بل لجميع المسلمين، وفعلاً كان هذا حاصلاً في معركة حنين.

وبعد أن اطلعنا في المورد الثالث بجميع اتجاهاته على الاختيارات الفنية والستراتيجية في مسائل اختيار الزمان المناسب وانتقاء المكان اللائق للحرب عند الرسول الاعظم ﷺ وعلى كافة الاصعدة.

نتوجه الان وفي المورد الرابع لدراسة امورهم للاستخبارات العسكرية والقتالية.

---

(١) المغازي ٣:٨٩٨، السنن الكبرى ٥: ١٩٤، جامع البيان ١٠: ١٣١، الطبقات الكبرى ٢: ١٥٥.



المورد الرابع: الاستخبارات العسكرية

وسنبحث في هذا المورد اموراً لها دخلٌ في شأن الحرب بل قدّ تعتبر من الحساسية والخطورة على صعيد النتائج والأهداف من الأهمية بمكان، ولنبرهن من خلالها عدم إغفال الرسول المصطفى ﷺ لتلك الأساليب التي تمتلك ذلك الأثر المهم في مجال توجيه الحرب والعزف على أوتارها بشكل متقن.

وهـذه الامـور الهامـة هي الامور الاستخباراتية والتي سنوزع البحث فيها على اتجاهات ثلاث:

الاتجاه الأول: الكلام الرمزي

الحروب بما هي مواجهة قتالية ومنافسة في البقاء فيها غالب ومغلوب، وهي تضطر أهلها للتفكير بكل ما يهيء لهم أسباب الغلبة على العدو، أو لا أقل من عدم خسـارتها بشكل مفجع مؤلم.

ويترتب على هذا توظيف كل الطاقات، واستخدام كل الأساليب، والجري وراء كل معلومة نافعة لهم في تحقيق الوصول إلى الأهداف بشكل أسلم وأسرع، لذلك نرى فيها من الأساليب والمسالك ما لا نرى في غيرها من مظاهر الحياة الأخرى، بل إن فكرة الحرب، وعملية الاستعداد لها، وعدم إعطاء العدو فرصة يُمكنُه الاستفادة منها، جعل الحياة العادية أيضاً تصطبغ ببعض مظاهر وألوان الحرب.

ولأن الحياة حرب وسِلم، وهزيمة وانتصار، وغالب ومغلوب، أو هكذا

صارت، اصبحت الأساليب بين مظاهر السِلم، ومظاهر الحرب متداخلة في عين كونها مفترقة، فتلاحظ أن الكتمان والحذر والتوجس من الآخرين، مفاهيم سرت بمفعولها من ساحة القتال التي تنمو بها بشكل ضروري وطبيعي إلى الساحة العامة للحياة البشرية، وذلك للتلازم الحاصل بينهما، ولانعكاس إحداهما على الأخرى.

فالحياة السلمية بالواقع حرب ولكن من نوع آخر، هو ليس نفسه في حياة الحرب والمواجهة، والحياة الحربية هي بالواقع مظهر سِلمي، وإن كان هذا المظهر السلمي غير منزوع الفتيل، وبهذا صار الكلام الصريح ليس مورداً صالحاً للفائدة في أحوال القتال، كما إن استخدامه يعني السفاهة ومجافاة الحكمة التي تقتضي وضع الشيء في محله.

فإن أي تصريح بأيِّ معلومة، وإن كانت بسيطة وهامشية قد يؤدي في الحرب إلى كارثة غير معلومة النتائج والآثار، وإن كتمان معلومة، وإن كانت بسيطة قد تؤدي إلى تفويت فرصة ثمينة من يد العدو ربما يكون الحصول عليها مغيراً لمسار الحرب ومعادلات القتال.

وهنا تأتي أهمية الكلام الرمزي، أو التعبير بالإشارة، أو قل بالكناية، أو أي أسلوب آخر يمكن أن يُوصِل المراد بوضوح لمتلقيه وفي عين الوقت يموه الحقيقة على من لا يُراد إيصالها له، وهو أسلوب استخباراتي ذكي يجمع بين الإبعاد والتقريب، ففي حين إنك تقرّب لي معلومة، تبعدها عن الخصم، أو عن فهمه، وتجعلها لغزاً محيّراً في ذهنه ـ على فرض وصول تلك المعلومة إليه ـ.

وقد استخدم الرسول المصطفى ﷺ هذا اللون من التعامل في الحروب، بل وطالب أصحابه بالعمل به في حال الكلام، وإن كان الصمت في الحروب والسكوت قبيل بدئها من حِكَم الموقف العسكري والادارة القتالية.

ولقد رأينا كيف كان المسلمون في بدر القتال لا ينبسون ببنت شفة،

فكان ذلك أدخل في قلب العدو، وأجلد لموقفهم حتى قال عنهم جاسوس قريش عُمَير بن وَهْب الجُمَحيّ: (يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قومٌ ليست لهم مَنَعَة ولا مَلجأ إلاّ سيوفهم! ألا ترونهم خُرْساً لا يتكلمون، يتلمّظون تلمّظ الأفاعي! والله، ما أدري أن يُقتَل رجلٌ حتى يقتل منّا رجلاً، فإذا أصابوا مثل عددهم فما خيرٌ في العيش بعد ذلك! فارتأوا رأيكم!)[1].

فتراه بهذا الكلام الجميل، والمسبوك سباكة حسنة، والتقييم الدقيق لوضعهم الذي هم عليه، ولما سوف يصير إليه، يعبر عن الفزع الذي تملّكه، وعن توجس عظيم من هؤلاء الثلاثمائة أو يزيدون؛ لأن نواضحهم تحمل الموت الناقع، ولأنهم خرسٌ لا يتكلمون.

إن السكوت من عزائم الحرب ودلائل الشجاعة، وإمارات الإئتمار للقائد الأعلى، وعلامة واضحة على الثبات والرسوخ.

لا مجال في الحرب للكلام فهو ضعف، أو معبرٌ عن أمور ليس مورد ذكرها هنا، فإذا كان الصمت أحياناً في الحياة السلمية حكمة، فالصمت في الحرب عظمة واقتدار وفريضة.

نعم إذا ألجئتهم الضرورة لكلام فلا بأس بالكلام الرمزي كما استفاد منه رسول الله ﷺ في موارد منها في حربه بالخندق: (ثم دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عُبادة، وأُسَيد بن حُضَير، فقال: «إنه قد بلغني أنّ بني قريظة قد نقضوا العهد الذي بيننا وبينهم وحاربوا، فاذهبوا فانظروا إن كان ما بلغني حقاً، فإن كان باطلاً فأظهروا القول وإن كان حقاً فتكلموا بكلام تلحنون لي به أعرفه، لا تفتوا أعضاد المسلمين...».

---

(١) المغازي ١: ٦٢ و ج٢: ٤٥٧.

قال: ثم رجعوا إلى النبي ﷺ، فلما انتهوا إلى النبي ﷺ، قال سعد بن عبادة: عضَل والقارة[1]، وسكت الرجلان ـ يريد بعَضَل والقارة، غدرهم بخُبَيب وأصحاب الرجيع ـ ثم جلسوا)[2].

ونلاحظ هنا عدم تصريح السعدان بنقض القوم للعهد، وإنما اكتفيا بتعبير مبهم عرف من خلاله الرسول ﷺ نقض قريظة للمواثيق، وذلك من القرائن المستفادة في الربط بين غدر عضَل والقارة وتسريتها في المقام على اليهود، والمراد منها إشراكهم في الغدر الذي فهمه الرسول ﷺ بمجرد أن أشار سعد بن معاذ إلى ذلك الاسمين، أو تلك الكلمتين.

أما لماذا يكون الكلام الرمزي له أهميته في وقت الحرب؟

فذلك لِما نتصوره في الأسباب التالية:

١ ـ المحافظة على معنويات المسلمين.

فإن الحرب بالواقع قائمة على الطاقة الروحية خصوصاً في معسكر المسلمين، والذي دائماً يشكو القلّة الفاحشة في عدده قبال عدد المشركين الذي هو دائماً أضعاف عدد المسلمين.

والذي يشكو أيضاً الشحة في العُدَد ابتداءاً من قلة الأفراس وانتهاءاً بالدروع والسيوف، والرماح، وغيرها من اللوازم الحربية والقتالية، ثم إنه يشكو من الشحة الاقتصادية والعوز المادي، ولطالما رأيناهم يحاولون جمع كل ما عندهم من غذاء ووضعه على سفرة واحدة كي يأكل الجميع، من يملك ومن

---

(١) وكانت عضل والقارة قبيلتان من كنانة دخلا في الإسلام ثم غدرا، وكان إذا غدر أحد ضرب بهما المثل فيقال عضل والقارة.

(٢) المغازي ٢: ٤٥٨، تاريخ الطبري ٢: ٢٣٨، البداية والنهاية ٤: ١١٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٣٠، طبعة قديمة.

لا يملك، من يملك كثيراً، أو يملك قليلاً.

إن الزاد الحقيقي عند المسلمين هو الزاد المعنوي، أما آليات الحرب ومواد المناورة الرئيسية فهي تكاد تكون مفقودة، لذلك تأتي عملية المحافظة على المعنويات والروحية القتالية عند الجيش ليس من باب كونها ضرورية بواقعها للمقاتلين فحسب إنما هي كذلك بالنسبة للمسلمين وزيادة، والزيادة فيها عدم وجود التكافؤ الطبيعي بين العسكرين، مما يجعل التركيز على العامل المعنوي أمراً مهماً جداً، والتعويل عليه في نقض وترجيح معادلة الصراع.

لقد رأينا ذلك واضحاً في بدر وأُحُد وفي الخندق وفي سائر حروب المسلمين تقريباً.

وإن التصريح بنقض العهد من قبل قريظة أمرٌ يفت أعضاد المسلمين، كما صرّح به قائد الحرب، وقائد السلم، وقائد البشرية جمعاء محمد ﷺ.

وإنه سيسحب ورقة هامة من يد الرسول ﷺ هي بالواقع الورقة الأكثر أهمية فيما بعد الغيب، لو تحقق وعلم الجيش بأمر النقض، ألا وهي الورقة المعنوية.

وفعلاً ومع تحفظ الرسول ﷺ، ومع كونه وجّه الأزمة بشكل لا تتناهى إليه أية براعة، وأية ألمعية قيادية، بأن أظهر التكبير والنصر المحتوم على اليهود ـ كما هو الحق ـ إلاّ أنك ترى المسلمين بمجرد أنهم علموا بذلك النقض ساء بهم الخطب، وحلّت بهم الهموم، وتوزعت أوصالهم منه قلقاً وفرقاً، وظهرت فيهم الفتنة، ونجم فيهم قرن النفاق.

عن الواقدي: (وقالوا: ونَجم النفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء، وكانوا كما قال الله تعالى:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾(١) ورسول الله ﷺ والمسلمون وجاه العدو لا يستطيعون الزوال عن مكانهم، يعتقبون خندقهم ويحرسونه.

وتكلم قومٌ بكلام قبيح، فقال مُعَتِّب بن قُشَير: يَعِدُنا محمّد كنوز كِسرى وقيصر، واحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته، وما وعدنا الله ورسوله إلاّ غروراً!)(٢).

٢ ـ عدم إعطاء الفرصة للأعداء في الاستفادة مما يصيب المسلمين.

قلنا إن المسلمين تضرروا من مسألة النقض والرسول ﷺ لم يصرح بها، فكيف لو صرح بها وأبداها أمام الجميع فسيكون الأثر حتماً أشد واوقع في نفوسهم.

وإن هذا الأثر سوف يدعم موقف المشركين، فإن أي تراجع، أو ضعف، أو تحلل في صفوف العسكر الإسلامي، أو أي دعاية طائشة تؤثر على إرادة المقاتلين، سوف تكون حتماً مورد تدعيم وتصليب وتقوية لموقف المشركين، فالمشركون كل خوفهم من مقابلة رجال أشداء، لذلك جمعوا لهم هذه الجموع ـ كما قلنا في الخندق مثلاً ـ.

فإذا عرفوا بهم وقد خارت قواهم، وانهارت إرادة المواجهة في نفوسهم، وهرمت روح المقاومة عندهم، فسيكون هذا لوحده بمثابة النصر الأولي لمعسكر الأعداء هذا والسيف طامن والهيجاء لما تستعر، فكيف بها إذا جاش اوارها، وصُبَّ حيمها فإن الانهيار سيكون أسرع، والخسارة أوجع، فتُكسر بذلك شوكة المسلمين.

---

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) المغازي ٢: ٤٥٩، سبل الهدى والرشاد ٤: ٣٧٤.

إن القائد محمداً ﷺ كما يحافظ على معنويات جنده ويربيّ فيهم روح المكابرة والثبات على الخطوب والصبر في كرب الحروب، كذلك يجب أن لا يمنح الأعداء شحنة مقوية لمعنوياتهم، ويدفع احتمال حصولها؛ كي يحافظ على وضع الأعداء المعنوي الذي لا يزال تحيط به شرارة الخوف من إقدام المسلمين، بل يعمل على تحطيم تلك المعنويات عند الأعداء بأساليب أخرى ـ لعله يأتي المجال المناسب لذكرها ـ، فكيف والحال هذه يجعل قواهم النفسية ناشطة ومهتاجة لمجرد سماعهم أنباء عن تخاذل المسلمين وضعفهم الذي حلّ بهم.

ثم قد يستغل العدو هذه الفرصة ـ فرصة تخوّف المسلمين ـ في محاولة تفكيك تلك القوى المكوّنة للمعسكر الإسلامي ولو بغير طريقة الحرب المباشرة، فيستفيد من رموز الفتنة المعهودة، وأقطاب النفاق للاستزادة في إضعاف المسلمين، أو ربما يفكر أن يغير على قواعدهم النسوية ويروع المدينة من ثغرة من الثغرات.

والمهم أن هناك مجالاً كثيراً لاستفادة العدو من حصول عملية الانهيار المعنوي المحتملة عند المسلمين.

ولقد استفاد ـ أي العدو ـ من ذلك في أحُد عندما تفككت حلقات العسكر من حول رسول الله ﷺ حتى بلغوا الرسول الأعظم ﷺ وآذوه.

واستفاد الأعداء من الانهيار المعنوي للمسلمين في بداية حرب حُنين وطاردوا المسلمين لولا أن أسعفهم نداء رسول الله ﷺ ليرجعوا إلى قواعد الدفاع عن النبوة الإلهية والرسالة المحمدية.

وقد استفاد الأعداء مما حصل في مؤتة، فانسحب العسكر وهُزم شر هزيمة بقيادة خالد بن الوليد الذي استلم القيادة بعد مقتل قادته الثلاثة الشهداء الأبطال.

بينما استفاد المسلمون كثيراً من الانتكاسات المعنوية للأعداء كما في بدر الكبرى، وبداية الحرب في أُحُد، وكذا في الخندق، ثم بقية الغزوات التي غزاها الرسول الأعظم ﷺ على اليهود كانت أو على المشركين.

٣ ـ إعطاه الرسول ﷺ فرصة لِتدبّر الوضع في منأى عن تشويش الآخرين.

فإن القيادة العسكرية تحتاج إلى أجواء هادئة لصياغة قراراتها خاصةً عند الظروف التي يخالطها الحرج والحساسية والتي يشوبها التعقيد، فإن الحرب لوحدها أمرٌ معقد فكيف إذا رافقتها طوارئ معقدة تزيد من شبكة تعقيدها مما يجعل الموقف صاخباً مضطرباً.

إن علم بقية أفراد العسكر على اختلاف أنماطهم النفسية سيجعل المواقف الطارئة مواقف ثابتة ودائمة؛ لأنهم سيعيشون معها بقرارات فردية ومستعجلة ولا يرجعون فيها إلى مثابة، مما يجعل القائد ـ وبدلاً من أن يعالج طارئاً واحداً مهماً وخطيراً ـ أمام طوارئ عدّة كلها مهمة وخطيرة، بل قد يكون أهم وأخطر.

إن إعلام الجنود بالطارئ يعني جعلهم بهذه الكيفية، وبالتالي جعل القائد بكيفية يمكن معها انفلات زمام القيادة من يده، وكل ذلك كان بسبب واحد كان بالإمكان السيطرة عليه في أول الأمر، أما الآن ومع هذه التحولات والتطورات فليس من السهولة التحكم بإرادة الجيش وزمام قيادته.

ومن هنا تأتي أهمية أن يكون الكلام رمزياً للتفاهم في بعض شؤون الحرب وطوارئها المستجدة، بل حتى لو اتخذ الجندي طابع الصمت والسكوت حتى تأتيه أوامر قيادته في ما هو المطلوب منه، فلا يمنع أحد من القول بأن القلق، أو مساورة الشكوك لذلك الجندي قد تسقط نصف همّته

التي لا يكون رجوعها سهلاً بالعادة.

فحتى يكون القائد بعيداً عن هذه الاضطرابات وبعيداً عن الأجواء الساخنة المشوشة له، يجب أن لا يشرك جنوده في كل طارئ من شأنه أن يلقيه في محيط غير سليم لاتخاذ القرار المناسب لتلك الحالة الطارئة.

فنرى أن الرسول ﷺ في الخندق اتخذ قراره بسهولة في مسألة إظهار التكبير، وإعلان التبشير لإعطاء الجيش زخماً معنوياً يقلل من وطأة المرارة المحتملة عند سماعهم لأخبار نقض بني قريظة العهد، ولو عرف الجند بذلك الطارئ في حينه ربما حصل الهرج والمرج المحذوران في الحرب.

ونراه ﷺ أيضاً لم يعاني من مسألة اسمها اعتراض الآخرين، وضجيجهم عند الحدث، وإنما كان ذلك الهدوء بفعل حكمة الرسول ﷺ في كيفية التعامل مع مُستجدات الأمور.

٤ ـ تعويد المسلمين على العمل بهذه الأساليب للفوائد المترتبة عليها.

ولو لم يكن فيها من الفوائد إلاّ المذكورة سابقاً لكفى بها أهمية وضرورة في الممارسة، لذا صار توجيه عناية المسلمين لها وتعويدهم للعمل بها ليس من مستحبات العمل الحربي إنما هو من واجباته، ويمكن أن يكون من القواعد الحربية المهمة هو أن يتفاهم الجند بلغة خاصة في وقت الحرب هي بالواقع غير اللغة التي يتعاملون بها في غيره من الأوقات.

ومن هنا يجدر بنا أن نبحث ولو بشكل مختصر أيضاً في الشعار الذي كان يلتزمه رسول الله ﷺ ويُلزم به جيشه في المعركة، فقد استخدم ﷺ كلمة خاصة تطلق وقت الحرب شعاراً خاصاً ويصدح به جهاراً، ونحن هنا نتساءل ما هو السر الذي كان يقف وراء هذا الشعار؟ بل واختلافه من معركة إلى أخرى؟

فمرة «يا منصور أمت» كما في بدر، والمريسيع (بني المصطلق)، ومرة «أمت، أمت» ومرة «حم لا ينصرون» ورابعة «أحد، أحد»، أو «يا نصر الله اقترب»، أو غير ذلك على اختلاف الروايات، وتعدد المصادر.

والمهم أن هذا لا يخلو من دلالات مهمة كان يقصدها الرسول ﷺ من وراء تلكم الشعارات، ولعلنا هنا نحاول أن نفتش عن بعض تلك الدلالات، أو نحاول الوصول إليها:

أولاً: إن في الشعار دلالة على وحدة التوجه.

فالكل يلهج بكلام واحد ونغمة لفظية واحدة، تشير فيما تشير إليه أن هذه الجموع المقاتلة تهدف الوصول إلى نقطة واحدة وتسعى لبلوغ هدف واحد، وهي مُنشدّة في إطار كتلة واحدة لا تعزب عنها ولا تخرج عليها ولا تسمح لغيرها الاختلاط بها فإنها تشترك في الغاية.

والغاية كفيلة أن توحّد الجهود والممارسات والعطاءات، معلنين بذلك ابتداءاً بالقول وانتهاءاً بالفعل الذي تمثله هذه النيّة والكاشفة عنها هذه اللفظة.

ثانياً: فيه دلالة على عقائدية المنـــهج.

فهم يحملون اسم الله ﷻ همّاً وعقيدة، ولَمّا تكون كذلك تكون مجالاً لاستحقاق المدافعة والمقاتلة، إنها ﴿حمٓ﴾ المعبرة عن جوهر فكرهم الجديد والذي حار في تفسيرها ومعرفة كنهها العرب من غير المسلمين، إنهم يدافعون عن «أحد، أحد» عن منهج التوحيد ولواء الولاء له.

إنهم يحملون نَفَس السماء، إنهم يعلنون أنهم أصحاب عقيدة تديم نفسها بذلك النَفَس، وأنهم أصحاب منهج معبر عن تلك العقيدة بكافة مفاصلها.

ثالثاً: إن الشعار يعبر عن وحدة القيادة.

وكذلك يعبر عن صدق إتباعها، والوثوق بطاعتها، والاستسلام لأمرها، فَلَمَّا يصدر كلام واحد من مجاميع مختلفة في المشارب أنصار ومهاجرين، والمهاجرون من قبائل متعددة وكذا الأنصار، ولما يصدر من صفوف عسكرية مختلفة من الخيالة والرماة والمشاة، ولَمَّا يصدر من مواقع مختلفة من النبي ﷺ، ومن صاحب اللواء، ومن صاحب الراية، ومن أمراء الجيش، ومن مختلف أصنافه الأخرى، فإنه بالضرورة يعبر عن أن هذه الجموع على ما هي عليه من مستويات الاختلاف إنما تأتمر بأمر ذلك القائد، وتعبر عن إرادته في توجيه المعركة، وخوض لهيبها. وإنهم سامعون ومطيعون له.

رابعاً: إن الشعار يخيف الأعداء.

إنه يخيف الأعداء لما يحمل من معنى فهو إما يدعو إلى الله ﷻ، وإما أن يجعل المؤمنين يدعو بعضهم البعض لقتل المشركين بقولهم: «يا منصور أمت» مع حمل بشارة النصر له باعتبار قوله: يا منصور، وإما يحمل معاني غامضة تحمل العدو على الحيرة في استكناه السر ومعرفة المغزى، فيعيش معها الاضطراب والقلق من مرادها والخوف منها.

ومن المعلوم أن الأمور الغامضة السرية تزيد في تعقيد فهم المتلقي، وتجعله يتخبط في عشواء مما يزيد في اضطرابه النفسي وبالتالي إضعاف مقاومته.

خامساً: ويعتبر الشعار دليلاً.

إذ يكون دليلاً على إخوان العقيدة في ساعة الضرب الذي تتيه فيها الأذهان، وتنشغل فيها العيون والآذان، فيكون كجرس منبّه على وجود المعين لك من إخوانك في الحرب، والمنبه على الحذر من تَناوشه بالضرب،

ودليلاً على الوجود في رهج المعركة، أو الشخوص في ليلها المظلم.

روى صاحب المغازي: (وأقبل يومئذٍ الحباب بن المُنذر بن الجموح يصيح: يا آل سَلِمَة! فأقبلوا عُنُقاً واحداً: لبيك داعي الله! لبيك داعي الله! فيضرب يومئذٍ جبار بن صخر ضربة في رأسه مثقلةً ومايدري، حتى أظهروا الشعار بينهم يصيحون: أمت! أمت! فكفّ بعضهم عن بعض)[1].

فهو إذن مثابة يؤوب إليها الضال، ويعرف من خلالها صحبه وإخوانه.

سادساً: دلالته على النصر.

إنه يحمل بشارة النصر فضلاً عن انتصار الفكر؛ لأنه يتكلم أو يعلن نفسه كسِمة للمسلمين الذين يختلفون بأفكارهم وعقائدهم عن اليهود، والمشركين، والنصارى وغيرهم، وهذه السمة، أو اللفظة تمنح المقاتل المسلم دفقة من القوة، لأنها تشعره بالارتباط بالله القوي العظيم، وتشعره بالوثوق، والحركة المطمئنة، والأمل الواسع بالنصر والوعد الإلهي، لما يحمل في ثناياه من معنى، ومن تحدٍ فكري وشموخ عقيدي..

وهنا تعليق جميل لسماحة العلامة العاملي يأتي في هذا السياق:

(وقد اقترن هذا التحدي الفكري بالتحدي بالعنف والقتل، كنتيجة طبيعية لعجز قوى الشرك، وهزيمتها المخزية والنكراء في مجال الفكر والمثل والقيم "حم، لا ينصرون" لسوف يتمثلون حالة العجز والسقوط والهزيمة بكل ألحانها، وبكل مجالاتها. ولسوف تزرع هذه الكلمة اليأس والفشل في نفوسهم، فإنها كانت رمز التحدي القرآني لهم ولكل من هو على شاكلتهم)[2].

---

(١) المغازي ١: ٢٣٤.

(٢) الصحيح من السيرة ٩: ١٧٧.

سابعاً: وفي الشعار تدعيم اللغة الرمزية.

وفيه دلالة أخرى على أهمية اللغة الرمزية التي نحن في صدد الحديث عنها، فقد توضح فيما سبق أهمية هذا المعنى، وهذا الاستخدام، وهذا الخط من الأساليب المعاملتية في الحرب، ويُعَبَّر عنه في عصرنا الحاضر بـ (الشيفرة).

وبعد هذا التوضيح المفصل حول أهمية الشعار في الحرب لننتقل سوية الى أهمية الاستطلاع الميداني وكيفيته عند رسول الله ﷺ فيما تقرأه في الاتجاه الثاني حول الاستطلاع الميداني.

الاتجاه الثاني: الاستطلاع الميداني

لقد عمد الرسول ﷺ على استحصال المعلومات بشتى الوسائل والسُبُل الممكنة في عصره الشريف، وكانت أهمّ ثلاث قنوات استفاد منها الرسول ﷺ هي:

الأولى: مبعوثيه من المسلمين.

الثانية: من أسرى العدو وجواسيسهم.

الثالثة: من سائر الناس.

القناة الأولى

الحصول على المعلومة الاستخباراتية من خلال جماعة معتمدين يبعثهم الرسول ﷺ بقصد ممارسة تلك المهمة، واستطلاع العدو وتحركاته عن كثب، ليجمعوا المعلومات عنهم، وخصوصاً المهمة منها (العدد... التسليح... القادة... حملة الرايات... القبائل المشاركة... الموقع المُعسكر فيه... الفرسان... وغير ذلك).

وبعد جمع تلك المعلومات يأتون بحصيلتها للرسول ﷺ، كما كان منه ذلك كثيراً في حروبه وغزواته وسراياه، وإليك بعض الشواهد.

١ ـ سرية عبد الله بن جحش قبيل غزوة بدر (سريّة نَخْلَة):

ينقل لنا التاريخ ما قاله أمير السرية عبد الله بن جحش ويرويه بنفسه: (... ثم دعاني[1] فأعطاني صحيفة من أديم خَولاني[2] فقال: «قد

---

(١) أي دعاه رسول الله ﷺ.

(٢) قال ياقوت: خولان من مخاليف اليمن، وخولان أيضاً قرية كانت بقرب دمشق، (معجم البلدان ٣: ٤٩٦).

استعملتك على هؤلاء النّفر فامضِ حتى إذا سرت ليلتين فانشُر كتابي ثم امضِ لما فيه».

قلت: يا رسول الله، أي ناحية؟

فقال: «اسلك النَّجدية، تَؤُمُّ ركيّة»[1].

قال: فانطَلَق حتى إذا كان ببئر ابن ضُميرة نشر الكتاب فقرأه فإذا فيه: **«سِرْ حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته، ولا تكرهنّ أحداً من أصحابك على المسير معك، وامضِ لأمري فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قُريش»)**[2].

٢ ـ في غزوة أُحُد بعث رسول الله ﷺ الحُباب بن المنذر بن الجموح سراً، ليستخبر أمر جيش قريش[3].

٣ ـ بعث الرسول الأعظم ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليستخبرا أمر قريش وجيشها السائر نحو المدينة: (وبعث النبيّ ﷺ عينين له، أنساً ومؤنساً ابني فضالة ليلة الخميس، فاعترضا لقريش بالعقيق، فسارا معهم حتى نزلوا بالوطاء. فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه)[4].

٤ ـ وكذا عند توجهه ﷺ إلى بدر بعث بسبس بن الجهني، وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن قريش وأبي سفيان[5].

---

(١) الركية: البئر، (الصحاح: ٢٣٦١).

(٢) المغازي ١: ١٣ ـ ١٤، السنن الكبرى ٥: ٢٤٩، الثقات لابن حبان ١: ١٤٨، تاريخ المدينة ٢: ٤٧٣.

(٣) المغازي ١: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٤) المغازي ١: ٢٠٦، الطبقات الكبرى ٢: ٣٧، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٦٣ عيون الأثر ١: ٤١٢، المغازي: ٢٠٨.

(٥) انظر الطبقات الكبرى ٢: ٢٤.

٥ ـ في غزوة أُحُد بعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام لينظر آثار القوم ويستخبر أمرهم.

٦ ـ في غزوة الأحزاب بعث الرسول ﷺ خوّات بن جبير إلى جهة بني قريظة ليرى هل لهم غرةٌ[1] أو خلالاً [2]: (حدثني صالح بن خَوّات، عن ابن كعب، قال: قال خوّات بن جبير: دعاني رسول الله ﷺ ونحن محاصرو الخندق، فقال: «انطلق إلى بني قريظة فانظر هل ترى لهم غِرَّة أو خلالاً من موضع فتخبرني».

قال: فخرجت من عنده عند غروب الشمس، فتدلّيت من سَلْعٍ وغَرَبت لي الشمس فصلّيت المغرب، ثم خرجت حتى أخذت في راتج، ثم على عبد الأشْهَل، ثم في زُهْرَة، ثم على بُعاث.

فلما دنوت من القوم قلت: أكمن لهم، فكمنت لهم ورمقت الحصون ساعة...)[3].

٧ ـ بعث الرسول الأكرم ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي إلى بني المصطلق عيناً له: (فبلغ رسول الله ﷺ فبعث بُريدة بن الحُصَيب الأسلميّ يعلم علم ذلك، واستأذن النبيَّ ﷺ أن يقول فأذن له، فخرج حتى ورد عليهم مائهم، فوجد قوماً مغرورين قد تألّبوا وجمعوا الجموع، فقالوا: مَن الرجل؟

قال: رجل منكم، قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني فتكون يدنا واحدة حتى نستأصله.

---

(١) الغرة: الغفلة، (النهاية في غريب الحديث ٣: ٣٥٤).

(٢) وخلل كل شيء: ما بدا لك من بين كل شيء من نقبة، (كتاب العين ٤: ١٤٠).

(٣) المغازي ٢: ٤٦٠، الفايق في غريب الحديث ١: ١٨٤.

قال الحارث بن أبي ضرار: فنحن على ذلك، فَعَجِّل علينا.

قال بُريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني، فسرّوا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم)[1].

٨ ـ وبعث ﷺ حذيفة بن اليمان في ليلة الأحزاب قائلاً له: «اذهب فأتني بخبر القوم»[2].

٩ ـ وفي غزوة الحديبية دعى ﷺ بسر بن سفيان وارسله عيناً له على قريش ليأتيه بخبرهم: (ودعا رسول الله ﷺ بسر بن سفيان من ذي الحُليفة وارسله عيناً له، وقال: «إنّ قريشاً قد بلغها أني أريد العمرة، فخبّر لي خبرهم، ثم ألقني بما يكون منهم») [3].

١٠ ـ وبعث ﷺ عباد بن بشر طليعة له في غزوة خيبر، حيث وجد عيناً لليهود وحقق معه تحقيقاً أولياً، ثم أتى به لرسول الله ﷺ كما يذكر ذلك الواقدي في مغازيه[4].

كما أن هناك أحداثاً كثيرة لها ربط بهذا الجانب، كما في استجواب الرسول ﷺ للأسيرين في غزوة بدر، وكما في بعثه ﷺ طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، قبيل غزوة بدر يتحسسان خبر عير قريش، وغير ذلك.

وسوف يأتي ذلك فيما بعد.

---

(١) المغازي ١:٤٠٤.

(٢) الطرائف: ٣٩٣، الدر المنثور ٥: ١٨٤.

(٣) المغازي ٢:٥٧٣.

(٤) المغازي ٢: ٦٤٠ـ ٦٤١ ، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٤.

القناة الثانية

وقد تكون الاستفادة المعلوماتية من أسرى العدو وجواسيسهم الذين يقعون في الأسر كذلك، وهذا منفذ مهم جداً لأهمية ما يمتلك هؤلاء من معلومات، وهي بنفس الوقت دقيقة موثقة، خاصة مع تبرعهم بها، أو إعطائها قبال ضمانات معينة يتعهد بتوفيرها المسلمون، أو بعد قناعتهم بالدين وإسلامهم لربِّ العالمين، فلا يحتاج المسلمون حينئذٍ إلى انتزاع المعلومات وبالطرق القهرية، إنما تأتي إليهم طازجة مجانية، وقد يضطر المسلمون إلى انتزاعها بالقوة والتهديد، والحبس والوعيد:

١ ـ كما في أخذ يسار وصاحبيه أسلم وأبي رافع.

وإليك بعض الموارد لفحوى ما جاء في هذا الكلام: (وأخذ تلك الليلة يسار غلام عُبَيد بن سعيد بن العاص، وأسلم غلام مُنَبِّه بن الحجاج، وأبو رافع غلام أمية بن خلف، فأتي بهم النبيّ ﷺ وهو قائم يصلّي...)[1].

ومن ثم تم استجوابهم، وأخذ معلومات تخص العدد والمكان الذين هم فيه وغير ذلك.

٢ ـ اليهودي الذي أسره عمر بن الخطاب في غزوة خيبر وكان رجلاً ذا معلومات مهمة للغاية[2].

٣ ـ وذلك الرجل (العين أو الجاسوس) الذي أسره المسلمون قبيل فتح مكة، وكان يحمل معلومات مفيدة عن هوازن وغيرها، وعن نواياهم بإزاء رسول الله ﷺ[3].

---

(١) المغازي ١: ٥٢، سيرة ابن هشام ٢: ٢٦٨.

(٢) أنظر المغازي ٢: ٦٤٧.

(٣) انظر المغازي ٢: ٨٠٤.

٤ ـ والعين التي أصابها أمير المؤمنين عليه السلام عندما بعثه النبيّ ﷺ أميراً لسرية سارت إلى حي بني سعد بفدك[١].

٥ ـ وكذا العين التي اصابها المسلمون في غزوة بني المصطلق: (فلمّا نزل[٢] ببَقعاء[٣] أصاب عيناً للمشركين، فقالوا له: ما وراءَك؟ أين الناس؟ قال: لا علم لي بهم)[٤].

والموارد كثيرة لا يسعنا ذكرها هنا.

القناة الثالثة

وقد تكون الاستفادة من عامة الناس، والمتطوعين بها لرسول الله ﷺ وأصحابه الآخرين.

وهنا بعض الأمثلة لذلك:

١. في معركة بدر حيث استفاد رسول الله ﷺ من رجل لقيه في الطريق اسمه سفيان الضمري، كان قد أخبر الرسول ﷺ بخروج قريش في معركة بدر[٥] ـ وسيأتي ذكره في الموضوع اللاحق ـ.

٢. وفي أُحد حيث استفاد رسول الله ﷺ من الرسالة السرّية الموجهة له مِن قبل العباس بن عبد المطلب، وهو في مكة يخبره فيها بخروج قريش، وعددهم، وتسليحهم، وقادتهم، إلى غير ذلك[٦].

---

(١) انظر المغازي ٢: ٥٦٢.

(٢) أي رسول الله ﷺ.

(٣) بقعاء: موضع على أربعة وعشرين ميلاً من المدينة، (وفاء الوفا ٢: ٢٦٤).

(٤) المغازي ٢: ٤٠٦.

(٥) أنظر البداية والنهاية لابن كثير ٣: ٣٢٣.

(٦) المغازي ١: ٢٠٣.

٣. إخباره ﷺ من قبل رجل من بني لجيم بما تنويه خثعم وزعيمهم الحارث بن مكيدة الخثعمي من الكيد برسول الله ﷺ وصحبه، وقتلهم[1].

٤. ثم ما كان في غزوة بحران حيث لقي الرسول ﷺ رجلاً قبل بلوغ بحران بليلة وكان الرجل من بني سليم، واستخبره ﷺ عن القوم فأخبره.

في المغازي: (فخرج[2] في ثلاثمائة رجل من أصحابه فأغذوا السير حتى إذا كانوا دون بحران بليلة، لقي رجلاً من بني سليم فاستخبره عن القوم وعن جمعهم، فأخبرهم أنهم قد افترقوا أمس ورجعوا إلى مائهم...)[3]

ولا أرانا بحاجة إلى التفصيل في هذا المطلب فأمثلته كثيرة وقنواته عديدة.

أمّا الأهمية من ذلك كلّه فهي تتلخص بما يلي:

أولاً: لجمع أكبر قدر معلوماتي ممكن عن الأعداء.

فبمجرد معرفتنا بأهمية المعلومات المستحصلة في الحرب، وأهمية المعلومات التي حصل عليها الرسول ﷺ أو الجيش الإسلامي فعلاً، ندرك بسرعة أهمية السعي لجمع تلك المعلومات، والمتابعة المستمرة لها.

وهذا كان واضحاً من جملة الاستجوابات التي حصل عليها الجيش الإسلامي أو قائده الأعظم الرسول الأكرم ﷺ في بدر عن طريق الأسيرين، أو في خيبر عن طريق اليهودي الذي كان يمتلك معلومات خطيرة عن وضع اليهود، وأسلحتهم، ومذاخرهم، وخطتهم المستقبلية.

فقد ورد: (فلمّا كانت الليلة السادسة من السبع استعمل عمر بن

---

(١) تفسير فرات الكوفي: ٥٩٣، بحار الأنوار ٢١: ٨٥ ـ ٨٦.

(٢) أي الرسول الأكرم ﷺ.

(٣) المغازي ١: ١٩٦ ـ ١٩٧.

الخطاب على العسكر، فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرّقهم أو فرّق منهم. فأتى برجلٍ من اليهود في جوف الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه، فقال اليهودي: إذهب بي إلى نبيكم حتى أكلّمه، فأمسكه عمر وانتهى به إلى باب رسول الله ﷺ فوجده يصلّي، فسمع رسول الله ﷺ كلام عمر فسلّم وأدخله عليه، ودخل عمر باليهودي.

فقال رسول الله ﷺ لليهودي: «ما وراءَك ومن أنت؟»

فقال اليهودي: خرجت من حصن النَّطاة من عند قومٍ ليس لهم نظام، تركتهم يتسلّلون من الحصن هذه الليلة.

قال الرسول ﷺ: «فأين يذهبون؟»

قال: إلى أذل مما كانوا فيه، إلى الشق، وقد رُعبوا منك حتى إنّ أفئدتهم لتخفق، وهذا حصن اليهود فيه السلاح والطعام والوَدَك، وفيه آلة حصونهم التي يقاتلون بها بعضهم بعضاً، قد غيّبوا ذلك في بيت من حصونهم تحت الأرض.

قال رسول الله ﷺ: «وما هو؟»

قال: منجنيق مفكّكة ودبّابتان وسلاح من دروع وبَيضٍ وسيوف، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله.

قال رسول الله ﷺ: «إن شاء الله».

قال اليهودي: إن شاء الله أوقفك عليه، فإنه لا يعرفه أحد من اليهود غيري، وأخرى! قيل ما هي؟

قال: تستخرجه، ثم أنصب المنجنيق على حصن الشق، وتدخل الرجال تحت الدبابتين فيحفرون الحصن لتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصن الكتيبة.

قال عمر: يا رسول الله، إنّي أحسبه قد صدق.

قال اليهودي: يا أبا القاسم، احقِن دمي.

قال ﷺ: «أنت آمن».

قال: ولي زوجة في حصن النـزار فهبها لي.

قال ﷺ: «هي لك».

قال رسول الله ﷺ: «ما لليهود حوّلوا ذراريّهم من النّطاة؟»

قال: جرّدوها للمقاتلة، وحّولوا الذراري إلى الشق والكتيبة...)[1].

فنرى هذا الحشد الهائل من المعلومات المهمة وعلى لسان واحد فقط من المقاتلين اليهود فكيف لو كان العدد أكثر؟ وكيف يكون الأمر إذا التفتنا إلى صعوبة الموقف وخطورته في الحرب، وإذا التفتنا إلى كثرة أعداء الرسول ﷺ حيث يترتب عليه كثرة حروبه ومعاركه.

إنّما اتخذنا خيبر مثالاً وحسب، ومثالنا الآخر بدر الكبرى.

فتراه ﷺ يبعث قبيل بدر القتال بعشر ليالٍ بعينين له كي يتحسسان خبر العير.

فقد ورد: (وبعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله، وسعد بن زيد، قبل خروجه من المدينة بعشر ليال، يتحسسان خبر العير، حتى نزلا على كَشد الجُهَنيّ بالنُّخبار من الحَوْراء ـ والنُّخبار من وراء ذي المَرْوَة على الساحل ـ فأجارهما، وأنزلهما ولم يزالا مقيمين عنده في خباء حتى مرت العير، فرفع طلحة وسعيد على نَشَز من الأرض، فنظرا إلى القوم، وإلى ما تحمل العير)[2].

---

(١) المغازي ٢: ٦٤٨.

(٢) المغازي ١: ١٩، الطبقات الكبرى ٢: ١١.

ثم إنّه ﷺ بعث اثنين من جنده إلى ماء بدر يستخبران الأمر: (وكان بسبس بن عمرو، وعَديّ بن أبي الزّغباء، وردا على مَجدِيّ بدراً يتحسسان الخبر، فلمّا نزلا ماء بدر أناخا راحلتيهما إلى قريب من الماء، ثم أخذا أسقيتهما يستسقيان الماء، فسمعا جاريتين من جواري جُهينة يقال لأحدهما بَرْزَة، وهي تلزم صاحبتها في درهم كان لها عليها، وصاحبتها تقول:

وإنما العير غداً أو بعد غد، قد نزلت الرُوحاء، ومَجديّ بن عمرو يسمعها فقال: صدقت!.

فلمّا سمع ذلك بسبس وعَديّ انطلقا راجعين إلى النبيّ ﷺ، حتى لقياه بعرْق الظُبْية فأخبراه الخبر)[1].

وسؤاله الضمري الذي وجده في الطريق يستعلم أمر قريش منه، وفعلاً أفاد الرجل معلومة تؤكد قدوم القوم، ونيتهم الحرب.

جاء في المغازي: فقال النبيّ ﷺ: «أخبرنا عن قريش».

قال الضمري: بلغني أنهم خرجوا يوم كذا وكذا من مكة، فإن كان الذي أخبرني صادقاً فإنّهم بجنب هذا الوادي.

قال رسول الله ﷺ: «فأخبرنا عن محمد وأصحابه».

قال: خبرت أنهم خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان الذي خبّرني صادقاً فإنّهم بجنب هذا الوادي)[2].

ولنرى عظيم متابعة الرسول ﷺ للموقف ومحاولته الحصول على قدر كبير من المعلومات فمن مبعوث له، ومن رجل يلقاه في الطريق، ومن

---

(١) المغازي١: ٤٠، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ١٠٤، الثقات لابن حبان ١: ١٥٥.

(٢) المغازي ١: ٥٠.

طليعة أخرى وهكذا؛ لكي يصل إلى أدق المعلومات وأكثرها، إلى أن تصل ليلة الحرب والرسول الأعظم ﷺ مستمر على متابعته تلك.

روى العلامة المجلسي: (ونزل رسول الله ﷺ وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشر مضت من رمضان، فبعث علياً عليه السلام والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وبسبس بن عمرو يتحسسون على الماء، وأشار رسول الله ﷺ إلى ظُرَيب. فقال: «أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي ظُرَيب» ـ والقليب بئر بأصل الظُّرَيب، والظريب جبل صغير ـ.

فاندفعوا تلقاء الظريب فيجدون على تلك القليب التي قال رسول الله ﷺ رَوايا قريش فيها سُقّاؤهم، ولقي بعضهم بعضاً وأفلت عامّتهم) [1].

وكل هذا والرسول يطلب المزيد من التفاصيل في التقاط كل شاردة وواردة يمكن أن تفيده في قيادة الحرب وكسبها لصالحه.

ثانياً: لوضع الخطة القتالية بالكيفية التي تناسب تلك المعلومات.

فالقائد الأعلى في الحرب يستقبل الأمور ويستدبرها، ويقلبها ظهراً عن بطن، ويفكر ملياً في كيفية مواجهة الموقف، مستعيناً على ذلك بالمعلومات المتوفرة لديه عن كل ما يخص العدو، وهو تبعاً لذلك يرسم خطة المواجهة، ويقرر طريقة الحرب، أو يرى رأياً آخر في التحصن وعدم التعرض مباشرة للغزاة.

كما حصل ذلك، فعندما علم رسول الله ﷺ بمجيء قريش قبيل غزوة أحد قرر ﷺ البقاء والتحصن بالمدينة، ولما انفصم الموقف اتخذ الرسول ﷺ تدبيراً آخر للمواجهة بأن وضع نفسه وجيشه في موضع بالغ من التحصين ولم يقاتل العدو على أرض مكشوفة من كل جهاتها ـ كما مرّ

---

(١) بحار الأنوار ١٩: ٢٣٣.

بنا في خطة الرسول ﷺ الزمانية والمكانية في حرب أُحُد ـ.

وقد استفاد ﷺ من المعلومة التي بعثها له عمه العباس من مكة وقد وصلته قبل بلوغ جيش الشرك منطقة أُحُد، كما أن هذه المعلومات المذكورة في رسالة التحذير تطابقت والنتائج التي حصل عليها مبعوثه ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم لإحرازهم والاطلاع على جميع شؤونهم.

فلنتابع التاريخ: (فلما أجمعوا[1] المسير كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار، واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ يُخبره أنّ قُريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه، وقد توجّهوا إليك، وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مائتي فارس، وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح... إلخ)[2].

وتحصيل المعلومات لوضع الخطة الحربية وفقها أمرٌ من الضرورة بمكان، لما لهذه المعلومات من مدخلية مهمة جداً في تحريك الأحداث، ورسم تشكيلات المواجهة، وتوجيه دفة الحرب والقتال، وتوزيع المقاتلين وفقاً لما تقتضيه تلك المعلومات، واختيار الزمان والمكان المناسب لطبيعة تلك المعلومات أيضاً.

ولم يكُ هذا واضحاً في أُحد وبدر فقط، بل هو الذي حدد مجريات المواجهة، وطبيعة اللقاء العسكري في بقية حروب الرسول ﷺ كما في الأحزاب، وخيبر، وفتح مكة، وغيرها من الوقائع والغزوات.

---

(١) أي قريش.

(٢) المغازي ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٤، بحار الأنوار ٢٠: ١٢٣، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٤: ٢١٧.

ثالثاً: لإشعار الجيش أن الأمور تجري عبر معرفة استطلاعية لوضع العدو

وهذا يفيد في تطمين أفراد الجيش الإسلامي في كون أمور العدو، وتفصيلات وضعه، وجزئيات شؤونه في دائرة المراقبة والمعرفة والاطلاع مما يعني التمكن في إدراكه، ومعرفة عيوبه وثغراته، ونقاط قوته، مما يسهل عملية المواجهة معه.

فإن كل شيء داخل في حساب القيادة العسكرية، وغير عازب عن نظرها، والحرب بما هي مواجهة بالسيف، هي كذلك حرب إرادات،وقدرات، وأفكار، وفِطَن، فقد تصل الفِطن إلى نقاط لا يسهل وصول السيف لها إلاّ بمعونة تلك النباهات، وقد يطرح الذهن خطة توجب تقليل الدماء، وتقريب الانتصار، وترويع جيش الأعداء، إنها مظافرة ومظاهرة العقل للسيف، وتعانقها لقرع أبواب الهدف سوية.

إن الجيش تطمئن نفسه، وتزداد معنوياته عندما يعرف عيوب عدوه، ونقاط ضعفه وعندما يعرف أن جيش العدو لا يعرف عنه شيئاً، وعندما يعرف أنه سيضرب عدوه غداً ضربة قاصمة وفق معلوماته الاستخبارية التي حصل عليها.

عن كتاب المغازي: (وكان كعب بن مالك يُحدِّث: إنّ رجلاً من اليهود من أهل النَّطاة نادانا بعد ليلٍ ونحن بالرجيع: أنا آمن وأبلِّغكم؟

قلنا: نعم.

قال: فابتدرناه فكنت أول من سبق إليه فقلت: من أنت؟

فقال: رجلٌ من اليهود، فأدخلناه على رسول الله ﷺ، فقال اليهودي: يا أبا القاسم! تؤمِّنّي وأهلي على أن أدلّك على عَورة من عورات اليهود؟

قال رسول الله ﷺ: «نعم»، فدلّه على عورة اليهود.

قال: فدعا رسول الله ﷺ أصحابه تلك الساعة فحضّهم على الجهاد، وخبّرهم أنّ اليهود قد أسلمها حُلفاؤها وهربوا، وأنها قد تجادلت واختلفوا بينهم.

قال كعب: فغدونا عليهم فظفرنا بهم. فلم يكن في النّطاة شيء غير الذرية، فلما انتهينا إلى الشق وجدنا فيه ذرية، فدفع رسول الله ﷺ إلى اليهودي زوجته وكانت في الشّقّ، فدفعها إليه فرأيته أخذ بيد امرأة حسناء)[1].

فنلاحظ أن الرسول محمداً ﷺ وبعد اطمئنانه للخبر دَعا أصحابه بتلك الساعة، وركّز على أهمية إخبارهم بما أصاب اليهود، وما ترتب على تلك المعلومة وذلك الخبر من الظفر العظيم الذي أحرزه المسلمون بقيادة نبيّهم الأقدس محمد بن عبد الله ﷺ.

رابعاً: إشعار العدو أنه مخـتـرَق

فبمجرد أن يعرف الجيش المعادي بأنه مخترَق، وإنّ معلوماته السرّية مهربة، وأنه اصبح مكشوفاً أمام عدوه ولو جزئياً، فإنّه سوف يتملكه القلق ويأخذ بناصيته الاضطراب، وإن كان جيشاً عظيماً، وأعداده كثيرة، وأسلحته وفيرة.

إن شعور الجيش وقادته أنه أمام جيش يعرف عنه كل شيء أو بعض الشيء، وهو يعيش في لحظات حرجة حاسمة، ومواجهة عنيفة قد لا تسمح له بتغيير خطة، أو تبديل حال، بل حتى لو سمحت فإنه إذا كان مخترقاً من أعماقه بمعرفة كافّة عيوبه، أو بعضها وثغراته وهي ثابتة غير قابلة للتغيير

(١) المغازي ٢: ٦٤٦ ٦٤٧.

والتبديل، فما الذي تنفعه فكرة التغيير لو فكّر بها.

فنلاحظ أن أبا سفيان يأسى على وصول نبأ قدومه إلى رسول الله ﷺ في غزوة أحد، لأنّه يرى أن ذلك سيُفشِل خطته في مباغتة الرسول ﷺ قبل تحصنه في المدينة، أو خروجه مستعداً منها، إنّ إطلاع الرسول ﷺ على ما ينويه أبو سفيان جدير بأن يربك أبا سفيان، ويسحب بعض أوراقه السياسية والعسكرية.

روى الوقدي في كتاب المغازي: (لما أصبح أبو سفيان بالأبواء أخبر أنّ عمرو بن سالم، وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة، فقال أبو سفيان: أحلفُ بالله أنهم جاءوا محمداً فخبّروه بمسيرنا، وحذّروه، واخبروه بعددنا، فهم الآن يلزمون صَياصيهم، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا)[1].

أنظر كيف يستنبط أبو سفيان نتيجة الحرب سلفاً (فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا)، لماذا؟ لأنّه عَلِم أن محمداً النبيّ ﷺ وصلته أخبار قريش وجيشها المهاجم، فسوف يأخذ حذره، ويدبر أمره.

فمجرد معرفة الرسول ﷺ بخروج قريش للحرب وعدد جيشهم، كافٍ لاتخاذ ما يلزم، وهذا ما شخّصه نظر أبي سفيان.

ومن هنا ندرك حذر أبي سفيان الشديد من إخراج أية معلومة يمكن أن تفيد المسلمين بخصوص قريش، ونراه يتشدد ويتوعد بمجدي الذي كان عند بدر من أن يكتمه أي أمرٍ يتعلق بعيون محمد ﷺ ووصولهم تلك البقاع، وندرك ذلك أيضاً من خلال رد مجدي المتحفظ جداً.

جاء في التاريخ: (فقال[1]: يا مجديّ، هل احسست احداً؟ تعلم والله ما بمكة من قرشيّ ولا قرشيّة له نَشٌ فصاعداً ـ والنَّش نصف أوقية، وزن

---

(١) المغازي ١:٢٠٥.

(١) أي أبو سفيان.

عشرين درهماً ـ إلاّ وقد بعث به معنا، ولئن كتمتنا شأن عدونا لا يُصالحك رجل من قريش ما بلّ بحرٌ صُوفَةً.

فقال مجديّ: والله، ما رأيت أحداً أنكره، ولا بينك وبين يثرب من عدو، ولو كان بينك وبينها عدوٌ لم يخفَ علينا، وما كنت لأخفيه عليك، إلاّ انّي قد رأيت راكبين قد أتيا إلى هذا المكان ـ فأشار إلى مُناخ عديّ وبسبس[1] ـ فأناخا به، ثم استقيا بأسقيتهما، ثم انصرفا.

فجاء أبو سفيان مناخهما، فأخذ أبعاراً من بعيريهما ففتّه، فإذا فيه نوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، هذه عيون محمد وأصحابه، ما أرى القوم إلاّ قريباً)[2].

ونلاحظ كذلك قريش حين ماجت مضطربة عندما وصلها خبر أسر المسلمين لعيونهم وجواسيسهم، أو سُقّائهم عند عين بدر، وقد أوصل لهم الخبر عُجير، حيث هو ممن أفلت من يد المسلمين تلك الليلة.

كما في هذا الخبر: (وكان ممن عرف أنه أفلت عجير، وكان أوّل من جاء قُريشاً بخبر رسول الله ﷺ فنادى: يا آل غالب، هذا ابن أبي كبشة وأصحابه قد أخذوا سُقّائكم! فماج العسكر وكرهوا ما جاء به)[3].

وأجدد القول بإن الموارد كثيرة ومثيرة، ولكنني اكتفيت بالخاذ الأمثلة، دون الغور في التفاصيل.

خامساً: تعليم المسلمين على أهمية ذلك ومشروعيته

فإن تعليم المسلمين مقتضيات الحرب، وفنون التعامل معها، أمر

---

(١) وقد كانا عينين لرسول الله ﷺ قد بعثهما ليستطلعا له الأمر، كما مر عليك آنفاً.

(٢) المغازي ١: ٥١.

(٣) المغازي ١: ٥١.

مطلوب، لِما سيواجهه المسلمون في قابل حياتهم، مع وضوح التحديات الكثيرة التي يواجهونها وباستمرار، وخطورة تلك التحديات، ومع الاعتراف بأن أساليب العدو كثيرة ومتنوعة، مع احتمال غدره بالمسلمين وخداعه لهم.

هذا كله بالإضافة إلى أنّ هذا النوع من تعامل الرسول ﷺ في الحرب يدعونا إلى الاطمئنان إلى مشروعية تلك الأمور، ووقوعها تحت مظلة القبول، بل الاستحقاق للأجر الجزيل والثواب العظيم باعتباره استجابة لنداء نبوي، وإنّها سبيل للمحافظة على أرواح المؤمنين، وتحصين ثغور الإسلام من أن تصيبها غائلة، أو تتعرض للهدم والاندراس.

لذلك كان الرسول الأعظم ﷺ يدعو المؤمنين لممارستها وقت الحرب، ويأمرهم بذلك، ويعدهم أجزل العطايا يوم الدين.

عن الواقدي: (فكان حذيفة بن اليمان يقول: لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله ﷺ في ليلة شديدة البرد، قد اجتمع علينا البرد، والجوع، والخوف، فقال رسول الله ﷺ: «مَن رجل ينظر لَنا ما فعل القوم جعله الله رفيقي في الجنة».

فقال حذيفة: يشرط له رسول الله ﷺ الجنة والرجوع، فما قام منّا رجل! ثم عاد يقول ذلك ثلاث مرات، وما قام رجل واحد من شدّة الجوع، والقُرّ، والخوف.

فلمّا رأى رسول الله ﷺ ذلك لا يقوم أحد، دعاني فقال ﷺ: «يا حذيفة!»

قال: فلم أجد بُدّاً من القيام حين فوّه باسمي، فجئته ولقلبي وجبان في صدري.

فقال ﷺ: «تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟»

فقلت: لا، والذي بعثك بالحق إن قَدِرت على ما بي من الجوع والبرد.

فقال ﷺ: «اذهب فانظر ما فعل القوم، ولا ترمينَّ بسهم ولا بحجر، ولا تطعن برمح، ولا تضربنّ بسيف حتى ترجع إليّ».

فقلت: يا رسول الله، ما بي يقتلوني ولكنّي أخاف أن يمثّلوا بي.

قال رسول الله ﷺ: «ليس عليك بأس!».

فعرفت أنّه لا بأس عليّ مع كلام رسول الله ﷺ الأوّل. ثم قال ﷺ: «اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يقولون».

فلمّا ولّى حذيفة قال رسول الله ﷺ: «اللهمّ احفظه مِن بين يديه، ومِن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومِن تحته».

فدخل عسكرهم فإذا هم يصطلون على نيرانهم؛ وإنّ الريح تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرّ لهم قراراً ولا بناء.

فأقبلت فجلست على نارٍ مع قوم، فقام أبو سفيان فقال: احذروا الجواسيس والعيون ولينظر كلُّ رجلٍ جليسه.

قال: فالتفتّ إلى عمرو بن العاص فقلت: من أنت؟ وهو عن يميني.

فقال: عمرو بن العاص.

والتفتّ إلى معاوية بن أبي سفيان، فقلت: من أنت؟

فقال: معاوية بن أبي سفيان.

ثم قال أبو سفيان: إنّكم والله لستم بدار مُقام؛ لقد هلك الخُفُّ والكُراع، وأجدب الجَناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، وقد لقينا من الريح ما ترون! والله ما يثبت لنا بناء، ولا تطمئن لنا قِدر، فارتحلوا فإنّي مُرتحل.

وقام أبو سفيان، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب

على ثلاث قوائم، فما أطلق عِقاله إلاّ بعد ما قام، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ: «لا تُحدِث شيئاً حتى تأتي» ثم شئت لقتلته.

فناداه عِكرِمَة بن أبي جهل: إنّك رأس القوم وقائدهم، تَقشّع وتترك الناس؟

فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه، وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا!.

قال: فجعل الناس يرتحلون وهو قائمٌ حتى خفّ العسكر، ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، لابدّ لي ولك أن نُقيم في جريدةٍ[1] من خيلٍ بإزاء محمد وأصحابه، فإنّا لا نأمن أن نُطْلَب حتى ينفذ العسكر.

فقال عمرو: أنا أقيم.

وقال خالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سُليمان؟

فقال: أنا أيضاً أُقيم، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار العسكر إلاّ هذه الجريدة على متون الخيل.

قالوا: وذهب حُذيفة إلى غَطفان فوجدهم قد ارتحلوا فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره)[2].

فنلاحظ التحريض بكلام رسول الله ﷺ لأصحابه أولاً، ونلاحظ الترغيب لهم بما ادّخره الله لصاحب تلك المهمة، ونلاحظ دعاءه ﷺ للذاهب بالحفظ، والأمان والعودة، ونرى تأكيده على أهمية الاستطلاع رغم شدة الجوع، وقسوة البرد، وامتناع الأصحاب لذلك.

ونلاحظ أهمية المعلومات التي وصلت الى النبيّ الأكرم ﷺ مع تحذير

---

(١) هي التي جردت من معظم الخيل لوجه، (أساس البلاغة:١١٦).

(٢) المغازي ٢: ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

أبي سفيان من الجواسيس والعيون الذي يصبُّ في مصب خطورة تلك المهمة التي يقوم بها حذيفة وإخوته المسلمون.

الاتجاه الثالث: بث الفتنة وتفريق كلمة الأعداء

لقد كان لهذا الاسلوب تأثيره الغريب وفعله المذهل في القوم، فقد حرّك النبي ﷺ بعض الأحداث بأسلوب حربي وفن قتالي من نوع آخر، هو الحرب الإعلامية والدعائية والنفسية.

ومن جملة أساليبه، النفسية في محاربة القوم، وانتزاع فتيل الحرب، واقتلاع شوكة الشر، هو بإثارته الفتنة فيما بين فصائل وقوى العدو.

ولعل أوضح المعارك التي جرى فيها إفتان العدو، هو في معركة الأحزاب، حيث كان توظيف طاقة نعيم بن مسعود باتجاه تخذيل القوم، والانقضاض عليهم نفسيا، توظيفاً ناجحاً وموفقا، ولاشك بأن ذلك العمل كان له دوره المؤثر في حسم المعركة لصالح المسلمين في آخر الأمر.

عن الواقدي: (حدثنا عبد الله بن عاصم الأشجَعيّ، عن أبيه، قال: قال نُعَيم بن مَسعود: كانت بنو قُرَيْظَة أهل شرف وأموال، وكُنا قوماً عَرَباً، لا نَخْلَ لنا ولا كَرْم، وإنما نحن أهل شاة وبعير، فكنتُ أقدَمُ على كعب بن اسد، فأُقيم عندهم الأيام، أشرب مِن شرابهم وآكلُ مِن طعامهم، ثم يُحمّلونني تمراً على ركابي ما كانت، فأرجعُ إلى أهلي.

فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سرت مع قومي، وأنا على ديني، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عارفاً، فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدَبَ الجَناب وهَلك الخُفُّ والكُراع، وقَذَف الله عز وجلّ في قلبي الإسلام.

وكتمت قومي إسلامي، فأخرجُ حتى آتي رسول الله صلى الله عليه

وسلَّم بين المغرب والعشاء وأجِدُه يُصلّي، فلمّا رآني جَلس ثم قال: ما جاءَ بك يا نُعَيم؟ قلتُ: إني جئتُ أُصدّقك وأشهدُ أنَّ ما جئتَ به حقّ، فمُرْني بما شئتَ يا رسول الله، فوالله لا تأمرني بأمرٍ إلا مضيتُ له، قومي لا يعلمون بإسلامي، ولا غيرهم.

قال ﷺ: «ما استطعتَ أن تُخَذّلَ الناسَ فَخَذّلْ!» قال، قلت: أفعلُ، ولكن يارسول الله أقولُ فَأْذنْ لي.

قال: «قُلْ ما بدا لك فأنت في حِلّ».

قال: فذهبتُ حتى جئت بني قُريظة، فلمّا رأوني رحّبوا وأكرموا وحيّوا وعرضوا عليَّ الطعام والشراب، فقلتُ: إني لم آتِ لشيءٍ من هذا؛ إنما جئتُكم نَصَباً بأمركم، وتَخوّفاً عليكم؛ لأُشير عليكم برأي، وقد عرفتم وُدّي إيّاكم وخاصّةَ ما بيني وبينكم.

فقالوا: قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما تُحبّ من الصّدق والبِرّ.

قال: فاكتموا عنّي.

قالوا: نفعل. قال: إنَّ أمرَ هذا الرجلِ بَلاء ـ يعني النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ـ صنع ما قد رأيتم ببني قَيْنُقَاع وبني النَّضير، وأجلاهم عن بلادهم بعد قَبْض الأموال، وكان ابن أبي الحُقَيق قد سار فينا فاجتمعنا معه لنصركم، وأرى الأمر قد تَطَاول كما ترون، وإنكم واللهِ، ما أنتم وقُريشٌ، وغَطَفان من محمّدٍ بمنزلةٍ واحدة.

أمّا قُرَيشٌ وغَطَفان فهم قومٌ جاءوا سَيّارَةً حتى نزلوا حيث رأيتم، فإن وجدوا فُرصةً انتهزوها، وإن كانت الحربُ، أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم، وأنتم لاتقدرون على ذلك، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وقد غَلُظَ عليهم جانِبُ محمّد، أجلبوا عليه أمس إلى

الليل، فقَتَل رأسَهم عمرو بن عبد، وهربوا منه، مُجَرَّحين وهم لا غَنَاء بهم عنكم؛ لِما تعرفون عندكم.

فلا تُقاتلوا مع قرَيش ولا غَطَفان حتى تأخذوا منهم رَهْناً مِن أشرافهم تستوثقون به منهم ألاَّ يناجِزوا محمّداً.

قالوا: أشرت بالرأي علينا والنُّصْح، ودَعَوا له وتشكَّروا، وقالوا نحن فاعلون.

قال: ولكن اكتموا عنّي.

قالوا: نعم، نفعل، ثم خرج إلى أبي سُفيان بن حَرْب في رجال من قُريش فقال: يا أبا سُفيان، قد جئتُك بنصيحةٍ فاكتم عنّي.

قال: أفعل.

قال: تعلم أنَّ قُريْظةَ قد نَدِموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمّد، وأرادوا إصلاحه ومراجعته، أرسلوا إليه وأنا عندهم: إنّا سنأخذُ مِن قُريش وغَطَفان من أشرافهم سبعين رجلاً نُسلِّمهم إليك تضرب أعناقَهم وتردّ جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم - يعنون بني النُّضير - ونكون معك على قرَيشٍ حتى نردّهم عنك.

فإن بعثوا إليكم يسالونكم رَهْناً فلا تدفعوا إليهم أحداً، واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عنّي ولا تذكروا من هذا حرفاً.

قالوا: لا نذكره، ثم خرج حتى أتى غَطَفان فقال: يا معشر غطَفان، إني رجلٌ منكم فاكتموا عني، واعلموا أنَّ قريظة بعثوا إلى محمّد - وقال لهم مثل ما قال لقُريش - فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم، وكان رجلاً منهم فصدّقوه.

وأرسلت اليهود غزّال بن سموال إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف

قريش: إنّ ثواءكم قد طال ولم تصنعوا شيئاً وليس الذي تصنعون برأي، إنكم لو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمّد، فتأتون من وجهٍ، وتأتي غطفان من وجهٍ، ولنخرج نحن من وجه آخر، لم يُفلت من بعضنا.

ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا برهان من أشرافكم يكونون عندنا، فإنا نخافُ إن مسّتكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمّرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا محمداً بالعداوة.

فانصرف الرسول إلى بني قريظة ولم يرجعوا إليهم شيئاً، وقال أبو سفيان: هذا ما قال نعيم.

فخرج نعيم إلى بني قريظة فقال: يا معشر بني قريظة، أنا عند أبي سفيان حتى جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهان، فلم يردُّ عليه شيئاً فلما ولّى قال: لو طلبوا مني عناقاً[1] ما رهنتُها! أنا أرهنهم سَرَاة أصحابي يدفعونهم إلى محمّدٍ يقتلهم!

فارتأوا آراءكم حتى تأخذوا الرَّهْن، فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً وانصرف أبو سُفيان تكونوا على مواعدتكم الأُولى.

قالوا: ترجو ذلك يا نُعيم؟ قال: نعم.

قال كعب بن أسَد: فإنّا لا نُقاتله، واللهِ لقد كنتُ لهذا كارهاً ولكن حُيَيّ رجلٌ مشئوم.

قال الزُّبير بن باطا: إن انكشَفَت قُرَيش وغَطَفان عن محمّدٍ لم يقبل منّا إلاّ السيف.

قال نُعيم: لا تخشَ ذلك يا أبا عبد الرحمن.

قال الزبير: بَلى والتوراة، ولو أصابت اليهودُ رأيَها ولَحَم الأمر

---

(١) العناق: الأنثى من أولاد المعز. (القاموس المحيط، ج ٣، ص ٢٦٩).

لتخرجنَّ إلى محمّدٍ ولا يطلبون مِن قُريش رَهناً أبداً، فإن قريشاً لا تعطينا رهناً أبداً، وعلى أيّ وجهٍ تُعطينا قُريشٌ الرَّهْن وَعَدَدُهم أكثرُ من عددنا، ومعهم كُراعٌ ولا كُراعَ معنا، وهم يقدِرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه؟ وهذه غَطَفان تطلب إلى محمّدٍ أن يُعطيها بعضَ تمرِ الأوس وتنصرف، فأبى محمّدٌ إلاّ السيف، فهم ينصرفون بغير شيء.

فلما كان ليلة السبت كان ممّا صنع الله تعالى لنبيّه أن قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنّ الجَناب قد أجدَبَ، وهلك الكراع والخُفُّ، وغدرت اليهود وكذبت، وليس هذا بحِين مُقامٍ فانْصَرِفوا!

قالت قريش: فاعلم علمَ اليهود واستيقن خبرهم، فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى جاء بني قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت، فقال: يا معشر اليهود إنه قد طال المكث وجهد الخُفُّ والكراع وأجدَب الجناب، وإنّا لسنا بدار مقامة، اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نُناجزه بالغداة.

قالوا: غداً السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً، وإنّا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تُعطونا رهاناً من رجالكم يكونون معنا لئلا تبرحوا حتى نناجز محمّداً، فإنّا نخشى إن أصابتكم الحربُ أن تشمّروا إلى بلادكم، وتدعونا وإيّاه في بلادنا ولا طاقة لنا به، معنا الذّراريّ والنساء والأموال.

فرجع عكرمة إلى أبي سفيان فقالوا: ما وراءك؟

قال: أحلفُ بالله إنّ الخبر الذي جاء به نعيمٌ حقٌّ، لقد غدر أعداءُ الله، وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة في رجالٍ منهم بمثل رسالة أبي سفيان، فأجابوهم بمثل جواب أبي سفيان.

وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم: نحلف بالله إنّ الخبر الذي قال نعيمٌ لحقٌّ، وعرفوا أنّ قريشاً لا تقيم فسقط في أيديهم، فكرّ أبو

سفيان إليهم وقال: إنا والله لا نفعل، إن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت اليهود مثل قولهم الأوّل، وجعلت اليهود تقول: الخبر ما قال نعيم، وجعلت قريشٌ وغطفان تقول: الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء، واختلف أمرهم، فكان نعيم يقول: أنا خذّلت بين الأحزاب حتى تفرّقوا في كلّ وجه، وأنا أمين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على سرّه، فكان صحيح الإسلام بعد)[1].

أما ما هي أهمية هذا الاسلوب؟ فهو كما يتبين لنا في النقاط التالية:

المنفعة الأولى
أنه يزرع الشك في نفوس القوى المعادية

لأن مثل هذا الفعل المتقن، والدور المحبك، يجعل الثقة التي هي عامل ربط قوي بين جحافل المعسكر والقوات المتحالفة على رسول الله ﷺ في معرض الإهتزاز والتفكك، وهذا بحد ذاته يجعل الآمال متآكلة، والوشائج[2] ضعيفة، ويكون كل شيء في دائرة الشك والريبة، وبناء الظنون التي قد يذهب بها الإنسان بعيداً، وتذهب به بعيداً أيضاً، ولا يلتقي فيها حلفاء الأمس إلاّ وهم أعداء اليوم.

هكذا هي الشكوك بداية واهية، وخطوات في تدهور العلائق متلاحقة، فانحدار حاد، ثم صراع وتناحر، والذي حصل لقريش وبني قريظة من اليهود، هو شيءٌ من هذا القبيل.

---

(١) المغازي ٢: ٤٨٠ ـ ٤٨٤.

(٢) والوشائج: عروق الاذنين، واحدتها وشيجة، والوشيجة: ليف يفتل ثم يشبك بين خشبتين ينقل بهما البر المحصود، (لسان العرب ٢: ٢٩٨).

فهز كياناتهم جميعاً وجعلهم يصدقون أن الذي وردهم بخصوص الطرف الآخر، أنما هو عين الحق.

المنفعة الثانية

يُفشل أهداف العدوان

إن هذا الشك وذلك الصراع المترتب عليه، أو على الأقل التحلل الذي أصاب المحاربين والمتحالفين في إطار العلاقة الجامعة لهم، والقاعدة المشتركة التي ينطلقون منها، وهي التآمر والحقد والعدوان على النبي محمد ﷺ أصبحت وهي لا تستحق تسمية العلاقة الجامعة، والقاعدة المشتركة.

وهذا يجر إلى حقيقة نهائية وأمر متيقن، وهو ذوبان الأهداف العدوانية، التي جاءت من أجلها عساكر الشّرك وقوات الأعداء، وضياعها يعني بالحتم التراجع والخسران، وبالتالي ترك خيار الحرب، إن لم نقل الفرار منها.

المنفعة الثالثة

تعطي المؤمنين الأمل في القضاء على العدو!

بات من المعلوم ما للعنصر النفسي من أهمية خاصة في اندفاع المقاتل بكل عنفوانهِ وحرارته إلى ميدان القتال، أو النكوص عن ذلك.

وإن حالة تخذيلية من هذا النوع ستزرع الأمل في نفوس المؤمنين بأن أعدائهم مذعورون من بعضهم، بالوقت الذي زرعت اليأس في نفوس الأعداء من نصرة بعضهم البعض، بل وخوفهم من بعضهم، بعنوان كون المراهنات التي حصلت بين الأطراف المتحالفة إنما يراد بها إهلاك الرهائن وتسليمهم الى الطرف الاخر في صفقة خفية يراد فيها أمر ما.

فمعادلة الأمل واليأس تسير وفق معادلة تفاضلية، فالزيادة في طرف ما يعني النقصان في الطرف الآخر، وإن لم تكن بهذه الصورة فلابد من الإقرار أن أحدهما مؤثر على الاخر بنحو ما.

فازدياد اليأس، واستمرار روح القنوط والتمرد، والتسيّب، والضعف في معسكر قريش وحلفائها من الضرورة أنهُ ينعكس إيجابياً على أمل المعسكر الاسلامي، وانفتاحهم المعنوي والروحي.

وقلة أو انعدام اليأس في المعسكر الاسلامي ينعكس سلبياً على روحية وطموحات وقوى المعسكر الإشراكي، وهكذا.

وما حصل في الأحزاب إنما كان أداة قوية في تضعيف العدوان، وتمييع همته، وإدامة الروح المقاتلة في صفوف العسكر الاسلامي.

وكل هذا يرجع إلى أهمية هذا الأسلوب، وبركة هذا الدور الذي لعبه نُعيم بن مسعود.

المنفعة الرابعة
تُفقد العدو الفرصة في استثمار الزمن

هناك أمور كثيرة يكون لعنصر الزمن الدور الهام فيها، وتزداد هذه الأهمية للزمن في الأمور الحاسمة كالمعارك والحروب.

فكل دقيقة تمر لها حساباتها الخاصة، فالأمور على جسامتها إنما تحصل بساعة واحدة، أو حتى بدقيقة واحدة، وإن كانت هذه الأمور من القضايا النافعة، كالتحولات الخطيرة، والثورات العملاقة، أو من الأمور الضارة كطمس الحضارات، وسيادة الباطل، وغير ذلك.

صحيح أنها قد تحتاج إلى وقت طويل، ولكن مقدمات مهمة على طريق التنفيذ قد تحصل بدقيقة وساعة، والتي بدونها لا تتم النتائج بحال.

فما بالك بالحرب ومرور الوقت فيها أحدٌ من وقع السيوف، فإنه سيكون في إطار الحسابات الحساسة، والمنظورة بكل عناية ورعاية.

وقد كان الزمن وخصوصاً في الأحزاب يقدّم المسلمين إلى الأمام في حال انشغال الشرك بفتنة نعيم بن مسعود، ويؤخر المشركين، وأبي سفيانهم إلى الوراء، لأنّ ما يأتي من الأحداث في دقائق الزمن القادم ليس بصالح الأعداء على كل حال مادامت الفتنة ألقت النار على الهشيم، فسيكون الزمن شاهداً على سرعة انحدارهم وانهزامهم.

وبهذا ضاعت الفرصة على قريش، ولعله لو بقوا دون مساعي التآمر مع بني قريظة لكانت وطئة الخطب أخف عليهم، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولاً.

وصاروا فيما بعد لا يتمكنون من جمع شتاتهم ليهربوا من ساحات الوغى، وإلى الحد الذي لايفكر أبو سفيان في مؤخرة جيشه بسبب العجلة التي قادته للفرار، حتى أنهُ لم يلتفت إلى جمله ليحل عقاله من رجله، فصعد عليه وهو معقول.

ينقل لنا حذيفة مشهداً من مشاهد ليلة الفرار: (وقام أبو سفيان، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعد ما قام، ولولا عهدُ رسول الله ﷺ اليّ: «لا تُحدث شيئاً حتى تأتي» ثم شئت لقتلته.

فناداه عكرمة بن أبي جهل: إنك رأسُ القوم وقائدهم، تَقْشَع وتترك

الناس؟ فاستحيى أبو سفيان فأناخ جمله ونزل عنه)[١].

المنفعة الخامسة

بيان قدرة الرسول ﷺ

وهي قدرته ﷺ في فرض الموقف الذي يريد، فإن تعطلت قدرة المسلمين في جهةٍ ما وهم في أجواء الحرب والقتال بسبب قلة عددهم، وقلة إمكاناتهم، وأسلحتهم.

فلا يجوز أن تُعطّل فيهم القدرة العقلية في مجال إبداع أسلوب ما يقصموا به ظهر عدوهم وينهبوا شهاب النصر الثاقب من سماء المعركة.

لقد كانت الأحزاب عارضة حية، لقدرة الرسول ﷺ في تعامله مع حدث الأحزاب، من جهات عديدة، كما أسلفنا سابقاً في بعض الموضوعات والبحوث.

وهنا نشير أن أحد تلك الابداعات، هو قدرته ﷺ الفنية في دحض القوم بدون أن يضع على رقابهم السيف، أو يغرز صدورهم بالرمح.

إنهُ العقل الذي جعلهُ يستخدم الرجل المناسب وفي الزمن المناسب وللحدث والدور المناسب.

لقد كانت إشارة الرسول المصطفى ﷺ لنُعيم بن مسعود تمثل واحداً من أهم توفيقات الله، واستثماراً للإبداع العقلي، وتوظيفاً للحكمة النبوية المشرّفة في مجالها المناسب، وكان فعلاً الذي أراده الرسول ﷺ أو فرض عليهم ما أراد.

---

(١) المغازي ٢: ٤٩٠.

المنفعة السادسة

تبين قدرة عناصره ﷺ في لعب هذه الأدوار المتقنة الصعبة

فإن المتابع لفصول قصة نُعيم بن مسعود، ودوره في المعسكرات الأربعة، أقصد خدمته لمعسكر الرسول ﷺ وافتانه وتخذيله لمعسكر قريش، ومعسكر بني قريظة، ومعسكر غَطفان، يدرك مهارة غير عادية عند هذا الرجل.

خاصة أن مواقف من هذا النوع تحتاج إلى قدركافٍ من الشجاعة، والوثوق بالنفس، والدقة في تأدية الدور على الصعيد اللفظي والسلوكي، كما تحتاج إلى احتياطات هامة خشية تعرضه إلى اختبار طارئ، أو مداهمة غير متوقعة، أو كشف عارض، وغير ذلك.

وعليه يمكن القول إن هذا الرجل طاقة فنية هائلة، لعب دوراً خطيراً، وأدى إلى نتائج باهرة بكل جرأة وسيطرة وهدوء.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن مثل هذا العمل لا يدخل تحت إطار الغدر والخيانة، فإن الحرب خدعة أولاً، ثم لا عهد بين المسلم وأعدائه المشركين حتى يكون غدراً.

إضافةً إلى أن هذه المحاولات تنصبُ بالنتيجة في خانة هداية الناس بدل قتلهم وإفنائهم، والرسول لا يريد معارك ودماء، بل يسعى وراء السلام وهداية الناس.

وحيث اتممنا المورد الرابع والذي كان بخصوص دراسة الاساليب الاستخباراتية وما يتصل بها في الحرب، ندخل في المورد الخامس كي نطالع فيه ما قدمه الرسول المصطفى ﷺ من ابتكارات تاريخية تهم حاضر المسلمين في زمان النبوة المباركة ومستقبلهم فيما قدمه الرسول من جهد عظيم للحفاظ على السلام وذلك عن طريق الاحتياطات اللازمة للحرب، كل هذا ستجده في المورد الخامس وهو البحث الآتي.

المورد الخامس: استفراغ الوسع للاحتياطات اللازمة

ونناقش في هذا المورد جهود الرسول المباركة والتي وظفها لخدمة الانسانية كي تنعم بثمار عطاءه العقلي والروحي حيث عمل على اغلاق كل فجوة محتملة قبل الحرب واثنائها والتحسب لما بعدها.

ولتكن دراستنا لهذا المورد على عدة اتجاهات.

الإتجاه الأول
أهمية الاستخلاف في المدينة في حال كونه ﷺ خارجاً منها

كان من المعروف أن النبي الأكرم ﷺ عندما كان يخرج للحرب يخلف بعده شخصاً من المسلمين على من بقي فيهم في المدينة معه وفي مكة من بعد الفتح ولهذا الاجراء فوائد قصوى ومهمة نأتي عليها تباعاً:

الفائدة الأولى:

ضرورة القيادة بشكل كلي، وأهمية وجودها في كل حال، وخصوصاً من الناحية الإدارية، فالمدينة بمقام الدولة المهمة وشعبها شعب الحضارة الجديدة، مجتمع يقود التحولات المعاصرة، ويأخذ على عاتقه أصعب مهمة عرفتها الإنسانية وشهدها التاريخ، لإنقاذه من أهوال المحن وتراكمات الظلام.

والمدينة فيها ـ كباقي مدن الدنيا ـ نظم وأحكام سياسية وسيادة لقانون ودستور محترم وقائد له كلمة الفصل، كما أن فيها ـ كباقي بني البشر ـ ما يستدعي للحيطة والحذر، وما يستدعي لحل مشكلة، أو إنهاء

نزاع، أو قبول مبادرة، أو توسيع ومتابعة مشروع، أو القضاء على فتنة، أو مواجهة حالة ما.

وإذا كانت المدينة بكل شُعبها وتشعباتها وشَعبها بعيدة عن الوضع النظامي، فلا ينتظرها إلاّ العشوائية والهرج في طرق معتمة، وإذا كان الطبع البشري يقتضي وجود رأس يُسمَع منه وقائد يُتحرَك من خلاله، فالمدينة المنورة أكثر مدن الدنيا في تلك المرحلة احتياجاً لهذا القائد، وانطلاقاً مما ذكرناه قبل قليل.

فكان استخلاف الرسول ﷺ لشخص يقود المدينة بعده هو بالواقع ينطلق من تلبية الإسلام لهذه الحاجة الماسة للقائد، وإن مجرد استخلاف الرسول ﷺ لشخص ما يخلفه في إدارة المدينة المنورة يعتبر تعبيراً رائعاً عن إدراك الرسول ﷺ الواعي لنظم الإدارة الاجتماعية والسكانية، ولياقته الحضارية لاستيعاب متطلبات الوضع الذي يعيشه في ذلك الزمان، كما أنه يعبر عن واحد من أوجه الفن القيادي في شخصه الشريف.

وإن ذكر هذه النقطة فقط يكفينا في الإجابة على السؤال المطروح حول أهمية الاستخلاف لما فيه من الحنكة وحبك الأدوار والاحتراز لكل شيء، كما يظهر من باقي النقاط الآتية.

الفائدة الثانية:

لكي يكون المستخلف امتداداً طبيعياً لرسول الله ﷺ فيؤُمّ المصلين في الصلاة ويفتيهم في أمورهم الدينية والدنيوية العامة، ويكون رمزاً قيادياً مؤقتاً لمجتمع المدينة، تجتمع عنده الكلمة وتنتهي إليه المعضلات.

الفائدة الثالثة:

لمواجهة طوارئ الأحداث التي قد تحصل بغياب رسول الله ﷺ، وهي محتملة وكثيرة.

ففي المدينة منافقون، وفيها يهود، وفيها من لا يؤمن جانبه، وهذا كله يجعل المدينة مرشحة لأحداث محتملة من قبيل الاضطرابات، وزعزعة الأمن الداخلي، أو قتل الشخصيات المهمة، أو التنسيق المشترك بين تلك الفئات، إلى غير ذلك ما يؤدي إلى هزّ الوضع الإسلامي عموماً، ومن جميع النواحي.

فوجود القائد المؤقت يعني وجود صمام أمان يضمن سلامة المنهج المتبع، وإبعاد المجتمع المدني الإسلامي المتمدن عن ألغام الأزمات.

الفائدة الرابعة:

ليعلم الناس ضرورة الرجوع إلى من له الأهلية في قيادة الناس، وإلى من يتحلى بمواصفات مناسبة لهذا المقام، ويعلمهم الرجوع إلى الإمام المنصوب من قبله ﷺ في جميع قضاياهم الحياتية والأخروية في حياة النبي ﷺ وبعد مماته.

وبهذا يكون الرسول الأكرم ﷺ قد وضع ضابطة تخدم المسلمين في اختيار القائد لهم والممثل الحق لرسولهم، والمطبّق الأمثل لدينهم في حال التحاق الرسول ﷺ بالمولى الأجل.

أي أنه ﷺ قال لهم من خلال ذلك كله: يجب عليكم الاتباع لمن أنصبه خليفةً لي وعدم مخالفته بحال، وانه لابدّ أن تقبلوا به وترضوه كما كنتم قد تعودتم ذلك مني أيام حياتي وعند غيابي عن المدينة.

وهذا الكلام يصلح شاهداً على أنه من المستبعد جداً، بل المحال أن يترك الرسول ﷺ أمته من بعده دون قائد منصّب، وإمام معلن، وخليفة متبع، حيث لم يتركها وهو ﷺ موجود عندما كان يغيب عنها غياباً مؤقتاً مع علمه ﷺ بأنه راجع إليها، وأن المجتمع الرجالي يقاتل جميعه معه ﷺ وأن المدينة أمرها مُطْمَئِن نسبياً.

فكيف يتركها دون راعٍ وهو راحل عنها للأبد، وأعداؤها في الداخل والخارج كثيرون، والمسلمون لم يتمكنوا من تحديد مستحق الاتباع لوحدهم، فضلاً عن كون الرسالة خاتمة، أي لا رسالة بعدها تُقَوِّم العِوج إن حصل كما قوّم الإسلام المسيحية، وقومت المسيحية اليهودية قبل ذلك.

فيكون التنصيب قائماً بالضرورة العقلية فضلاً عن الضرورات الأخرى والموجبات الكثيرة لذلك، وفضلاً عن الاستدلالات الطويلة العريضة في هذا المجال.

والخلاصة أن استخلاف الرسول ﷺ لشخصٍ من بعده يؤكد أن الأمور عامة، حاكمة على الرسول الأعظم ﷺ في ضرورة تنصيب من يخلفه من بعده في حياته، وبعد مماته من باب أولى، ولعله ﷺ - باعتقادنا - ناظر إلى هذه المسألة في كافة استخلافاته للأفراد المسلمين من بعده.

وهذا يثبت لنا ضرورة الاستخلاف من الناحية الكلية.

الفائدة الخامسة:

لكي يُعلِّم أصحابه على فن القيادة وإرشاد وتوجيه المجتمع، وتهيئة النفوس لقبول تعدد الأمزجة، وكثرة الابتلاءات، وتعليم الصحابة التمثيل المقدس لشخص الرسول ﷺ.

فالذي يمثل الرسول ﷺ في قيادة المدينة يلاحظ في نفسه أن يمثله ﷺ في كل شيء لكي يكون أهلاً لهذا الشرف، يمثله في عبادته، وفي أخلاقه، وفي تسامحه، وفي تحمل الناس والصبر على حل قضاياهم وردها بالتي هي أحسن.

وهذا من شأنه أن يخلق شخصيات قريبة في بعض الجهات من سجايا الرسول ﷺ وفضائله، وإن امتنع الوصول إلى كمال خصاله وامتنع الإحاطة بها جميعاً؛ لقصور المسلمين عنها.

وبالتبع فالشخصية المقلدة لرسول الله ﷺ والمتشبهة به تكون مركز قوة في المجتمع، وعماد فضيلة فيه، ومبعث رشد وتأسي واعتبار.

الفائدة السادسة:

إظهاراً لبعض الشخصيات، وإظهاراً لأهميتها، فإن الشخصية تبقى مغمورة أن لم تظهرها أيدي القائد المتولي، وتبقى كاسدة أن لم تصقلها أحداث الزعامة والتقدم أمام الركب، وتبقى مجهولة أن لم تُعرِّفها الأحداث للمجتمع.

وعندما يوضع الإنسان في المقدمة فهو من جهة يعرف ويشخص بسهولة، ومن جهة أخرى يكون مرمى النقد، وفي إطار المؤاخذة ودائرة العتب، وفي مسلك المتابعة من حيث لا يدري.

وعليه فسوف يحسب لموقعه ألف حساب، ويَهتم بأموره أيما اهتمام، ويحاول غلق ثغراته الشخصية وعيوبه الخاصة، فيخرج لمجتمعه وهو متشبثٌ بالكمال، وهاجرٌ للمثالب والمناقص.

وبهذا يعرف المجتمع الشخصية التي خرجت له في دور قيادي بهذه المواصفات الثمينة، والاستحقاقات المترتبة عليها، فيكون إبرازه أمراً مهماً للتعرف على كنوز بعض الصحابة، وأهل النفوس الرائدة الكريمة.

الفائدة السابعة:

خلق موازنة مهمة في المواقع بين الشخصيات ذات القدرة الممتازة، والتوفيق بينهم وفق الرعاية لانتسابهم العشائري، الذي كان يمثل أهمية مميزة آنذاك، والتي لم يزل النفس العشائري، والروح القديمة تمثل عنده شيئاً ما، قد يرى وفقها أن موازين اعتباره ضعيفة أن لم يكن من يمثله في

تلك الأدوار، وقد يرى العكس إن كان له تمثيلاً.

والواقع أن تمثيل الرسول الأعظم ﷺ شرف يطمح بالوصول إليه أي شخص، وتطمع به أي قبيلة حتى مع انتزاع فتيل الجاهلية منها، سيما أنهم قوم بُنيَتهُم الاجتماعية كانت بنية عشائرية في أصل الوجود والممارسة والتعايش، ثم لم يزل عهدهم بالجاهلية ـ وبكل مقاييسها ـ قريب، وهم أهل خلاف كثير وعميق.

فكان لابدّ للرسول ﷺ أن يراعي في نظره الشريف جميع هذه الجوانب، ويبدي معها تحفظاً في توزيع الأدوار وإناطة المهمات؛ لحساسيتها عندهم وأهميتها لديهم، وكذلك كان.

فمرة يضع ﷺ مكانه أوسيّاً من الأنصار، وأخرى يضع خزرجيّاً من الأنصار، وثالثة يضع مهاجراً من كذا قبيلة، وأخرى غيره، وهكذا يحكم توزيع هذا المنصب وحسب نظره الكريم.

ولعل هذا العمل ـ وبعد هذا كله ـ يخلق بين تلك الفئات تنافساً مقبولاً وشريفاً، وتسابقاً لطيفاً؛ للمحافظة على سلامة الدور والظهور في أكمل وجه وأحسنه، ليؤكدوا أهليتهم لذلك، واستعدادهم لحمل أمانة الإسلام الثقيلة، والتمتع بحسن القبول عند رسول الله ﷺ.

وهذا كله له دخل في بناء المجتمع، ورص صفوف أبنائه، وإظهاره بأفضل مظهر، والتعبير من خلاله عن الحقد المقدس لكل من يسعى لزعزعة تلك المعاني الجليلة، والأهداف السامية التي يسعى الإسلام لرسمها في الحياة وتحقيقها مع تواجد الأجيال.

الفائدة الثامنة:

زرع الطمأنينة والثقة في نفوس المسلمين، بأن مدينتهم غير خالية من عنصر التأمين على الوضع العام، ففيها مرجعٌ قيادي تؤول إليه الأمور،

ورجلٌ مسؤول له القدرة على التمثيل والحسم وتأدية الأدوار بوجه إيجابي عام.

هذا مع العلم أن نفسية الجند تتأثر وتؤثر في موازين الأحداث القتالية ولها دور مهم في خلق عنصر الهزيمة، وأحد المؤثرات السلبية على نفسية الجيش، هي اعتقاده أن أهله وأعز الخلق عنده في خطر، أو في تيه وضياع، أو في مواجهة أزمة داخلية لا يوجد من يتصدى لحلها، أو غير ذلك من الافتراضات الكثيرة.

وبنفس الوقت لو انعكست الصورة، وحتى مع احتمال الأزمة فإنه ـ أي العسكر ـ مقتنع أنها سوف تتفتت على سندان القيادة المستخلفة، وهذا ما سميناه بصمام الأمان للأوضاع السائدة من بعد رسول الله ﷺ ومدينته المنورة.

الفائدة التاسعة:

لتكون صلة الرسول ﷺ ـ فيما إذا احتاج إلى صلة بالمدينة ـ برجل محدد، وقطب مشخص يتمكن من خلاله من إدارة دفة الأمور المراد إدارتها؛ لطلب الإمداد مثلاً، أو طلب التحصن، أو أخذ الحيطة والحذر، فلو كانت القيادة موزعة، أو متغيبة لكان تنفيذ الأوامر مشتتاً وضائعاً.

بل قد يكون متعذراً، والحال أن هذه الأمور محتملة جداً في الحرب، بل هي داخلة في صميم نظام الطوارئ فيها، فكيف لو لاقى الرسول ﷺ وجيشه طارئاً من هذا النوع، أو احتمالاً من ذاك اللون؟ هل يبقى يخبط في حيرة؟ أم يلجأ إلى استمداده الأولي واحتياطه القَبْلي الذي اتخذه من باب التحسب والاحتراز، ويعالج الأمور من خلاله؟.

ولا نستبعد أن الرسول الأعظم ﷺ يكون قد نسق أموره مع هذا

الشخص الباقي؛ كي يقوم بالمهمات الصعبة، والطارئات القادمة على أكمل وجه وأتم استعداد، بما فيها مرور الرسول ﷺ وجيشه بحرج ما يستدعي الاتصال بالمدينة وأهلها من خلاله في الموارد التي أسلفناها في بداية أو خلال هذه النقطة.

إن جعل قائد للمدينة أمر مكمل لقيادة الجيش، وفن آخر يبرز لنا قدرة القائد الأعظم النبي الأكرم ﷺ في الهيمنة على كل العقد المحتملة الورود.

الفائدة العاشرة:

لإشعار العدو في حال كونه يريد الإلتفاف على المدينة، أو طعنها من الخلف بأن فيها مركزاً قيادياً، ومصدراً للتوجيه، ورجلاً صاحب قرار، وعليه يجب أن لا يحتملوا أن الوضع في المدينة خالٍ من الضبط والاستعداد للمواجهة، والقدرة على معالجة مثل هذه الطوارئ المهمة.

فيكون لذلك مدخلية في حساب من يريد للمدينة شراً في حال غياب الرسول ﷺ عنها، وهذا داخل في الحسابات المستقبلية غير المنظورة عند البعض.

الفائدة الحادية عشر:

ليرضي مطامع من له مطمع من الصحابة، ويؤلف قلوبهم على الإسلام، ويسكت غائلة التآمر الخفي في نفوسهم عليه، وَنَهم شهواتهم في التسابق للنيل منه في حال كونهم لا يعطون من قبيل هذه المناصب شيئاً، وهذا مهم غاية الأهمية، فكم إنسان يسكت عندما تعطيه، ويثور عندما تمنعه، فلا ينكشف إلاّ عند المنع، وهذا له شواهد كثيرة في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ

﴿يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1].

قال جلال الدين السيوطي في تفسيرها: (وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لما قسّم النبي ﷺ غنائم حُنين سمعت رجلاً يقول إن هذه قسمةٌ ما أُريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال ﷺ:

«رحم الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا»، فصبر ونزل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾)[2].

ويفهم أن الرسول ﷺ كان مبتلى بأناس هذا فهمهم ومستوى نضجهم، ولهم تعلق بقشور الدنيا بهذا المقدار الذي يجيزون معه الطعن بعدالة الرسول الأكرم ﷺ ويخرقون حدود الله ﷻ وموازينه.

وهؤلاء لم يكونوا بالعدد القليل، إنما كانوايشكلون قطاعاً واسعاً من الناس لهم ثقلهم وتأثيرهم وهذا يزيد بلاء الرسول ﷺ حقاً.

في تفسير نور الثقلين: (قال أبو عبد الله عليه السلام: كم ترى أهل هذه الآية: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، قال: ثم قال: هم أكثر من ثلثي الناس)[3].

ثم هناك مورد آخر يصلح مثالاً على عمق معاناة الرسول ﷺ من أولئك الفجرة الغدرة أصحاب اللعب والكذب.

---

(١) التوبة: ٥٨.

(٢) الدر المنثور لجلال الدين السيوطي ٣: ٢٥٠، وقريب منه في تفسير القمي ١: ٢٩٨، وشبيه في التبيان قال: يعني إذا لم يعطوا منها سخطوا وغضبوا، والصدقة محرمة على من كان غنياً (التبيان ٥: ٢٤٢).

(٣) تفسير نور الثقلين للشيخ الحويزي ٢: ٢٢٨، وتفسير العياشي ٢: ٨٩.

فقد ورد في تفسير الإمام العسكري عليه السلام: (ثم قال ﷺ: «لا ينبغي لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت في هذا المسجد جنباً إلاّ محمد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون من آلهم، الطيبون من أولادهم».

قال عليه السلام: أما المؤمنون فقد رضوا وسلموا، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا، ومشى بعضهم إلى بعض يقولون [فيما بينهم]:

ألا ترون محمداً لا يزال يخص بالفضائل ابن عمّه ليخرجنا منها صفراً؟ والله لئن أنفذنا له في حياته لنأبيَنّ عليه بعد وفاته!.

وجعل عبد الله بن أُبيّ يصغي إلى مقالتهم، ويغضب تارة، ويسكن أخرى ويقول لهم: إن محمداً لمتأله، فإياكم ومكاشفته، فإن من كاشف المتأله ينقلب خاسئاً حسيراً، وينغص عليه عيشه، وإن الفطن اللبيب من تجرع على الغصة لينتهز الفرصة.

فبينا هم كذلك إذ طلع [عليهم] رجل من المؤمنين، يقال له زيد بن أرقم، فقال لهم: يا أعداء الله أبالله تكذبون، وعلى رسوله تطعنون ودينه تكيدون؟ والله لأخبرنّ رسول الله ﷺ بكم.

فقال عبد الله بن أُبيّ والجماعة: والله لئن أخبرته بنا لنكذبنّك، ولنحلفنّ [له] فإنه إذاً يصدقنا، ثم والله لنقيمنّ عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدّك.

قال عليه السلام: فأتى زيد رسول الله ﷺ فأسرّ إليه ما كان من عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ المجاهرين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله، والموالاة لك ولأوليائك والمعاداة لأعدائك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يطيعونك في الظاهر، ويخالفونك في الباطن ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ بما يكون منهم من القول السيء فيك وفي ذريك ﴿وَتَوَكَّلْ

عَلَى اللهِ في إتمام أمرك وإقامة حجتك)[1].

فالقيادة الدينية ـ وبهذا العنوان ـ ترضي نفوس البعض، وتداعب غرورهم، وتساهم في إزاحة جزء من أحقادهم المقبورة في قعور أنفسهم، والتي يخاف منها على مصير الإسلام؛ لخطورة شخصيات الحاملين لها.

---

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ١٨

الاتجاه الثاني

عدم بدء الحرب في ضربتها الأولى

نلاحظ بوضوح أن الرسول الأعظم ﷺ ورغم شدّة استعداده للحرب وبكل الأصعدة المفترضة، واستفراغه لوسعه الشريف من أجلها، ومكابدة سعيرها بإناةٍ وصبر جميل وعمل لا نظير له، نلاحظ أنه ﷺ لا يبدأ قتال عدوّه من جهة البدء بالضربة الأولى التي تكون بعدها الحرب هائجة عادةً.

وكأنه ﷺ أراد أن يقول: رغم اجتماع الفريقين في ساحة الحرب إلاّ أنني لا أكون أول من قصَّ شريط الموت والدخول إلى هوات المنايا، أما لو قُصَّ وبأي طريقة كانت فأنا ابن بجلتها وصاحب المراس فيها.

فلو تتبعنا حروب الرسول المصطفى ﷺ، وبالذات الكبيرة والمهمة منها سوف نجد ذلك مُطلاً بهامته، مظهراً قامته، في بدر الكبرى ورغم أنها أول معركة كبرى، ورغم أن قريش صاحبة التاريخ المزدحم بالتجاوزات على رسول الله ﷺ، ورغم أنه ﷺ موعودٌ بالنصر، ورغم كذا وكذا...

إلاّ أنه ﷺ لم يرمِ بسهم، ولم يضرب بسيف، إلاّ أن بادرت قريش ذلك على يد واحدٍ من معتوهيها والعابثين بمقدراتها: (فلما تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من الحوض: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه.

فشدّ الأسود بن عبد الأسد حتى دنا من الحوض، فاستقبله حمزة بن عبد المطلب، فضربه فأطنّ[1] قدمه، فزحف الأسود حتى وقع في الحوض

---

(١) أطن: أطار، (شرح ابي ذر:١٥٧).

فهدمه برجله الصحيحة، وشرب منه، وأتبعه حمزة فضربه في الحوض فقتله) [١].

فترى أن هناك شخصاً غاشماً، ونفساً تحب العدوان بعنوان التحدي للمسلمين، هذا وحوض الماء بيد المسلمين وبين عسكرهم، ورسول الله ﷺ قد ناداهم ندائه السلمي الأول في المعركة، أو قبل بدئها بقوله ﷺ: «يا معشر قريش! إنـي أكره أن أبدأكم بقتال، فخلونـي والعرب وارجعوا».

وظل الرسول ﷺ يتابع مواقف الرجال، وأحداث القتل، ولم يسمح لرجاله الأبطال أول الأمر بسلّ السيف، إلاّ أن دُعوا لذلك فاستجاب لها استجابة شجاع ذي شيم، وبطلٍ ذي قيم.

عن المغازي: (فدنا الناس بعضهم من بعض، فخرج عتبة، وشيبة، والوليد حتى فصلوا من الصف، ثم دعوا إلى المبارزة... ثم نادى مُنادي: يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا) [٢].

فنراهم هم أصحاب الدعوة إلى الحرب والمبارزة والقتال قد قادهم بطرهم، وغشتهم أنفسهم، ووعدهم الشيطان فأملاهم غروراً، وهذا رأي قومهم فيهم وبالضبط رأي أبي جهل: (لا يهولنّكم مقتل عتبة، وشيبة، والوليد، فإنهم عجلوا وبطروا حين قاتلوا) [٣].

بل لدينا رواية تحدد بدقة بداية العدوان، والشخص الذي تحرك، والشخص الذي حركه، مؤكدة أن قريش بدأت بذلك رغم النداء السلمي الذي أطلقه الرسول ﷺ ورغم محاولة عتبة لتلافي وقوع السيف.

---

(١) المغازي ١: ٦٨.

(٢) المغازي ١: ٦٨.

(٣) المغازي ١: ٧١.

في المغازي: (وقال[1] لعُمير بن وَهب: حَرِّش بين الناس!.

فحمل عُمير، فناوش المسلمين لأن ينقض الصف فثبت المسلمون على صفهم ولم يزالوا، وتقدّم ابن الحضرمي، فشدّ على القوم فنشبت الحرب) [2].

ومما يساعد على هضم هذه الرواية وقبولها بيسر ما ورد من اعتراف على لسان عمير بن وهب يؤكد جريمته هذه.

ففي المغازي أيضاً: (وقال عمر بن الخطاب في مجلس ولايته: يا عُمير بن وَهب، أنت حارزُنا للمشركين يوم بدر، تصعّد في الوادي وتصوّب، كأنّي أنظر إلى فرسك تحتك، تخبر المشركين أنّه لا كمين لنا ولا مددا.

قال: إي والله يا أمير المؤمنين! وأخرى، أنا والله الذي حرّشت بين الناس يومئذ؛ ولكن الله جاءَ بالإسلام وهدانا له.

قال عمر: صدقت) [3].

وقد بالغ الرسول الأعظم ﷺ في رفع شعار السلام، وعرض على قريش عروضاً كثيرة تجنبهم الحرب وويلاتها مع العلم أنهم في بدر مرّوا بكارثة معلومة الآثار، مشحونة بالأخطار.

وفي أُحُد ترك الرسول الأعظم ﷺ السهم الأول بأيديهم.

عن الواقدي: (إنّ أوّل من أنشب الحرب بينهم أبو عامر، طلع في خمسين من قومه معه عبيد قريش، فنادى أبو عامر، وهو عبد عمرو:

يا آل أوس، أنا أبو عامر!.

---

(١) أي أبو جهل.

(٢) المغازي ١: ٦٥.

(٣) المغازي ١: ٦٥.

فقالوا: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق!.

فقال: لقد أصاب قومي بعدي شرًّا ومعه عبيد أهل مكة فتراموا بالحجارة هو والمسلمون حتى تراضخوا[1] بها ساعةً)[2].

ثم إنهم وبعد أن شعل أبو عامر فتيل الحرب واصلوا طلبهم للحرب وإشعالهم لنيرانها بدعوتهم المسلمين للبراز: (ودعا طلحة بن أبي طلحة إلى البراز)[3].

وفي موضع آخر قال الواقدي: (وصاح طلحة بن أبي طلحة: من يبارز؟

فقال عليّ عليه السلام: هل لك في البراز؟

قال طلحة: نعم.

فبرزا بين الصفّين، ورسول الله ﷺ جالسٌ تحت الراية عليه درع ومغفر وبيضة...)[4].

وفي بدر الآخرة أو بدر الموعد، هم الذين ضربوا موعداً للقتال ـ كما بيّنا في المباحث السابقة ـ وهم الذين رغبوا فيها ورغبوا عنها.

وفي الخندق هم الذين جاءوا رسول الله ﷺ، وإذا كان الحديث عن أوّل من رمى ونشب بسبب موقفه من القتال فلنقرء:

روى الواقدي: (... ويقدّمون رُماتهم ـ وكان معهم رُماة، حبّان بن

---

(١) تراضخوا: أي ترامَوا بالحجارة، وأصل المراضخة الرمي بالسهم (شرح أبي ذر:٢١٨).

(٢) المغازي ١:٢٢٣.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) المغازي ١:٢٢٥.

العَرِقة، وأبو أُسامة الجُشَمي، وغيرهم من أفناء[١] العرب ـ فعمدوا يوماً من ذلك فتناوشوا بالنبل ساعة، وهم جميعاً في وجهٍ واحد وُجاه قُبَّة رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ قائم عليه الدرع والمِغفر، ويقال على فرسه، فيرمي حبّان بن العرقة سعد بن معاذ، فأصاب أكحَلَه) [٢].

فهم الذين جاءوا بجماعة ورماة وصبّوا سهامهم صوب رسول الله ﷺ، ويسَمتِر وجهه الكريم، في رسالةٍ منهم إلى بداية القتال يعلمون بها الرسول ﷺ وجنده الكرام.

وهم لا يزالون يصعّدون موقف الحرب، ويغذّون دائرة القتال وعلى يد وسيوف رؤساءهم الذين اجمعوا أن يغدوا جميعاً حول الخندق: (... يطلبون مضيقاً يريدون يقتحمون خيلهم إلى النبي ﷺ وأصحابه...فعبر عِكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وعمرو بن عبد ود) [٣] وطلبوا هنالك البراز.(فجعل عمرو بن عبد ود يدعو إلى البراز ويقول:

ولقد بـحـحت من الـنـدا ... ءِ لجمعكم هل من مبارز) [٤]

ومع اليهود:

أما بني قنيقاع فمعلوم أمرهم في قتل المسلم وانتهاك المسلمة، ولم يحصل قتال بالسيف معهم، بل انتهت الأمور في محاصرتهم وجلائهم.

ومع بني النضير، هم الذين رموا أوّل سهم على قبّة رسول الله ﷺ فبلغها (ودخل رسول الله ﷺ القبّة، وكان رجل من اليهود يقال له عَزْوَك،

---

(١) يقال: هو من أفناء الناس،إذا لم يعلم ممَّن هو، (الصحاح ٦: ٢٤٥٧).

(٢) المغازي ٢: ٤٦٩.

(٣) المغازي ٢: ٤٧٠.

(٤) نفس المصدر.

وكان أعسرَ رامياً، فرمى فبلغ نبلُه قُبّةَ النبي ﷺ، فأمر بقبّته فحوّلَت إلى مسجد الفَضيخ[1] وتباعدت من النَّبل)[2].

ومع بني قريظة كان الأمر كذلك، حيث رموا رسول الله ﷺ وزوجاته بسهام الكلام، وأقذع الألفاظ، ومن قبل فعلوا مع الوفد المفاوض لهم والمبعوث من قبل رسول الله ﷺ، والأحزاب تلف المدينة بحزام الموت والعساكر تبعث سهام الهلكة على معسكر المؤمنين.

فقد تكلموا بنفس تلك الكلمات الرخيصة وربما أقذع منها وأشنع، ورجع منهم الوفد محملاً بالشتائم وقد اتخمت آذانه ألفاظ الفحش اليهودي، فكان غلطهم على بعثة الوفد النبوي وعلى النبي الكريم ﷺ وآله ونسائه، إعلاناً لحربٍ تنذر بسهام طائشة، وأحداثٍ فاحشة.

عن كتاب المغازي: (... عن أبي قتادة قال: انتهينا إليهم فلما رأونا أيقنوا بالشر، وغرّز عليٌّ عليه السلام الراية عند أصل الحصن، فاستقبلونا في صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه)[3].

وفي خيبر رمى اليهود من أهل النطاة معسكر رسول الله ﷺ حتى تجاوزوا النبل، (وحشدت اليهود يومئذٍ، فقال له الحباب:

لو تحولت يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ: «إذا أمسينا إن شاء الله تحوّلنا».

وجعلت نبلُ اليهود تخالط عسكر المسلمين وتجاوزه، وجعل المسلمون يلقطون نبلهم ثم يردّونها عليهم)[4].

---

(١) قال السمهودي: ويعرف اليوم بمسجد الشمس، وهو شرقي مسجد قباء على شفير الوادي على نشزٍ من الأرض مرصوم بحجارة سود، وهو مسجد صغير (وفاء الوفا ٢: ٣٢).

(٢) المغازي ١: ٣٧١.

(٣) المغازي ٢: ٤٩٩.

(٤) المغازي ٢: ٦٤٤.

ويهود وادي القرى استقبلوا رسول الله ﷺ بنبالهم أيضاً: (فلما نزلوا بوادي القرى انتهينا إلى اليهود وقد ضَوَى إليها أُناس من العرب، فبينا مدعم[١] يَحُطّ رحل النبي ﷺ، وقد استقبلنا اليهود بالرمي حيث نزلنا، ولم يكن على تعبيةٍ وهم يصيحون في آطامهم، فيُقبل سهم عائر[٢] فأصاب مدعماً فقتله)[٣].

وكذا في غزوة حُنين: (ثم أمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فنادى في الناس: قولوا لا إله إلاّ الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، ففعل عمر، فأبَوا، فكان أوّل من رمى رجلٌ منهم بسهم، فرمى المسلمون ساعةً بالنبل، ثم أنّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه أن يحملوا فحملوا حملة رجلٍ واحد فما أفلت منهم إنسان)[٤]

وفي الحديبية ما بدأهم الرسول ﷺ بقتال وما كان يحمل نيّته، وأعلن مراراً وتكراراً، إنما جئت للاعتمار ببيت الله ﷻ ما جئت محارباً لقريش.

روى في المغازي: (إنّ رسول الله يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء مُعتمراً، معه الهدي عليه القلائد ينحره وينصرف)[٥].

ولكن رغم هذا العرض السلمي أخذوا يبتزّون جيش الرسول ﷺ ويستفزونه، ويجرونه إلى فقدان الهدف العظيم الذي جاء به أو جاء من أجله، وتحويله إلى منتهك لحرمة الشهر الحرام والبيت الحرام، وجعله

---

(١) مولى رسول الله ﷺ.

(٢) العائر من السهام: ما لا يُدرى راميه، (القاموس المحيط ٢: ٧٩).

(٣) المغازي ٢: ٧١٠.

(٤) المغازي ٢: ٤٠٧.

(٥) المغازي ٢: ٦٠١.

غادراً منافقاً يُعلن عن شيء ويُبطن آخر ـ والعياذ بالله ـ فيذهبوا بكل دعاياته الذهبية، ومحاولته السِلمية الثمينة.

وحيث أدرك الرسول ﷺ ذلك احتفظ لنفسه بحق الرد، ولكن بعد العدوان، وحتى على فرض حصول الرد من المسلمين فهو رد محدود لم يُصَعِّد الرسول ﷺ ـ من خلال ابتزازات قريش ـ في لغته وإعلان حربه لهم، إنما بقيَ ولآخر لحظة ماسكاً بزمام الموقف وبقوّة.

روى الواقدي في مغازيه: (وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحديبية يتحارسون الليل، وكان الرجل من أصحابه يبيت على الحرس حتى يصبح يطيف بالعسكر، فكان ثلاثة من أصحابه يتناوبون الحراسة: أوس بن خَولي، وعبّاد بن بشر، ومحمد بن مَسلَمة.

فكان محمد بن مسلمة على فرس النبي ﷺ ليلةً من تلك الليالي وعثمان بمكة بعد، وقد كانت قريش بعثت ليلاً خمسين رجلاً، عليهم مِكْرَز بن حفص، وأمروهم أن يطيفوا بالنبي ﷺ رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يصيبوا منهم غِرّة.

فأخذهم محمد بن مسلمة وأصحابه، فجاء إلى رسول الله ﷺ، وكان عثمان بمكة قد أقام بها ثلاثاً يدعو قريشاً، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ على أهليهم، فبلغ رسول الله ﷺ أنّ عثمان وأصحابه قد قُتلوا، فذلك حين دعا إلى البيعة.

وبلغ قريش حبس أصحابهم، فجاء جمع من قريش إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة وأسروا أيضاً من المشركين حينئذٍ أسرى)[1].

وبناءاً على ما سبق من توضيح في كون الرسول ﷺ ـ ومن جملة ما

---

(١) المغازي ٢: ٦٠٢.

استعرضناه من معارك وعلى ما سنبيّنه في معارك أخرى ـ لا يتصدى لإطلاق السهم الأوّل في نحور العدو، إنما كان يفرغ كنانته بعدما ينثر العدو كنانته ويريش سهامه ويطلقها نحوه.

نخرج بهذه الأمور الهامة في مقام استنباط العبرة من ذلك، ودراسة المواقف النبوية العظيمة المباركة، حيث إن ذلك شكّل أهمية في جنبات عدّة:

الجنَبة الأولى:

التأكيد على الروح السلمية للرسول الأعظم ﷺ في إعطائه الفرصة لعدوّه لمراجعة حساباته وحسم الأمور وفق الموازين العقلية.

ففرصة من هذا النوع، وفي وقت حرج من هذا النوع أيضاً، تعتبر فرصة ثمينة تقرر فيها المصائر، وتحسم فيها القضايا الشائكة المعقدة، فإما التسليم والتفاوض والبحث عن حلول مناسبة عن طريق الحوار، وإما اتخاذ قرار المواجهة وإعلان الحرب.

وهذا بجملته يترجم أن الرسول ﷺ رسول رحمة؛ لأن الإنسان بطبعه يحتاج إلى الزمن في دراسة أموره وخاصة الخطرة منها، ففي فترة القلق قد لا تأتي القرارات بشكلها السليم المدروس، فهي تحتاج إلى فرصة كي تعجن الأفكار وتختمر الآراء، وتسفر عن نتيجة أقل ما يقال عنها أنها نتيجة مدروسة وناضجة.

الجنَبة الثانية:

يعطي للرسول ﷺ فرصة الرد الحاد عليهم في حال اختيارهم الحرب، واعتناقهم هذا الخيار دون السلم؛ وذلك لأنهم أصبحوا معتدين بالمباشرة، فضلاً عن الاعتداء بالتسبيب ـ إذا صحّ التعبير ـ اي أنهم اعتدوا أوّل مرّة بما حدا بالقوات الإسلامية بقيادة الرسول ﷺ أو بتوجيهه إلى التحرك والرد،

ثم اعتدوا مرة ثانية عندما أعطتهم هذه القوات فرصة التفكير فبادروها بسهام الموت ورسل الحرب.

الجَنْبَة الثالثة:

إنّ عدم مبادرتهم بالحرب سوف يسلبهم زمام الحجة عند المطالبة بالسلام، أو وصول مآل الأمر إليه، فيكون موقفهم ضعيفاً عند الاحتكام.

وهذا وحده يؤدي إلى انتكاستهم وخيبة نفوسهم، كما لاحظنا ذلك جليّاً في قضية بني قريظة: (ودنا رسول الله ﷺ منهم وترّسنا عنه، فقال:

«يا إخوة القردة والخنازير وعَبَدة الطاغوت، أتشتموني؟»

قال: فجعلوا يحلفون بالتوراة التي أنزلت على موسى: ما فعلنا، ويقولون: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً! ثم قدّم رسول الله ﷺ الرماة من أصحابه)[1].

فإنك ـ أيّها القارئ الكريم ـ ترى منتهى ضعفهم ممثلاً بالكذب والتوسل ورجاء الخلاص، ولكن متى؟!

لما سلبهم الرسول الأعظم ﷺ الحجة واخذوا لا يحيروا أمامه جواباً إلاّ الأكاذيب والألاعيب، وبالوقت نفسه صار سلوكهم هذا وعدوانهم قبال رحمة النبي ﷺ سبباً في شروع النبي ﷺ ومبادرته لضربهم وبكامل استحقاقاتهم.

وقد لاحظنا شبيه ذلك في فتح مكة وفي مساعي أبي سفيان، وفي خاتمة المطاف كيف كانوا يلقون أسلحتهم بالشوارع، كورقة أخيرة تمكنهم من التعلق بأهداب السلام، والحصول من خلاله على بطاقة رحمة تدخلهم في عفو الرسول الأكرم ﷺ.

---

(١) المغازي ٢: ٥٠٠.

الجَنَبَة الرابعة:

له أهمية قصوى في زرع القناعة بمستواها الأرفع في نفوس المقاتلين من بني الإسلام؛ لأنه قد يرى أحد المسلمين أن للقوم حجة، وإذا افترضنا أن أحداً من المسلمين لا يعتقد ذلك، ففرض أن واحداً منهم تنـزع نفسه إلى ضرورة إعطائهم فرصة أخيرة لغرض المراجعة ولتمثيل سماحة الإسلام وتساهله مع بني الإنسان، فرضٌ غير ممتنع.

ولقد رأينا في بعض السرايا أن للقوم حقاً، ولديهم موقف يمكنهم التمسك به، ويحق لهم المطالبة تحت مظلته، كما كان في سرية خالد بن الوليد لبني جذيمة مما شقَّ العسكر، وامتنع الأكثر من المشاركة.

أما أن يفقدهم الرسول ﷺ كل تلك الحجج والمظلات، ويبادروه بالعدوان فسيكون ـ وبهذا الإطار ـ تحرك الجند عليهم شديداً وبدافع الموقف الإنساني من الرسول ﷺ، والعدواني منهم.

ولدينا رواية باهرة، لها ربط في كافة هذه الجَنَبات الأربع، وهي تمثل رحمة الرسول محمد ﷺ وبدرجة رائعة في تعاملاته مع النوع البشري، كما تمثل أدائه القيادي الرفيع في قيادة المواقف والأحداث، وتوضح ترجمته الأصيلة لمنحى السماء في الشفقة ببني آدم ومحاولة جرِّهم إلى ضفاف الهدى، ومرافئ النور، وسُبُل السلام.

ففي سرية عليِّ بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن: (لما وجَّهه رسول الله ﷺ قال: «إمضِ ولا تلتفت».

فقال عليٌّ عليه السلام: يا رسول الله ﷺ، كيف أصنع؟

قال ﷺ: «إذا نزلت بساحتهم لا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإذا قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم،

تَلَوَّمْهُمْ[١] تُرِهِمْ أناةً.

ثم تقول لهم: هل لكم أن تُصَلُّوا؟ فإن قالوا: نعم، فلا تَبْغِ منهم غير ذلك، والله لَئِن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت!»[٢].

ومع أن هذه الرواية فيها المجال الكثير من الكلام والبحث المفصل، إلاّ أننا نترك ذلك لتعليق القارئ الكريم عليها اتكالاً على نباهته وحسن تأمله.

---

(١) والتلوم: الانتظار والتمكث (الصحاح: ٢٠٣٤).

(٢) المغازي ٣: ١٠٧٩.

الاتجاه الثالث

لماذا يفاجئهم الرسول ﷺ بالرد قبل الفعل؟

إن من يطالع التاريخ يجد كثيراً من المواقف التي بدء الرسول ﷺ بها بالقتال أو الهجوم، وهذا يعارض قولنا إنه لم يبدأ أحد بالقتال ـ كما بيُّنا ذلك في الاتجاه الثاني ـ ويجعل من غيره في مقام المظلوم المضطهد، وهذا يعارض قولنا: إنه ﷺ يريد نشر السلام والأمن في كل مكان باعتباره مبعوث الله ﷺ للجميع، وهنا نرجع القارئ إلى عدُة مسائل:

وقبل ذلك نقول ليرجع عزيزنا القاري، الى ما جاء من كلام في أسباب غزوات الرسول ﷺ ـ في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ ليطالعها بتأني وليجد هناك أن القوم هم الذين تجمعوا وتآمروا وأرادوا الوقيعة برسول الله ﷺ.

أما المسائل التي ترجع القارئ إليها فهي:

المسألة الأولى:

إن الهجوم كما هو معروف خير وسيلة للدفاع، والرسول الأعظم ﷺ في معرض الدفاع عن المدينة التي عرف أن القوم يقصدونها، وييموا وجوههم وسيوفهم نحوها، وأن يضع نفسه في أراضيهم مدافعاً عن أراضيه خير من أن يضعوا أرجلهم في أرضه مدنسين لها.

وهكذا عزم الرسول ﷺ على الغزو دون البقاء، وعلى الضرب بالسيف دون الصد بالدرع.

المسألة الثانية:

عندما يأتمر القوم، ويتسّاروا ويشعروا أنهم قريبين من تنفيذ أمرهم، ويأتيهم الخطر الهجومي المداهم، دون احتياط له، يكون أدخل في قلوبهم من جهة إلقاء الرعب فيها، وإحاطتها بأجواء الخوف الخانق، وأن يحسب لحنكة هذا الرجل وإقدامه ألف حساب، الذي حولهم من زهو التآمر عليه إلى خذلان الهزيمة منه، وعندها سيكون مستقبلهم أسوء عليهم من ماضيهم، وحتى إن لم يكن كذلك فعليهم أن ينظروا للرسول ﷺ بمنظار الجد والاعتبار.

المسألة الثالثة:

يكون غزوهم في عقر دارهم أذل لهم (فما غُزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا) فإنه سيصيب جمعاً حاشداً، وغفلةً غالبة، ونعماً معدة، وفوق كل هذا أنه سيجهض خططهم قبل أن يضعها رَحِم التآمر والظلم والعدوان، فتولد بذلك ميتة.

فخطتهم كانت هجومية، أما الآن فهي في الدفاع، وأنهم بطبيعة الحال لم يفكروا في كيفيته؛ لأن مذهبهم كان الهجوم دونه، فيضطرون أما الى الهرب، أو الموت المحقق، وكلا الاحتمالين يعني هزيمتهم وسحقهم وهلاكهم ليس إلاّ.

المسألة الرابعة:

وإن ذلك كله أوقع في السمع وأبعد للأثر، فالذي يغزو من تهيأ لقتله ليس كالذي ينتظرهم حتى يغزوه، وبالتالي يقولون غُزي الرسول ﷺ في غرّةٍ من أمره، لم يدري ماذا يفعل، ولا يعرف كيف يصد مع كون الرسول ﷺ كثير الأعداء، وله من ينتظر منه ضعفاً، أو ثغرة أو معرة، حتى يشمت به، ويتهيأ للنيل منه.

نعم هذا الدوي الذي أراد أن يتركه الرسول ﷺ وفعلاً تركه يتردد في صدور أعدائه حتى فتح الله ﷻ على نبيه ﷺ، فهو كما قال الشاعر:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما العمرُ
ولاتحسبنَّ المجد زقاً وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكرُ
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المَجْرُ
وتركك في الدنيا دوياً كأنما ... تَداوَلَ سَمْعَ المرء أَنْمُلُهُ العَشرُ(١)

المسألة الخامسة:

الهجوم بعنوان كونه غازياً يُعد تمرين قتالي هجومي آخر يُدرّب عليه الصحابة على المزيد من اللياقة العسكرية، والانضباط، والسير في سبيل الله ﷻ تحت لافتة الجهاد من أجل الحفاظ على الحق، وحماية الدعوة الإلهية الجديدة من الثلم والانصداع.

وتحصين المدينة بسور أمني يجب أن يكون حولها دائم وثابت مع وجودها ما دامت هي عاصمة المسلمين، ومركزهم الحضاري والثقافي، وعمقهم السوقي والاستراتيجي الذي لا يمكن ترك الرهان عليه، والاستماتة من أجله، لذلك ترى المسلمين قد استبسلوا بشكل منقطع النظير في الدفاع عنها ولهم الحق، كل الحق في ذلك.

المسألة السادسة:

إن الخروج للحرب بالكيفية الهجومية من شانه أن يُحفز بقية أصحاب رسول الله ﷺ أن يتحرقوا للجهاد، وهم يسمعون جند الحق يقصّون عليهم فتح الله ﷻ ونصره لهم، وما أنفلهم من النعم غنيمة مباركة، وما أغدق عليهم من الثواب الجزيل والعطاء الجليل.

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي ١ : ٢٣٤ ـ دار الكتب العلمية شرح سبيقي.

المسألةالسابعة:

إنه ما دام القوم يحملون نية العدوان وإرادة التوجه لمقاتلة الرسول ﷺ وقد حرضوا بعضهم البعض، وحرضوا غيرهم من قبائل أخرى للهجوم على رسول الله ﷺ، يكون استثمار هذه الفرصة مواتية من جهة وجود الحجة الواقعية والشرعية للهجوم على القوم والتي لا يقدم الرسول ﷺ على قوم بدونها، ومع تمامها ووجودها يكون الطريق لحوهم مهيعاً واسعاً لا ضيقاً حرجاً.

وبهذا نستخلص أن غزوات الرسول ﷺ وسراياه لم تكن تلهياً وسمعة، بل لابدّ أن يكون هناك خطرٌ فيرده، وعدوان ظالم فيقف بوجهه، وأناسٌ يريدون لفتنة الشرك ولشوكة النفاق أن تمتد وتعظم فيكسرها بقبضةٍ لا تلين.

وإلاّ لماذا لم يهجم على خزاعة وغيرها من القبائل التي لم تملك تلك النوايا، ولم تستأثر بطيوف العدوان التي طوقت الذهنية القبلية لقريش ومن لفّ لفها.

الرسول ﷺ لم يبده أحداً بقتال إلاّ إذا كان ذلك الأحد هو المحفز لها وقارع طبولها وموقد نيرانها.

الرسول ﷺ لم يغر على قوم آمنين، ولا قبيل هاجعين، دونما جرم ارتكبوه، أو تهديد أطلقوه، ولا جماعة مسلحة مقاتلة عدوانية يقودون.

إنما العكس تماماً، وسوف نلاحظ كم يعذر الرسول ﷺ قبل قتاله وكيف يُمسك بالحجة، فتكون له سبيلاً واسعاً وطريقاً مهيعاً في عدم نفاذ التهمة إليه، وإلى عدم جواز مؤاخذته في ما يقوم به ﷺ.

وأخيراً علينا أن نفرق بين أن يستعد الرسول ﷺ للمواجه وأن يرد العدوان ـ ولو استوجب الاغارة على القوم ـ من جهة، وبين البده بالضربة

الأولى في الحرب من جهة أخرى، وماذهبنا إليه في البحث السابق هو عدم بدئه ﷺ بالحرب في ضربتها الأولى فحسب.

ثم ارجو أن لايفهم من هذا أنّا نريد القول: إن الرسول ﷺ كان هو الذي يغير على عدوه مطلقاً، نعم قد حصل ذلك في بعض الحروب لا في جميعها ولِما قرأته من مسائل آنفة ولغيرها.

الاتجاه الرابع
الاحتياط الميداني

ونحن هنا ـ وللتدليل على منهج النبي الأكرم ﷺ الاحتياطي الميداني ـ نأخذ مثالاً لذلك في واحد من مواقفه، وهو موقفه في عمرة القضاء.

لقد كانت غزوة القضاء، أو عمرة القضاء واحدةً من الخطوات العملية لتنفيذ فقرات الإتفاقية التي عقدها الرسول الأكرم ﷺ مع المشركين في الحديبية، حيث تجهز الرسول الأكرم ﷺ وأصحابه الذين حضروا الحديبية ومن لم يحضر وجاءوا لتأدية العمرة، عمرة القضاء.

وقد سماها البعض غزوة القضاء، لأن فيها من المقومات ما يصلح في إدخالها تحت هذه اللفظة.

فيها جيش، وطليعة، وفرسان، وسلاح، وفيها الرسول الأعظم ﷺ، وفيها هدف، وإن كان سلمياً بحتاً، ولكن يمكن أن يتحول بفعل الطوارئ إلى حرب.

ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن التسمية أو نرفضها، بقدر ما كان همنا في الإجابة على السؤال التالي:

ما هي خطة الرسول المصطفى ﷺ في أخذ السلاح معه في عمرة القضاء؟

والجواب:

ربما يقول قائل ـ قبل الإجابة على السؤال ـ إنه لا بأس في أخذ السلاح،

لأن العربي عُرف باصطحابه لسلاحه في حلّه وترحاله، ودليله أن الرسول ﷺ أخذ معه سلاحه في غزوة الحديبية مع كون هدفه كان الحج أو العمرة.

وإنهم اشترطوا عليه أن لا يدخل بسلاحه إلاّ بسلاح المسافر، مما يؤكد أن السلاح أمر متعارف حمله سابقاً، فلِمَ السؤال (ما هي خطة الرسول ﷺ في أخذ السلاح معه؟).

وجوابنا لدفع هذا الدَخْل:

إنه صحيح كلما يقال في كون العربي رفيقه سلاحه في كل حال من أحواله في حله وترحاله، لكن منشأ حديثنا في موضوع البحث، هو كون السلاح الذي أخذه رسول الله ليس سلاح الراكب أو المسافر؛ السلاح العادي الذي لا يمكن الإعتراض على حمله، أو التخلي عنه لأهميته المعروفة، إنما حمل الرسول ﷺ من السلاح ما يجلب التهمة والسؤال.

عن المغازي: (حمل الرسول ﷺ السلاح والدروع والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذي الحُلَيْفَة قدم الخيل أمامه، وهي مائة فرس يحمل عليها محمد بن مَسْلَمة.

وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد، فقيل: يا رسول الله، حملت السلاح وقد شرطت علينا ألاّ ندخل عليهم إلاّ بسلاح المسافر، السيوف بالقرب)[١].

وهذا الإعتراض أو التساؤل جاء من الصحابة، ولم يأتِ من الأعداء فهو دليل واضح على أن التسليح الذي جاء به رسول الله ﷺ يثير التساؤل والإستغراب.

واعتراض آخر جاء من الأعداء ـ أي المشركين ـ لما جاءهم نفراً من

---

(١) المغازي ٢: ٧٣٣.

جهة قدوم الرسول ﷺ وكانوا قد رأوا السلاح الكثير مع المسلمين، ومع جماعة بشير بن سعد بالذات، (ففزعت قريش فقالوا: والله ما أحدثنا حَدَثاً، ونحن على كتابنا ومدتنا، ففيمَ يغزونا محمد في أصحابه)[1].

فقد فهموا أنه غزو، لذلك تساءلوا باستغراب إنّا لم نحدث حدثاً اي لم نفعل ما يوجب نقض الصلح الذي يترتب عليه مجيء محمد ﷺ بجيشه غازياً لنا.

يُضاف إلى هذا أنهم أرسلوا إلى النبي ﷺ مِكْرَز بن حفص بن الأحنف في نفر من قريش حتى لقوه ببطن يأجج[2] متسائلين منه ﷺ: (يا محمدا والله ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت إلاّ تدخل إلاّ بسلاح المسافر، السيوف بالقُرب)[3].

فسلاح المسافر المشروط في الصلح والمعروف عند الناس هو السيف، والسيف فقط، وقد ازادوا أهل مكة أن هذا السيف بالنسبة لكم يجب أن يكون في القرب لا خارجها، تأكيداً ومبالغة منهم في طلب الأمن، من أن يحصل أمر عكسي يأتي على الأخضر واليابس.

ونلاحظ أخيراً أن الرسول ﷺ أجابهم مما يؤكد أن سلاحه كثير وأنه ﷺ عند شرطه بقوله: «لا ندخلها إلاّ كذلك»، اي ندخلها بالسلاح الموافق لشرطكم لا غير.

إذنْ لماذا السلاح وبهذه الكثرة؟

ويمكن القول إنه كان كذلك لأسباب:

---

(١) المغازي ٢: ٧٣٤.

(٢) منطقة قريبة من مكة.

(٣) المغازي ٢: ٧٣٤.

السبب الأول:

إنه من باب الحيطة الواجبة، فالغدر محتمل في كل إنسان فضلاً عن العدو، ولقد غدرت قريش، وكان غدرها سبباً في فتح مكة.

فإذا كان الأمر كذلك فعلى العاقل أن يحتاط لنفسه وغيره، وهو لم يكن بهذا الإحتياط، خارجاً عن إطار القانونية، وسلامة الإلتزام بالشروط أبداً، وبدليل قبولهم ـ أي االمشركين ـ بذلك وعدم اعتراضهم عليه ﷺ.

ومما يؤكد أن الرسول ﷺ كان محتاطاً في ذلك قوله ﷺ: («إنّا لا ندخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قريباً منا، فإن هاجنا هَيج من القوم كان السلاح قريباً منا».

قيل: يا رسول الله! تخاف قريشاً على ذلك؟ فأسكت رسول الله ﷺ وقدم البُدْن؟)[1].

ودليل آخر قول أبي رافع وقد خلفه رسول الله ﷺ بعده في مكة ليحمل إليه زوجته ميمونة، وقد آذاه المشركون ولقي منهم عناه (ما شئتم! هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج)[2].

فأخذ السلاح وبهذه الكثرة كان أمراً احتياطياً لمواجهة أسوء الفروض المحتملة.

السبب الثاني:

ليُري القوم أن محمداً ﷺ قوي الشوكة، عصي اللقاء، فيدخل في أنفسهم من الهيبة له ولقومه زيادة على ما كان فيها لهم سابقاً، وهذا ظاهر من كلام مِكْرز بن حفص موفد قريش لرسول الله ﷺ.

---

(١) المغازي ٢: ٧٤٠.

(٢) المغازي ٢: ٧٤٠.

فهو يتكلم معه وهو يتوسل إليه (تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت إلاّ تدخل إلاّ بسلاح المسافر، السيوف بالقرب)، وما ضر قريش أن كان محمد ﷺ مسلحاً ومعه جيشه، وهم يدّعون أنهم أهل البأس والحرب، والجد في الضرب أن يناجزوه في بلدهم ويدفعوه عنها، ويقضون عليه قريباً من ديارهم إن لم يكونوا خائفين منه.

فليكن هو الخارج عن الشرط والناقض للصلح وأنتم أصحاب الحجة عليه، والقائلين له وقد حضر بين ظهرانيكم بما لا مؤنة فيه إلى خروج، ولا مشقة فيه من تهيء وسفر.

لا بل حتى لا يروا تلك الهيبة له ولأصحابه، فروا إلى رؤوس الجبال وقالوا: (ولا ننظر إليه ولا إلى أصحابه)[1] فما هو السر في عدم النظر؟ إن لم تكن تلك الهيبة تزعجهم وتقض مضجعهم.

وقد خرج أقوام من مكة كي لا يروا الرسول ﷺ وصحبه في مواكب عز، وهيبة قدس، فخرج منها عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ومعهم جماعة، فقد قال عمرو بن العاص: (فلم أحضر الحديبية ولا صُلحها وانصرف رسول الله بالصلح، ورجعت قريش إلى مكة، فجعلت أقول: يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف، وما من شيء خير من الخروج)[2] وفعلاً خرج عمرو وزمرة معه إلى الحبشة.

وقد قال خالد بن الوليد بعد صلح الحديبية وقد شارك فيه ومع الرسول ﷺ عن مكة: (أي شيء بقي؟ أين المذهب، النجاشي؟ فقد أتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هِرَقْل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيةٍ أو يهوديةٍ، فأقيم مع عجمٍ تابعاً، أو أقيم في دار فيمن بقي؟ فأنا

---

(١) المغازي ٢: ٧٣٤.

(٢) المغازي ٢: ٧٤٢.

على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القَضيّة، فتغيّبت فلم أشهد دخوله)[١].

نحن نتساءل لِمَ هذا التغيّب يا خالد؟ أليس هو شعورك بالتلاشي أمام أمواج النور المحمدية والهيبة النبوية أم لشيء آخر؟ وأنت تندب انكسارك وفقدان سنانك.

هذا وهم ليس لديهم سوى سلاح المسافر والسيوف في القرب، فكيف لو رأوا أو سمعوا بالدروع، والبيض والرماح؟ فهو حتماً سيكون أدخل في قلوبهم، وأهيب في نفوسهم، وأكثر غيضاً لها.

السبب الثالث:

لِيُرِيَهم الرسول الأكرم ﷺ إلتزامه ببنود الصُلح، أما كيف؟

فهو وإن جاء بالسلاح الكثير مما يؤهله لخوض حرب، وأخذ القصاص من قريش، إلاّ أنه لا يجعل هذه الكثرة في العدد، وهذا التسليح الضخم سبباً لنقض السلم الذي هو هدف الرسول الأكرم ﷺ.

وإنما اتخذ هذه الكثرة حتى يؤكد أنه مع وجودها فلا مقدمية لها على شرط الصلح، والمؤمنون عند شروطهم، وأن تثبيت هذه القيمة القانونية، وهذا البند السلمي، راجح في كل الأحوال.

والأكثر من هذا أن الرسول الأعظم ﷺ منحهم من أريحيته وسماحته ولطف أخلاقه بما كان موضع تقدير القوم، فعندما طلب منهم رسول الله ﷺ تمديد المدّة المقررة وأن يدعوهم لوليمة عرس[٢]، أبوا ذلك وردوا كعادتهم بفضاضة وجفوة.

---

(١) المغازي ٢: ٧٤٦.

(٢) حيث أراد الزواج بميمونة في مكة.

عن كتاب المغازي: (لا حاجة لنا في طعامك، أخرج عنا، ننشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلاّ خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت)[١].

وكان قد غضب سعد بن عُبادة، ورد على جلافة سعد بن عمرو (كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا بأرض أبيك! والله لا يبرح منها إلاّ طائعاً راضياً)[٢].

فنرى رسول الله ﷺ لما رأى التوتر في الموقف والشدة من الطرفين، بادر لاحتواء الأزمة بين الطرفين التي قد تؤدي إلى نتائج غير محمودة.

قائلاً ﷺ : «يا سعد لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا»[٣].

فهو ﷺ بعد أن منح سعد ابتسامة رضىً وتأييد، جعلته بارد المزاج معتدل الطبع، قال وملئ قوله، كرم، وخلق، وأدب جم موجهاً كلامه لسعد وبما يرضي خصمه ويجعله في مقام الضيف الزائر، الذي يجب أن لا يُؤذى، لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا[٤].

---

(١) المغازي ٢ : ٧٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) وإذا كنا لا نتمكن من القول بإن الرسول ﷺ اراد أن يوحي لسهيل بضرورة التعامل مع الضيف بالتي هي أحسن، باعتبار الرسول ﷺ ابن مكة وأبوها، إلاّ أنه لا يمكننا القول إن هذا الإيحاء لايصح فيما عداه وقومه المهاجرين، حيث معه الأنصار وهم ضيوف مكة.

أو إذا كان يجب التعامل مع الضيف بهذا المستوى من الإكرام والإهتمام، فصاحب الدار يجب معاملته بما يتفق مع كونه صاحب دار لا ضيف أو عابر سبيل.

لذلك سكت الوفد ولم يجب بشيء مع العلم أن كلام سعد قابل للرد بقوة بما يحمله من إثارة واضحة، فضلاً عن كون الرد جاء من واحد انصاري مدني، وليس من أهل مكة حتى نتمكن أن نمنحه بعض الحق، كما هو السائد في سنن العشائر وخصوصاً القديمة منها ـ أقصد في ذلك الزمن ـ.

السبب الرابع:

ليستخبر ﷺ ردود فعلهم أمام هذا الموقف، وما سوف يقولونه، وفعلاً عرف الكثير الكثير.

وأول ما عرف أن قريش خائفة منه أشد الخوف، وإنها لم تكن على سابق موقفها من الصلابة والعناد والصلافة، إنما تريد الخلاص من آثار وجود الرسول ﷺ بكل سبيل دون إثارة شيء إسمه معركة وحرب.

ثم عرف أنهم لا زالوا يعتقدونه البرّ الوفيّ الذي لا يغدر ولا يخرج عن الأصول والضوابط، وليس هو المجنون والساحر والكذاب، الذي يُستخف به ويُستهزء به كما فعلوا سابقاً.

إذن هي إدانة لهم، وإن لم يشعروا بها.

وبعد هذا كله يجب الانتباه الى كون الرسول الأعظم ﷺ في حال كونه قد اتخذ كامل الاحتياطات اللازمة للموقف، لكنه بنفس الوقت لم يجعل من هذه الاحتياطات مجالاً لخرق الإتفاقية، فقد وضع سلاحه خارج مكة ودخل إليها، وكان ذلك جمعاً بين الحقين.

الأساس الثاني

اشراكه ﷺ النساء في حروبه

بعد أن فرغنا ـ بحمد الله ـ في دراسة تمام الأساس الأول في الركن الثاني (الجانب العسكري) وهو الأساس المتعلق بخطط الرسول المصطفى في حروبه عموماً وغزواته بكل ما في ذلك الأساس من موارد ومباحث والمجاهلات وتفريعات، نبدء بدراسة الاساس الثاني من الركن الثاني في (الجانب العسكري) والمتعلق باستثمار الرسول الأكرم ﷺ لجهود المرأة المسلمة في الحروب وكيفية ذلك الاستثمار وامور اخرى لها علاقة بهذه المطالب سوف نفصل بها إنشاء الله.

وستكون دراستنا لهذا الأساس على اتجاهات عدة.

ولحن لا نقصد في هذا البحث جميع المشاركات التي أعطتها المرأة للمعركة، فهي في الواقع كثيرة جداً، مع ملاحظة أن للمعركة مقدمات ونتائج، وإن المقدمات إذا كانت داخلة في صميم حالة القتال والمواجهة، وكذا النتائج فهذا يعني أن جهد المرأة كان عظيماً جداً، لأن المساهمات النسوية في ما قبل المعركة (اقصد القتال والمواجهة المباشرة) وما بعدها كثيرة للغاية.

ولكن لنقصر البحث هنا على دورها في ساحة القتل، أي في الساحة الحية والمواجهة المباشرة، فهو دور حقاً غني شكلت فيه المرأة حضوراً فاعلاً مؤثراً، ولنرتب الكلام في هذا الموضوع الذي لا غنى عن ذكره إلى اتجاهات:

الاتجاه الأول

أنواع مهام المرأة من الناحية العملية

لقد ذكر لنا التاريخ من جهة سردية أنواعاً كثيرة لمشاركة المرأة للرجل المسلم المجاهد في ميادين الوغى وبصور متعددة.

الصورة الأولى: التطبيب

فإن النساء المسلمات قد أدين ذلك الدور في الحروب على خير وجه، وشاركن في تضميد جروح الجرحى، وتأدية الاسعافات اللازمة للمصابين بالطعنات، وهذه الخدمة الجليلة من المعلوم أنها في غاية الأهمية في حينها، خاصة مع معرفة كون الجريح غير قادر على تضميد نفسه، ومداواة جراحه.

وقد كانت أم عمارة من النساء المجاهدات اللواتي أدين هذا الدور: (عن عبد الله بن زيد قال: جرحت يومئذ[1] جُرْحاً في عَضُدي اليُسرى، ضربني رجلٌ كأنه الرَّقل[2]، ولم يُعرِّج عليَّ ومضى عنيّ، وجعل الدم لا يَرْقا.

فقال رسول الله ﷺ: «إعصب جُرْحَك».

فتقبل أُمي اليَّ ومعها عصائب في حقويها قد اعدّتها للجراح، فربطت جرحي والنبي ﷺ واقفٌ ينظر)[3]

---

(١) يوم أُحد.

(٢) الرقل: النخلة الطويلة (النهاية٢: ٩٧).

(٣) المغازي ١: ٢٧١.

وكذا نرى حمنة بنت جحش، وقد خرجت يوم أحد تؤدي هذا العمل المقدس: (... عن عاصم بن عبد الله، عن معاوية بن عبيد الله بن أبي أحمد بن جحش قال: رأيت بعيني حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى)[1].

وينقل إبن أبي الحديد في شرحه عن الواقدي في مغازيه: (وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى)[2].

وذكر أيضاً الواقدي في مغازيه: إن نساءاً من بني غفار خرجن في غزوة خيبر يؤدين نفس الغرض، وهو مداواة الجرحى وما يحتاجه الجيش مما يقع في استطاعتهن أدائه: (عن أم علي بنت الحَكم، عن أمَيّه بنت قيس بن أبي الصَّلت الغفاريّة، قالت: جئت رسول الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار فقلنا: إنّا نريد يارسول الله أن نخرج معك في وجهك هذا فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا.

فقال رسول الله ﷺ: على بركة الله)[3].

وقال في موضع آخر: (حدثني عبد الله بن أبي يحيى، عن ثُبيتة بنت حَنظَلَة الأَسْلَميّة، عن أُمّها أم سنان قالت: لما أراد رسول الله ﷺ الخروج جئته فقلت: يا رسول الله، أخرج معك في وجهك هذا، أخرز السُّقاء، وأداوي المرضى والجريح إن كانت جراح ـ ولا يكون ـ وأنظر الرَّحْل.

فقال رسول الله ﷺ: «أخرجي على بركة الله...».

---

(١) المعجم الكبير الطبراني ٤٢: ٢١٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٦.

(٣) المغازي ٢: ٦٨٥.

إلى أن قالت:

وكان رجالٌ من أصحابه قد جُرِحوا فكنت أُداويهم بدواءٍ كان عند أهلي فيبرأون)[١]، ومن هذه الروايات يتبين لنا مشاركة جملة من نساء المسلمين معهم في الحرب على أساس القيام بالدور الطبي، وتضميد المجروحين في الحرب.

وهذه مهمة عملية وممارسة فعلية قامت بها نساء المسلمين في الحرب.

الصورة الثانية: السقاية

قد تبين مما سبق من الروايات أن نفس النساء اللواتي يداوين الجرحى يقمن بمهمة سقي المقاتلين، والعائدين من دائرة الحرب، أو المصابين فيها، فقد ورد في الروايات السابقة (في الصورة الأولى)، أن حمنة بنت جحش، وأم سنان، وطائفة أخرى من النساء كُنَّ يقمنَ بمهمة الإرواء والسقي هذه، ولدينا روايات أُخرى تذكر نساء بعينهن خرجن بهذا العنوان.

فقد ذكر ابن أبي الحديد نقلاً عن الواقدي: (قال كعب بن مالك: رأيت عائشة، وأم سليم على ظهورهما القرب تحملانها يوم أحد)[٢] وذكروا أم سليط واضطلاعها بأمر السقي، فقد ورد: (وكانت تزفر القرب يوم أحد تسقي المسلمين)[٣].

وقد عرفنا في حديث أم عمارة أنها كانت بالإضافة إلى مهامها العديدة تسقي الجرحى، وهي تحدثنا عن نفسها: (خرجت أول النهار إلى أُحُد وانا

---

(١) المغازي ٢: ٦٨٧، وكل هذا في خيبر.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٦

(٣) الفايق في غريب الحديث ٣: ٢٣٧.

أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء)[1].

الصورة الثالثة: إخلاء ونقل الشهداء

وهذه مهمة ثالثة تنم في الواقع عن عظمة المرأة المسلمة فضلاً عن أدائها ذلك الدور.

فليس من الهيّن على نفس الثكلى أن تنقل جثة فقيدها، فكيف اذا كان الفقيد أكثر من واحد، ودرجة القرابة معهم قريبة جداً، فسوف يكون الخطب أشد، أما إذا التفتنا إلى عبارات النسوة وردود أفعالهن ـ وبين أيديهنّ قرابين الحق من الأحبة شهداء العقيدة ـ فسنرى العجب العجاب.

فقد ذكر الواقدي: (وخرجت السُّميراء بنت قَيس إحدى نساء بني دينار، وقد أُصيب ابناها مع النبي ﷺ بأُحد، النُّعمان بن عبد عمرو، وسلَيم بن الحارث، فلما نُعيا لها.

قالت: ما فعل رسول الله ﷺ.

قالوا: خيراً، هو بحمد الله صالحٌ على ما تحبين.

قالت: أرونيه أنظر إليه! فأشاروا لها إليه.

فقالت: كلّ مُصيبة بعدك يا رسول الله جَلَلٌ.

وخرجت تسوق بأبنيها بعيراً تردهما إلى المدينة، فلقيتها عائشة فقالت: ما ورائك؟

قالت: أمّا رسول الله، بحمد الله فبخير، لم يمت! واتخذ الله من المؤمنين شهداء ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ١٣٢ وكذا البداية والنهاية ٤: ٣٨، عيون الأثر ١: ٤١٨.

الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [١].

قالت: من هؤلاء معك

قالت: أبنائي... حَلْ حَلْ) [٢].

فقد قامت هذه المرأة بإخلاء جثث شهيدين من المعركة على بعيرها وردّتهم إلى المدينة.

ومن النساء العظيمات اللواتي قمن بهذا الدور، هند بنت عمرو بن حرام، أخت عبد الله بن حرام، وعمة جابر بن عبد الله الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ، والراوي عنه.

فقد ذكر أنها حملت جثث شهدائها، وقد لقيتها نسوة من نساء المدينة خرجن يتسمعنَ الأخبار وفيهن عائشة: (وقد خرجت مع نسوة تستروح الخبر، ولم يضرب الحجاب يومئذٍ، فقالت لها: هل عندك خبر؟ ما وراءك؟

قالت: أما رسول الله... إلى أن قالت الرواية: من هؤلاء معك.

---

(١) إنّا نستبعد أن يكون هذا المقطع (أي الآية المباركة) من ضمن جواب المرأة لأنه:

أولاً: إنه من كلام الله ومن البعيد جداً أن يطابق كلام الإنسان العادي كلام رب الأرباب.

وثانياً: إن هذه الآية من سورة الأحزاب وهي نازلة في حرب الأحزاب وحديث هذه المرأة في اعقاب أحد، ومعلوم أن أحد قبل الأحزاب.

ثم ثالثاً: إن نفس هذه الإجابة (أي بالآية) وردت على لسان غير السميراء وهي هند بنت عمرو الأنصارية في جوابها على سؤال عائشة، وهذا في الواقع من صور الغرابة، ولعله من وضع النسّاخ وكثرة اشتباهاتهم.

(٢) المغازي ١: ٢٩٢، وحللت بالإبل إذا قلت حل بالتخفيف وهو الزجر (كتاب العين ٣: ٢٧)

قالت: أخي[١] وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح؟

قالت: وأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها...) [٢].

وهذه الصورة الثالثة كأختيها السابقتين من صور الممارسة العملية للمرأة خلال الحرب.

الصورة الرابعة: القتال الحي

وهذا من أعظم الأدوار التي قامت به المرأة في ميدان القتال، حيث إنها شاركت وبشكل مباشر في مقاتلتة الأعداء بالسيف، وردتهم عن حياض المسلمين، وجلت الكرب عن وجه رسول الله ﷺ.

كل ذلك في صور باهرةٍ، ومنازلاتٍ فريدةٍ، ومواقفٍ شجاعةٍ، يندر أن يقوم بها أحد، وإنْ كان من شجعان الرجال، وحكمت المرأة ـ من خلال ذلك ـ السيف في هامات العدو ولاقت من ضرباته ما لاقت، حتى نهش السَيف من أجسام بعضهن، ونال منهن ما نال.

ومع كل هذا كان الثبات هو السمة المميزة للصابرات في دائرة المنايا، والدفاع عن رسول الله ﷺ الشارة الواضحة لهن، ومقت الهروب والفرار العلامة الفارقة لهن عن الأخرين ـ وهم رجال ـ.

وكل هذا كان والبأس شديد، والنفوس مقهورة، والأرواح مكروبة، والخطب جليل، وسماء المعركة مُلبد بغيوم الموت، وسحُب البلاء.

ولنقف على موقف لأم عمارة هذه المرأة البطلة، الحامية عن الدين،

---

(١) تقصد عبد الله بن حرام أبا جابر.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤: ٢١٤.

والمدافعة عن سيد المرسلين ﷺ، وهي تشد على الأعداء في يوم أحد.

روى العلامة المجلسي: (فكانت أم سعد تحدث فتقول: دخلت عليها[1] فقلت لها: يا خالة حدثيني خبرك.

فقالت: خرجت أول النهار إلى أحد، وأنا أنظرُ ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في الصحابة، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت اليّ الجراح.

فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت يا أم عمارة من اصابك بهذا؟

قالت: أقبل إبن قميئة وقد ولى الناس عن رسول الله ﷺ يصيح دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا فاعترض له مصعب بن عمير، وناس معه فكنت فيهم فضربني هذه الضربة، ولقد ضربتهُ على ذاك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

فقلت لها: يدك ما أصابها؟

قالت: أصيبت يوم اليمامة، لما رجعت الأعراب.... إلى آخره) [2].

ولقد روي عن الرسول ﷺ أنهُ قال يصف حالها في الحرب يوم أُحُد: «ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني»[3].

---

(١) أي أم عمارة.

(٢) بحار الأنوار ٢٠ : ١٣٢، وكذا في البداية والنهاية ٤ : ٣٨، وعيون الأثر ١ : ٤١٨.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤ : ٢٦٨، عن الواقدي.

وقال عنها ابن كثير في البداية والنهاية: (فكانت أم عمارة ممن خرج إلى اليمامة مع المسلمين حين قتل مسيلمة ورجعت وبها اثني عشر جرحاً من بين طعنة وضربة رضي الله عنها) [١].

ولقد تحملت الجراح والطعنات في سبيل الله، ولم يثن عزمها نزف الدم من اثني عشر جرحاً أن تواصل جهادها وهي تواجه الفرسان رغم انها امرأة راجلة.

في شرح نهج البلاغة: (قالت أم عمارة لقد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقي إلا نفير ما يتمون عشرة، وأنا وأبنائي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يمرون عنهُ منهزمين، فرآني ولا ترس معي، ورأى رجلاً مولياً معه ترس، فقال ﷺ: «يا صاحب الترس، ألقِ ترسك إلى من يقاتل».

فألقى ترسه فأخذتهُ، فجعلت أُترس به على النبي ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، ولو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم، فيقبل رجل على فرس، فضربني وترست له، فلم يصنع سيفهُ شيئاً، وولى وأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: «يا بن عمارة، أمك أمك».

قالت: فعاونني عليه حتى أوردتهُ شعوب) [٢].

وقد روى لنا المؤرخون دوراً لأم سليم مشابهاً لدور أم عمارة: (وعن أنس: إن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين فقال أبو طلحة يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقالت: يا رسول الله اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرتُ به بطنه أقتل الطلقاء، أضرب أعناقهم، انهزموا بك، قال

---

(١) البداية والنهاية ٣: ٢٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٦، عن الواقدي.

فتبسم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله عز وجل قد كفى وأحسن»)[1].

وهناك مشاركة لصفيّة بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله ﷺ تذكر في المقام، وذلك في يوم الأحزاب حيث جعل الرسول ﷺ النساء والذراري في الأطام، وحيث نَقضت يهود بني قريظة الميثاق، وتجاسرت على حمى المسلمين، وبلغت الأطام تخيف النساء والذرية، وتشمّت بهم بالذي أحدق بهم من البلاء.

ورد في تاريخ اليعقوبي: (وجاء يهودي حتى وقف على باب الأطم الذي فيه النساء، وكان حسان بن ثابت معهن فصاح اليهودي: اليوم بطل السحر، ثم ارتقى يصعد.

فقالت صفية بنت عبد المطلب: يا حسان إنزل إليه.

فقال: رحمك الله يا بنت عبد المطلب، لو كنت ممن ينازل الأبطال خرجت مع رسول الله أقاتل، فأخذت صفية السيف، وقيل: أخذت هراوة فضربت اليهودي حتى قتلتهُ ثم قالت: إنزل فاسلبه.

فقال: لا حاجة لي في سلبه، وروي أن رسول الله ﷺ ضرب لصفية يومئذٍ بسهم)[2].

وهذا السهم دليل قاطع على اعتبار مشاركتها في القتال، وأن جبهة حربية كانت مفتوحة في الأطام ودار فيها قتال، صفية من جهة، واليهود من جهة، وأسفرت تلك المعركة، أو الجبهة القتالية عن انتصار عمة النبي ﷺ وانجلت عن قتل اليهودي.

وقطعاً هناك مشاركات أخرى وفي مواقع أخرى، ولكن نكتفي بهذهِ

---

(١) منتخب مسند عبد بن حميد: ٣٦١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٤٨.

الأمثلة المعروضة عن بقية ما جاء للمرأة المؤمنة المجاهدة من مشاركات معلومة ومساهمات مشهودة.

الى هنا تبين ما لمشاركة المرأة من جهات عملية مثمرة في الحروب وفي الاتجاه الثاني سوف تقرأ مهامها من الناحية المعنوية.

الاتجاه الثاني
أنواع المهام من الناحية المعنوية

وبجانب تلك العطاءات العملية الفاخرة التي طوت بها المرأة تاريخاً حافلاً بالأحداث الجسام، والغني بالمهام، عطاءات أخرى لم تقل عنها أهمية، إن لم نقل إنها أفضل منها وأهم، ألا وهي المواقف المعنوية التي تؤثر وبشكل مباشر على مجريات الحرب وعلى حيثياتها جميعاً.

إن هذه المهام المعنوية تشكلت بصور متعددةٍ أيضاً، لكل صورة منها لونها الخاص، ونقشها الخاص، وكذا اطارها الخاص وتأثيرها الخاص.

وملخص ما يمكن عرضه من المؤثرات المعنوية التي صنعتها المرأة صورٌ ثلاث:

الصورة الأولى: ما يخص الأمة

إن جملة الأحداث التي أوردنا ذكرها في المبحث الأول لها انعكاسات معنوية مهمة على الأمة الاسلامية وذلك في ما يلي:

أولاً: إشعار الأمة وعدوها كذلك بأن الأمة جميعاً وبكافة فصائلها تقاتل في الميدان، وأنهُ لو فكر بالإغارة على المدينة مثلاً فسيواجه المسلمات، كما يواجه الرجال في خط القتال.

ففي الرواية أن صفية بنت عبد المطلب لما قتلت اليهودي احتزت رأسه، وناورت به الأعداء اليهود في طريقة ذكية لترويعهم وإبعادهم عن القاعدة النسوية.

روى الطبراني في معجمه: (فضربت صفية رأسه حتى قطعتهُ فلما قطعتهُ قالت يا حسان قم إلى رأسهِ فارم به إليهم وهم من أسفل الحصن فقال والله ما ذاك فيّ.

قالت: فأخذت برأسه فرميتهُ عليهم، فقالوا قد والله علمنا أن محمداً لم يترك أهله خلوفاً ليس معهم أحد، وتفرقوا وذهبوا) [١].

وكذا في بقية الروايات الأُخرى ما يصلح للتعبير بهذا المعنى، والاستدلال به، مما يعني أن هذه الأُمة ترى نفسها وهي محصنة، ويراها عدوها وهي كذلك، فتندفع في المقاومة وتبحث عن المواقع اللائقة، ولا تتهيب المواقف الساخنة، وتخوض الغمار، وإن كانت شرسة.

إن سخرية المرأة من الرجل الذي تتلاحق أقدامه لتسابق أنفاسه اللاهثة وهو يقطع الأشواط تلو الأُخرى في دروب الهزيمة، لهي سخرية لاذعة تنم عن انتقاد لرجولة الرجل، وطعن غائر في فحولة كيانه، وفي نفس الوقت تشكل شموخاً لدور المرأة الساخطة من الأنهزاميين، وهم يرسمون خطى الخذلان، والتراجع بأقدامهم التائهة.

عن موسوعة التاريخ الإسلامي: (حين وصل إلى المدينة المنهزمون فلقيتهم أم أيمن تحثي في وجوههم التراب، وتقول لهم: هاك المغزل فاغزل به، وهلم سيفك) [٢] في كناية منها بليغة إلى عدم صلاحية المنهزم لحمل السيف، إنما يُحملُ السيفُ ليُهجم به، وإلا فمكانهُ الغمد، أو الإلقاء من اليد.

وهي إشارة بليغة إلى تبادل الأدوار: هاك المغزل الذي هو عملي في بيتي حيث سقط وجوب الجهاد عني، وهات سيفك حيث لم تكن له أهلاً

---

(١) المعجم الكبير ٢٤: ٣٢٢.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٣٣٩.

فاحملهُ أنا وأقاتل به نيابة عن رجولتك المهدورة.

ففي سبل الهدى والرشاد: (قال شيوخ محمد بن عمر: فجعلت أم عمارة تصيح يا للأنصار: أية عادة هذه، ما لكم والفرار؟!

قالت: وأنظر إلى رجلٍ من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله في أثر المسلمين، فاعترض له فاضرب عرقوب الجمل، فيقعُ على عجزه وأشد عليه، ولم أزل أضربه حتى اثبته، وأخذت سيفاً له، ورسول الله ﷺ قائم، مصلت السيف بيده، قد طرح غمده)[1].

فلم تكتف أم عمارة بلوم المنهزمين، بل تقدم لهم دليلاً عملياً على استنكارها موقف الهزيمة المخزي بأن تثبت في الحرب وتصمد للضرب.

بل ذهبت أم سليم إلى أكثر من هذا، بأنها هددت المنهزمين بالقتل والفتك كما مَرّ بنا سابقاً، وعند ذاك سوف تشعر الأمة جميعاً أنها حضرت في الميدان وكسبت الموقف بفضل مواقف النساء، ويشعر العدو أن الحرب كائنة عليه في كل مكان، لكي لا تخدعه نفسه بسبي نساء المسلمين، أو أسرهن، أو حطِ كرامتهن.

ثانياً: وبما أن هذه النساء هن نساء هذه الأمة، وليس من أمةٍ غيرها فستشعر الأمة جميعاً أنها أمة صالحة عظيمة لها حق الفخر على سواها حيث فيها مثل هذه النسوة العظيمات، يمثلن تلك الأنفة والشموخ، والغيرة على الدين، والذب عن حرم الرسالة، وإن كانت النكسة كبرى، والحدث عظيم.

ثم يحق لهذه الأمة بعد ذلك أن تطمئن بأنها كما انجبت تلك النسوة

---

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي الشامي ٥: ٣٣١.

قادرة على إنجاب مثيلاتهن ممن يهتز لهن وتر التاريخ، وتتأثر بهن صورة الحياة، وينحتن الأحداث على صخور الزمن خالدة مع تعاقب الأجيال.

فكما كانت نسيبة الأنصارية أم عمارة، وأم أيمن، وأم سليم، وأم سليط، وسيدتهن في الجهاد الزهراء البتول ، في زمن الرسول الأعظم ﷺ، كانت فاطمة في ما بعده، وكانت جويرية في زمن علي ، وكانت زينب في زمن الحسين ، وهكذا.

وإن أُمة فيها هذا الخزين الحي من الطاقات المنوعة، والمودوعة في كيانها من حقها أن تتطاول على أمم الدنيا بنسائها فضلاً عن رجالها الأبطال.

إذن أليس في دور المرأة هذا المد المعنوي للأمة، وهذا الجانب الإعتباري لها.

ثالثاً: لسد مناطق الفراغ في المعركة، معركة الأمة الإسلامية.

فمن المؤكد أن هناك أموراً يحتاجها المقاتل في ساحة المواجهة، ومؤكد أن هذه الأمور لا يمكن ـ بوصفه مقاتلاً ـ أن يقوم بها لوحده، وإذا تمكن أن يقوم بها فهي لا تخلو من صعوبة، وإن ضمان من يقوم بها يمثل إشعاراً للمقاتل بالمد والمعونة، كما يشعره بالطمانينة في ساعة الإحتياج لتلك الأمور.

فالمقاتل المشغول بالضرب والمقاتلة، والمهتم بالهجوم والدفاع، والمتهيء للأغارة، والمتحفظ من الضرب والطعن والحذر من الأقدار القتالية، والتحولات الأتية في ساحة الحرب غير قادر ـ والحال هذه ـ من الإلتفات لأخيه الجريح، والذي قد يشخب جرحهُ دماً يهدده بالموت والهلاك.

وربما لا يقدر للتخفيف عنه وازالة بعض الأثار النفسية، والجسدية المترتبة على وجود ذلك الجرح، بل المترتبة على وجود أصل القتال، فالمقاتل

مشغول بنفسه وبالدفاع عن إخوته المقاتلين، وهو على كل حال لا يمكنهُ تفريغ نفسه، ماذا تكون بالواقع ـ ومع أهميتها البالغة ـ جانبية في ساعة اللقاء واستعار الهيجاء.

إن تضميد الجريح، وسقيه، وإخلائه، والمساهمة الفاعلة في تطويق جراحه وآلامه مهمة مقدسة حقاً، ولكن لا يتمكن أن يقوم بها المقاتل بنفسه لفرط متاعبه، وشدة معاناته بجرحه، فضلاً عن مخاوفهِ الأخرى من احتمال القتل والإجهاز عليه.

وهنا يأتي دور المرأة المسلمة لتقوم بتلك المهام التي لم يتمكن منها الرجل لتسد هي حاجته اليها، فتضمد الجرح، وتنقل الشهيد، وتطمئن المتألم، وتسقي اللهفان، فتكون بمقام الطبيب النفسي والعضوي للمقاتلين.

فمع افتراض انعدام العنصر النسوي في المعركة، وخلوها ممن يؤدي تلك الأغراض الهامة، فما الذي سوف يحصل في ميدان المقاتلين، سوف يحصل مقدار من التخوف ناتج من وجود الشعور بالحاجة إلى سد بعض المواضع الفارغة ولكن لا أحد.

وحيث تواجدت المرأة المسلمة، فهذا يستدعي ـ أيضاً ـ اطمئنان الأمة وشعورها بأن هناك من يسقي جريحها ماءاً، ويسمع كلامه، ويداري مرارته من الألام، ويسمع وصيته قبيل الشهادة، وآخر ما قاله من كلام عند الموت، فتكون الأمة حينئذ قوية بهذا اللحاظ ومتكاملة عملياً من جهة الأدوار، ومعنوياً بما لتلك الأدوار من آثار.

بل حتى في مجال المقاتلة حيث لا رجل يوجد، أو يوجد لكنّه هزيل خائر تكون المرأة سيفاً مشهوراً، وإرادة حازمة، وتياراً للتصدي والرد، كما في موقف صفية بنت عبد المطلب المذكور سابقاً.

وقد رأينا موقف أم عمارة في المدافعة عن النبي الأعظم ﷺ حيث لا

رجال في ميدان القتال، فمناطق الفراغ في الحرب كثيرة، منها المتيقنة التي هي بالواقع موجودة في أصل الحرب، كمهمة تضميد الجرحى، وسقيهم، واسعافهم، وغير ذلك، لولا وجود المرأة.

وقد تكون محتملة فقد يحصل بالمعركة فراغٌ، أو فراغات كبيرة في حال الهزيمة، وانكماش العزيمة فتسد المرأة تلك الثغرة الواسعة، كما في موقف أم عمارة في الدفاع عن رسول الله ﷺ، ومقاتلة القوم ودعوة المسلمين للثبات والمقاومة... إلى غير ذلك من الأمثلة.

وهذه الأدوار جميعاً تصب في حقيقتها في جوهر صياغة الأمة، وبناء وجودها التاريخي والحضاري والتكاملي.

الصورة الثانية: ما يخصُ المقاتلين

وهنا صورة أخرى نرى فيها انعكاس دور المرأة المسلمة على المقاتلين مباشرةً، بعدما تلمسنا آثار تلك الأدوار بمجموعها على الأمة بأجمعها وعلى مراحلها التاريخية.

ويتبين هذا في:

أولاً: رفد المقاتلين بالقوة المعنوية

حيث إن مجرد خروج المرأة مع الرجال إلى الحرب يودع في نفوسهم قوة معنوية مضاعفة؛ لكونهم يرون هذا المخلوق الضعيف تكويناً، واللطيف روحاً وحساً يخرج لنصرة الله عزّ وجل ونصرة رسولهﷺ، وتقارع بموقفها هذا هامات رجال العدو، وتجعل المسلمين صلاباً شداداً على أعدائهم.

ثم إنها تهيج مروئة الرجل وتستفز نخوته بمجرد إثارة حميته للدفاع، وهمته للهجوم وإدامة المقاومة، وهي تحرضهم على القتل، وتشد رجولتهم

بالمقل، بل وتصول معهم وتندبهم إذا استشهدوا، وتلومهم إذا فروا، وتبرهن لهم ذلك ببطولة فذة، واستبسالٍ فَريد.

فهذهِ أم عمارة ﵂ نسيبة بنت كعب الأنصارية لم ترض فقط في مشاركة القوم القتال، ولم ترضَ فقط بسقيهم ولا بشد الجراح، ولا فقط بتقديم الأبناء لحماية اللواء وسيد الأنبياء ﷺ، وإنما تعصب جرح ولدها، وتهيج فيه روح القتال وتدفعه إلى مواصلة الحرب وهو جريح، بل تخوض الغمار بنفسها، وتجهز على الرجال في معركة أُحُد.

روى صاحب المغازي: (ثم قالت: إنهض يابُنَيَّ فضارب القوم، فجعل النبي ﷺ يقول: «وَمَن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟» قالت: وأقبل الرجل الذي ضربني، فقال رسول الله ﷺ: هذا ضارب إبنك، قالت: فأعترضُ فأضربُ ساقه فبرَك، فرأيت رسول الله ﷺ تبسم حتى بدت نواجذهُ.

ثم قال ﷺ: «استقدتِ يا أمّ عمارة!»

ثم اقبلنا اليه نعلوه بالسلاح حتى أتينا على نفسه.

قال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفّركِ وأقرّ عينكِ من عدوّك، واراكِ ثأركِ بعينكِ»)[١].

ثانياً: حماية مواقعهم والدفاع عنها

فإن حماية الخط الخلفي، والمتمثل بالمدينة آنذاك يمثل مهمة حيوية بالنسبة للقائم بها، وبالنسبة للجيش الغازي أيضاً، هذا وهم في جبهة القتال.

فيكون عمل المرأة هنا تكميلي، ومد رئيسي للمقاتل، وإسناد حقيقي للمتواجدين في الخط الأمامي (خط القتال).

وقد رأينا موقف صفية (رضوان الله عليها) عمّة الرسول ﷺ وتمثيلها

---

(١) المغازي ١: ٢٧١.

لذلك الجانب الذي ربما لولا موقفها ذاك، لكانت النساء والذراري هدفاً مقصوداً، ومطمعاً يمكن نيله من قبل أجلاف اليهود، ولكن فعلها تلك الفعلة باليهودي الغادر أحبط تلك الآمال والمطامع.

ولقد ذكرنا لأم عمارة من قبيل هذا الموقف ما يكفي للمثال على هذه القضية ويكفينا قولها (رضوان الله عليها) حيث تستحضر حرب أُحُد في رواق الذاكرة:

في البداية والنهاية: (فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ) (١)

وقد رأينا من أم سليم موقفاً شبيهاً بهذا في يوم حُنين: (اتخذت أم سليم خنجراً أيام حنين، فكان معها، فلقي أبو طلحة أم سليم ومعها الخنجر، فقال أبو طلحة: ما هذا؟

قالت: إن دنا مني بعض المشركين أبعج به بطنه) (٢).

وبهذا يتحقق دور النساء في الجبهتين الخلفية حيث الولدان والنساء، والأمامية حيث رسول الله ﷺ والمقاتلون المسلمون من حوله في قبال معسكر الأعداء.

ثالثاً: إشاعة عنصر الطمأنينة

وقد ألمحنا، بل صرحنا أن المقاتل عندما يشعر أن هناك من يداويه في حل جرحه ويسقيه في حال ضمئه، فإن ذلك أمرٌ يشيع بنفسه الطمأنينة، وبروحه

---

(١) البداية والنهاية ٤: ٣٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٣٠.

الإرتياح، ويساعده على التقدم نحو المصاولة في الحرب والمجاولة فيها ولديه قسط من الوثوق بما يعقبه عند الجوع والضما، أو عند الجرح والشهادة، أو غير ذلك، مما يكون واحداً من مصادر قوته النفسية ونشاطه المعنوي وعنفوانه الروحي.

وقد ذكرنا رواية أم سنان وخروجها في خيبر هي وعدة من النساء مع أم سلمة زوجة الرسول الأعظم ﷺ.

وفي خيبر وحدها نجد عدداً لا بأس به من النسوة يشتركن في أداء مختلف المهام، وقد كلّمن الرسول ﷺ في الخروج معه فأذن ﷺ لهن.

عن المغازي: (وخرج مع رسول الله ﷺ من المدينة عشرون إمرأة: أم سَلَمة زوجته، وصفية بنت عبد المطلب، وام أيمن، وسلمى امرأة أبي رافع مولى النبي ﷺ، وامرأة عاصم بن عَديٍّ ولدت سَهلة بنت عاصم بخيبر، وام عمارة نُسيبة بنت كعب، وام منيع وهي أم شباث، وكعيبة بنت سعد الأسلمية، وامّ مُتاع الأسلمية، وام سُليم بنت ملحان، وام الضحاك بنت مسعود الحارثيّة، وهند بنت عمرو بن حزام، وامّ العلاء الأنصارية، وأم عامر الأشهَليّة، وامّ عَطيّة الأنصارية، وام سليط)[1].

رابعاً: اشعار المسلم بقداسة المسؤولية

حيث إن هذه النساء أعراض المسلمين، وعقايل المؤمنين، وناموسهم الذي لا يمكن تركه بحال، فتركه في الميدان لوحده يجعله عُرضة للنهب والسلب، والأسر والسبي، بما يشين المروئة، ويقدح الشيمة، ويمسخ الرجولة، فيكون عاراً ابدياً وسُبّةً لاتمحى بحال.

فيضطر مع وجود هذا العرض في الميدان لاسترخاص نفسه في

---

(١) المغازي ٢: ٦٨٥.

استنقاذه، والذي يلزم فيه بذل النفس وتقديم الدم بسخاء البحر وكرم الغمام.

وإلاّ ماذا يعني أن يفر الرجل وأهله وعرضه في متناوش الأعداء، وماذا يعني وجودها بعد قليل وهي مطيعة لغرائزهم مستجيبة لشهواتهم، فهل يبقى مع ذلك للرجل انفةٌ وشموخٌ.

فعليه أن يعود إلى أرض المعركة، وعليه أن يثبت فيها، فأما حياةً تسر الصديق، وأما ممات يغيض العدا، هذا الأمر والنساء في معرض الخطر فكيف وهن ينادين بهم أن التحقوا برسول الله ﷺ ودافعوا عنهُ، ولا تنسوا العهد والميثاق، وتذكّروا يوم التلاق.

فقد ورد: (وكانت أم الحارث الأنصارية أخذت بخِطام جمل أبي الحارث زوجها، وكان جمله يُسمى المِجسار.

فقالت: يا حار، تترك رسول الله ﷺ! فاخذت بخطام الجمل، والجمل يريدُ أن يلحق بألافه، والناس يُولّون منهزمين، وهي لا تفارقه.

فقالت أم الحارث: فمرّ بي عمر بن الخطاب، فقالت أم الحارث: يا عمرا ما هذا؟

فقال عمر: أمر الله.

وجعلت أم الحارث تقول يا رسول الله، من جاوز بعيري فأقتُله، واللهِ إن رأيت كاليوم ما صنع هؤلاء القوم بنا! تعني بني سُليم وأهل مكة الذين انهزموا بالناس)[1].

وورد أيضاً: (فجعلت أم عمارة تصيح يا للأنصار: أية عادة هذه، ما

---

(١) المغازي ٣: ٩٠٤.

لكم والفرار)[١].

فأي غيرة لا تهتز لهذا الكلام، وأي راشدٍ لايلوي عن الفرار، وأي شهم يقبل لنفسه الهزيمة ويرى أم عمارة تنفق من جهدها ما استطاعت للذب عن رسول الله ﷺ الذي تفرد في الميدان إلاّ من بعض المؤمنين الذين لايتجاوز عددهم أصابع اليدين فقط.

في كتاب سبل الهدى والرشاد: (قالت: وأنظر إلى رجل من هوازن على جمل أورق معه لواء يوضع جمله في أثر المسلمين، فأعترض له فاضرب عرقوب الجمل، ليقع على عجزه واشد عليه، ولم أزل أضربه حتى اثبته، وأخذت سيفاً له، ورسول الله ﷺ قائمٌ، مصلت سيفه بيدهِ قد طرح غمده)[٢].

وهنا يثور الحماس، وتَهدُر الكرامة، ويدق نصال السيف أبواب القتال من جديد وتنتصر إرادة العائدين لنصرة الدين، ولايغلق باب القتال، إلاّ وقد خرج منه لواء النصر مرتفعاً مرفرفاً في حُنين.

ومن هنا تستيقظ مسؤولية المسلم في نفسه بضرورة الدفاع، والحماية لشرفهِ وعرضه الذي هو في معرض السلب والتشويه، والحق أن الأعداء المشركين قد استخدموا نفس الطريقة في إخراج النساء ولمهام هم عبّروا عنها.

في كتاب المغازي: (قال صفوان بن أمية: أخرجوا بالظُّعُن، فأنا أوّل من فعل، فإنهُ أقمن أن يُحفظنكم ويُذكرنكم قتلى بدر، فإنّ العهد حديث ونحن قوم مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٣١.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٣١.

دونه)[1].

وفي حُنين اخرجت العرب نسائها: (قال مالك: سقت مع الناس أموالهم وأبنائهم ونسائهم.

قال دريد: ولم؟

قال مالك: أردت أن أجعل خلف كلّ رجل أهله وماله وولده ونساءه حتى يقاتل عنهم)[2].

الصورة الثالثة: ما يخص المرأة المشاركة نفسها

فمن ثمار المشاركات في المهام المعنوية، هو انعكاس تلك المهام على نفس المرأة المسلمة، ولعله يكون هذا ملحوظاً في النقاط التالية:

أولاً: التأكيد على موقعيتها في الإسلام

فالمرأة ليست نكرة إجتماعية، ولا مخلوقاً فاقداً لمقومات الوجود والعظمة، وليست هي بالأداة التي تصلح للّعب والعبث واللهو، إنما ينظر لها الإسلام وهي في موقعٍ سامي، وهي ذات كيان لا يفرقها عن كيان الرجل سوى مداخلات التكوين الجسمي، والبنى النفسية الموافقة لدورها في الحياة بكل شعبها وجوانبها المختلفة.

أما إنها لائقة لنيل المواقع الرفيعة، لائقة لتسنم الأدرار الجليلة، لائقة لتمثيل إرادة الله في الأرض فهذا مما لا غبار عليه.

وجعل الإسلام بعض الدلائل على ذلك الرقي في التعامل مع المرأة، هو إعطائها دوراً في أحرج مواقف الأمة وأكثرها دقةً وتعقيداً وصعوبة، ألا وهو القتال.

---

(١) المغازي ١: ٢٠٢.

(٢) المغازي ٣: ٨٨٧.

فكان وجودها في الحرب مثالاً لذلك الإمتياز الإنساني، ومثالاً لتلك المشاطرة مع الرجل، ومثالاً لقدرتها في المساهمة في أصعب الأحداث، وصياغة التاريخ بما أبرزتهُ من مواهب وبطولات في هذا الصعيد.

ففي الواقع أنها مجرد كونها مارست أدواراً في الحرب قد أكتسبت موقعاً فيها وفي الحياة، وفي الأمة، وفي نفسها، حتى أنها ارتقت بدورها إلى ما لا يطيقه الرجال في بعض الأحيان، فكيف لو سمعنا الرسول ﷺ يقول بحق أم عمارة: (ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة)[1].

وقال فيها ﷺ: (لمقام نُسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان)[2]

وورد عنه ﷺ أنه قال لولدها: (سلام الله تعالى عليكم أهل بيت، مقام أمكم خير من مقام فلان وفلان)[3] وقد أسهم الرسول للنساء المشاركات من حصص الغنائم، مما يدلل مرةً أخرى باعتبار مشاركتهن مشاركة فعلية لها حق العطاء كما للمقاتل حق العطاء، كما في عطائه لصفية بنت عبد المطلب، وللنساء اللاتي خرجن معه في غزوة خيبر، وغير ذلك.

ثانياً: تحصيلها على إعدادات قوية لمواجهة أحداث المستقبل

فهذا الإشتراك القتالي صاغ شخصية المرأة معنوياً ونفسياً، بل حتى جسدياً وكذا إرادياً على القدرة في خوضها أحداث لاحقة شبيهة بالمواقف السابقة، وإن هذا الإعداد يضيف لوعائها الخبراتي شيئاً، ولمستوى تفكيرها أفقاً جديداً، ولروحها عنفواناً وانطلاقاً.

لذلك ترى كثيراً من النساء المساهمات في حربٍ ما قد مارسن نفس

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ٢: ٢٩٩.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤: ٢٠١.

(٣) سبل الهدى والرشاد ٤: ٢٠٢.

تلك الأدوار في حروب لاحقة بكفاءات عالية جداً، وقد ورد عن الرسول ﷺ أنهُ قال[1]: «ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني» ،يعني ﷺ أمّ أيمن.

إن هذا الموقف يمثل مستوى اللياقة القتالية التي اكتسبتها هذه المرأة المدافعة عن رسول الله ﷺ، ويكشف عن البناء العقيدي الراسخ، ثم يكشف أن هذه المرأة الفاضلة الشجاعة مستعدة لمنازلة أشد الخطوب وأكثرها عُتمَة، وتأدية أخطر الأدوار في حال تعرض الرسالة، أوتعريضها لحالة الإنهيار.

فقد ورد أنها: (كانت شهدت الحرب مع رسول الله ﷺ، وشهدت معها أختها، وزوجها زيد بن عاصم بن كعب، وابناها حبيب بن زيد، وعبد الله بن زيد، وابنها حبيب الذي أخذه مسيلمة الكذاب الحنفي، صاحب اليمامة، فجعل يقول له:

أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم

فيقول أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع

فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك، إذا ذكر له رسول الله ﷺ آمن وصلى عليه، وإذا ذكر له...)[2].

فتجدها رضوان الله عليها، وهي تشهد حرباً ليس فيها رسول الله ﷺ ثم يقتل ولدها وتقطع يدها وهي لا تبالي بما حل بها، ثم تقصد ولدها فتجده مذبوحاً بيد مسيلمة ولم تلتفت إلى شيء سوى شكر الله والثناء عليه.

إنه نتاج الممارسة، ونتاج الإعداد، ونتاج البناء الروحي والنفسي والجسمي، إنه نتاج المدرسة المحمدية، ولم يكن الأمر مقتصراً على أم عمارة، بل كانت

---

(١) في يوم أحد.

(٢) سيرة ابن هشام ٢: ٣٦٩، وانظر البداية والنهاية ٣: ٢٠٥.

هناك نساء نظيرات لها في كثرة المشاركة بالحروب.

ثالثاً: التحصيل على فضيلة الجهاد وثوابه

إن للجهاد في سبيل الله فضيلة لا ينالها ويحافظ عليها إلا ذو حظٍ عظيم، وإن له مراتب لا يبلغها إلا من وفق لها، وإن له آثار اخروية وآثار وضعية دنيوية واذا كنا قد ألمحنا إلى بعض آثاره الدنيوية في طيات هذا البحث، فلا بد من الإشارة إلى كون ثوابهِ يوم القيامة الجنة، ومرافقة الأنبياء والصديقين.

قال رسول الله ﷺ لأم عمارة وولدها وزوجها: «بارك الله عليكم من أهل بيت، لمقام أمك خيرٌ من مقام فلان وفلان، ومقام ربيبك - يعني زوج أمه - خير من مقام فلان وفلان، ومقامك خيرٌ من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت».

فقالت أمي: أدع الله لنا يا رسول الله أن نرافقك في الجنة.

فقال: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة».

قالت: فما أبالي ما أصابني من الدنيا)[1].

فإذا كان الجهاد باباً من أبواب الجنة، لا يدخلهُ إلا خواص عباده، وأهل القربى إليه فقد سجلت المرأة المسلمة اسمها مع هؤلاء، ومهرت ذلك بدمها وعرقها وجروحها وجهادها المضني العسير.

رابعاً: عامل الشعور بالمسؤولية

ومن الانعكاسات المعنوية الأخرى على كيان المرأة المسلمة، هو تأسيس شعور لديها بأنها مسؤولة عن كيان الإسلام، وأنها شاطرت جميع الأمة في بناء هذا الصرح الفخم للدين، وإن كان هذا الشعور موجوداً لديها من خلال

---

(١) بحار الأنوار ٢٠: ١٣٤.

أدوارها الأخرى في حفظ الإسلام، وإنما يكون شعورها الجديد، أو مساهمتها الجديدة هو إيقاض متواصل لتلك المشاعر السابقة التي تعطي المرأة كبريائها الروحي الخاص، وشموخها النفسي الجليل.

فهي إذن شريكة واقعية للرجل في بناء الأمة وأبنائها وتاريخها، وهذا الأمر له أصداء خاصة ينقل كيان المرأة المسلمة معنوياً، ويجعلها تنظر لنفسها باعتزاز على طول المسيرة التاريخية، ويحفزها ذلك الشعور لإدامة المواقف الرائدة، والإنضمام إلى الوقائع الفاخرة.

لذلك نلاحظ فيما بعد الحرب كيف تكون المرأة مواسية للرسول ﷺ، طالبة السلامة له، وإن قُتل الأهلُ والأحبةُ، صابرة على كل النوازل والقوارع من أجل ذلك، متحملة للمتاعب النفسية والعاطفية ما دامت عينها مكتحلة بوجود الرسول الأعظم ﷺ، فنرى منها صبراً لا يهدم، واحتساباً لا يثلم.

قال الطبري في تاريخه: (إن صفية بنت عبد المطلب أتت يوم أحد (لتنظر إلى حمزة وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها لاترى ما بأخيها»، فلقيها الزبير فقال لها: يا أمة إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي.

فقالت: ولم وقد بلغني أنهُ مُثّل بأخي، وذلك في الله قليل، فما أرضانا بما كان من ذلك لاحتسبن ولاصبرن، إن شاء الله.

فلما جاء الزبير رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال خلِّ سبيلها فأتتهُ فنظرت اليه وصلّت، واسترجعت، واستغفرت)[1].

وحمنة بنت جحش التي خرجت يوم أُحُد مشاركة المقاتلين في سقيهم الماء كان رسول الله ﷺ قد نعى لها قتلاها، وهي تصمد أمام التحديات،

---

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٢٠٨.

وتقف بقوة أمام الدواهي حتى إذا بلغها ما حل بزوجها، هاج حزنها، واشدت وجدها.

روى الواقدي: (وأقبلت حَمنة بنت جحش وهي أخته[١]، فقال لها رسول الله ﷺ: «ياحَمْنَ، احتسبي!»

قالت: من يا رسول الله؟

قال: «خالك حمزة»

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، غَفَر الله له ورحمه، هَنيئاً له الشهادة!

ثم قال لها: «احتسبي!»

قالت: مَن يا رسول الله؟

قال: «أخوك»

قالت: هنيئاً له الجنة.

ثم قال لها: «احتسبي!»

قالت: من يا رسول الله؟

قال: «مُصعب بن عمير»

قالت: واحزناه! ويقال إنها قالت: وَاعَقْراه!

فقال رسول الله ﷺ: «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحَدٍ».

ثم قال لها رسول الله ﷺ: «لم قلت هذا؟»

قالت: يا رسول الله، ذكرت يُتمَ بنيه فراعني، فدعا رسول الله ﷺ لولده أن يُحسَن عليهم من الخَلَف... وكانت حمنة خرجت يومئذٍ إلى أُحُد

---

(١) أخت عبد الله بن جحش الذي قُتل في أحد ومُثّل به.

مع النساء يسقين الماء)[1].

فإنك ترى مقاومة غريبة في الاستعداد لتلقي الأخبار المفجعة، بل النظر لها وهي كرامة وشهادة وجنة ـ كما هو واقع الحال ـ إلا إن الإنسان في مثل هذه المواقف تهيج عواطفه، وتثور مشاعره بما ينسيه بعض لوازم الموت في سبيل الله.

ولكن هذه المرأة بقيت على جلادتها وحماسها وثباتها المبدئي، وحتى في حزنها على زوجها حيث تلقت خبر شهادته، فإن ذلك لا يقدح بأصل قوتها في الموقف اذ الحزن أمرٌ عارض أولاً، ولابد منهُ ثانياً، وثم هي عللت ذلك بيتم أطفاله من بعده مع كونها المسؤولة المباشرة عنهم، مما حدا برسول الله الأكرم ﷺ أن يدعو لهم بما يُحسن عليهم من الخَلَف.

أما السميراء بنت قيس فحديثها عجيب، وامرها أقرب إلى الخيال منهُ إلى الواقع، امرأة لاتذهل عن رسول الله ﷺ والسؤال عنه، رغم أنها تحمل ولديها شهيدين للحق، وهي أم وعاطفتها أرق من شغاف القلب، ولم يكن من أعطت قرباناً واحداً بل اثنين.

كما عن الواقدي في مغازيه: (وخرجت السُّميراء بنت قيس إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب إبناها مع النبي ﷺ بأُحُد، النُّعمان بن عبد عمرو، وسُليم بن الحارث، فلما نعيا لها.

قالت: ما فعل رسول الله ﷺ.

قالوا: خيراً، هو بحمد الله صالحٌ على ما تحبين.

قالت: أرونيه أنظر إليه! فأشاروا لها إليه.

فقالت: كلّ مصيبة بعدك يا رسول الله جَلَلٌ، وخرجت تسوق بابنيها

---

(١) المغازي ١: ٢٩١.

بعيراً تردهما إلى المدينة، فلقيتها عائشة.

فقالت: ماوراءك؟

قالت: أما رسول الله، بحمد الله فبخير، لم يمت! واتخذ الله من المؤمنين شهداء) [1].

ونترك هذه الرواية لنظر القارئ الكريم، ومقدار ما يستظهر منها من عظمة موقف هذه المرأة المجاهدة.

لندخل معه في الإجابة على سؤال هام سوف يدور الكلام عنه في الاتجاه الثالث.

---

(١) المغازي ١: ٢٩٢.

الاتجاه الثالث

لماذا لم يأسر الرسول الأكرم ﷺ نساء قريش في يوم أُحُد

قد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الرسول ﷺ لم يأسر نساء قريش، رغم سهولة ذلك، وكونهم بعد هزيمة المشركين كنّ في متناول الأيدي، وذلك باعتراف المقيم على حفظ متاع قريش، وهو نسطاس مولى صفوان بن أميّة.

وذكرنا أنه ـ أي نسطاس ـ قال: (والحاش النساء، فهنّ في حُجَرهنّ سَلْمٌ لمن أرادهنّ) [1] ولكن لم يأسرهن أحد، ولم يأتي لسبيهن مقاتل، خاصة أن النساء أفضل ما يتصور أخذهُ في المعركة.

إذن لماذا والحال هناك مشروعية في الأخذ حتى ولو إلى حين، وهو طعن لقريش وإيذاء لمقاتليها وبالتالي علامة على النصر في المعركة، أضف لما يمثلهُ ذلك من ترويع لقريش، وتخويف لبقية الموالين لها.

ولعل الجواب المُتصور على ذلك يكون على نقاط:

النقطة الأولى:

إن عدم الأسر كان بإشارة من الرسول ﷺ إكراماً للقبيلة التي أنجبتهُ من أن تسبى نساؤها، فهم (أي قريش) في آخر الأمر قوم الرسول الأكرم ﷺ، وعمومة الرسول صلوات الله عليه وآله، وأرومته ولابد من صيانة تلك

---

(١) المغازي ١: ٢٣١.

الأُرومة، والمحافظة عليها بالمقدار الممكن، وإلا يكون هذا السبي في النهاية طعناً للرسـول ﷺ.

فهو من قبيلة شريفة وفاخرة المنـزع كما قلنا في مقدمة الكتاب، فكيف يوصم نسائها بالسبي والذلة، ويجعلها سبّة أبدية في تاريخ قريش!

وقد علمنا أن الرسول ﷺ كان يكرم قريشاً ويجنبهم نزاعه، ويرجو لهم الإيمان، ويحاول جاهداً تجنيبهم قتاله، كما ذكرنا كلامه الشريف صلى الله عليه واله قبل شروع معركة بدر، مطالباً لهم أن يُخلّوا بينه وبين العرب، وقبل ذلك داعياً لهم لولائه، ليكونوا سنام العرب وسلاطين المستقبل.

فعدم السبي هنا يأتي إكراماً لعشيرته، واحتراماً لإصول منبته، وعزوفاً عن إذلال ارومته، وهذا حقاً من صور المعروف والإحسان والخلق النبوي الإنساني الكريم.

ونرجوا أن لا يقال إن الرسول الأعظم ﷺ كان عنصرياً؛ لأنه ﷺ أكرم قريشاً بكرامة الله لها أولاً، ولأنه ﷺ يشخص المصلحة اللازمة باعتبار النبوة المباركة ثانياً.

النقطة الثانية:

إكراماً للمؤمنين حيث فيهم المهاجرون أبناء قريش ولحمتها، وإن هذه النساء لا تخلو من وجود روابط رحمية نَسَبية مع بعضهم، فقريش عمومة واحدة، ومنبت واحد من جهة النسب البعيد، وإن هذه الرحمية متحققة مع بعض المهاجرين من جهة النسب القريب.

ولو أخذنا مثالاً واحداً لوجدنا أم الصحابي الجليل والشهيد العظيم مصعب بن عمير كانت مع ولدها عبد العزيز في حرب أُحد، إذن ألا يعني أن أسر هذه المرأة سيولد احراجاً شديداً لولدها وبالتالي للمتعلقين بها من المؤمنين المهاجرين في المدينة.

ومن هنا نفهم: أن رسول الله أربأ بهم عن هذا الحرج، وجنّبهم هذا الأذى باجتناب سبي النساء في أحُد.

كل هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر، الا يعني أنَّ سبي النساء يجعل وضع المهاجرين جميعاً في حالة من الحساسية، والذي ينتج منه اضطراب العلاقة بينهم وبين الأنصار كحد أدنى لمؤثرات ذلك السبي، والحال أن الرسول المصطفى ﷺ يسعى جاهداً لتوحيد الطاقة، ورص الكفائة، وتوجيه الجهود في خدمة واحدة بازاء الهدف الواحد المشترك.

النقطة الثالثة:

سيكُنَّ أو بعضهن على الأقل أمهات للمؤمنين في مستقبل الأيام فكيف يسمح الرسول ﷺ أن يكون هؤلاء المؤمنين أولاد سبايا، وهي وصمة عار في تاريخ أقوام أُمهاتهم، ومن المعلوم أن الرسول ﷺ جاء لرفع العيوب الأخلاقية والنفسية والمعاملاتية من قومهِ فكيف يضيف لهم عاراً فوق عار الشرك وفوق ما هم فيه من مؤاخذات كثيرة.

ونرجوا أن لا يُشكل علينا بأن أُمهات بعض المؤمنين كنَّ في الواقع سبايا لأنه:

١ ـ إنّ هذا الكلام الذي طرحناه في هذه النقطة هو كلام إحتمالي، لا نريد أن نفرضه جزماً.

٢ ـ لا يصح النظر إليه في معزل عن باقي النقاط الأخرى، وخصوصاً النقطة الأولى.

٣ ـ أن الرسول الأعظم ﷺ إنما يسبي النساء لعدة أسباب، لعله يأتي الحديث عنها لاحقاً، فإذا تكاملت تلك الأسباب وكانت راجحه على سبّة السبي اللاحقة بالمؤمنين فيما بعد، فلامانع من السبي من باب المزاحمة.

٤ ـ نحن نؤكد إن العار لاحق بقوم المرأة لا بذاتها هيُ، وهذا الكلام ينسحب على من يُشكل علينا بأن أمهات بعض الأئمة: كنّ سبايا بل نقول إن المصلحة الكبرى لعله متحققة بذلك السبي، فينقلب من سبةً الى كرامة وعزةً.

ونرجوا أن لا يعترض أحد، أنه ﷺ أسر رجال قريش ـ آباء المسلمين في المستقبل ـ ولم يمتنع عن ذلك بلحاظ العلة المطروحة.

فإن هذا الأمر يختلف تمام الاختلاف وذلك من وجوه:

الأول: إن الرجل المقاتل هذا شأنهُ إما يُقتَل، أو يَقتل، أو يُهزم، أو يظفر، أو يؤسر، وإذا كان الأسر من لوازم الحروب ومن نتائجها الطبيعية فلا عيب فيه، ولا سوءة تلازمه.

الثاني: إن الرجل يؤسر فيبقى في أسره،غاية مايتعرض له ذل الحبس،ومشاغل الآمرين له، بينما المرأة تُنكح ويُتمتع بها وتنفصل جنسياً عن زوجها، وعن كل ما يتعلق بها في ديار الأهل، لإنها أصبحت ملكا للجيش، وملكاً للآخذ لها، أو من يعطيها له الرسولﷺ وهذا أمرٌ فيه من الحرجية ما لا يخفى.

الثالث: إن الرجل إذا لم يُؤسر يقاتل، ويُقاوم، وربما يبطش بالقوم، ويقلب الموازين ويكون وجوده الشخصي بدون أسر خطراً على أي حال، أما المرأة فليست كذلك كما هو المتعارف.

الرابع: إن الرجل يحتمل الأسر ويقاومه، أما المرأة فتحطّها الأحداث، وتذيب كرامتها الشهوات، أو هي لا تتحمل الأسر حتى بمجرد كونه حجز لها، وقطع لبعض نشاطها الحياتي؛ لمجرد كونها أمراة، أي من الجهة التكوينية مع ملاحظة ما تمر بهِ من حالات نسائية خاصة.

وباختصار إنها تطلب الحماية دائماً، وتجدها في الرجل، وتنشد

الرعاية، ونجدها في الرجل فهي الحمية، على عكس الرجل الحامي، والفرق واضح في المقام.

هذا مع ملاحظة حكم الضرورة في أسر البعض من النسوة التي أسَرَهُن المسلمون في بعض المعارك.

النقطة الرابعة:

سيكون أسرهن بمثابة المهيج لقريش، والمستفز لهم، لإدامة الحرب مع رسول الله ﷺ، والعودة العاجلة لخوض القتال معه ﷺ.

فيكون الرسول الأعظم ﷺ قد أعطاهم ورقة جاهزة لضرورة الاغارة عليه وعلى مدينته وجيشه، وهذا خلاف غايته ومبناه في السلام، وذلك بملاحظة ما يلي:

أولاً: انهن عرض قريش، وأنهن زوجات أكابرهم، وإنهن أُخذن بعنوان كونهن سبايا مما يثير حفيظة قريش، ويجعل طبول حربها تقرع على الدوام.

خصوصاً أن العرب سابقاً ـ وإن كانت اخرجت نسائها في أُحد وحنين ـ تتحفظ في مسألة إخراج النساء للقتال لأن سبيهن يعني لحوق العار بهم، وقد كان هذا الوجه أحد التعليلات لقتلهم النساء ووئدهم البنات في الجاهلية، بل إنهم اختلفوا في إخراجهن بادئ الأمر.

ورد في المغازي: (وخرج معه النَّفر فألَّبوا العرب وجمعوها، وبلغوا ثقيفاً فأوعبوا.

فلما أجمعوا المسير وتألَّب من كان معهم من العرب وحضروا، اختلفت قريش في إخراج الظُّعن معهم)[1].

---

(١) المغازي ١: ٢٠١.

فكيف ـ كما قلنا ـ وهذه النساء، ذات أهمية ومركزية في قريش تبعاً لأزواجهن، أو لشخصياتهن، كما ترى ذلك بوضوح لمجرد ملاحظة أسماء المشتركات في حرب أُحد.

عن المغازي: (قالوا: فخرج أبو سفيان بن حرب بامرأتين هند بنت عتبة، وأمية بنت سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين برزة بنت مسعود الثقفيّ، وهي أمّ عبد الله الأكبر؛ وبامرأته البغوم بنت المُعذّل بن كنانة، وهي أُمّ عبد الله بن صفوان الأصغر.

وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته سُلافة بنت سعد بن شُهيد، وهي من الأَوس، وهي أمّ بني طلحة، أمّ مسافع، والحارث، وكلاب، وجلاس، بني طلحة.

وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته امّ جُهيم بنت الحارث بن هشام، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المُغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت مُنبّه بن الحجاج، وهي أمّ عبد الله بن عمرو بن العاص.

وخرجت خناس بنت مالك بن المُضرّب مع ابنها أبي عزيز بن عمير العبدريّ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق بن علقمة.

وخرج كنانة بن علّي بن ربيعة بن عبد العُزّى بامرأته امّ حكيم بنت طارق، وخرج سفيان بن عويف بامرأته قُتيلة بنت عمرو بن هلال، وخرج النعمان وجابر ابنا مسك الذئب بأمّهما الدُّغنيّة.

وخرج غُراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة، وهي التي رفعت لواء قُريش حين سقط حتى تراجعت قريش

لوائها)[1].

ثانياً: إن قريش قبيلة قوية، وقدرتها على الحرب متينة، وعودتها للحرب ليس بالأمر المتعذر والمتعسر، بل هي قادرة عليها متى شاءت، خاصةً إذا كان المهيّج هو المحافظة على النساء باعتبارهن عرضهم وشرفهم الذي غدى سليباً في بطاح يثرب، والغيرة عليهن، وعدم القبول بتضييعهن، كما أنهم يحسون الدعاية والشماتة، وأنهم لم يأسروا من نساء المسلمين واحدة حتى يكون في ذلك مجال لرد الإعتبار.

ثالثاً: إن المسلمين ومع هذا التلاحم وتلك الصميمية في الولاء للعقيدة ومع نصرة الغيب لهم، إلا أنهم من الناحية الواقعية أو الرقمية لا يزالون ضعفاء، قليلي العدد، فكيف نتصور منهم حب إثارة الحروب، وإدامة تفجير الجبهات المحيطة بهم.

رابعاً: إن لقريش ـ كما هو المفروغ منه ـ القدرة في استقطاب المحاربين لرسول الله ﷺ من بقية القبائل، وتوحيد جهودهم في مواجهة الرسول الأعظم ﷺ.

فلم تكن هي قوية فقط بذاتها كقبيلة لها أساس في ذلك، إنما لها قدرة أيضاً في جمع شتات العرب، وجلب الأحابيش، والتأثير على اليهود ولغرض نصرتها ضد محمد ﷺ كما رأينا في أكثر من حرب.

وهذا لا يصب في صالح المؤمنين بأي مقياس كان.

خامساً: ولعله أهم ما في هذه النقاط، بل الأهم في كل هذا المبحث، أن أخذ النساء عرفنا منه العودة القريشية للحرب، وهذا يأتي خلاف رغبة رسول الله ﷺ في بسط السلام وانهاء حالات الحرب التدميرية، وإرادته ﷺ الأمن

---

(١) المغازي ١: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

والأمان للجميع.

وهذا أيضاً يأتي خلاف رغبة رسول الله ﷺ بعدم إعطاء العدو ورقة مجانية يمكنه من خلالها محاربة الرسول ﷺ، إذ طريقة الرسول ﷺ هو أن يُلزم عدوه الحجة، ولا يسمح له بامتلاك ناصيتها بحال، فيكون قتاله ﷺ مُبرراً من الناحية الواقعية والعرفية بالإضافة إلى مبرراته الشرعيّة والأخلاقية.

إذن عدم سبي نساء قريش جاء تطبيقاً حياً لإرادة رسول الله ﷺ، وجاء تجسيداً موفقاً لنظريته في نشر السلام.

وهذه النقطة في الواقع لها الأولوية على الجميع، وربما هي التفسير المقدم لسؤالنا حول عدم أسر الرسول الأعظم ﷺ لنساء قريش وقتئذ.

النقطة الخامسة:

محاولة تحقيق ضمانة مستقبلية مع قريش في موقفها مع ذرية ونساء رسول الله الأقدس ﷺ ومع حَرمه وثقله في قادم الأعوام والأيام، حيث يعلم بنور عقله ما سوف يفعل هؤلاء من موقف الرد على رسول الله ﷺ، والثأر منه على ما فعل بأشياخهم في بدر، وغيرها.

وسيكون الرد بالضرورة على رسول الله من خلال ذريته وامتداده الصلبي والنسبي في الحياة ألا وهم أهل البيت عليهم السلام.

فهو يعلم ـ وقد أخبر بذلك ـ انهم سيقتلون أولاده ويسبون نسائه، فأراد ﷺ أن يجعل لهم ضمانة من الآن أو للنساء كادنى معول من أن لا تُسبى ولاتُؤسر، حيث هو ﷺ لم يسبي نسائهم في أُحُد، فإن كانوا لا ينصفونه بالإيفاء له على ما هداهم إليه، فلينصفوه ﷺ في عدم سبي نسائهم كما لم يسبي هو نسائهم من قبل.

فيكون الرسول قد جعل مانعاً قانونياً في عدم أخذ نساء قريش وسبيهن، ومانعاً اخلاقياً في كون قريش لحمة واحدة لا ينبغي الإيغال معها

في هدر الرحمية والتفريط بصلة القربى، ومانعاً إنسانياً كما تبين من مناقشة ذلك آنفاً.

أما في حال أخذ نساء رسول الله الأكرم ﷺ ـ وهذا ما حصل فعلاً في طفِ كربلاء، في واقعةِ ابن رسول الله ﷺ الإمام الحسين الشهيد عليه السلام ـ فهذا يعني بكل تأكيد أن عملهم دون مسوغ، ويعني إدانتهم بمواقف تاريخية، وحجج دامغة قوية، مما يجعلهم محل إشمئزاز ونفور من الأمة ـ كما حصل فعلاً ـ وكما يعني كسب الأمة لصالح ذريتهِ وأهل بيته عليهم السلام.

حيث لم تنصفهم قريش على يد أبنائها العاقين في الطف ـ ولو من قبيل تبادل المواقف ـ مرتين إن لم نقل مراراً أو على الإطلاق، مرة لأنهم عَدوا على رسولهم في ذريتهِ من الرجال، ومرة عدوا على نسائهِ فسبوهن، فكان إبرازاً لخسة الخلق فيهم، وسوء المجازاة لرسولهم رسول الله ﷺ.

وفي نهاية المطاف في هذا البحث نؤكد:

بأننا لانريد القول هنا: بأن الإسلام يوجب على المرأة الجهاد والخروج في الحروب شاهرةً للسيف؛ لأنه يرى جهادها من نوع آخر، إنما نريد القول إن الإسلام أعطاها الفرصة في اثبات اللياقة وتقديم الخدمات المناسبة، وإلا فجهاد المرأة هو الحج، وحسن التبعل.

فقد ورد عن عائشة كما في سنن إبن ماجة: (حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا محمد بن فضيل عن حبيب بن أبي عمرة، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة، قالت: قلت يارسول الله! على النساء جهاد؟

قال: «نعم. عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة»)[1].

---

(١) سنن ابن ماجة ٢: ٩٦٨، مسند أحمد ٦: ٧٥، فتح الباري ٦: ٥٧، صحيح البخاري ٣: ٢٢٠، مسند أبي يعلي ٨: ٩، كنز العمال ١٦: ٤٠٦، سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٨٨.

ومن اللطيف هنا ذكر هذه المفارقة، فعائشة ـ وهي زوجة الرسول الأعظم ﷺ ـ بالوقت الذي تروي هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، تخرج بنفس العنوان المحذور لتقاتل علياً عليه السلام، في حروب الجمل.

وأن أم سلمة ـ وهي أيضاً زوجة الرسول الأكرم ﷺ ـ تلومها على ذلك أشدَّ اللوم، بما تنقله وتقرره من سنة رسول الله ﷺ.

نقل العلامَّة العسكري في كتابه: (من أم سلمة زوج النبي ﷺ الى عائشة أم المؤمنين، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فقد هتكت سدة بين رسول الله ﷺ وأمته، وحجاباً مضروباً على حرمته، قد جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها، وسكر خفارتك فلا تبتذليها، والله من وراء هذه الأمة.

لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك، أما علمت أنه قد نهاك عن الفرطة في الدين؟ فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع.

جهاد النساء غض الطرف وضم الذيول وقصر الموادة، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصبة قلوصك قعوداً من منهل الى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله ﷺ.

وأقسم لو قيل لي: يا أم سلمة أدخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجاباً ضربه عليّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك فإنك أنصح لهذه الأمة ماقعدت عن نصرتهم، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشتيني نهش الحية الرقشاء المطرقة والسلام)[1].

---

(١) أحاديث أم المؤمنين عائشة للسيد مرتضى العسكري ١: ٤٠٤، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام لابن الدمشقي ٢: ١١.

وملخص الكلام إذن هو: لاجهاد وجوبياً على المرأة المسلمة، وإنما كان منها ذلك تبرعياً في زمن الرسول ﷺ، والذي يراجع البحث بجميع تفاصيله يجد ذلك مشخصاً واضحاً.

وبهذا الكلام يتم حديثنا عن الأساس الثاني والذي كان بخصوص اشتراك النساء في الحروب وما يدور حول هذا الموضع من اثارات وآراء.

ونشرع بالكلام عن الأساس الثالث من الركن الثاني (في الجانب العسكري) وهو الأساس الذي نتكلم فيه عن مشاورة الرسول المصطفى ﷺ لأصحابه في خصوص الحرب وما يتعلق بهذا الأمر من شؤون وشجون.



الأساس الثالث

مشاورته ﷺ للصحابة

ونقسم الكلام في هذا الأساس الى اتجاهات:

الاتجاه الأول

أمور تحت الجهر

من الضرورة أن نعرف هنا أموراً من اللازم معرفتها:

الأمر الأول:

إن الرسول الأعظم ﷺ كان يشاور أصحابه، وقد حصل هذا منه في موارد عديدة، وحروب معينة، وإن هذه الاستشارة يبدو أن لها شروطاً وأهدافاً وغاياتٍ، كان الرسول المصطفى ﷺ يقصد من عرض تلك المشورة، أن يجلي تلك الغايات.

وسوف يأتي في ما بعد أهمية تلك المشاورات النبوية مع الصحابة، ومع جميع فصائل الجيش كما حصل في أُحُد.

في كتاب المغازي: (ظهر النبي ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا»...)[1] إلى أن قال ﷺ: «أشيروا

---

(١) المغازي ١: ٢٠٩.

علياً ورأى رسول الله ﷺ ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا...)[١].

وفي موضع آخر استشار الرسول القوم جميعاً، كما في الخندق، حيث قال ﷺ: («أنبرز لهم من المدينة، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل؟» فاختلفوا)[٢]. إذن أصل المشاورة موجود وثابت.

الأمر الثاني:

من الثابت أيضاً أنه ﷺ ما كان يشاورهم دائماً وفي كل الحروب التي حدثت، فإن كان ﷺ قد استشارهم في بدر وأحد والخندق، فإنه أخفى عليهم الأمر تماماً في موارد أخرى فضلاً عن عدم الاستشارة، كما في فتح مكة.

فلما تجهز ﷺ كان الناس لايعلمون أين وجهته كما سيتبين من ظاهر الروايات، ولعله أخبر من كان يستأمنهم سره خاصة دون بقية الناس. (فظانٌ يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وظانٌ يظنُ ثقيفاً، وظانٌ يظن هوازن)[٣].

لا بل عمد الرسول ﷺ ليس إلى إخفاء الأمر فقط، بل التمويه عليه؛ لكي يبعد فكرة فتحه لمكة، وقصده لقريش. (وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعيّ في ثمانية نَفَر إلى بطن إضَم[٤]؛ ليظنَّ ظانٌّ أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار)[٥].

---

(١) المغازي ١: ٢٠٩.

(٢) المغازي ٢: ٤٤٥.

(٣) المغازي ٢: ٧٩٦.

(٤) إضَم: ماء يطؤهُ الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة (معجم البلدان، ١: ٢٨١).

(٥) المغازي ٢: ٧٩٦.

وفي موضع آخر نجد: (فلما نزل رسول الله ﷺ العَرَجَ، والناس لا يدرون أين توجُّه رسول الله ﷺ إلى قريش، أو إلى هوازن، أو إلى ثقيف! فهم يحبون أن يعلموا، فجلس في أصحابهِ بالعَرْج، وهو، يتحدث فقال كعب بن مالك:

آتي رسول الله ﷺ فأعلم لكم عِلمَ وجههِ، فجاء كعب فبرك بين يدي رسول الله ﷺ على ركبتيه، ثم قال:

قضينا من تهامة كلَّ رَيبٍ ... وخيبرَ ثم أجمَمنا السُّيوفا

نسائلها ولو نطقت لقالت ... قواطِعُهُنّ دَوساً أو ثقيفاً

فَلَستُ لحاضرٍ إن لم تَروها ... بساحة دارهم منها ألوفا

فننتزع الخيام ببطن وَجٍّ ... ونترك دُورهم منهم خُلوفا

... قال فتبسمَ رسول الله ﷺ، ولم يَزد على ذلك.

فجعل الناس يقولون: والله ما بيّن لك رسول الله شيئاً، ما ندري بمن يبدي، بقريش، أو ثقيف، أو هوازن) [1].

وواضح من إثارات الشاعر، وابتسامة الرسول ﷺ، وكلام الناس أن الأمر مبهمٌ على الجميع غاية الإبهام، حتى وهم يتحركون نحو هدفهم الأخير.

الأمر الثالث:

ليس إبداء الرأي من أحد يعني عظمة ذلك المبدئ للرأي عند الاستشارة، فقد يكون مورد اختبار، وموضع امتحان من قبل رسول الله ﷺ يعرف من خلال سؤاله شدة همته.

أو إنه قال رأيه فضولاً دون أن يكون هو المقصود في طرح المشورة،

---

(١) المغازي ٢: ٨٠٢.

أو كان يعتقد كونه مقصوداً وفي الواقع لم يكن كذلك، أو غير ذلك.

وحتى نمضي في فهم هذا المعنى والمقصود منه نأتي بهذه الرواية، ونعلق عليها فيما بعد.

عن الواقدي: (ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان بدر أتاه الخبر بمسير قُرَيش، فأخبرهم رسول الله ﷺ بمسيرهم، واستشار رسول الله ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعِزُّها، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لاتسلم عزُّها أبداً، ولتُقاتلنّك، فاتّهب لذلك أهبته وأعد لذلك عُدَّته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يارسول الله، امض لأمر الله فنحن معك؛ والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلونَ، والذي بعثَك بالحق لو سرت بنا إلى برْك الغِماد لسرنا معك ـ وبرك الغماد من وراء مكّة بخمس ليالٍ من وراء الساحل ممّا يلي البحر، وهو على ثمان ليالٍ من مكّة إلى اليمن ـ.

فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير. ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيّها الناس!»).... ـ ثم تمضي الرواية حتى نصل معها الى رأي الصحابي الجليل زعيم الأنصار سعد بن معاذ مجيباً لرسول الله ﷺ: أنا أجيب عن الأنصار كأنك يا رسول الله تُريدنا!

قال: «أجل».

قال: إنك عسى أن تكون خرجت عن أمر قد أُوحي إليك في غيره، وإنا قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ كلّ ما جئت به حقٌّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يانبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منّا رجل،

وصل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت.

والذي نفسي بيده، ما سلكت هذا الطريق قطُّ، ومالي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدوّنا غداً، إنّا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عينك)[1].

يتبيّن من الرواية:

إن مشورة الرسول ﷺ مع المسلمين وقيام أبي بكر وعمر بمهمة الرد الأول لرسول الله ﷺ، وإعطاء الرأي المنقول عن أبي بكر له دلالات منها:

الدلالة الأولى:

إنه ليس من الضروري أن يكون الإنسان ـ مع إحتمال تقدمه في الموقع الإجتماعي وفي السن الزمني ـ على صواب دائماً، أو حتى أحياناً لما يتضح فيما بعد.

الدلالة الثانية:

إنّ كلاً من الرجلين كانا خائفين من وقوع الحرب، وكلاهما يحمل تحذيراً للرسول ﷺ من خوضها، إذ هي قريش ما ذلت منذ عزت، بمعنى أنك يا أيها الرسول غير قادر على إذلالها؛ لأنها عزيزة، وكأن العزة من ذاتيات قريش برأي أبي بكر وصاحبه، وقوله: لم نخرج على هيئة حرب، أي أنت يا رسول الله غير قادر على المواجهة مع قريش، لعدم وجود القدرة من العِدة والعُدَد والأستعداد عندك، أو عند جيشك للقتال.

هذا والرسول لابسٌ لامة الحرب ومتهيّء لقتال عدوه، وهما قد سمعا

---

(١) المغازي ١ : ٤٨ ـ ٤٩.

ما قاله الرسول ﷺ من أن قريش تحركت لقتاله، ووعوا ذلك، مما يعني خوفهم المواجهة.

الدلالة الثالثة:

إن انفراج أسارير الرسول ﷺ لقول المقداد، ودعاؤهُ ﷺ له يكشف عن سقم آرائهم، كما في دلالة النقطة الأولى، ويكشف عن هجوم غائلة الرعب على أفئدتهم، كما في دلالة النقطة الثانية.

الدلالة الرابعة:

عدم الرد عليهم بعبارة مدح أو ثناء، أو إطراء أو شيء من هذا القبيل، بل قولهُ لكل واحد منهما: أجلس! لفظة واحدة دون رتوش ومقدمات، ومُدارات للخواطر، أو رعاية للمشورة، مقابل مدح المقداد، وإبداء الارتياح لقوله، يكشف عن انزعاج الرسول من موقفهم، وعدم إقتناعه بشخصياتهم، أو الأخذ بآراهم.

ولا يحق لأحد أن يقول إنهما من المهاجرين، وأنه ﷺ كان يريد الأنصار من مشورته كما صرح الأنصار بذلك، وذلك لأن المقداد من المهاجرين أيضاً وقد مدحه الرسول وأثنى عليه ودعا له هذا أولاً.

وثانياً إنهُ لا بأس أن يَمدحهما حتى لو كانا من المهاجرين، ولم يكن أحدٌ غيرهم من المهاجرين قد تكلّم، وكون الرسول ﷺ كان يقصد الأنصار؛ لأن في مدحهم إعطاء لحقهم، وتمييز لأهمية رأيهم، وتشجيع الأنصار على إبداء الرأي وفق رأيهما، كما مدح المقداد ـ مع الإعتراف بكونه مهاجراً ـ امامهم.

الدلالة الخامسة:

ثم إنّا نتسائل ونلفت نظر القارئ الكريم الى ضرورة المقارنة بين رأي وإجابة الصحابيين الجليلين: المقداد بن الأسود الكندي، وسعد بن

معاذ من جهة، وبين رأي الخليفتين من جهة أخرى، ولنترك نتائج المقارنة والمقايسة لذكائه وتحليله.

كلام ينفع في المقام

قد ورد في الرواية أن الـحُباب بن المنذر بن الجموح أتى رسول الله ﷺ لما نزل منـزله في خيبر: (فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، إنك نزلت منـزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أُمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان هو الرأي تكلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي».

فقال: يا رسول الله، دنوت من الحصن ونزلت بين ظهري النخل والنَّزّ[1] مع أن أهل النَّطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدىً منهم، ولا أعدل منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم مع إني لا آمن من بياتهم يدخلون في خمر النخل، تحول يا رسول الله إلى موضع بريء من النَّزّ ومن الوباء، نجعل الحرّ بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبلهم)[2].

وهذه الرواية يرد عليها ومن عدّة جهات ما يلي:

الجهة الأولى:

إن كلام الحباب بن المنذر بن الجموح جاء متنافياً مع كون منـزل رسول الله ﷺ هو منـزل أنزله الله ﷻ فيه، يعني كان محدداً من العناية الغيبية والرعاية الإلهية بدليل قول الواقدي وفي نفس الصفحة: (ولما

---

(١) النـز: ما يتحلب من الأرض من ماء، (الصحاح: ٨٩٦).

(٢) المغازي ٢:٦٤٣، وانظر سبل الهدى والرشاد ٥: ١١٩.

انتهى رسول الله ﷺ المنـزلة جعل مسجداً فصلى إليه، من آخر الليل نافلة، فثارت راحلته تجرّ زمامها، فأدركت توجّه إلى الصخرة لا تريد تركب.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة!» حتى بركت عند الصخرة وأمر برحله فحُطّ، وأمر الناس بالتحول إليها) (١).

وكونها مأمورة يعني أنها سوف تختار المكان بإذن الله ﷻ وهو الآمر لها، وعليه سيكون المكان المختار مثالياً، لا يمكن إيجاد مما هو أحسن منه، لأنه من الله ﷻ.

ولا يحتمل أن الله تعالى يريد من رسوله ﷺ النزول في مكان مرطوب موبوء لا يمكن الصمود عليه، وهو واطيء يسهل قتل المؤمنين فيه، لنـزول السهام إليه بسرعة وقوّة.

ولا نعتقد أن مثل الحباب كان غائباً عن الأحداث وعن قول رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة»، أو أنه شهد ذلك ورعاه ولكنه لا يعتقد أن كلمة مأمورة من الغيب، أو وهو لم يكن يفهم ذلك، ولا نعتقد بحال أنه لا يعي نهي رسول الله ﷺ له في عدم مس الناقة، وترك المسلمين لها بملاك ذلك النهي، ومن ثم إن هذا التحرك للناقة المأمورة والبروك الذي بنى عليه رسول الله ﷺ قراره بالتحول (حتى بركت عند الصخرة وأمر برحله فحُطّ، وأمر الناس بالتحول إليها) (٢).

الجهة الثانية:

ثم هل كان يخفى على رسول الله ﷺ كون الأرض المرطوبة غير

---

(١) المغازي ٢: ٦٤٣.

(٢) المغازي ٢: ٦٤٣.

صالحة للنـزول والبقاء، فهي بالإضافة إلى عدم مساعدتها المقاتلين على الثبات عند الوقوف عليها لعدم صلاحيتها، كذلك تكون منشأ للوباء والأمراض،وعدم الارتياح وكثرة الحشرات التي تأتي بالمزعجات.

وما أحوج الرسول ﷺ وجنده لاجتناب ذلك جميعاً وهم في ظرف يحتم عليهم المحافظة على كل مقاتل وإبعاده عن كل أذى، والاحتماء من كل إصابة، والتحسب لكل شيء تتعلق به الخطورة.

الجهة الثالثة:

وهل فات النبي المصطفى ﷺ أن المكان الواطئ أسرع في نزول السهام نحو نحور المؤمنين، وقد خاض حروباً كثيرة قد اكسبته تجربة لا أقل ـ وهو الذي لا يحتاج في علمه اللدني إلى تجربة ـ في معرفة ما ينفع وما يضر، بل هذه المعلومة لا تخفى على أدنى الجنود تدبيراً لوضوحها.

هذا إذا أعرضنا صفحاً عن كل ما يؤكد أن النبي ﷺ أرفع من ذلك بمراتب تتعدى الإحصاء.

الجهة الرابعة:

ثم إن الرواية لم توقع الحباب بن المنذر فقط في التناقض والتنافي في الظاهر، بل تعدته إلى رسول الله ﷺ، فهو ﷺ الآخر قد وقع بالتنافي، فعندما سأله الحباب: (فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، إنك نزلت منـزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أُمرت به فلا نتكلم فيه، وإن كان هو الرأي تكلمنا. فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي»).

ومن قبل قد أسلفنا أنه اتخذ قراره على ضوء بروك الناقة؛ لأنها مأمورة، فكونها مأمورة يعني عمل الرسول ﷺ بتوجيه الغيب له مباشرة، وإلاّ فما قيمة كونها مأمورة، وما قيمة أن يرتب الرسول ﷺ على ذلك أثراً فينـزل في مكان بروكها ويأمر جيشه بالنـزول، بل ويتخذ له مسجداً.

الجهة الخامسة:

وهل فات الرسول الأكرم ﷺ احتمال كون اليهود يتسللون من الحصن نحو المسلمين مستفيدين من خَمَر[1] النخل، مما لا يأمن معه البيات في هذا المكان.

إلاّ اللّهم إذا قلنا:

إن الملاك بهذا النـزول، وهذا الدعم الغيبي لا لخصوصية المكان، بل لتحرير آراء الصحابة، واستجلاء مبتكراتهم، وللتأكيد على روح التشاور والتلاقح الفكري فيما بينهم.

وهذا مما لا سبيل لإثباته، وإن كان محتمل الصحة بنفسه.

الأمر الرابع:

وليس من الضروري القول إن الرسول لايعرف الرأي، ولا يصل إلى ما يبغي إلا من خلال المشورة، وذلك لعدة أسباب.

الأول: إنه ﷺ صاحب عقل راجح، ورأي نافذ، وخبرة بالأمور، وقدرة على قيادة التحولات وهي في أخطر المنعطفات، كما شهد له بذلك القاصي والداني.

هذا مع صرف نظرنا عن العصمة النبوية، التي يفترض كونها خارج دائرة الخطأ والخلل والمرجوحية بالضرورة.

الثاني: كون الرسول ﷺ مسدداً من الله تبارك وتعالى، ومؤيداً منه، في كافة خطواتهِ الحياتية العامة، فكيف لايكون في مركز العناية الإلهية في مقام تكون فيه الأمور أخطر، والآثار أجسم، فلابد أن يكون مورد التأييد

---

(١) الخمر بالتحريك: كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره (النهاية ١: ٣٢٠).

أتم في مثل هذه الحالات.

ولقد رأينا أن الصحابة كانوا يعرفون أن الأمور الجارية إلهيّة، لكنها من خلال رسول الله ﷺ، فكانوا عندما يستشيرهم الرسول إنما يلجئون إلى سؤاله أولاً، هل هي منه، أم من الله تبارك وتعالى، وهذا السؤال مؤشر كونهم يعرفون كونه ﷺ مؤيداً من قبل الله تبارك وتعالى.

كما في بدر القتال: (ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: أشيروا عليّ في المنـزل.

فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنـزل، أمنزلٌ أنزلكهُ الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنهُ، ام هو الراي والحرب والمكيدة؟.

قال ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال: فإنَّ هذا ليس بمنـزل! إنطلق بنا إلى أدنى ماء القوم، فإني عالم بها وبقُلُبها، بها قليب قد عرفت عذوبة مائه، وماءٌ كثير لا ينـزح، ثم نبني عليها حوضاً ونقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل، ونغوّر[1] ما سواها من القُلُب)[2].

وكونه ﷺ أخذ برأي الحباب في نهاية المطاف، لا يعني بالضرورة عدم معرفته ﷺ لذلك لعدة احتمالات.

الأول منها: لكونه ـ أي رأي الحُباب ـ قد جاء في مورد المطابقة مع رأي رسول الله الذي كان يعتقدهُ في ذهنه الشريف، وإن لم يبده.

---

(١) نغوّر: نفسد(شرح أبي ذر: ١٠٠).

(٢) المغازي ١: ٥٣.

الثاني منها: أو هي قضية كقضية سلمان المحمدي قُبيل معركة الأحزاب وإشارته على رسول الله ﷺ بحفر الخندق، التي سوف يأتي ذكرها وعلاقتها بهذا الإحتمال استدلالياً.

الثالث منها: ـ إن جبرئيل ؈ ـ قد نزل بالتأييد والتأكيد لرأي الحبُاب، وعندها يستند الأخذ ـ في مسألة اختيار المكان المناسب ـ إلى السماء بأعتبار مجيء جبرئيل ؈ بالرأي، وإن كان مصدره ـ أي الرأي ـ أحد الجُند، إلا أنهُ مقرر من السماء، وهذا هو معنى كون الرسول مؤيداً من قبل المولى تبارك وتعالى.

وهذا لا يثلم فضيلة الشورى بل يؤكدها.

وكما في قضية مفاوضات الرسول ﷺ مع عيينه بن أحصن، في مسئلة إعطائهِ قسماً من تمر المدينة قبال إنسحابه من تحالفهِ مع قريش، في حرب الأحزاب، فنجدهم ـ أي الصحابة ـ يستفسرون هل هذا الأمر من الله أم من الرسول ﷺ.

عن المغازي: (ثم أقبل[١] على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن كان أمراً من السماء فامضِ له، وإن كان غيرَ ذلك فو اللهِ لا نعطيهم إلاّ السيف! متى طمعوا بهذا منّا؟

فأسكت رسول الله ﷺ ودعا سعد بن معاذ، وسعد بن عُبادة، فاستشارهما في ذلك، وهو مُتكيٌ عليهما، والقوم جُلوسٌ، فتكلَّم بكلام يخفيه، وأخبرهما بما قد أراد من الصلح.

فقالا: إن كان هذا أمراً من السماء فامضِ له، وإن كان أمراً لم تُؤْمَر فيه ولك فيه هَوىً فامضِ لما كان لك فيه هوىً، فسمعاً وطاعةً، وإن كان

---

(١) أُسيد بن حُضير.

إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف)[1].

وكما في قوله ﷺ في قضية العمرة: «فكيف ترون يا معشر المسلمين في هؤلاء الذين استنفروا إليَّ من أطاعهم ليصدُّونا عن المسجد الحرام؟

أترون أن نمضي لوجهنا إلى البيت فَمن صدَّنا عنهُ قاتلناه، أم ترون أن نُخلِّف هؤلاء الذين استنفروا لنا إلى أهليهم فنصيبهم؟ فإن اتَّبعونا اتَّبعنا منهم عُنُقٌ يقطعها الله، وإن تعدوا محزونين موتورين!».

فقام أبو بكر فقال: الله ورسوله أعلم!)[2].

فنرى أن أبا بكر صرح بوضوح أن رسول الله ﷺ أعلم في ما يريد، وفي ما يختار، وأمام هذه الأعلمية لا قيمة لآراء من لا علم له، وغير ذلك من الموارد.

بل قد يصرح الرسول ﷺ أن الأمر منوط بالله تبارك وتعالى، ففي قضية الخندق كان المتعارف عند الجميع أن سلمان المحمدي هو الذي أشار بحفر الخندق وضرورة التخندق في المدينة والاعتصام بها، ناقلاً تجربته السابقة في قومه عندما كانوا يدافعون عن أنفسهم ومدينتهم أيام الحرب.

وعلى هذا سار الكُتّاب ووثقوا لنا بانتساب أصل حفر الخندق لإشارة سلمان (رضوان الله عليه) به.

والحال:

أولاً: إن الرسول ﷺ يقول في إطار رده على رسالة أبي سفيان ـ وإن كان هذا لا يمنع كون سلمان أشار بالخندق إلا إنه يمنع كونه صاحب الفكرة دون رسول الله ﷺ ـ قائلاً ﷺ: «وأما قولك مَن علّمك الذي صنعنا من الخندق، فإن الله تعالى ألهمني ذلك لما أراد من غيظك به

---

(١) المغازي ٢: ٤٧٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٥: ٣٧.

وغيظ أصحابك، وليأتين عليك يومٌ تدافعني بالراح»[1].

فلو كان حفر الخندق رأياً لسلمان، لقال رسول الله ﷺ ذلك وصرح به إذ هو ﷺ لايغمط حق غيره (حاشاه)، ولعمد إلى إعطائه امتياز هو جدير به أمام القوم، وذلك بأن يقول: إن حفر الخندق كان خطةً أشار بها سلمان، ليعظم سلمان الذي يجب تعظيمه حيث قال ﷺ: **«سلمان منّا أهل البيت»**.

وإن تعظيم سلمان موجب لتعظيم المسلمين ثم تعظيم رسول الله ﷺ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لما عَبّر عنهُ ﷺ: **«فإن الله تعالى ألهمني ذلك»** إذ من الواضح أن أخذ الرأي من الآخرين لايسمى إلهاماً، إنما الإلهام منحصرٌ بما يرد من الغيب.

ثانياً: حتى لو تنـزلنا وقلنا إن فكرة حفر الخندق اقتراحٌ من سلمان الفارسي، فلا يمنعنا ذلك من القول: إنها من سلمان ولكن الله ألهم رسوله المبارك ﷺ قبول فكرته فالفضل يعود للإلهام لا للإفهام، كما بينا ذلك في قضية حُباب في يوم بدر.

ثالثاً: بل هناك تصريح واضح في التاريخ أن حقيقة فكرة حفر الخندق كانت للرسول الأعظم ﷺ: (فقال: **«أنبرز لهم من المدينة، أم نكون فيها ونـخندقها علينا، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل؟»**)[2]

وإن سلمان المحمدي كان مؤيداً لها وإنما كان إعجاب المسلمين برأيه إنما يرجع ـ والله العالم ـ إلى كونه بيّن أن هذه الفكرة ـ عملياً ـ كان يعمل بها قومه من قبل فأعجب المسلمين لحصول آثارها العملية فعلاً في ما مضى من التاريخ؛ لذلك تقول الرواية: (فاعجب رأي سلمان المسلمين)، ولم يكن رسول الله ﷺ

---

(١) المغازي ٢: ٤٩٣.

(٢) المغازي ٢: ٤٤٥.

متعجباً لذلك؛ لأنهُ صاحب الفكرة والعارف بأهميتها وهذا منسجم تمام الانسجام مع كلمتهِ ﷺ: (فأن الله تعالى ألهمني ذلك) [١].

وخلاصة القول هنا:

إنه يمكن القول إنَّ الرسول ﷺ ما كان يستشير أصحابه حتى يتبين الصواب؛ لإن ذلك يلزم منهُ القدح بعلم رسول الله ﷺ، والقدح بكونه مسدداً مؤيداً من الله ويجعله رجلاً ملقى في مهب الآراء، يغير آرائه، ويبرمج قراراته حسب أذواق الآخرين، وادراكاتهم المحدودة، وتقاطعاتهم المشهودة، وقصورهم المتعارف.

كأنه لا عزيمة له ولا قرار ولا حسم، ولا معرفة حين يقدم على شيء، أو عندما ينتهي منهُ، إلاّ حيث ينبههُ الآخرون، فيستيقظ من غفوته ليصدر قراراً آخر هو خلاف قراره الأول.

ولنلاحظ هذه الرواية حول غزوة خيبر: (فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، إن اليهود ترى النخل أحبُّ إليهم من أبكار أولادهم، فاقطع نخلهم، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل، ووقع المسلمون في قطعها حتى أسرعوا في القطع.

فجاءه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنَّ الله عز وجل قد وعدكم خيبر، وهو منجزٌ ما وعدك، فلا تقطع النخل. فأمر فنادى منادي رسول الله ﷺ فنهى عن قطع النخل) [٢].

وكأن الرسول ﷺ ـ على جلال قدره، وعظمة هديه ـ لايدري أن اليهود يحبون النخل إلا أن بَصَّره الحُباب بن المنذر، ولا يدري أن خيبر

---

(١) المغازي٢: ٤٩٣

(٢) المغازي ٢: ٦٤٤.

ستكون له إلا أن بَصَّرهُ أبو بكر فأتخذ قرار وكسره بآخر على ضوء رأيين من رجال الجيش، دون أن يميز بين المصالح والمفاسد، والتي بنى ﷺ عليها قراريه في الفعل والترك.

إن رجلاً بهذا المقدار من الترهل والإسفاف هو بالحقيقة غير نبينا الأعظم محمد صلى الله عليه واله وسلم، ولا يصح بحال ـ ومن أجل أن نرفع قدر واحد من الصحابة ـ أن نحط من قدر العقل النبوي، والتدبير الرسالي الإلهي الكفوء لرسول الله ﷺ، ونجعل ذلك في معرض الوهن وعدم اللياقة.

والحق أن الشورى أنما كان يريدها الرسول ﷺ لا لكي يتعلم من أصحابه ما لا يعلم، إنما لِيُعلمهم ما لا يعلمون، ولها فوائد منظورة وأخرى غير منظورة كان صلوات الله عليه وآله يقصدها عندما كان يستشيرهم، وهذا ما سوف نبحثه بالتفصيل.

الاتجاه الثاني
أهمية المشاورة مع الصحابة

الأهمية الأولى:

عملاً بقوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[1] وقوله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[2].

جاء في تفسير مجمع البيان: (فإن الله تبارك شأنه مدح بالآية الأنصار، كانوا إذا أرادوا أمراً قبل الإسلام، وقبل قدوم النبي ﷺ اجتمعوا وتشاوروا، ثم عملوا عليه، فأثنى الله عليهم بذلك.

وقيل هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبي ﷺ وورود النقباء عليه، حتى اجتمعوا في دار أبي أيوب على الإيمان به، والنصرة له)[3].

وكذا أمره تعالى بالمشاورة مع أصحابهِ بنص قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكان توجه الرسول ﷺ للمشاورة تطبيقاً لحكم الله، وانسجاماً مع لوازم الشريعة المباركة، وإلاّ فالرسول مستغنٍ عن الجميع بالوحي والعلم الإلهي، ومسددٌ على كل حال.

---

(١) الشورى: ٣٨.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) تفسير مجمع البيان ٩: ٥٧.

الأهمية الثانية:

إن الإنسان إذا أستشير وعُمِل بمشورتهِ سيرى لزاماً عليه أن يكون مندفعاً بقوة للعمل بتلك النظرية القائمة على مشورتهِ؛ لكي يؤكد بالدليل والمصداق صحة ما ذهب إليه، مما يجعله يتفانى ويثابر في السعي ويخلص النية في توجهه.

فهو أعطى رأياً يعتقد أولاً صحته، وإنه كان في مقام المشير فيه على غيره، فلا بد من ملاحظة ضرورة تحققه ـ باندفاعه طبعاً ـ على يد ذلك المستشير ثانياً، ليتأكد له صواب الرأي.

الأهمية الثالثة:

تعتبر المشاورة مقدمة مهمة لتوطين نفوس المؤمنين على الجهاد، الذي يعتبر بدوره من أهم المقدمات لإقامة دعائم الإسلام، وتثبيت أركان الدين.

إذ الحديث في القتال وعدمه، ومع فكرة القتال هل يكون في كذا مكان أو كذا مكان ثم الحديث عن كيفيتهِ، وعن إمكان المصالحة مع القوم، أو استمرار الحوار معهم ولكن بلغة السيف، وألسنة الرماح.

إن هذا الحديث سوف يعتمل بالنفوس، ليخرجها إلى الواقع وهي متوهجة بالحماس.

الأهمية الرابعة:

ليجلي الرسول ﷺ نواياهم لهم وللمسلمين وللتاريخ، وهذه من النقاط المهمة التي تُبرِّز الصحابة على حقائقهم، فمن هو الخائف منهم، وإن فسر خوفه بدعوى الحرص على الشريعة، والخوف على رسول الله ﷺ، فيعامله في الحرب على ضوء وضعه النفسي.

ومن هو الجريء الفدائي المغوار، الذي لا يبالي بالأهوال والأخطار، وإن خاض به الرسول ﷺ أعماق البحار، فيعطيه موقعهُ الذي يستحق في الحرب ووفق صلابته النفسية، ويزجه في رهج الموت ومخاطر المنيّة؛ لثبات جنانه وقوة إيمانه.

ومن خلال الاستشارة العامة يقدّر الرسول ﷺ توجه الأمة الجمعي ومقدار إنصهارها مع مفهوم الجهاد، كما يُبَرّز الشوائب النفاقية المترسبة عن امتحان العقل ومحك اختبار الرأي المطروح.

واختبار مقدار إستجابتهم لرسول الله ﷺ والإنسياق في طول إرادته، وقبول قراراته، وإطاعة أمره، كما حصل ذلك في بدر، وأحد، والخندق.

ويمكن أن نقول هنا:

إن المشورة تعني في بعض وجوهها، ترويض الأمة على طاعة رسول الله ﷺ والتمسك برأيه الذي يريد؛ لذلك تراهم اختلفوا في ماذا يفعلون في يوم الأحزاب عند ما سألهم الرسول أنبرز أم نخندق علينا المدينة.

ففي المغازي: (وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أُحُد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكَره المسلمون الخروج وأحبّوا الثبات في المدينة)[1]، مستفيدين بذلك من تجربة أُحُد ومؤكدين أن الشورى نفعتهم في ضرورة طاعة الرسول الأكرم ﷺ في مايريد.

فالشورى لا تعني وجوب عمل رسول الله ﷺ بآرائهم أو ضرورة أن يختار بعض الآراء المطروحة، إنما تعني تجلية الآراء وتحريرها من العقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ أي: إستخرج آرائهم، واعلم ما عندهم)[2]،وله فيما بعد انتقاء الرأي واستخراجه من جملة الآراء المطروحة، أوْ لا.

---

(١) المغازي ٢: ٤٤٥.

(٢) تفسير مجمع البيان ٢: ٤٢٨.

بل ذهب بعضٌ إلى كون معنى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، أي يقبلون ما أمروا به ويشاورون الأمام فيما يحتاجون إليه من أمر دينهم)[1].

فتكون الشورى وفق هذا التفسير خطوة ثانية بعد الخطوة الأولى وهي اتخاذ القرار من قبل الرسول الأقدس ﷺ وإصدار الأمر.

الأهمية الخامسة:

ليضع الرسول ﷺ جنده والأمة أمام المواجهة مباشرة والشعور بالمسؤولية، فعندما يشاورهم النبي المصطفى ﷺ ففي الواقع يعطيهم قيمة المشير وقيمة من يستحق أن يَسمع ويُسمع، وبهذا يكون الرسول ﷺ قد ميزهم بالإعتبار والإكرام، وجعلهم يحسون بالقدرة على صنع القرار والقدرة على تمثيل الشريعة وحمايتها.

وهذا جميعاً يعتبر بحقيقتهِ وضعهم أمام الحالة الراهنة، وأمام المصير المشترك بين الجميع بشكل مباشر ومسؤول، ويتحصل من ذلك ضرورة معاملتهم لما يجري بأعلى درجات الحرص وأرفع مستويات المسؤولية.

ويتحصل من هذا أيضاً ويترشح عنه أمر مهم ومفيد، وهو أن الرسول ﷺ بعمله الإستشاري هذا جعلهم يشعرون بأهمية دورهم، ولياقتهم للريادة في الحياة، وضخامة فعلهم في التاريخ، فتكون حركتهم أسرع في تبليغ الرسالة، ومشورتهم أتم في تأدية الواجب، وسعيهم أكمل في تطبيق الخلاصة.

الأهمية السادسة:

لينمي الرسول الأكرم ﷺ عندهم الملكات العقلية، والإبداعات الذهنية، فالإنسان لمّا يُسئل يُفكّر ويَلح على ذهنه في إيجاد الحجج الطرق

---

(١) تفسير نور الثقلين ٤: ٥٨٤.

وأسلم الحلول للحالة التي أستشير من أجلها، سيما إن الأستشارات النبوية كانت تأتي في وقت الأزمة الحادة، والظرف الساخن، وهذا عامل ضغط آخر على الذهن في أن يكون بمستوى ابداع الحل المناسب.

إذن كل هذا تحريك للعقول، وتفعيل للنفس، وتوجيه للذهن باتجاه إنتاج الأفكار وابداع الحلول، فتبرز ملكات الذكاء وعناصر القوة في العقل، وتنشط ملكات الإنسان الكامنة.

وهذا معناه أن الرسول ﷺ يصنع عقولاً، بالإضافة إلى صنعه النفوس ـ حيث طيّب نفوسهم باستشارتهم واشراكهم بالأمر ـ وهذا باعتقادنا واضح من كثرة استشارة الرسول ﷺ لأصحابه الكرام، ومن كثرةِ أجوبتهم المناسبة والذكية، كما كان ذلك مع سلمان المحمدي في الخندق، والحُباب في بدر، والمقداد البطل الموالي الشجاع في بدر، والسعدين سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة في الخندق أيضاً.

وغير ذلك في مناسبات مختلفة ومواضع شتى.

الأهمية السابعة:

لتكون الشورى من بعده سُنّة في أهمية الاستفادة من آراء الآخرين، وإن لا تكون هناك حالة استبداد وفردية في الأمة تؤدي إلى الطغيان وخرق الشريعة والإنحراف بالأمة، إنما تكون حالة من الاتفاق والرجوع إلى صاحب الأمر ومشاورته في ما يريد وينهي.

والحق أن هذا الفهم يمثل جنبة عميقة في فهم مفهوم الشورى، حيث تشاور الأمة رسولها، أو إمامها وترجع له في كيفية تطبيق أوامره.

لأن هذا الفهم يمثل الإقرار بالقيادة الشرعية أولاً، وحالة التلاحم والصميمية في الولاء معها ثانياً، مما ينتج ذلك التوحد في النية والجهد وبلوغ الهدف بأيسر الطرق وافضل السبل ثالثاً.

ثم إن الشورى بذاتها ممدوحة، ولولا علمنا بأن الكلام يخرج عن نطاقهِ لفصلنا في ذلك.

تمّ الجزء الثاني بعون الله ولطفه في يوم الأربعاء الموافق ١٦/ شعبان/ ١٤٢٣ هجري قمري، بيد العبد الخاطئ ستار الزهيري، في دار الهجرة والمقام مشهد المشرفة.

ويلي هذا الجزء من كتاب (جهاد الرسول المصطفى ﷺ والسلام العالمي)، الجزء الثالث والأخير منه بمشيئة الله تعالى.

فهرس مواضيع الجزء الثاني

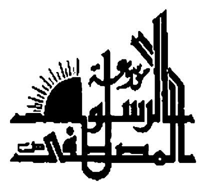
الركن الثاني الجانب العسكري

الأساس الأول: خطط الرسول المصطفى ﷺ الحربية

الأساس الثاني: اشراكه ﷺ للنساء في حروبه

الأساس الثالث: مشاورته ﷺ للصحابة





Mausouat Al-rasool
Al-Mostafa

(13)

Address in Lebanon:
P.O.Box 25/138
Al-Ghobairi - Beirut

Address In Iran:
P.O.Box 91375/4436
Mashhad
Fax:(0098-511) 2222483

E-mail: almawsouah@hotmail.com
almawsouah@yahoo.com
Website: www.almawsouah.org

Published in Lebanon by: Dar - Alathar

Published in Iran by: Jarf Publisher
Enqelab St. Fakhre Razi St. #111
Tehran - Iran
Tel: (0098-21) 6401727 P.O.Box: 13445-533

First print: 1425 - 2004



Shahrur bldg. Dakkash St. Bir Al-Abed - Beirut Lebanon
Tel: 01-270574 - 01/270573 - 03/349237

E-mail: alathar2002@hotmail.com

MAWSOUAT AL-RASOOL AL-MOSTAFA

A highly informative encyclopedia of Prophet Mohammad's life

Administered by: Mohsen Ahmad Al-Khatami

PROPHET MOHAMMAD'S JIHAD (ISLAMIC HOLY WAR) AND INTERNATIONAL PEACE

By: Sattar Jabbar Al-Zohairi

(Volume two)

Dar Al-Athar
Beirut - Lebanon